
إبراهيم عيسى


kindle


رصاصة في الرأس
رواية

رصاصة في الرأس

ابراهيم عيسى

تم التحويل ية بواسطة



تستند هذه الرواية إلى وقائع مؤكدة، وأشخاص حقيقيين، ووثائق قانونية، وشهادات مكتوبة ومسجَّلة، ومذكرات شخصية، وملفات جنائية، وتحقيقات النيابة، وأحداث جلسات قضائية، وملف محاكمة تنظيم التكفير والهجرة، ونصوص كتب الشيخ حسين الذهبي، وكراسات شكري مصطفى، وتغطيات وتقارير صحفية.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ

سورة ق: آية(٣٧)

تربض العتمة تحت كثافات الشجر، بينما طارق محشور بين فجوات الجذوع العريضة المسنونة بالنتوءات في هذا الحر الغليظ، بالعرق الذي يبلل قميصه حتى التصق بإبطيه، التراب والطمي الناشف، بقع رمادية ومسودة في بنطلونه، تحول بياض جزمته الكاوتش إلى لون ترابي غامق ملطع بالسواد. يختبئ من الحرس الذين يحومون في قلب الليل، الأضواء الكاشفة البارقة تضرب في عينيه خطفًا ثم تعبره عدوًا وتخلفه في ظلمته، ودقات الأحذية المباغتة على الأرض الأسفلتية تدق في خطو بطيء متردد ثم تخبو مبتعدة، وفحيح يتلوى صوته، قادم من وراء أسوار حديدية قصيرة، وحوافر ومخالب تمشي في عشب ناشف وتدوس أوراق شجر وأغصانًا متكسرة. تفاجئه أصوات ضحكات القحقحات وصويت الخنخنات، تحاصره القرود التي تتقافز وتتنطط بين الصخور وفوق الحجارة تصدر حناجرها هذه الأصوات، تفزعه، فيغادر مكمنه ويهرع وراء شجيرات، ثم يقفز حواجز من الخشب والحديد المدبب، ويرمي بجسده سريعًا عند تلك الأشجار العتيقة التي تبدو كأنها مزروعة هنا منذ عشرات السنين تصنع كهفًا له يؤويه. لكن زئير الأسد يحشر طبلتي أذنيه، ليس أسدًا واحدًا بل ثلاثة، يظهرون الآن تحت هذه الأضواء الناحلة يتمطعون فجأة، ينهضون من رقدتهم على مهل وبتكاسل، ويلتفون في مكانهم، ويتلفتون في أركانهم، ويتمسحون بظهورهم، يتنادون فيما بينهم بتحريك ذيولهم الطويلة، ثم يتسمرون ويحدقون في الطريق المفتوح أمامهم خاليًا، كأنهم يتسمعون أنفاسه ويتشممون اختباءه.
قرر طارق أن يخرجٍ من بين جذوع الشجر التي تواجههم، يعبر هذه الأمتار القصيرة ليقف قبالتهم، إنهم أسود حقًا، لكنهم أسود في قفص، محبوسون في جنينة وليسوا مطلوقين في غابة، مهانون للفرجة وليسوا ملوكًا للسيادة. لكن حتى الأسد الذي يخشى نظرة حارسه الهزيل الضئيل، ويلتقم قطع اللحم المقدمة إليه كوجبة نزلاء السجون، يمكن في وهلة أن يقضم ذراع حارسه ويجعله يبلل بذلته الرسمية ببول رعبه، حين يزأر في وجهه، أو ينشب بمخلبه كرباجًا في يد الحارس. حتى الأسد الذي يتدرب في سيرك كبهلوان لمسامرة الأطفال، يمكن في لحظة أن يعود أسدًا ووحشًا يقتل مدربه.
كان طارق عبد العليم قد فرد قامته، وتصلبت قدماه الآن أمام القفص يبادل الأسود تحديقًا، ذابلون مثله ومهملون مثله، لكنهم لا يزالون يدركون أنهم أسود. زأر أسد، فجفل طارق ثم انتبه إلى دبات حذاء ثقيلة تتجه ناحيته، فقفز سريعًا حتى تعثر في سور حديدي وخُدشت كفه ثم سقط على الأرض، ثم لمَّ نفسه وقام ونط وراء الشجرة في اللحظة التي سعل فيها الحارس الذي يتفقد شوارع جنينة الحيوانات في هذا الليل الذي خفضوا فيه الإنارة، فالجنينة في الليل لا تعمل، ولا تستقبل الزوار بعد الخامسة مساء حين تغلق أبوابها أمام الجمهور، فتظل الأنوار الباقية فقط في مداخل المباني التي تضم حديقة الشاي أو بيت الزواحف أو الكشك الياباني، وفي غرف الإدارة أو مدخل الجنينة المطل على الميدان أو عند البوابات الداخلية وفي بعض الزوايا، لكن تبقى الجنينة في الليل معتمة لا تأتيها الأضواء إلا من سيارات الشوارع المحيطة تخرق ليل المدينة، تخفت في الشتاء لكنها تنشط في مثل هذه الليالي الصيفية.
استغرب طارق أن الحيوانات تظل في أقفاصها في الليل، لا هم يدخلونها بيوتًا خاصة بها، ولا يخلون كثيرًا من أقفاصها، ولا يجمعون القرود من الجبلاية لأقفاص داخلية ويطلقونها حين بدء العمل. هل الأمر عادي صيفًا أم أنه فقط في تلك الليلة بالذات التي اختار أن يقضيها في جنينة

الحيوانات؟ لم يخدم في مديرية أمن الجيزة على الرغم من أنه زارها أكثر من مرة في مهمة أو لاجتماع مع ضباط من زملائه أو قياداته، لكنه لم يزر جنينة الحيوانات في مهمة ليلية قطُّ (من سيقتل أو يسرق في ليل هذه الجنينة؟ ومن يختبئ فيها إلا ذكي حذق مثله، ضابط شرطة يهرب من مطاردة الشرطة فيبدع في الاختباء؟). حين كان يعبر أمام جنينة الحيوانات، سواء في سيارته الفيات أو في سيارة الشرطة جالسًا بجوار السائق العسكري، تلمع كتافاته بالنجوم، ويلوح له عساكر المرور بالتحية الحفية الوجلة. لم يفكر أن ينظر إلى تلك الجنينة بأسوارها، وتلك الأشجار العالية الكثيفة التي تحيط بها وتسورها فوق رصيفها الطويل الذي يمتد على طول شارع مراد. كان يسمع العسكري يلعن ويبرطم حين ترتطم رقعة خراء بيضاء ثقيلة فوق سطح السيارة أو على مقدمتها من تلك الطيور التي تظهر في موسم الصيف فوق أشجار الجنينة، فتلطع الناس بالروث ممطرة عليهم من السماء مطر خراء الصيف.

حين لمح صورته في الصفحة الأولى، وتحتها عنوان «الضابط المفصول الهارب»، مفرودة بين يدي الشابين الجالسين على الدكة الخشبية أمام زحام الفيل ظهر اليوم، أحس أنه أخطأ بالمجيء إلى الجنينة. نعم يتوه وجهه بين وجوه الزحام فيها، فالوقت إجازة صيفية والجنينة تشغي بالعائلات، والعيال الخنافس الحبِّيبة، والبنات السافرات الطليقات، وحلقات الأصحاب من مراهقين وصبية، لكنه فوجئ بصورته في الجورنال وبهذين الشابين يتبادلان حوارًا أيقظ فيه فخره مع حذره:

ـ ماذا لو رأيته وتعرفت عليه؟ هل تبلغ عنه البوليس، أم تخاف وتقول وأنا مالي؟

كان افتراضًا صعبًا على الشاب الآخر، فقرر أن يجيب الإجابة النموذجية حيث احتمال مصادفته هذا الضابط الهارب تبقى مستحيلة:

ـ طبعًا أبلغ عنه.

تأمل طارق صورته في الجورنال: الكاب فوق الرأس، والوجه الحليق بالأنف العريض، والزي الشرطي بنجوم الكتافات. بعيدة جدًّا هذه الملامح عنه الآن، الوجه المكدود، واللحية النابتة، والشعر الطويل، والقميص المتسخ، والبنطلون الواسع، والجزمة الكاوتش. لن يتعرف هذان العيِّلان عليه، لأنه لم يعد مثل هذه الصورة التي كانها. على الرغم من ذلك قام اتقاءً، وانتقل إلى دكة أخرى متمشيًا بين جموع من الأطفال تقودهم امرأة ترتدي بوقاحة سافرة هذه الجيبة القصيرة كاشفةً عن ساقيها بينما تعري ذراعيها، بدا أنها رحلة ملجأ من الثياب الموحدة بسحناتها الشاحبة. ظلت الجملة التي رنت في مسامعه عالقة بشحمتي أذنيه، وهذا العيِّل يقرأ خبر الجورنال عن هذا المصدر المسؤول في وزارة الداخلية الذي صرح بأن الضابط الهارب مفصول من الخدمة لتصرفاته الشاذة. تتقلص أمعاؤه، وتضرب ضروسه أسنانه، وتلك الرعدة الحامية تشوي جدار معدته. كانت نظرات أمه ملهية في حزنها على طرده من الشرطة، وهي تنظر إليه شفيقة ومخذولة، فتشعل نظراتها غضبه عليها وعلى والده المربي الفاضل بل وأخيه وأخته. إنها كلها عائلة كافرة، لستُ مضطرًّا أن أعيركم همًّا ولا اهتمامًا لمجرد مني قذفه هذا الرجل في رحم تلك المرأة لأكون مدينًا لكم بشيء! أنتم كفرة، دعوتكم فعاندتم، كفار أنتم كما هذه الداخلية التي تتهمني بالشذوذ! أأنا الشاذ يا كفرة؟ أهذا القلب الجسور والروح المؤمنة والمجاهد في سبيل الله والمسلم المهاجر شاذ؟!

لم يسأله قَطُّ أمير المؤمنين أبو سعد عن تلك الصفة التي لحقت به من شائعات الإفك والتقولات المبثوثة، ولعل الضابط صاحب الرتبة الكبيرة الذي يلتقي الأمير قد ألمح بها له أو صارحه

عنها، لكن أبو سعد لم يبدِ له يومًا انشغالًا بالسؤال عن كنهها وحقيقتها. حسبُه هجرتي معه بل وإليه. يكفيه مثلًا عن تقوى رجل ترك دبابير الكتافات وكابات الضباط ونفوذ السلطة وتسيد التسلط وأودع روحه وقلبه في يد أمير المؤمنين مبايعًا على السمع والطاعة. منذ سمع عنه يوم ذهب للخدمة في مركز شرطة بني سويف وهو يملك عليه تفكيره، يومها أخبره زملاؤه عن تلك الحملة التي خرجت تطارد تجار مخدرات في جبل المنيا بين الزراعات وفي المغارات، ففاجأتها تلك الطوابير التي خرجت من جوف الجبل تجري، كأنه تدريب جيش أو دورية شرطة. كانوا قد قبضوا على تجار المخدرات من تلك العائلة المحترفة المحتكرة مع عربان البدو. وبينما يقودون المقبوض عليهم في مدقات الطريق، ظهرت هذه الطوابير من شباب ملتحٍ يرتدون جلاليب قصيرة، ولحاهم طويلة، وعروقهم نافرة، وأجسادهم رياضية، يركضون في انتظام وحماس، يقودهم شاب يكبرهم سنًّا، بإشارته يقفون ويمشون ويجرون. استغربت حملة الشرطة ما تراه، لكنها كانت منشغلة بما في يدها من متهمين، فتركت مهمة التقصي عن تلك الأعداد الشاردة في صحراء الجبل لضابط أمن الدولة الذي جرد لها المخبرين والمرشدين يسألون ويتقصون، فالجبل للصوص وقاطعي الطرق وعصابات الهجامين والمخدرات ومدافن الآثار ومخابئ السلاح، لا يمكن أن يصعد إلى هذا الجبل إلا مضطر أو مختل، يسكن الخلاء المهجور والهجير في صحراء بعيدة عن العمار وعن أي قرية من القرى القريبة من الجبل، صحراء لا يعمرها إلا اللصوص. جاءت التحريات غامضة، فالوصول إلى هؤلاء عسير، والتحصُّل على أسمائهم أشد عُسرًا، والوجوه التي صادفها أهل الكفور المجاورة أو العزب النائية ليست من أهل البلد أصلًا، ثم لا ينزل من عند هؤلاء الشباب أحد يبيع أو يشتري، يسكنون خيمًا ومغارات وأعشاشًا، بضع عشرات قليلة، الغريب أن فيهم نساء مقصورات في الخيام. ولا يظهر شبابها إلا جريًا في طوابير أو ركضًا في نزول من جبل أو قفزًا في رمال الصحراء، ثم يتدربون على حركات رياضية، ويتعاركون معًا كأنهم يتعلمون شيئًا من المصارعة أو يتسامرون بالعنف المتبادل، لكنهم يقيمون الصلاة في جماعة وراء ذلك الشاب كثيف اللحية مرسل الشعر واسع العينين كحيلهما، ثم إنهم يرتلون القرآن ترتيلًا. أحسهم طارق وهو الضابط وقتها كأنهم أهل الكهف، فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى. هزم انبهاره بأهل الكهف فضوله البوليسي، بعدها هاجمهم رجال الشرطة وقد تحسسوا خطرًا من جهلهم بهؤلاء العيال أكثر من خطر وجودهم أو خباء ما يفعلونه في الصحراء، ثم تعرفوا عليه فورًا، مباحث أمن الدولة في المنيا لم تستغرق دقائق حتى ابتسم أحد ضباطها فقد عرفه، إنه أبو سعد.

- أهلًا يا شكري.

كان شكري مصطفى، لكن لم يستنفرهم لا اسمه، ولا سوابقه، ولا ما عثروا عليه من سكاكين ومطاوٍ وسيوف في العشش والخيام.

* * *

أومأ طارق والمغيب يحط على جنينة الحيوانات التي تخلو من زوارها وقد انفضوا، وهو يتستر وراء شجر، ويزوغ خلف جدار، ويلف من وراء حوض ورود، يراوغ حرس الجنينة الذين يتفقدون فراغها من زوارها، خشية أن يكون أحدهم قد تاه، أو طفل قد ضل أيدي أهله منسيًّا، أو أشقياء يتخذون من الجنينة مرتعًا ليليًّا للرذيلة. لكن من هو المجنون الذي يقرر أن يبيت ليلته مع الحيوانات وروائح الروث والعطانة والصمت الموحش والظلام الوحشي؟ يبدو أنها فكرة لم تخطر لأحد قبلًا، فالحراس يقومون بمهمة التفقد باهتمام متراخٍ وإهمال لا مبالٍ. يدرك طارق

كضابط اعتاد التقاط التفاصيل وتقييم العساكر والمخبرين في أداء التكليفات، أن الحراس يمارسون روتينًا ليس أكثر. اطمأن للمكان الذي لاذ به في جوار القردة، وسكنت حركته مع تنطيط حركاتهم، ولعله غفا، فالهدوء في ذلك الوقت كان مخدرًا لدمائه التي سابت سائلة داخل عروقه المتصلبة طوال اليوم. فرق كبير بين نومته المختبئة في محطة مصر، حيث صخب السكة الحديد الذي لم يتوقف لا نهارًا ولا ليلًا، صحيح أن الزحام هادر والاختفاء أسهل والتماهي مع آلاف الركاب والمودعين والرائحين والعائدين والشيالين على الأرصفة أيسر، إلا أنه عانى من عيون المخبرين التي تنتشر في المحطة بحثًا عن نشالين أو حرامية شنط ومحافظ، وربما نصابين ممن ينتظرون ساذجين قادمين بالتأكيد من ريف بعيد أو صعيد ناءٍ. في الليل تهدأ الحركة ويقل الزحام، لكن تبقى الأضواء تطن قلقًا في دماغه، يزداد التعسس، ولا تتوقف صفارات القطارات ولهث الركاب لحقًا بقطارات طالعة أو نزولًا من واصلة. اليوم لم يفكر في العودة إلى محطة السكة الحديد، لا يريد أن يبيت في مكان مكشوف ليلًا مرتين، ثم إنها أزعجته ووترته على الرغم من توفر الشرب والأكل الذي نسي أن يوفر لنفسه شيئًا منهما هنا في جنينة الحيوانات.

قد يذهب بعد ليالي الجنينة إلى أي شقة من الخمس والعشرين شقة للجماعة، تلك التي أجروها مفروشة، أو التي تركها أصحابها من أعضاء الجماعة للجماعة، بعدما سافروا للسعودية يعملون هناك ويرسلون ثُلث رواتبهم لبيت مال المسلمين، جماعة المسلمين. نحن المسلمون الذين هربنا بديننا من مجتمع الجاهلية ودولة الكفرة. هذا ما جعله ينتقل من ولاء مغموس بالتردد لجماعة عبد الله السماوي إلى بيعة للأمير شكري مصطفى، أبو سعد. يكفِّر السماوي هذه الجاهلية التي نعيشها كما يفعل أبو سعد، لكن أبو سعد يكفِّر المجتمع نفسه، نعم ليست دولة الطاغوت، بل مجتمع الطاغوت، هؤلاء الناس جميعًا كفرة، من نبلغه بدعوتنا فيسلم هو المسلم فقط، أما الكل، الجميع خارج بعضنا، فكفار. بأبي أنت وأمي يا أبو سعد، انفضضتُ عن السماوي بعد عِشرة قصيرة، فلا يفعل الرجل السمين إلا تسمين جماعته بالعدد والخطب. سبقتني سُمعتي كضابط متمرد إلى شكري مصطفى، فاستقبلتني أذرع إخوة عرَّفوني به، فجلست بين يديه. كان يومها شابًّا في الثانية والثلاثين، لكنه كان ولا يزال رهيبًا مهيبًا، كأنما يتجسد بشرًا سويًّا من خيال طارق الذي ملأته مئات خطب الجمعة التي حضرها، وحكايات التاريخ التي سمع منها وفيها صورًا عن الصحابة وعن عهد الإسلام الأول. ليس كعبد الله السماوي الذي تغلف رقة كالقشرة شخصيته، وتحس فيه ادعاء رجولة ليست فيه ولا منه، بل شكري مصطفى يحمل جلاله فوق كتفيه مع عباءته: النظرات الحادة الجادة، العين المحدقة الثابتة الصارمة الحانية، الثقة التي تتربع بين نني عينيه، الهامة المرفوعة المتشامخة. الأفاقون يقولون عنه إنه ينيم أتباعه مغناطيسيًّا. لسنا أتباعه يا كفرة، بل مبايعوه، ولا ينيمنا، بل يصحينا، ولا مغناطيسيًّا، بل بالحجة والبرهان والقرآن والسُّنة يوقظنا للإسلام، وهو غير كل هؤلاء المتاجرين بالدين مثل الإخوان وغيرهم من سفلة الحركات المسماة إسلامية، فهو من يصدع بالحق، لم يدعني إلى الإسلام كي أكون في تنظيم سري عقيم يفضي إلى قتل الدعوة، فكأنها دعوة إماتة لا حركة وصحوة، بل لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم داعيًا ومبلغًا ونذيرًا، وهكذا دعوتنا للإسلام، فلا سرية بعد سرية مكة الأولى، لكنها هجرة بعد هجرة يثرب الأولى. ألم أحفظ عن أبو سعد قوله: «ما يحار المرء فيه هو كيف تتبنى حركة ـ تزعم أنها إسلامية ـ التعايش الكامل مع الجاهلية، بل والبناء على أبنيتها، بل والتلقي من مناهجها التعليمية وأسسها الاجتماعية. لقد ارتكزت هذه الحركات على

الواقع الجاهلي وسلمت به. لقد ظنوا أن العدو إنما هو الهيئة الحاكمة، وليس الكيان الاجتماعي والتشريعي كله». لا فُض فوك يا أميري. نعم، الكل كافر، ولا يحق لنا مع هؤلاء الناس إلا اعتزالًا وهجرة.
«قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ». هو العداء والبغضاء أبدًا بيني وبينهم، كان ولا بد أن يكون انضمامي لجماعة المسلمين، بل ودخولي الإسلام، كما عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلا رضي الدنية في دينه، ولا صمت عن عجز.
فهأنذا أقول لوالدي المخذول، وأمي الذابلة، إنني أهجركم لما دعوتكم للإسلام فأنكرتم، لقد نجوت مع الناجين، وركبت سفينة نوح، لا يهمني من لحق ومن ترك. لقد حكيت لهما عن العشرات الذين اهتدوا وانضموا إلى الجماعة ودخلوا الإسلام مع المسلمين: هذا مفتش الصحة الذي جاء من الإسكندرية بزوجته وأولاده الستة تاركًا وظيفته وبيته. وهذه الأستاذة الجامعية التي امتنعت عن التعليم الكافر، ومنعت ابنها منه، وأدخلته الجماعة معها تاركة زوجها، وقد تبرأت منه ومن كفره لما أبلغته الدعوة فلم يستجب، حتى ابنتها ودعتها مستغنية عنها متى أصرت على الكفر، بينما صحبت ابنها الذي هداه الله بها إلى الجماعة. وها هي الداخلية كابرًا عن كابر تعلم أنني مبايع لخليفة المسلمين، لسنا تنظيمًا سريًّا، وها نحن قد خرجنا من الاستضعاف إلى الاستبراء بل وللاستعراض. لهذا فعلتها، بل أنا كنت صاحب اليد التي ضربت والإصبع التي أطلقت. وها أنتم تطاردونني، وكأني بك يا رسول الله وهم يركضون وراءك على الجبل يحاولون اللحاق بك في الغار. لا، من المستحيل أن يكون البوليس قد توصل للخمس والعشرين شقة كلها، لكن من يضمن له أنه حين يذهب إلى شقة منها لا تكون هي تلك الشقة التي انكشفت. هو أبو يوسف الوحيد الذي نجا من قبضة الشرطة، لم يتمكنوا من القبض عليه حتى الآن، وهو يتابع أخبار الإمساك بإخوته في الجماعة في صحف ترتع بالكذب وتجلجل بالزيف عني وعنهم كل صبح.
أأنا الذي فصلتموه لتصرفاته الشاذة؟! كمر غضبه في صدره، يضم فخذيه على ما بين فخذيه، ويعصر نفسه وهو يغرس أصابعه في بطني كفيه. جفل حين باغتته جلجلة ماء في بحيرة، خطف نظرة من وراء الشجرة التي وصل إليها، فرأى التمساح في بحيرته يسبح في برودة الماء، كأنه يخفف عن جلده حر الصيف، أو يكسر بجولة مسائية وحدته وغربته عن نيله، بعينيه الجاحظتين وخياشيمه فوق الماء، بينما جسمه غاطس مختفٍ في البحيرة الخضراء، تنعكس أضواء خافتة على سطحها فتزيدها وتزيده غموضًا. كان التمساح قد صعد زاحفًا عند حافة البحيرة الصخرية الملساء المبللة، وكأنما يتلصص على هذا الهارب المختبئ خلف الشجر.
سرت رعدة كشفت خوف طارق المقبور في صدره، بجوار قبور كثيرة دفن فيها تلك اللحظات التي يحاول أن يدفنها حية في ذاكرته.
أكانت مرة واحدة أو اثنتين أو ثلاثًا تلك التي أفلت فيها الإعصار اللعين من محبسه في عظمه ولحمه؟ كانت تلك المشاعر مكبوتة مكمومة داخله، يمنعها ويقهرها وهي تأتيه أفكارًا تحوم وتخيم، وسحابًا يغيم، وغيومًا تجثم. منذ صباه وهو يقمع رغبته في مد يده للمس صاحبه، للإمساك بهذا الوجه وتقبيله، بالاحتكاك المتعمد المرتعش. كل ما حوله في الكلية، الأبدان شبه العارية بعضلاتها وذكورتها، الحمَّامات والأدشاش بالماء المندفع يدغدغ مقاومته الصلدة تكاد تحطم حصونه. كان امتحانًا كل ساعة بل كل لحظة يجابهه مقاومًا متماسكًا، يصلي ويدعو الله لمَ جعلت هذه الأفكار تملكني! تسح دموعه ليلًا على فراشه في شقتهم أو في سريره في الكلية

طالبًا من الله العون، راجيًا من الله المغفرة. ليالٍ قاسية طويلة تسحق روحه. والده الفخور بابنه الضابط، وأمه التي تبحث له عن عروسة، وزملاؤه الذين يشهدون له بالشقاوة وملاطفة البنات ومصاحبة الجميلات، يشاركهم كالخبير حكاياتهم الجنسية وتلميحاتهم عن تجارب وغزوات. ظل ملتزمًا في شغله، ومقسومًا في حياته، وراغبًا ومستثارًا وكابتًا ومكبوتًا. كان يقدم نفسه رجلًا كامل الرجولة بدبابيره على كتافتيه، وصوته الحاسم، وزعيقه في المخبرين، وردعه للمتهمين والمشتبه فيهم، لكن كلاب السوابق من المسجلين خطر، كأن هناك شعاعًا خبيرًا خبيثًا في انحرافهم، فينظر إليه أحدهم كأنما كشف عن ستر روحه أمامه حين يضربه ويصفعه وهو يلمسه فيكشف فيه أمرًا، فكان يشتد في عنفه ويقسو في ضربه، ثم يلوذ بحمَّام القسم فيفض رغبته المحبوسة.

متى انهارت مقاومته وكبحه لنفسه؟ مرة واحدة كانت كافية، مرة واحدة في طلعة ليل، وفي مهمة في تلك السيارة مع هذا الضابط الأحدث، القُبلة التي خطفها، وقبضة اليد التي عصرت القضيب، ثم تصدَّع بعدها عالمه. دفعه الضابط مذهولًا، وضربه بخشونة من يدفع عن نفسه القتل. ارتعش طارق وارتجف كالمحموم، ثم تمتم معتذرًا متأسفًا. دموعه ضاعفت غضب زميله ونفخت احتقاره، فتح باب السيارة مبهوتًا ومصدومًا، ونزل يجهل ماذا يفعل، ثم مرت دقائق صمت أثقل من أطنان الحديد، وعاد بعدها ووقف عند شباك السيارة، وهوى بلكمات على وجه طارق الجالس مستسلمًا على مقعده مهزومًا ومخنوقًا بعاره. كيف تشقق الجدار؟ تجاهله زميله؛ فقد أحس أنه لو كشف السر فسوف يفضح نفسه كما يفضح طارق، فلماذا فعلها معه هو بالذات؟! إن هذا المجتمع وتلك الوظيفة لن ترحم الجاني والمجني عليه معًا! لم يفعلها طارق بعدها معه أو مع غيره، ربما مرة أو مرتين، فالقبور في صدره وحدها تعرف كم مرة دفن ذكرى، فعلها كوجه مجهول مع مجهول التقطا بعضهما من مقهى مشبوه، لكن الجدار المتشقق كاد أن ينهدم.

أيامها كان مبهورًا بالشيخ عبد الله السماوي، نعم كان يبحث عن خلاصه، فلف مع الشيخ أينما لف، وأقام في الجوامع وهو يصلي متوضئًا بالدموع، ويدعو ويركع ويسجد باكيًا ناحبًا، وأعلن عن نفسه ضابطًا متدينًا ثم متطرفًا، بل أذاع عن نيته في تفجير مقر أمن الدولة في بني سويف.

كان الشيخ طه، الذي سمى نفسه «عبد الله»، فخورًا بالضابط التابع المنبهر بطلاقة لغته، وطلة وجهه الممتلئ، وجسمه البدين الطويل العريض، وعباءته ذات الجيبين على اليمين والشمال موضع ثدييه، وعمامته المعقوصة، وخطبه المجلجلة. منذ رأى السماوي وصلى خلفه وحضر خطبه، فقد اختاره مهربًا لنفسه ولدينه، على الرغم من أن أمن الدولة كانوا قد حذروه منه، فهو إخواني خريج المعتقل، لكنه مشى وراءه والتحق به أينما خطب وحيثما سافر. لكن التصرفات (جعلوها تصرفات) الشاذة (هؤلاء الكفرة الذين لا يتورعون عن الفخر بكفرهم يتقولون عني بالشذوذ ويُصدقون كذبهم ويُكذبون صدقي)، تحولت من همس هسيس إلى قرار بإنهاء الخدمة أو قبول استقالتي، وخرجت بمرتب المعاش ومصافحة الكبار، وقد ودَّعوني بنصيحة العودة عن طريق التدين الذي أمشي فيه، ما كلنا نصوم ونصلي ونحج يا طارق، فما بالك تتشدد وتتزمت ويجذبك هؤلاء العيال المجاذيب من الإخوان. طبعًا رأى السادة العمداء والعقداء صلاتي، وشهدوا إسلامي الحق، فساءهم أن يقول ضابط إن ربي الله وليس سيادة وزير الداخلية، أو سيادة النائب اللواء النبوي إسماعيل. فالأخ ممدوح سالم رئيس الوزراء ووزير الداخلية مشغول بالأولى عن الثانية فتركها لنائبه. سخطت ولم أطق، فشتمت وهزأت واتهمتهم بالكفر والمعصية

والانحراف وقهر الناس واستعباد الخلق وخلّتها خلّا، فليكن الرحيل إذن لأنني فضحتكم لا أنتم الذين تتوهمون فضحي. كان ساعتها قد تعرف على شكري مصطفى.
قضى تلك الساعة في الحركة الحثيثة داخل جنينة الحيوانات، فقد يمكث الليل كله يقطع الثمانين فدانًا فلا يعثر عليه أحد في هذه المساحة الهائلة الوحيدة البريئة من كُفر هذا البلد. حيوانات هذه الجنينة التي تتعبد لله كما كل مخلوقاته، هي التي تنجو من كُفر يمسك بعنق كل هؤلاء المصريين الذين يظنون أنفسهم مسلمين وهم كفار، ثم إنهم في جاهليتهم بهائم أكثر من بهائم هذه الجنينة. لكن هناك من هم أشد من الشعب الكافر خطرًا، إنهم هؤلاء المرتدون الذي ارتدوا عن الإسلام حين انشقوا عن الجماعة ونكثوا بالبيعة لأبو سعد، لا يزال يذكر يوم كلفه أبو سعد بأن يكون فارسًا أخضر، بل فارس الكتيبة الخضراء.
* * *
كان أبو سعد قد أمرهم بأن يقصدوا القاهرة، فقد ازداد عدد المسلمين وقاربت الجماعة ألفًا أو أزيد، صحيح معظمهم من أسيوط والصعيد، وبعضهم من عائلات متصاهرة وأقارب متداخلة، لكن أليس أوجب الناس بالدعوة هم أهلك، ثم ها هم الأعضاء الذين سافروا إلى السعودية وباكستان والجزائر قد أمدوا بيت المال بالنفقة، وعوائد المقطوعات المالية من الصنائع التي يحترفها الأعضاء تشارك في الدعوة، بل ومصوغات نساء الجماعة صارت ذهب الجماعة. إذن جاء موعد التمدد والحضور للقاهرة حيث تتسع الدعوة وتسود الدنيا. لكن هذا الهلاوي المرتد اللعين غرس شوكًا في الظهر، وفر يوم الزحف، وخان العهد، وكان لا بد من أن يتلقى جزاءه. هذا المتوهم المتجرئ ظن أننا نقتص منه لأنه أفحم أمير المؤمنين، من أنت يا حشرة لتظن في نفسك هذا الظن؟ ليس بعد الكُفر فجر. أكان المؤمن الفطن والضابط الكفء هو من جعل قلبي مشتبهًا في هذا الهلاوي منذ انضم إلى الجماعة قادمًا من جماعة صالح سرية؟ هذه الجماعة التي أطلقت عليها الصحافة والأمن أيامها «جماعة الفنية العسكرية»، والتي حاولت أن تقوم بانقلاب باقتحام الكلية الفنية العسكرية. أهذه خيابة في الخطة أم خيانة للدين؟ بضعة طلاب تافهين مع زعيم دعي، والهلاوي كان المفتي الفاشل لهذه الجماعة الأفشل وأحد أمرائها، فإذا به يخرج من القضية بريئًا لعدم كفاية الأدلة، ويتمخطر طالب الشريعة الأزهري معتقدًا أنه الإمام الفقيه فيدخل الإسلام في جماعة المسلمين. أكان سيفًا جاء ليطعن المسلمين في جماعتهم؟ ما مرت أسابيع أو قل شهورًا، حتى ظهرت أنيابه تنقر في لسانه، وبدأ يناكف في الأمير، ويدعي حقًّا أمام باطل، ويفند وينقد وكأنه قرر أن يكون صاحب الفتيا بل ومنافس الأمير، حتى إنه قرر أن يناظر الخليفة.
يجهل طارق حتى لحظة كمونه في جنينة الحيوانات لماذا سكت منذ البداية عن هذا الهلاوي. ها هو قد انتهى من حاجته للتبرز منذ ساعة إغلاق الجنينة حين أفرغ أمعاءه من فضلات ساندويتشات الجبنة والحلاوة التي أكلها في النهار، فهو لا يأكل لحمًا يجهل ذبيحته. لكنه في ساعة الليل المتأخر لجأ إلى أشجار الجنينة كي يفرغ بوله. لو أكمل سكنه في الجنينة الليالي القادمة سيعمل حسابه للاحتفاظ بساندويتشات لليل تسد جوعه، ولوجد حيلة لفتح أقفال الحمَّامات.
غفا للحظة، ثم صحا على خضرة الحشائش التي سقط رأسه فيها، فعادت له اللحظات التي خرجت فيها الكتيبة الخضراء للقصاص من المرتد الهلاوي، الذي جاء لمناظرة الأمير مصحوبًا بعشرة ممن أغواهم كالشيطان من جماعة المسلمين، ومن عصبته التي تلتف حوله منذ تنظيمه الهزؤ، وتجاسر على أن يرد على الأمير شكري مصطفى الذي قرر أن يرخي للهلاوي الحبل

ويعينه على نفسه، بأن وافق على مناظرته وسط جملة من مناصرين انتزعهم من الجماعة مصاحبًا دلدوله رفعت أبو دلالة. جمعنا الأمير نحن إلى جواره لنسمع ونكون شهداء عليه حين يضع الحجة وراء الحجة سورًا يحول بين الهلاوي وكفره. وقد سمح، بل أمر بأن نأتي بجهاز التسجيل الضخم الذي جلبه أحد إخوتنا من السعودية ووهبه لتسجيل دروس الشيخ وتوزيعها على الناس، لنسجل ما يقوله في المناظرة ويحاضر به خصيمه على شرائط جمعها الأخ أبو توبة في علبة كرتونية كبيرة، فقد بدأ في بيع الكتب الدينية وشرائط القرآن الكريم، وقد منع منها القرآن المنغم. أمسك الهلاوي بقرني شيطانه بعدما سكت ساعات عدة يسمع وينصت لحجاج الأمير في وجوب كفر مرتكب المعصية، وهو ما كان الهلاوي يناطحه فيه، كأنه يريد أن يترك ثغرة للكفرة يمرقون منها. ظننا أن الهلاوي غلب إبليسه وهزم نفسه الأمارة بالسوء، لكنه كان يمرق من الإسلام مروق السهم من القوس. فقد بدأ يمعن في لجاجه، ويعدد ويفند وكأنه شيخ لأزهرهم، وليس مجرد طالب فاشل متطاول على عالمه وأميره وخليفته. سكن شكري مصطفى له طويلًا وأمهله، والهلاوي يدير وجهه نحو جهاز التسجيل الذي يسجل هذه المناظرة كأنما يبغي تلك الشرائط الممغنطة لا يبغي الحق. غادرنا مدعيًا انتصاره ومعلنًا فوزه وشاهرًا ردته عن الجماعة، لكنه لم يكتفِ بما فعل، بل حاربها في كل مسجد يذهب إليه وعند كل بيت يدخله، وسخر من الأمير وسبه، وهو ما يضعه موضع المرتد لا تردد في حكمه. لقد أزاغ المسلمين عن دينهم، ثم أباح كفرًا بالمعصية، وحارب الدعوة. فكأنهم في تلك المرحلة، حيث تنتشر الجماعة، وتضم للإسلام خيارهم الذين يتركون عائلاتهم وبيوتهم هجرة لله ورسوله، والذين يتخلون عن أعمالهم وتعليمهم، وفيهم الطبيب والمهندس والمفتش والجامعي، وتبذر بذرها في جاهلية ظلماء، يسلطون عليها الهلاوي يقلقل إيمان المؤمنين ويسب أميرهم. فما كان له من حل إلا حل رسول الله لكعب بن الأشرف، أن نقتله.

أمر الأمير شكري مصطفى بالكتيبة الخضراء، عدد من أشد مسلمينا، وأنا منهم ولا أزكي نفسي أولهم، يكونون بمثابة قوة الردع والعقاب لأي مرتد خالفنا وحاربنا، وليكن الهلاوي درسًا لمن يتعظ.

* * *

كان شارع الهرم محفوفًا بالحقول والزراعات الممتدة، تظهر فوقها بيوت مبنية حديثًا بالطوب الأحمر، موزعة كقطع عشوائية مشقوق بينها وإليها مدقات ترابية ضيقة، لا أعمدة كهرباء، ولا أسفلت، ولا صخب إلا نقيق ضفادع ترعة تحيط شارع الهرم. فما تخرج منه، وهو العامر بالبنايات الفخيمة والفيلَّات الوسيعة والعمائر المرتفعة، وكباريهات الفسق والمجون، حتى تجد شوارع خلفية لا طالت ريفًا ولا حصلت حضرًا. كنا نعرف أين يسكن حسن الهلاوي. هناك حيث بيت صغير بالطوب الأحمر تطل شبابيكه على طريق ترابي تجاوره عدة بيوت تشابهه.

التفت طارق إلى سبعة رافقوه، أومأ إليهم بالتأهب، وقد لاحظ خلو الطريق من دبيب قدم، وانطفأت الأنوار وراء أغلب النوافذ المغلقة فانكشف الظلام أكثر. كانت أذرعهم قد طالت وقد أخرجوا السيوف والمطاوي والسكاكين الطويلة، من حقائبهم القماشية ولفائف الجرائد. كانت تلك أسلحتهم دون الحاجة إلى مسدسات وبنادق. على الرغم من أنه ضابط وسلاحه الطبنجة، لكنه أطاع دومًا أميره في التزام السيف والسكين والخنجر، فمعركة آخر الزمان ستكون بالسيوف وليست بتلك الأسلحة برصاصها وبارودها، حين يؤمن الناس بشكري مصطفى المهدي المنتظر، وحينها تقع معركة نهاية العالم وعودة المسيح. ستكون الأمم قد أفرغت أسلحتها ودمرتها في

حروبها المهزومة، ولم يبقَ على وجه الأرض إلا السيف سلاحًا للنصر. فلم يهتم أبو سعد كثيرًا بتدريب المسلمين على التصويب والرماية واستخدام الذخائر. وحين عاد مؤخرًا وسمح بعد إلحاح مني وترجيات وحجيات كثيرة بأن نستخدم الأسلحة حين نحتاج إليها، وأن نسمح بعلم تركيب العبوات الناسفة كفرض كفاية لا كفرض عين، وللاستفادة حين الحاجة، لكن ظل السلاح المختار هو سلاح النبوة، السيف وحد السكين. رفعوا قبضاتهم بالسيوف والسكاكين، وقد تثبتت ملامحهم بالعزيمة في امتحان وضعهم فيه أميرهم، فهو اختبار حول شدة الإيمان وقوة البأس وطاعة القلب وتسليم العقل، هذا وقت الامتحان في انتظار النجاح مع النتيجة.
حين طرق طارق الباب طرقة شرطية عفية تعوَّد عليها الهلاوي في القبضات عليه المتكررة واستدعاءاته للشرطة، ظن أنهم الشرطة ففتح أخوه؛ يحمل ملامحه وسحنته وكُفره، فقد خرج معه عن ربقة الدين. دفعه طارق بقسوة رمته على الأرض طريحًا، ثم داسه واحد من الكتيبة وآخر، فلما همَّ أن يقف عاجله أحدهما بطعنة في بطنه أخمدت مقاومته وأدارت رأسه. بحث طارق عن الهلاوي، فوجده يهم بالقفز من على الأريكة إلى الشباك وقد فتحه، فهبت ريح يناير من أرض مكشوفة محملة برائحة سماد وروث، فاندفع طارق نحوه وخلفه كتيبته، وقد أفرغ أحدهم جوف شقيق الهلاوي بطعنتين في صدره وكتفه، فسمع فحيحه بالشهادة كأنهم يمازحون الله عز وجل ويزعمون إيمانًا وقد سبق السيف عذلهم. كانت عينا حسن الهلاوي تجحظان مفزوعتين من الهجمة والصدمة، عاد بكتلة لحمه إلى الحائط محتميًا، ثم أدرك فشل حيلته فتقدم للمقاومة، لكن قبضة طارق عاجلته بطعنة في الصدر فهوى، فانهالوا عليه بين المسبة والمشتمة، بالطعنات تنغرس السكاكين في جنبيه وبطنه وما طالته الأيدي المتكالبة على ساقيه وفخذيه. كان يئن ويصيح، ثم تنحشر حنجرته بالألم، وتخفت قوة عضلاته المتفلتة من أذرعهم، وتهمد طاقته المسحوبة من عروقه مع الدم النازف، بينما همهمات الكتيبة مع عرق يتصبب وقبضات تسحج وتكبيرات تسبح، ثم انسحبت الأصوات كلها أمام صرخات نساء تولول فاجأت الكتيبة. طارق وهو بارد العينين تمامًا، منزوع من أي مشاعر، لا هو قلق ولا جزع، لا منتشٍ ولا منتعش، خلاء تام في عقل رأسه، التفت إلى وجوه نساء صائحات نائحات لاطمات، ظهرت نسوة مشلولات عن الحركة يطللن مذعورات مذهولات مرتجفات من وراء ظهور وأكتاف أعضاء الكتيبة، كُن ثلاث نسوة، إحداهن منتقبة وواحدة طفلة وثالثة تبلل خمارها بدموعها وهي تحملق من مكانها في جثة الهلاوي المبقورة، كانت اثنتا عشرة طعنة بثقوب متباينة العمق والاتساع تبصق دمًا، التفت إلى زملائه:
ـ لم نؤمر إلا بهذا المرتد.
سبقهم إلى الباب، هادئ الخطو، ينظف يديه من الدم بمفرش على مائدة دائرية صغيرة وجدها في طريقه بينما تبعه زملاؤه، ونخير الهلاوي يتحشرج ميتًا خلفهم.
لكن الكلب لم يفارق نباحه حنجرته، فقد نقلوه إلى المستشفى متقلبًا بين الموت والحياة، وأسمع أنه بمعجزة أعجزته عن الفهم لا يزال حيًّا، لكن اثنتي عشرة ندبة في جسده لم تعده إلى حظيرة الإيمان، بل أبقته ثورًا في حظائر الشيطان.
* * *
أزعجته تغاريد طيور ليلية، نظر طارق إلى أعلى حيث الأشجار والأغصان وفضاء السماء، فلم يجد أثرًا لطائر أو لطير. أصغى مرهقًا إلى هذه الأصوات المتداخلة بصفاراتها الرفيعة المسرسعة، لعله عبر أمام أقفاص طيور وعصافير الجنينة. لم يكن من أبناء الريف الذين تربوا

على صحيان نومهم بالعصافير، وألفوا تلك الأصوات الليلية من الشجر والأعشاش في الحقول والزراعات. حتى في تنقلاته في إدارات الداخلية، وعلى الرغم من الأرياف التي خدم فيها، فهو لم يستسغ قطُّ وصف تغاريد الطيور لهذه الإفرازات المزعجة، إلا إذا كانت التغاريد وصفًا للمنغصات الصوتية. قلص شعور بالجوع معدته، خبط بطنه بلكمات قبضة متشنجة، كان يفضل تلقي مهمات جديدة بديلًا من أن يكون الهروب مهمته، ما فعله في الأيام الماضية تمنى لو كرره كل يوم، لكن عمليات القبض كانت تتوالى والأوامر تنقطع. آه، منذ فعلناها مع الهلاوي الدنيء، ثم ما كررته الكتيبة الخضراء بدوني حين هجموا على بيت رفعت أبو دلالة في المعصرة بحلوان، كانوا يظنون مفاجأته لكنه كان متجهزًا بالتنبه. لم يجرؤ طارق على أن يشير على شكري مصطفى أن يأخذوا أبو دلالة في ذات اليوم والليلة لضربتهم للهلاوي حتى لا يصله خبر فيهرب أو يتأهب. لم يقل، كان أحرص على التواضع أمام شيخه وأميره، فلا يريد لهم أن يظنوا فيه غرورًا لكونه ضابطًا في الشرطة، فآثر الصمت على النصح حتى تطلبه المشورة. لهذا ذهبوا إلى المعصرة، فوجدوا رفعت أبو دلالة بجسمه الجسيم وبدنه المتخاتل يرد ضربهم ويقاوم طعانهم حتى تمكن من أن يفر من أياديهم مطعونًا ومثخنًا، لكنه قادر على أن يركض وأن ينجو. من يومها والشرطة تتخطفهم، وتتداعى الأكلة إلى قصعتهم، قبضًا واستجوابًا واعتقالًا، حتى تخطفت أيدي الشرطة عددًا من إخوتهم. سعد لما فعله أبو سعد من أن وقت الركون قد انقضى. نحن لم نعادِ تلك الدولة الكافرة، ولا حتى هؤلاء الكفار الراتعين في مصر، بل نطبق شرع الله على من ارتد منا، فما لهم بنا جند الطاغوت؟! كهوف البيوت لم تعد صالحة للفتية الذين هدوا بل عليهم أن ينزلوا إلى تلك القرية الظالم أهلها، لكن ماذا أفعل هنا وسط النمور والفهود المحبوسة، فلأخرج وأتمم ما فعلت منذ أيام.

سرت في ظهره نشوة أرضته وأرعشت قلبه لما استحضر هذه اللحظة التي تسلم فيها العبوتين الناسفتين من شقة الزيتون، كانتا ملفوفتين في قماش الكتان الخشن، وموضوعتين في حقيبة جلد بذراعين قصيرتين. ركب سيارة الأجرة، وقرر أن يبدأ بمعهد الموسيقى في شارع رمسيس. حين هبط أمام مبنى المعهد في ذلك المساء متعرقًا قميصه وأصابعه القابضة على الحقيبة، شد ظهره ومد عينيه إلى بوابة المعهد الضيقة المطلة على الشارع وسط زحام السيارات والأتوبيسات وصخب المنطقة التي لا تهدأ، وكانت أنوار المعهد تكشف عن حديقته وقد فرشتها الحشائش وعدة موائد، وتلك السلالم تقود إلى المبنى ببابه المقوس المفتوح وأرضه الخشبية وجلبة موسيقى الشيطان تخيم عليه، وهؤلاء الذين يدخلون ويخرجون يقبضون على حقائب وصناديق جلدية تضم آلاتهم، فلم يشك أحد فيه، ولا اشتبه أي من هؤلاء الغافلين في أنه عازف بحقيبة آلته. جلس في مدخل الحديقة يرمي حدقتيه على الوجوه التي تعبر البوابة بعدما سأل عن الأستاذ الموسيقار عبد الحليم نويرة، فأجابوه بأنه لم يحضر بعد، سألهم عن موعد مجيئه، فأخبروه بألا مواعيد محددة معروفة لقدومه. كانت الأوامر بنسف المعهد في وجود نويرة، بل نسف نويرة أهم، فهذا الفاسق نسيب أنور السادات، فحين ينسف في المعهد الذي يرأسه وهو يتجهز لحفلٍ مع فرقته الموسيقية، مايسترو فخور بمزامير الشيطان، فتأتيه القنبلة ترميه من وقفته ممزقًا محروقًا، فيكون القصاص مدويًا والرسالة صارخة. ها أنتم تتعقبوننا ونحن نقتحمكم، ليس فقط في مرتع الفُجر كذلك المعهد، بل في صدر نسيب رئيسكم نفسه. لم تقدروا على حمايته، ولم تمنعوا استهدافه، بل لم تتوقعوا الواقعة فليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة يا أولاد الكلب. انتظر نويرة وقد ترجى أحدهم أن يدله عليه حين يدخل، وبينما تجالس الآخرون

يشربون الشايات ويتناولون لحوم بعضهم بالغيبة، فكر أن يخرج المصحف الصغير من جيبه ليقرأ منه وهو يضم بساقيه الحقيبة تحت مائدته، لكنه خشي استغرابهم فانكشافه، لم يكن قد حفظ الكثير من القرآن الكريم على الرغم من تفرغه للحفظ وقتًا طويلًا وهو يتنقل مع الجماعة من أسيوط إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة، ومن مقر إلى مسكن، ومن شقة إلى فيلًا، لكنه لم يقدر على أن يوسع من ذاكرة رأسه لأكثر من سور وآيات معدودات. وليس الحفظ هو دليل العلم كما قال لنا أميرنا أبو سعد، وإلا لجهلنا صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أربعة، حيث تُوفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يحفظ القرآن كله إلا أربعة، كما جاء في بعض الروايات الصحيحة، وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحفظ سورة البقرة على عشر سنوات. طال الوقت على جلسته ولم يحضر عبد الحليم نويرة، ثم إن العبوات الناسفة ليست مضمونة، فهو لم يكن مطمئنًا لهذا الشاب الذي ركّبها، خصوصًا مع بدائية جهاز المؤقت، فضلًا عن قلة تلك المواد المستحضرة، مما جعله يفضل الخيار الثاني الذي وضعه الأمير تحسبًا لمثل هذا الاحتمال: فليكن المعهد هو الهدف سواء كان نويرة ممكنًا أو غائبًا، المهم الليلة، فالليلة لن تكون عبوة واحدة ولا انفجارًا وحيدًا. مال على الحقيبة وشدها إلى حضنه، وأخرج اللفة القماشية منها تحت سطح المائدة، ثم حملها إلى باب المعهد وقد تشاغل الجميع عنه. بحث بعينيه عن مكتب صغير أمام قاعة تبدو مخصصة لشيء من فسقهم، فوضع العبوة تحته وهو يفك عنها القماش، ويدس يده فيلف قرص التشغيل لأقرب موعد، ثم ألقى عليها القماش تمويهًا، ثم هرول خارجًا ليعبر إلى الحديقة، وجذب حقيبته الجلدية من تحت المائدة خاطفًا ذراعيها نحوه وخرج من بوابة المعهد. اندهش لهذا الهدوء الذي ملأه، ولتلك السهولة التي دخل وخرج بها، لقد كانوا في غفلتهم يعمهون، وغذ المشي إلى جري يبتعد عند الرصيف المواجه للمعهد، فلن يغادر قبل أن يسمع انفجار القنبلة ويرى دخانها وفوضاهم الملتاعة. مرت أمامه السيارات والأتوبيسات تحول دون رؤية كاملة لمبنى المعهد، واستمر صخب الشارع مرتفعًا حتى خشي أن يطغى على صوت الانفجار، ثم ساوره القلق من ألا يكون هناك انفجار أصلًا وتبقى العبوة الثانية التي يحملها مثل قلتها، معطوبة أو معطلة. كانت خشيته من فشل العملية تصعد إلى ذرى توتره حتى صفت روحه وهو يرى دخانًا يهب من مدخل معهد الموسيقى. لم يسمع صوت العبوة مدويًا، بل مكتومًا أو مغطى تحت جلبة الشارع، لكنه رأى الدخان ولا شك، ففاضت نفسه راحة، وقفز مع بعض الذين تنبهوا لما جرى إلى الرصيف الآخر يتيقن من أن ذلك السواد دخانه المبتغى، فلما اطمأن تجنب الزحام ومجيء الشرطة، وأسرع ومضى ناحية ناصية محطة الإسعاف، وركب سيارة أجرة أوقفها طالبًا من سائقها:

- ميدان سفنكس يا أسطى.

وضع الحقيبة على فخذيه، وقد ركب بجوار السائق؛ فلم ينسَ أنه هارب من الشرطة، ولا يجب أن يترك السائق يتمعن في ملامحه في المرآة العاكسة لو جلس على المقعد الخلفي، بل وهو بجواره يصعب أن يلتفت إليه السائق ويتحقق من ملامحه، كما أنه يدير وجهه ناحية الشباك يتأمل شوارع القاهرة تعبرها السيارة ماضية إلى الوجهة التي حددها. ها هو رمى قنبلته في معهد موسيقى، فليذهب إذن بالقنبلة الثانية إلى مرتع فسق آخر، سينما سفنكس. لماذا اختاروا هذه السينما الصيفية بالذات، ما كانت السينمات كثيرة في شارع عماد الدين وهي أشهر وأكبر؟ لكن هذه السينما في ميدان، فيمر عليه الكثير من الناس شهودًا لما سيحدث، فضلًا عن أنها مكشوفة على الشارع. وصل إليها، فنزل بعدما حاسب السائق على أجرته، ولم ينسَ أن يرفع رأسه فوق

باب السيارة، فلا يرى السائق منه إلا يدًا تمد أصابعها بالأجرة، فهو يعلم أن الشرطة ستسأل سائقي الأجرة أول ما تسأل. قطع تذكرة السينما، ودخل وسط الحفلة التي بدأت، كان حريصًا على إبراز الحقيبة في يده، فمحاولة إخفائها تثير الفضول أكثر من كشفها في وجوه الناس، لم يكن أحد لينشغل بها، فكم من جمهور يدخل بحقائب بلاستيكية أو جلدية، فالأمر معتاد. جلس في طرف صف من القاعة، وقرر ألا يتابع مشاهد الفيلم المعروض، فلن تكون إلا عريًا وفسقًا، وإن كان صوت الفيلم عاليًا ومزعجًا، لم يكن هناك بجواره أحد ولا خلفه، مد يده في الحقيبة، وتسللت أصابعه إلى قرص العبوة فأداره على أسرع وقت، ثم أغلق الحقيبة، ثم تردد بعدما دفعها بقدمه تحت المقعد المواجه، فأعادها وفتحها فقد خشي أن يكتم إغلاقها الانفجار، ثم دفعها تحت المقعد وقام بسرعة، لكنه تراجع بأسرع مما قام، وسحب الحقيبة من تحت المقعد خشية أن يتركز الانفجار في المقعد فقط، هو لم يتحقق من مكونات القنبلة ولا عرف أثرها في معهد الموسيقى ولم يثق في صانعها من البداية فعليه أن يتحوط. صحيح أنه ليس مهمًّا عدد الضحايا، بل وصول الرسالة، وإن لم تصل فسوف نبلغهم أننا من فجَّرنا، لكن ليكن الانفجار لائقًا بمفجريه. ترك الحقيبة أخيرًا في الممر، ثم هرع إلى خارج السينما، ووقف عند الرصيف المواجه. يا ترى ما الذي جرى في ميدان التحرير الآن وميدان العتبة حين يفجر إخوته عبواتهم؟ أفجروها أم لا يزال القرص دائرًا إلى موعده؟ لبث على الرصيف ينتظر جلبة أو اضطرابًا أو هروب الجمهور من باب السينما فزعًا يليق بهم، لم يسمع، لكنه رأى فوضى الجري المذعور، واندفاع الجمهور المضطرب، والصريخ والتخبط والتعثر والسقوط واللهاث، لم يرَ لهب الحريق ولا سواد الدخان، لكن أرضاه الدم حين رآه.

* * *

سمع أذان الفجر يأتيه من خارج الجنينة، طرد أفكاره مع نعاسه، وقرر الصلاة. فكر أن يتيمم، ثم برقت الفكرة في رأسه، مشى بخطوات حذرة ومسرعة ناحية تلك البحيرة، التفت يمينًا وشمالًا، ثم شبك قدمه اليمنى بين فجوات حديد السور، ثم استند ومال وأكمل بقدمه اليسرى وتسلق بساقه المفرودة أعلى سور الحديد، قفز الآن إلى ضفة البحيرة، كان التمساح غاطسًا أو ناعسًا ربما، لكنه لا يخشاه ولا يفزع منه، فهو ذاهب للوضوء، ماء البحيرة جارٍ وطاهر، وهو يريد إفاقة الوضوء وجزاء صلاة الفجر الواجبة. رقرقة الماء وخرخرة الموجات الصغيرة واصطدام المياه بصخر الضفة، تنبئ بحركة تمساح قد يغدر ويظهر، لكنه سوف يحسن الوضوء ولن يتعجل، فمن يملأ الإيمان قلبه لن يخشى حوتًا، حتى لو لقمه فسيكون يونس في جوفه. حين كان يمرر الماء على ظهرَي أذنيه، رأى التمساح يطفو قادمًا نحوه، رعدة ضربت فكيه ومفصليه فأكمل مسح أذنيه، وقذف ماء على قدميه، وهرع واقفًا ماسكًا فردتي الجزمة الكاوتش. وبينما يقفز عائدًا، تعثر في لوحة خشبية مرشوقة على عمود من الحديد. لماذا شعر بالخيبة حين قرأ عليها «فرس النهر» ثم بخط أصغر «سيد قشطة»؟ لم يكن تمساحًا إذن!

حين وضع رأسه على العشب الرطب ساجدًا، برقت الأرض أمام عينيه، لمعت كأنها أضاءت جبينه، كان يرى اللحظة التي رفع فيها المسدس في تلك الشقة في الهرم، ووضع فوهته في عين الشيخ الكافر حسين الذهبي؛ غرس فوهة المسدس في عينه اليسرى حيث يسكن الشيطان.

كان مطمئنًّا، لا يعكر مزاجه شك، ولا يزور عقله قلق، ولا يزاول قلبه الثبات، ينتظر تلك اللحظة التي فيها سيدق باب هذه الشقة خبر نجاح الغزوة، سيدخل عليه ماهر لينبئه بنبأ الفتح العظيم:

ـ خطفنا الشيخ الذهبي.

يكاد يسمع شكري مصطفى الجملة منه، بينما ماهر لم يصل بعد، ولم يخبط بابًا، ولم يدلف غرفة، ولم يفتح فمًا بكلمة. أهي الرؤيا؟ أهو الإلهام؟ أهو الحدس؟ بل هو وحي اليقين. كان شكري بجلبابه الصيفي الخفيف، وبعينيه الواسعتين، ولحيته الكثيفة المشذبة، مفتوح الصدر، وتحت عمامته يمسح صلعة تتسحب من مقدمة رأسه من عرق الصيف الغليظ، ويجفف حاجبيه ثقيلي الشعيرات، ويمد ساقيه على حصيرة مفروشة في الغرفة الواسعة الفارغة. لم يشغل باله بما يمكن أن يحدث، فلا شيء يمكن أن يحدث إلا ما أراده الله، والله معه، ومع من يكون الله إلا معه. ابتسم شكري مصطفى وهو شحيح بها في حضور البشر، لكنه أسخى بها جدًّا مع نفسه، حين حضوره مع الله، كأن سقفًا ينفتح كلما ذهب وراح وجاء، يرسل منه الله شعاعًا أو ملكًا له يشد أزره ويربت على إزاره ويهدئ روعه ويحنو بِجناحه على ظهره. منذ اللحظة التي زارت الفكرة رأسه فأقامت وهو من بعدها لم يجزع لشيء قطُّ. كان في الزنزانة وحده في العنبر يجلس على بطانيته صامتًا محدقًا، إذا خرج المسجونون إلى الفسحة لم يخرج معهم، يأكل في موعد الطعام، يصلي الليل كله، وحده أو في جماعة، ليس إلا إمام نفسه حتى لو وقف في صف أو كان كتفه بالأكتاف يحاذي معهم في الصفوف، كان ينطق بها لنفسه: «إن الذي يشكو من كل ما حوله، ويخالف كل ما حوله، ويعتقد أن ما حوله باطل، فليس أمامه إلا أن يزيل الباطل أو يزول هو عنه».

تنهد وتبسم يستحضر سنوات رحلته من السجن الحربي إلى سجن أبو زعبل، ست سنين، يوسف فيها هو في جب الفرعون. ها هو يتجول الآن بنظراته في غرفة لا يملأها إلا الهواء، حيث أدرك أنه لم يعد يرى جدرانًا، منذ كان حبيسًا في عنبر مزدحم بالسجناء أو في الزنزانة الانفرادية وحده، أسقط جدران الزنزانة من حوله، فيتلفت هنا وهناك، فيبصر ما وراء الجدران وما فوق الأسقف. من يومها لا يرى جدرانًا في أي مجلس أو أسوارًا لأي غرفة، صار سجانًا للسجناء حين قرر أن يعيش في عقله. كان ينفر من زائد الكلام يتقول به كافر يرتدي زي السجن، أو كافر يرتدي ثوب السجان، كلاهما أكفر من أخيه. حتى هؤلاء الإخوان المسلمون الذين حسبوه عليهم وأدخلوه سجنًا في رفقة جماعتهم، بالنسبة إليه أكفر من سجانيهم. كأن سيد قطب رحمه الله، فهو الوحيد الذي استنظفه فيهم وقد قال بجاهلية المجتمع، نسي أو غفل عن أن يشمل جماعته في الجاهلية، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. ظنوا أن الإسلام كلمة تقال، قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين. فها هي السنوات الخمس في زنازين جمال عبد الناصر (وسنة سادسة موروثًا من سجن عبد الناصر في سجن خليفته أنور السادات) لم تكسر روحه، ولم تحنِ رأسه، ولم تضعف إيمانه، بل كانت غار حرائه. كلما أتته ذكرى تلك الأيام انفرجت شفتاه عن بسمة تشفٍّ في الجميع، بسمة تشفي صدر أمير مؤمنين، هؤلاء الذين قالوا عنه عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين، خسئتم، بئست التهمة وبئس المتهمون، خذوا هذه البسمة الشامتة فيكم، هي جماعة كافرة تركتُها لكم ومزقت لواءها من فوقي، كُذاب مداهنون يرون أن الخديعة والسرية باب لدولة الإسلام، إنهم دهاة في الكفر، حفاة في العقيدة، يعبدون أصنامهم من البنا حتى التلمساني، عباد سلطة، جماعة هامان لأي فرعون،

وباعة دين في القصور والأرصفة. يتذكر حين كان عضوًا غضًّا في الجمعية الشرعية، يرتاد جامعها بطفولة إيمانه، ويشارك في حماس مراهق في جمع التبرعات لبناء جامع للجمعية، ثم وهو يكبر فيها ويلقي محاضرات عن مشاكل الشباب الدينية، كان المشرف على الجمعية مشتبهًا به في قضية سيد قطب، هذا التنظيم الذي خطط لقتل عبد الناصر ففشل كما يفشل الإخوان في كل خطوة، فإذا به مستدعى للنيابة كما عشرات آخرين من الجمعية الشرعية، مطلوب للتحقيق، ومن التحقيق إلى القبض، يعجب بنفسه حين يحكي فيما بعد لأعضاء جماعته أنه سلم نفسه بنفسه متجرئًا على الدولة ومتحديًا أذنابها، لكنه يحوش عنهم حقيقة يداريها ويطمرها في ذاكرته طمرًا، حيث كتب بخط يده لمأمور السجن الحربي الذي رحلوه إليه: اسمي شكري مصطفى، طالب بكلية الزراعة جامعة أسيوط، التحقت بالجامعة عام ١٩٦٠، هوايتي الاطلاع على الكتب وقراءة الشعر ونظمه، قرأت لشوقي والشابي ومحمود غنيم ومحمود حسن إسماعيل (يحب الأخير أكثر)، وقرأت كتبًا إنجليزية مترجمة، منها: مدخل إلى الفلسفة وسيكولوجية الجنس (بالمناسبة لم يفهم له سيكولوجية). أكنت أهزل؟ بل كنت أقول نصف الحقيقة، أو الحقيقة كاتبًا سطرًا منها وتاركًا سطرًا فيها، صحيح أن عمري كان ثلاثة وعشرين عامًا، ولم أكن طفلًا كأطفالهم من الإخوان، ولا صبيًّا كالصبيان الذين يربونهم في حظيرتهم، بل كنت غيرهم جميعًا من اليوم الأول. حتى عندما قبضت عليه الحكومة وألقت به في غياهب الجب بتهمة الانضمام إلى مجموعة سيد قطب الإخوانية، كان وقتها يفور قلبه كالتنور نقمة على استسلام هذه الجماعة التعسة التي تركت نظام عبد الناصر يعتقل رجالها، بينما كانت تدعي قوة وقدرة ومبايعين وأكداس أسلحة وهي عاجزة. كان وقتها في كلية الزراعة طالبًا رغم عامه الثالث والعشرين، فقد دخل الكلية متأخرًا أو تأخر خلالها، فالعيشة كانت ضنكًا، ليس الضنك في المال وهو ضنك سقيم لا يجب أن يحسه شاب مثله وهو ابن عمدة قرية، ولكن ضنك الأب الشحيح الذي طلق الزوجة التي كانت أرملة لمحامٍ شرعي مات عنها وتركها بطفلها، فتزوجت عمدة قرية طلقها بعد ثلاثة أعوام وهي تحمل طفلها الثاني، حضرتي، على كتفها، طلقها وهو العمدة الذي يمكن له أن يجمع زوجاته في دواره حتى لو كانت قرية ينافس فقرها سعة عمدتها، لكن على الأقل كان يملك من الفدادين ما يسمح له بالعمودية، لكنها عمودية مرهونة بموافقة البوليس ورضا الشرطة، مطواعًا كغيره، كافرًا كمثله، نعم هو لم يدعُ أباه للإسلام، فلم يلحق بالدعوة حيث مات وشكري في السجن، لكنه ليس أبو طالب أبدًا، فقد طلق أمه منفصلًا عنها طاردًا لها وتزوج بغيرها، والأم التي تطلقت تزوجت من آخر. وعشت معها، فضقت بالأم وبزوج الأم الذي كان أوفى الرجال لصفات زوج الأم الفظ. وقد انتقل به وبأمه إلى سوهاج وبني سويف وأسيوط، وساح في أرض تقطع الوصل بين شكري وأهله، فلم يرَ من الأب العمدة يُسره ولا حتى سِتره، ولا كنف حمايته وولائه، ورأى في أمه جفاف حنانها، بل أرضعت إخوته من زوجها كل ما في حبها من لبن فنسيته وأنسته، حتى إنها لم تزره في السجن، وماتت قبل أن يخرج من بوابته. صار شكري ابنًا لعائلتين تشق بينهما الجفوات فجوات، وتبعد فيها المسافات عن البيوت والقلوب، تجففت كل العواطف، لكنها ترطبت بندى دفيق يوم تعرَّف على هذه الصَّبية اليانعة الماتعة وهو في الثانوية العامة التي رسب فيها أكثر من مرة، رغم مكوثه مع أبيه حينها. رآها وجهًا بديعًا (يحضر إليه في مناماته حتى الآن) بإيشاربها الذي يغطي نصف شعرها، بينما مطلوقة شعيرات سوداء تحيط بتلك البشرة الخمرية الطازجة وتلك العيون العسلية مسكرة اللحظات، يهفو لها قلبه كأنما دبيب ألف نملة تمشي طوابير في صدره، لما يرى ذيل الفستان الكاشف عن كعب مرمري يؤذن

برحيلها عن المكان، فيأخذ قلبه متكعبلًا في كعبها. صارح أخاها طالبًا القرب فقربه. كانوا طلبة، ولكنهم كانوا رجالًا، أو لعل أخاها كان يبغي أن يجنده في جماعة الإخوان، فقد كان عضوًا من هؤلاء الذين بهت الحق أمامهم حتى زاغ عن الإسلام بالولاء للإخوان، لكن شكري لم يرَ في ذلك بأسًا، ولم يجد ضررًا ولا ضرًّا في القرب من أخيها وجماعته وإخوانه، فهي ساعتها كانت أقرب إلى إسلامه الصريح الفصيح، فلا تشغلنه هذه الاشتراكية التي يجلجلون بها في جنبات الكلية وقاعات الجامعة أو في برامج ونشرات الإذاعة وصفحات الجرائد، ثم إنه لا يطيق تلك الصفاقة بين البنات والأولاد التي يشهدها في الجامعة، فهو قادم من ريف الصعيد، حيث النساء عورة وعار، والمدينة غريبة تشرد به وتغرب، وتزيده عزلة فوق عزلته، فهو الذي لم يجد حنان أهل، فمجه واعتبره ضعفًا لا ينبغي له أن يشعر به، ولا أن يسعى إليه، لكن فتاته روت جدبه، وقضى سنوات الكلية الأولى يحلم بالزواج منها دون أن يفصح لها عن مكنون قلبه مكتفيًا بقلب أخيها.

دندن شكري مع نفسه شعره، فهو شاعر أشعر. ها هي قصيدته تجري في تلافيف ذاكرته، يسحب معها أسيوط ويصحبها:

ليل كالفحمة السوداء أسوده

هل غير الصبح يبدده

نعم هي تناص لقصيدة «أيا ليل الصب متى غده»، هل في ذلك عيب أو نقيصة؟

صبح المشتاق وموعده

بعد المحبوب يبعده

ياه! بعد المحبوب كثيرًا حتى كأنه تبدد متبخرًا.

إن جاء النجم يهدهدني

فالدمع بعيني يفقده

إن جاء البدر ليؤنسني

يحتال الليل فيرقده

كانت تلك ليالي الفقد والافتقاد، خصوصًا حين مات شقيق الحبيبة الخطيبة في السجن، فمات معه حبها، وكانت قطفًا دانيًا حتى قطعت الشجرة. آه لو واصلت كتابة الشعر يا شكري، لكنت أميرًا للشعراء، لكن أمير المؤمنين أغنى عند الله وأهم.

كانت الغرفة تتسع أمامه حين قام وخرج منها إلى مدخل الشقة، وقد سقطت أوراق الكربون الزرقاء والسوداء من على المائدة، فتشاغل بإعادتها للمائدة مكملًا نغم قصيدته:

فأنا السهران بمفرده

يقظان اللحظ مسهده

قلبي المسكين غدا أثرًا

أفنى الدقات تنهده

حين أمسك بالكربون وطواه ووضعه داخل هذا الظرف الأصفر، تذكر عندما طبع منشورًا كتبه بلحم قلبه يندد بعبد الناصر ونظامه وطاغوته، ويهدد وينذر، ومنح الإخوان شرفًا أن وضع ختم الإخوان المسلمين عليه وطبعه في مطبعة البالوظة، لم يرجع لأسرة إخوانية، ولا لنقيب في الجماعة، ولا مسؤول أسيوط، ولا لإخوان الجامعة، فهو فعل ما يعجزون عنه ولو خيالًا. كان

قد كتبه بخط يده ثم وزعه في المساجد عندهم في أسيوط، كما كان يفعل في توزيع إعلانات الجمعية الشرعية متحديًا الاثنين: النظام الذي قبض واعتقل، والجماعة التي خابت وخارت. أكان طيشًا؟ وما الطيش في الشجاعة وما الشجاعة إلا طيشًا؟ إن كان من لحظة ندم، فهي بسبب هؤلاء الرمم من الإخوان، وقد كشفهم داخل السجن وعرى سترهم، فقد تحلقوا في مجموعتهم من أبناء الميسورين وأهل المدن، وعافوا غيرهم من الشباب خارج جماعتهم، الذين لا يملك أهل أحدهم مالًا ميسورًا ولا وصلًا بسلطة ولا صلة بعائلات الصعيد أو أكابر الريف. في هذا الحوش الذي سمحوا لنا بالحركة فيه وقت الفسحة من الزنازين، إذا بي أرى كل يوم إخوان الهضيبي متجمعين متكومين متحلقين وحدهم، كأنهم يفرون من مجاذيب أو مجذومين، ومجموعة أخرى من إخوان سيد قطب متكتلة وحدها في ركن، وبين الإخوانين نفور وخصومة: فالأولى تتهم الثانية أن طيشها وحماقتها وقطبها هدد الجماعة وأضاع تلك الامتيازات التي حصلوا عليها في السجن، بل بدد الوعود بالإفراج، بل العودة للوظائف والمناصب بعد العودة إلى البيوت، جاء قطب ونقض غزلهم وأفجع آخرتهم. والثانية ترى عجائز الجماعة ممن قضوا سنوات السجن فقضت عليهم، وأنهم سلموا قرآنهم ليهود خيبر. وكلاهما أوسخ من بعض. إنه الغبش في التصور، والضلالة في الفكر، حيث ظنوا أنه يمكن أن يكون الناس حاكمين بغير ما أنزل الله لحظة من الزمان وهم مسلمون في نفس الوقت، ظنوا ذلك وصرحوا به، ونادوا بفكرة المرحلية لبلوغ الحكم بما أنزل الله، وأعطوا أئمة الكفر ختم وخاتم الشرعية ضمنًا وتصريحًا بأن يحكموا بغير ما أنزل الله فترة من الزمان، يتدرجون بزعمهم بعدها إلى الحكم بما أنزل الله، فأخطأوا مرتين: أخطأوا حين ظنوا أن الجاهلية يتم اقتلاعها حجرًا حجرًا، وأن التسليم لله يكون لبنة لبنة، وأخطأوا حين ظنوا أنهم مسلمون. لذلك هجرتهم في مضاجع كفرهم. كم كنت منيرًا صادحًا بالحق صريحًا بالوعد. بدأوا يجمعون توقيعات الإخوان في السجن تأييدًا لعبد الناصر حين أغلق الحدود أمام اليهود واستعد لحرب ضد إسرائيل زعمها زعيمهم لا تُبقي ولا تذر، وكان السجن كما البلد كلها أيامها هائجًا منتشيًا بوعود دخول تل أبيب التي صدقها الإخوان فخافوا انتصار عبد الناصر وهم سجناؤه، فكتبوا البيان المتذلل، وطلبوا أن ينضموا إلى جيشه ليحاربوا العدو معه ووراءه، وربما تحته، ولما ينصر الله مصر يعودون إلى سجنهم. هكذا أيها الغرابيب السود، لقد انفضحوا جميعًا بين متكالب وخائر العزم ومدلس، فلا استجاب لهم عبد الناصر، ولا انتصر في حربه، فتذللوا لمذلول، فاعتزلتهم يا شكري وربح البيع يا أبو سعد. ثلاثة آلاف إخواني وقَّعوا تأييدًا لعبد الناصر ومبايعة لسياسته إلا ستة وثلاثين، أنا فيهم، أنا منهم. لا ينسى يوم جاءهم هذا المسؤول الأمني متبخترًا بياقة بذلته وقبعته وتلك النجوم والنسور على كتافتيه، وجمع السجناء من الإخوان في فناء السجن ليحاضرهم، ويضع لهم مع الوعيد وعدًا، ومع العصا جزرًا، وطاب مجلسه مع الإخوان الذين زورًا وتزلفًا وافقوه على ما يقول، ومضوا معه فيما يقر، يتوافقون معًا فيما يتباحثون معًا حول إزالة آثار العدوان الإسرائيلي، لا يعنيني هذا العدوان ولا آثاره، بل مرحبًا بالعدوان الإسرائيلي ولتنطبع آثاره على جباهكم وأقفيتكم يا كفرة، قمت منتفضًا كالأسد الهصور وصرخت فيه:

- أنت يا أخينا عميدًا كنت أو عقيدًا مجرد كافر.

بهت الرجل، وبال الإخوان على أنفسهم، لكنني مضيت مكملًا بالصدح أصدع حصنهم:

- أنت كافر ورئيسك كافر.

ثم التفتُّ إلى الإخوان أنفسهم، وقد امتقع فيهم من امتقع ومن دارى انفضاحه بالنظرات المتهكمة لي وبالرقاعة المبتسمة ادعاء بخلل في عقلي، فصحت:
ـ وأنتم أيها الإخوان كفرة ولستم مسلمين. وأشهد الله أنني من اليوم لا أصلي معكم ولا خلفكم أبدًا، ولا أدنس يدي بمصافحة كافر منكم، ولا بمناظرة كافر بينكم.
عاد وصوب نظراته وهتافاته على ذلك الضابط الكبير المتصاغر على مقعده أمامه، وقد مجه شكري ونهره وشخط فيه:
ـ أنت كافر من جنود فرعون، وأنا أحذرك الغرق.
حاول بعضهم من إخوان أو ضباط أمن الدولة أو حراس السجن أو المأمور أو سافل منهم أن يتمازح فقال:
ـ وأين عصاك يا عم موسى؟
فارتد وجه شكري مربدًّا متجهمًا، وصرخ فيهم بعقيدهم أو عميدهم هذا وقال:
ـ بل أنتم كفرة ومرتدون.
ثم أدار إصبعه نحوهم يلف دائرة كاملة من المنصة المنصوبة إلى آخر صف من السجناء يقف خلفه عساكر وحرس:
ـ وأنتم جميعًا مرتدون وكفرة.
وبقيت في الزنازين وحدي مع أولئك الخمسة والثلاثين، فقد هزمت عبد الناصر وإخوانه معه، لكن قد خذلني الشيخ أو الذي كان شيخًا، الأستاذ الأزهري علي عبده إسماعيل، بملامحه التي كانت وضيئة، ووجهه الذي كان أبيض بياض الحق، وكلماته التي بترت الباطل. وكنت قد ظننته قد عقل وتاب وأناب عن لغو الإخوان وكفرهم بعدما أعدم عبد الناصر شقيقه عبد الفتاح إسماعيل مع سيد قطب وطائفة منهم، وكان قد قال حين احتكمنا إليه وقد فتحت نكسة يونيو أبواب الزنازين الانفرادية لخروج أصحابها إلى فناء السجن، وقد انقسمنا شطرين: شطر أخذته معي وشاركني فيه عبد الله السماوي (أجهل هذا الدعي العجل البقري لماذا يُسمي نفسه الآن طه السماوي، ثم هل لا يزال يتحسس مؤخرته كثيرًا؟!)، وقلنا إننا لن نصلي مع من لا يُكفر الحاكم. وشطر أصر على غيه ولم يقر ولم يقرر جبنًا وخوفًا أو نقصًا في الدين والإيمان أن الحاكم كافر. رد علينا الشيخ (الذي كان شيخًا) علي عبده إسماعيل بعد ردح من الأيام وقد نادانا وأوقفنا حوله في فناء السجن:
ـ من يُسمي نفسه بأسماء المسلمين، أو يحمل في بطاقته هوية الديانة مسلم، فلا نحكم عليه بالإسلام ولا بالكفر، لكن نتوقف حتى نتبين إسلامه من كفره.
استحسنت الرأي وتأثرت به، فهو أولًا ينتصر إلى رأيي بكفر الكافر الذي يظن نفسه مسلمًا، ثم إنه ثانيًا لم يوافق على من لا يرى الحاكم كافرًا، ثم أعجبتني جملته التي صارت قاعدة، التوقف والتبين، وهأنذا قد توقفت وتبينت وأقررت بأنهم جميعًا كفرة، لكن علي عبده نفسه هو من يجمع الإخوان ثانية في ساحة السجن، ويقف بينهم، ثم يفاجئ الجمع المجتمع الذاهل بفرد ذراعيه ونزع طرفي بذلة السجن ثم يقلعها ويخلعها من رأسه، وهو يقول:
ـ لقد خلعت التوقف والتبين من رأسي كما خلعت ردائي هذا.
* * *

عاد شكري إلى حصيرته، وتقرفص مربعًا ساقيه، وهو يربت على فخذيه. لم يتأخر ماهر عن الحضور رغم أنه يسمع صوتًا قادمًا من ميكروفونات مساجد ضرار تملأ الحي يؤذن لصلاة الفجر، تتبعه مآذن أخرى، فيتداخل الأذان بأصوات مؤذنين يظنون أنهم يؤذنون أذان الحق، هذه المساجد التي يطل عليها من شرفة شقته فيشفق على عمارتها لا على عامريها، هؤلاء الذين يدخلون ويخرجون منها ظانين ظن السوء أنهم مسلمون حين يسجدون ويركعون، وكل منهم آثم قلبه يعيش بمعصيته وكبائره، وأي معصية أكبر من أنه يعمل في هذه الدولة ويتقاضى أجرًا منها أو راتبًا، أو أنه يقبل بأحكامها على غير شرع الله وشريعته؟ لم يحدث أن فرقت الشريعة بين الكفر العملي والكفر العقلي، ولا جاء نص واحد يدل أو يشير أدنى إشارة إلى أن الذين كفروا بسلوكهم غير الذين كفروا بقلوبهم واعتقادهم، بل كل النصوص تدل على أن عصيان الله عملًا والكفر به سلوكًا وواقعًا هو بمفرده سبب العذاب والخلود في النار والحرمان من الجنة، نعوذ بالله من ذلك. يكاد يخطب فيهم الآن من الشباك ألا تقربوا المسجد المفتوح أمامي، فأنتم لم تسلموا بعد ولا عدتم عن كفركم.

ارجع يا أخينا إنت وهو، إنت فاكر نفسك مسلمًا وداخل جامع، لا أنت مسلم ولا هذا المبنى الخرب جامع، بل هو مسجد نفاق ومسجد ضرار، لم يعد مسجدًا واحدًا في مدينة الرسول هدمه وأحرقه بل توالد مساجد ضرارًا، هل أي مبنى توضع عليه لافتة مسجد سُمي مسجدًا لله؟ تريد أن تجيبني، إذن اثبت لي أن هذه المساجد حقيقة مساجد الله بالصفة الشرعية التي بينها الله في كتابه، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا، ألا تدعون فيها للرئيس المؤمن محمد أنور السادات؟ ثم ألم يقل الله عز وجل بيانًا ساطعًا: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ» وافرض خمسة آلاف مشرك يصلون الجمعة في مسجد عمرو بن العاص في مصر القديمة، هل يجعلهم ذلك مسلمين؟ أو يجعل هذا مسجدًا لله؟ لهذا حرمت على المسلمين الحق في جماعتي الحق الصلاة في تلك المساجد، بل ومنعتهم من صلاة الجمعة، فلا جمعة تصح إلا حين نملك الأرض، إن صلاة الجمعة لا تجوز للجماعة المسلمة إلا أن تكون ممكنة ظاهرة، فهذا شرطها الأول، فصلوا في بيوتكم الجمعة ظهرًا ولا تظهروا في مساجد الشرك تدعون في الصلاة لحكام المسلمين أن يوفقهم الله، الله يحرقهم، فلا هم حكام ولا أنتم مسلمون، بل طواغيت وأذناب اليهود وعرائسهم.

مال شكري مصطفى برأسه على حافة الشباك، ولم يهتم بأن يكون مخبر كامنًا وراء عمود أو تحت شرفة يراقب الشقة، وبحث بعينيه عند ناصية الشارع لعل ماهر قد جاء، لكنه لا يستأخره ولا يستبطئه ولا يشك في حضوره. ها هو شخص يظهر، لكنه يتجه ناحية المسجد في هزيع الليل المنثور بأنوار الأعمدة وفرع من اللمبات معلق على باب الجامع وسوره. إياكم أن تصدقوا الهلاوي الخبيث وأمثاله، حين يكاذبكم ويقول إنكم كفار نعم، ولكن كفر النعمة، وحياة أمك يا هلاوي، هل يخيل علينا هذا الكلام، حين تتمطع وتقول إن كفر الناس في مصر هو ككفر الزوجة بالعشير، وكفرها بالإحسان، كما جاء في حديث ابن عباس عن النبي. وهذا بقى بسلامته ما يفعله ويعيشه أهل الأرض الآن، كفر النعمة الذي لا ينقل إلى كفر الملة، أليس هذا ما يلغو به ويلهو أمثال الإخوان ومشايخ السلطة من أزاهرة وأوقاف مثل هذا المرتد الذي يسمونه الشيخ الذهبي؟ يردون علينا بأن هناك كفرًا دون كفر، يعني رأيكم إن فيه كفرًا لكن درجات وأنواع، هل الكفر فاتورة قماش في صيدناوي ولا عمر أفندي يا كفرة؟ بل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». وقد شمل الزنى والسرقة وشرب الخمر

والانتهاب في البخاري، و«لا يدخل الجنة نمَّام»، و«لا يدخل الجنة قاطع رحم». عمومًا غدًا، ولعل الغد قد أوشك، سيعرض الإسلام على هذا الرجل الكهل الذي يهرع ناحية المسجد خارجًا من وراء السور المبني أمام عمارته ليحميهم من شظايا القنابل التي كانت تطلقها عليهم طائرات اليهود. سأبلغ هذا المسكين (نعم أنا رحيم بالكفرة لكني جبار مع المرتدين من أمثالك يا هلاوي) كما أبلغت هؤلاء الرجال في جماعتي الذين لبوا وآمنوا، وها هم ينفذون الآن ما أمرتهم به من خطف الذهبي، وحين تبلغكم دعوتنا يا مصلي الصبح يحين امتحانكم، فإما إسلام وإيمان، وإما ردة وقتل، لا شأن لي بكم الآن، فلا نمد لكم يدًا ونكف أيادينا عنكم ولا نضرب عليكم سيفًا، فأنتم كما مكة قبل البعثة لم تبلغكم دعوة الإسلام حتى تستجيبوا لها وتسلموا بها، دماؤكم لا زالت حرامًا علينا إلا من بلغه أمري فلم يسلم، هو النذير أولًا ثم الإنذار ثانيًا، لم أشترك يومًا في ضرب أو اعتداء، ولم أتدرب على سلاح قنص أو تفجير قطُّ، ولم أعلِّم جماعة الحق من المسلمين معي شيئًا مما يعلمه إخوان الهضيبي والتلمساني لرجالهم من فنون القتل والنسف والتفجير، بل نحن سلاحنا السكين والسيف فقط، وهما سلاح النبي نخوض بهما حرب آخر الزمان التي أصبحت وشيكة، أوشكت ولا شك، فقد سيطر اليهود على الأرض وتمكنوا من رقاب المسلمين والنصارى والمشركين، مما يؤكد قرب نزول المسيخ الدجال، وقرب نزول عيسى ابن مريم. وإننا جماعة الحق التي تستحق الخلافة في الأرض على هدي النبوة، ونحن من سنقود الجيش مع المسيح، فقد كلفني الله بإمارة جماعة آخر الزمان، وعلى أيدينا يظهر الإسلام على كافة الأديان، ونفعل ما تركه النبي لنا دون تمامه، فقد مات ولم يظهر الإسلام على كافة الأديان، فنتمه نحن، ونرفع نحن رايات النصر في كل صقع. أتظنون راياتكم في قناة السويس حين عبرتم في حرب أكتوبر نصرًا؟ بل هي حرب كفرة ضد كفرة.

أغلق الشباك وهو يعود فيقرأ على نفسه شعره، فكأن الليلة مخصصة لديوانه الذي خطه بيده، وكتب مقدمة قبل كل قصيدة، ووضع سطورًا تحت أبيات بعينها يبرزها، وشكل حروفها بالأحمر، فأضاءت الضمة والفتحة والشدة سطور الصفحات:

اسمعني يا عبد الله
واخرج من أرضي واتبعني في أرض فلاة
أرضي في قلبي لم يعبد فيها الشيطان
أرضي في فكري أحمله في كل مكان

عاد فقام وراح إلى الحوض، وبدأ يتوضأ وهو يلقي بصوت مرتفع كأنه وِرد وذِكر:

فاحمل أوزارك واتبعني يا عبد الله
يكفينا زادًا في الدنيا هذا القرآن

تمضمض بالماء، فأحس غسيل حبال حنجرته من الغبار فجلجلت نبرته:

في أرض الهجرة يا صحبي طهر وسلام
وعبادة صدق وخشوع بين الآكام
وفرار من سخف الدنيا ومن الآثام
وحكومة عدل وأمان

أنهى الوضوء وقد أحسنه، ثم رجع إلى الغرفة فتمجلس فيها، وصمت برهة ثم عاد وعلا صوته وأكمل:

وصدقني في الأرض الواسعة أمان
فتعالى الله تعالى يا عبد الله
ماذا يعنيك من الدنيا بعد الإسلام
أنا لن أستسلم
سأحارب جيش الأصنام

أنعشه شعره، فلا يؤنسه إلا نفسه. نهض للصلاة فصلى. وأحب أنه رفض أن تصحبه أي زوجة من زوجاته هذه الليلة، فقد أصاب حين أفرغ الشقة إلا منه. كان قد أمر الجماعة بألا يجتمع أكثر من ثلاثة منهم معًا، فلا خير سيأتي من الثرثرة بينهم أو الأسئلة والجدل الدائر بين الألسنة، فقد كثرت الأسئلة هذه الأيام منذ فعلها هذا الدني الدنيء الهلاوي وقرينه أبو دلالة، ربما يكفيهما درس الطعنات بالسكاكين تبقر بطونهما، لكن أبو دلالة قفز من الشباك هاربًا بجروحه المتقيحة، لكنه لن يسمح لآخرين بأن يشوشوا على أعضاء الجماعة، أو يرمي الهلاوي وأبو دلالة وغيرهما من المرتدين وعملاء المباحث ومخبريها ريبتهم في لبن إيمان الجماعة فيعكرونه. سأحاربهم، لقد ظنوا استضعافنا ضعفًا، لكننا نزداد قوة ومكنة، وأنا الموعود بالخلود حتى قيام ساعة المسيح فيحارب في جيشي، فهم صغار وأصاغر، سواء كانوا مرتدين من صحبي، وقد ارتد صحابة عن رسول الله، أو رجال الحكم من كفرة الضباط والصحفيين والمشايخ، وها هو صنم سيسقط الليلة مع هذا الصبح الأبلج بعد قليل، لعل ماهر في الطريق إليه من شقة الهرم، لكن لا ذرة من ترقب في قلبه، فهو مؤمن أنهم فعلوها، ونجحوا فيها.

تجول شكري في الشقة التي تبدو خالية من الأثاث إلا أريكتين خشبيتين في غرفة جعلوها للاستقبال والاجتماع، ومائدة صغيرة في مدخل الشقة مفروش عليها مفرش من بلاستيك أبيض، أما المطبخ فلم يكن فيه إلا بوتاجاز مسطح بلا فرن مربوط بالأنبوبة الزرقاء الصغيرة، ورفوف خشبية مع مائدة صغيرة تحت شباك المطبخ، في الممر حوض الوضوء لا تعلوه مرآة، حنفية في حوض قيشاني موصول بماسورة في الحائط تدخل إلى حمَّام الشقة الضيق، حمَّام قدم حين يقرفص المتبرز فاتحًا بين قدميه يضعهما على طوبتين من الحجر تسوران فتحة خرم واسع لقضاء الحاجة، بينما الماء يأتي من خرطوم ملتصق بفوهة حنفية إلى يمين الجالس للتبول أو للتبرز، الحمَّام في مواجهة غرفة جعلها شكري مصطفى للحريم، واحدة من ثلاث من زوجاته حين يأتي، فتمكث في غرفتها وتخرج منها للطبخ أو للغسل أو لأي من شؤون البيت حين تفرغ الشقة إلا من أميرها وسيدها وزوجها. أهذا مسكن المهدي المنتظر؟ أوَكنت تظن أن المهدي سيأتي من قصر منيف أو بناية شاهقة؟ بل هو من شظف العيش كما أنا تمامًا. نعم بيت مال المسلمين عامر بالمال من هؤلاء الذين قدَّموا ذهب زوجاتهم ودفعوا رواتبهم ودخولهم في السعودية، ومن زكاة الأعضاء الذين تكاثروا وغنموا، لكنني لم أنفق أموال المسلمين في عمارة شاهقة أبنيها أو فيلّا أمتلكها أو سيارات أركبها، بل هي شقق كلها مؤجرة أو مفروشة للجماعة، لا فضل لأحمر على أبيض أو أسود، بل لقد جهزت لهم أرضًا في مديرية التحرير حيث الغرباء هناك عاديون، فهي منطقة جديدة يتم تعميرها بالوافدين إليها، لا فيها قرى قديمة ولا عائلات ولا وجوه تألف بعضها أو تستغرب بعضها. أوفدت إلى هناك الأخ محمد حجازي ليعمل ضمن عمَّال الزراعة والاستصلاح، فيتعرف ويتشرب المكان، ثم ها هو يؤجر بيتًا ثم ثانيًا ثم ثالثًا، حيث سينتقل لها عدد كبير من جماعة الحق، وسألحق بهم في منزل هناك يضم العائلة كلها

زوجات وبنين، بل وبدأنا الحفر فيها لأقبية ومخابئ. نصر الله قريب أكاد أشهد حشوده وراياته.
تنهد ومسد رأسه، ثم قرر أن يضطجع ويفرد ظهره.
كانوا قد اجتمعوا منذ عدة ليالٍ حوله هنا في شقة دير الملاك:
ـ نعم، لقد قلت لكم إن منهجنا الشرعي هو كف اليد، نحن لا زلنا في مرحلة الاستضعاف، ولما نبلغ بعد مرحلة التبوُّء والتمكن، لكن هذا لا يتركنا أبدًا عرضة للأنواء ولا للمؤامرات وكيد المرتدين، فمنذ يومنا الأول قلت لكم كذلك إن الدفاع عن النفس حق وواجب حتى في مرحلة الاستضعاف.
نظر في ملامحهم، فرأى الإجابة بالتجاوب، ها هم رجال ميامين من جماعة الحق يحوطونه في اجتماعهم منذ أيام، هنا في ذات الشقة ونفس الغرفة يقررون أمرًا جللًا، وقد جلس يتوسطهم على الحصائر، وست سنوات تدور كالرحى في رأسه حيث ظل في السجن صامتًا مفكرًا مدبرًا، يعكف على قراءة الكتب كلها، ولم يدع كتابًا لأيٍّ من هؤلاء الذين يقولون عنهم أئمة الإسلام. وكانت قبضة الأمن قد ارتخت حتى تخلخلت في السجون، فصار دخول الكتب ميسورًا، فاعتكفت عليها، ولم أكن قد قرأتها قراءة المتمعن المتفحص هكذا، وقد أخذتني سنوات ميعة الصبا إلى السماع لا القراءة، إلى الوعظ لا الدرس، إلى الترديد لا إلى التفكير، فلما قرأتها كلها لم تروِ ظمأ، فقد كانوا جميعًا رجالًا يتنازعهم الاختلاف ويدفعهم الهوى، لكنه القرآن وحده فقط، حفظته، حتى مواضع الآيات في المصحف، وليس لهم جميعًا حجة بعد القرآن والسنة الشارحة للقرآن، هاتوا لي كتابًا لم أقرأه، اعرضوا عليَّ حجة فأحاججها ولا تغادروني معها أبدًا، وقد حفظت منها لا عنها، وأخذت منها تعلمًا لا علمًا، وإن استحسنت في التفسير كتاب ابن كثير، وفي السيرة كتاب ابن هشام، وإن كان في الحديث فأحسنها البخاري ومسلم، وإن كان فيما يتصل ببداية الحركة الإسلامية فكتب الشيخ سيد قطب.

* * *

لا يزال يذكر رسائله إلى ماهر بكري. ابن فوزية الغالية، أختي الكبيرة التي طلعت بها من الدنيا الفانية، بوجهها الطيب وكلماتها الحنونة، من تبقى من الأهل أهلًا، ومن كان بالدم والعاطفة أختًا وسط شقاق الأهل وهجر العائلة، كانت الوحيدة التي تزورني في السجن حيث لم أستقبل زيارة واحدة خلال السنوات الأربع الأولى، فلم يطلب أحد إذنًا بالزيارة، ولم أنتظر أحدًا ليزور، لكن في العامين الأخيرين ظهرت فوزية، وكانت تحمل هديتها معها؛ ابنها ماهر الذي توسمت فيه الخير مع النباهة، وأحبني فأحببته، فراسلته من سجني وراسلني. لا يزال يذكر خطاباته وهي تأتيه مفتوحة مكتوبة بخط بذل جهدًا في إجادته وكلمات عربية متفاصحة لزوم اكتساب إعجاب الخال القابع في سجنه، لكنه فتح له أبوابًا في عقله. كلما عنت لي فكرة ولاح لي رأي سارعت بكتابته في سطور إلى ماهر وأرسله إليه يحفظه عني، كتبت له:
على دماغي من فوق هؤلاء الأئمة، لكننا لسنا من نقلد، ولا نمشي وراءهم عميانًا، فأول كفر وقع في هذه الأمة كفر التقليد، وترك الهدى والاجتهاد فيه إلى التقليد، فهؤلاء جميعًا اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، ووصلت الحماقة بهؤلاء الأئمة جميعًا أن أوجبوا التقليد على العامة، وحرَّموا عليهم الاجتهاد في دين الله.
فيزوره ماهر ليسأل:
ـ يقولون ومن أنتم لتجتهدوا؟

وكنت أصمت صائمًا عن الكلام ليالي وأسابيع، لا أكلم أنسيًّا سجينًا أو سجانًا، فيظنون في عقلي اللوثة، فإن تماحكوا وحاولوا مناقشتي أنفر منهم وأردهم وأسبهم لاعنًا، فيغادرون المساحة الفاصلة بيننا ويتركونني في هجرتي وغاري، فلما يحضر ماهر ويسأل أتكلم أخيرًا وأفطر على إجابته من صيامي:

ـ نحن عباد الله يا ابن أختي، ولسنا عباد صحابة أو أئمة، أنا المسؤول أمام الله يوم القيامة عن عملي وعلمي، ومتى جعلتم الدين كهانة وشفرات وطلاسم كي تحولوا بينه وبين الناس؟ أما لو قلتم ومن أنا لأجتهد، فأزيدكم أنني لم أطلب الاجتهاد لنفسي فقط، بل للعامة. ثم من أبو حنيفة ليجتهد وقد كان تاجرًا للحرير؟ ومن ذلك مدرس الخط حسن البنا ليتحدث باسم الدين؟ ومن هو الشاعر الأديب الأريب سيد قطب لتقبلوه مجتهدًا وتمشون خلفه؟

كان ماهر هارون الخاص بي، وكان بمثابة علي بن أبي طالب من محمد بن عبد الله، أول من صدقني، وأول من انضم إلى جماعة الحق حين قررت الدعوة لجماعة المسلمين، سمع مني الحق كله فآمن به. كما انضم عبد الرحمن أبو الخير، الصحفي الذي كان بشارتي الكبرى، وعلامتي العلوية، فقد جاءني حاملًا كتابه «المفهوم الإستراتيجي للثورة». كم كان مزهوًّا بخبله، وكم كان فخورًا ببلهه، ومتباهيًا بعبد الناصر زعيمه وقائده ورثاثة حثالة أفكاره. صادفني أو انحدف أمامي أو انجذب تجاهي، فسمع وفكر، ودبر وتدبر، فكأنما محا حروف كتابه المطبوع، وطمس سطوره السارية، وتبرأ من دنس ناصريته، وأسلم وتل الجبين، وآمن بالإسلام دعوة محمد بلسان شكري، ومزق النسخ التي ألّفها، وهان عليه أن يجمعها من رفوف المكتبات أو أن يحرقها في هيئة النشر الحكومية التي أصدرتها كما أحرقها رمادًا في قلبه. وكان هو من خرجت به من هذا الجب العميق من صاحبي السجن، فقد تفرق الستة والثلاثون قابضو الجمر: فمنهم من خاب مسعاه وعاد للإخوان جريًا وراء الرزق، ومنهم من حشر نفسه مع ضلالية الجمعية الشرعية متخفيًا داخلها مع الإخوان المتخفين، ومنهم من تزعم جماعة أنصار السنة المحمدية منتظرًا راتبه الشهري من السعودية تؤجرهم لمهمة لا لأهمية. خرجت مع المفرج عنهم بعفو عام، فحمدت الله، ولم أحمد السادات على قراره؛ فهو طاغوت وشريك طاغوت. عدت فالتحقت بكلية الزراعة أكمل عامي الباقي لأتخرج مهندسًا زراعيًّا في الثلاثين من عمره. صاحبني صفوت الزيني طالب الزراعة الزميل بنظارته السميكة ولحيته الخفيفة التي زاد شعرها وملأت وجهه بعد أن ملأ عقله وفتح قلبه وأضاء روحه بالإسلام، إسلامي. كانت جماعة الإخوان تتغلغل بين الطلبة، وتتمكن من قلوب الشباب المتدين، وتنفتح لها دُرف الأمن على البحري، وتنفرج أمامهم بوابات الدولة مرحبة ومتحالفة، لكنني لهم، فإنها جماعة ضرار، افتحوا كراساتي واقرأوا ما أقوله وأعلمكم به وأنا الأعلم:

ـ الإجماع ليس حجة، وإنما الحجة في مستنده إن ظهر لنا، وإن لم يظهر فلا يصح أن يشرع لنا الرجال دينًا ونطيعهم فيكونوا آلهة وأربابًا من دون الله.

ـ لكنهم يقولون إن الصحابة...

ـ يا صفوت، الصحابة على عيني ورأسي، لكن لا ارتباط بين تقوى الله وتمام العلم أو العصمة من الخطأ، وإلا ما جاز للمبشرين بالجنة أن يختلفوا ويتقاتلوا، فليست التقوى هي أصل الفتيا، بل العلم مع الصدق.

يجلس ماهر بكري عن يمينه. آه يا ابن أختي، وذراعي اليمنى التي أشير بها وآمر وأهدد وأبطش، ها هي الجماعة المولودة أمام عينيك تتوسع ويدخلها الناس من كل فج عميق، نعم هم

قرابة أربعة آلاف الآن في يوليو عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين، لكن انتظر وانظر ونحن نرث الأرض ومن عليها. كنا كم عددًا يا ماهر منذ ثلاث سنوات؟ كنا مائة أو أقل يوم اعتقلوا عشرة منا في المنيا، حين كنا في كهوف جبلها نخزن الطعام والأشربة والتموين وقد هجرنا القرى الظالمة. ثم ها نحن الآن وماهر يعرف كل شيء عن العدد، فلا أقدر على أن أعدهم أو أسميهم، فماهر هو من يملك دفاتر الأسماء، يعرفهم نفرًا نفرًا، بعناوين بيوتهم وسكنهم الحالي وأرقام تلفوناتهم، بأماكن أعمالهم في السعودية، وهو الذي يملك نسخ الكراسات التي كتبتها بخط اليد، ونسخوا بعضًا منها، ويعلم المكان المحفوظة فيه والموزعة عليه، وهو الذي يحتفظ بشرائط الكاسيت للجلسات والمحاضرات والمناظرات. آه، أكل الجماعة في يد ابن أختي على شبابه؟ لكنه المخلص الأمين، يزعمون في حملاتهم الموتورة ضدي في تلك الصحف ببغاوات الشيطان أنني أجمع عيالًا وأشبالًا أمسح عقولهم، وماذا إذن عن الأساتذة والأطباء والمهندسين الذين تعج بهم الجماعة؟ والمرأة تترك زوجها الكافر لتدخل الدين وتنضم إلى جماعة الحق دون أن يطرف لها جفن من خوف أو جزع؟ كم رجلًا ودَّع أهله ودنياه الفاجرة وهاجر معنا لله ورسوله إلى أرض الهجرة، سواء كانت جبلًا في المنيا أو شققًا في القاهرة؟ أو هؤلاء الذين سفرناهم للسعودية والخليج يعملون هناك، ويعطون ثلث رواتبهم للجماعة وبيت مال المسلمين؟ آه، سيقولون هذه كان يضربها زوجها فجاءت للجماعة مستجيرة بالرمضاء من النار، وهذا فقير ضربه الفقر فوجد الجماعة غنى لنفسه وجيبه، وهذا مختل منبوذ في مجتمعه فلقي مختلين مثله فأحبهم وأحبوه، يقولون هذا جاهل استغفله شكري مصطفى. طيب، وماذا تقولون في طلبة الأزهر الذين وفدوا إلينا فأحسنا وفادتهم، حتى منهم المدرس والأستاذ، وقد تعلم منا ودخل تحت عباءتنا؟ هؤلاء المتخرصون من الجماعات الدنيئة أو شيوخ الدولة الكافرة لم يقرأوا لنا الأربعة آلاف صفحة التي كتبتها في التأصيل والتقعيد والتفقيه والحجيات. اقرأوا ردي على تأويلات المنتسبين إلى مذهب أهل السنة في إحدى عشرة كراسة، استغرقت سبعمائة صفحة في موضوع الإصرار، وكتاب التبين ذا المائتي صفحة، ومقدمة لأصول الفقه في ستمائة صفحة، هذا غير كتابنا في الخلافة. اتفضلوا هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، لا أن تردوا علينا باللغو والسخرية والادعاءات. لكن، أوَلم يقولوا عن النبي تبعه حثالة قريش وعبيد مكة وموالي القبائل؟ يضعون كل الاحتمالات بينما يستبعدون احتمالًا وحيدًا، يركضون وراء كل الأسباب البعيدة ويتجاهلون السبب الوحيد الذي يقف أمام حواجب عيونهم: إن من جاء للجماعة جاء إيمانًا واحتسابًا، فكر ودبر ثم صدق وانضم إلى هجرتنا.

ألم تقرأوا عني في كراساتنا أن وجود كيان إسلامي متجمع على نفسه خارج ضغوط الجاهلية هو هدف إسلامي شرطي ـ لظهور الإسلام ـ تسعى إليه الحركة الإسلامية من أول يوم، وذلك بتجميع الذرات الصالحة الضائعة هنا وهناك في مجرى النهر؟ طارق عبد العليم ذرة من ذرات النهر كما غيره، أجمعها معًا. نعم، حتى طارق أبو يوسف الضابط الذي كنتم تحذرونني منه خشية أن يكون مدسوسًا من الداخلية علينا، خصوصًا أنه كان أعلاكم صوتًا في الغضب وأكثركم حماسًا لأن نتحرك ونضرب على يد الظالمين، ثم هو مجالب السماوي وجماعته وقد انفض عنها، ألم أقل لكم إنه أسلم إسلامًا صافيًا، بل لقد تراجع عن فكرته بنسف مبنى أمن الدولة في بني سويف لأنه أدرك أننا لا زلنا في مرحلة الاستضعاف، وأن ما فعله من خطب في الدين وسط الضباط أو زعيقًا في القسم أو المديرية يطالبهم بتطبيق الشريعة لم يكن فخًّا لنا لنقبله، بل كان نزقًا منه بحثًا عن طريق، فلما وجدنا في طريقه آمن بنا، واعتزلهم معنا، ثم نقوم بالقفز بهم

(بكم جميعًا) قفزة رائعة خارج المجرى. إنها الطريق، وإنها بداية الحياة وبداية الانطلاق حقًا. وهكذا الحل ـ حل الاعتزال ـ هو الحل الحق في جميع الحالات الفردية والجماعية، فقد جاء في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «هلاك أمتي على يد أغيلمة من قريش»، فما المخرج من ذلك؟ قال: «لو أن الناس اعتزلوهم...». نعتزلهم، ولكننا نملك حق الدفاع عن أنفسنا حتى يتركونا على اعتزالنا وهجرتنا منهم بينهم. يا ماهر، أبو يوسف ليس دسيسة، بل الدس كله جاء من رفعت أبو دلالة عسكري الصاعقة المجند الذي جاءنا بعد انتهاء تجنيده مزودًا بالقوة والتدريب ومنضويًا في جماعة المسلمين مهاجرًا ومعتزلًا، ووضعناه مسؤولًا عن التدريب والعسكرة. فماذا فعل؟ جرى وراء حسن الهلاوي، وانشق آخذًا معه حفنة من عيال. بينما طارق أبو يوسف هو من أطاع وطعن الهلاوي بسكاكين القصاص، لم يتردد ولم يتراجع، وها هو معنا ونحن نقرر قرار الذهبي، ومعنا أنور مأمون وكنيته أبو مصعب. طبعًا سوف يسخر منا الساخرون الملحدون لأننا نتسمى بكنيات من أسماء السابقين الأولين، ولكن اليساريين والشيوعيين إن حملوا أسماء حركية كانوا وجهاء شطارًا، أبو عمار وأبو جهاد وأبو إياد حلو وجميل للفلسطينيين والمقاومة الفلسطينية، وأن يتسمى كل شيوعي باسم مغاير لاسمه تخفيًا وسرية فهذا مكر ولزوم النضال، لكن ماهر بكري يكون أبو عبد الله اسمه وكنيته، ومحمد عباس أبو العباس، ومصطفى غازي أبو توبة، ومحمد أبو عبيدة، ومجدي صابر أبو هيثم، وصفوت الزيني أبو طلحة، ومحمد الأمين أبو الغوث، فهذا وايم الحق تخلف وبدائية، يا لهم من كفار في اللجاجة والسخافة! كان أنور وكل هؤلاء الأبوات (عندًا فيكم) في ذات المجلس ونحن نقر قرار دعيكم الذهبي، كنت أستشيرهم فلا غصب عليهم في أمر أمرنا به، بل هو الرأي والمشورة، لكن إن جعل الكلمة واحدة والضربة واحدة والجماعة حقًّا لا يكون إلا بالإمامة والطاعة، ففي قيام ونشأة الحركة الإسلامية من الجاهلية يكون ترتيبها الطبيعي أن يقوم رجل فيدعو الناس فيستجيبون له، قال تعالى مقررًا قاعدة عامة في وجوب اتباع الهادي الأول: «أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

أومأ شكري وقد انتظروا كلامه كماء للعطشى، فتكلم وروى:

ـ إن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فهداني برحمة منه إلى ما أعتقد أنه دين الله، ثم هدى بي من شاء من عباده، فاتبعوني ائتمارًا بأمر الله واعتصامًا بحبله.

وافقوا وأمَّنوا، لكنه استدرك وفصل:

ـ للإمام أن يأمر من غير بيان علة الأمر، بل من الواجب عليه ذلك فيما يرى أن في كلماته صلاحًا أو أن في إفشائه خطرًا، وعلى المأمور أن يسمع ويطيع في كل ذلك حتى فيما دخل فيه الاحتمال أو الشبهة.

أمعن في وجوههم بحثًا عمن تساوره الشبهة:

ـ إذ ليست الشبهة أو الاحتمال معصية مستيقنة أو كفرًا بواحًا.

استمهل ملامحهم قليلًا لعل الشبهة تظهر منهم وفيهم، صمت برهة كافية لبلع ريق:

ـ والحق، كل الحق، هو طاعة الإمام فيما تحب وتكره، وفيما يشتبه عليك وما لا يشتبه عليك، إلا إن رأيت منه كفرًا بواحًا عندك فيه من الله برهان، فحينئذ لا سمع ولا طاعة.

أكمل وقد أنصتوا:

ـ ورغم ذلك، فقد آثرت فيما نحن مقدمون عليه أن أسمع رأيكم وألزم نفسي به كالعادة (لم تكن عادته إطلاقًا، وقد كتب في كراساته التي يتناقلونها حفظًا وتدارسًا أن للإمام الحق أن يتدخل ليوجه عناصر القوة في الجماعة، وأن ينسق بينها حسب رؤيته للمصلحة إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وأن أيام الهجرات ومطاردات الكفر للمسلمين وبدايات الانطلاق للعمل الإسلامي، لهي أولى الأيام وأدعى الضرورات لتدخل الإمام)، فلن تخرج سرية إلا ويوقن رجالها أنهم أصحاب قرار خروجها.

تكلم ماهر ولم يكن لأحد أن يسبقه في الكلام، فهو الأمير الثاني، وشقيقه هاشم محبوس ضمن المحبوسين من الجماعة في سجون الكفر:

ـ لم يعد ممكنًا السكوت يا أبو سعد، فقد أشعلوا نار الحملات علينا في الصحافة، وزاد حقدهم واشتد، وقالوا عنا جماعة التكفير والهجرة!

ابتسم شكري:

ـ لكننا فعلًا نكفرهم، ونحن حقًّا نهاجر عنهم.

ـ نعم، لكنهم يقصدون من هذا تنفير الناس منا، ورد الشباب عنا، فكأننا من نجبر أولاد هذه العائلات التي تسارعت الصحافة لنشر قصصهم: ابني قال لي أنت كافر وهجر بيت العائلة ويعيش في الصحراء. أصل زوجتي هجرتني وانضمت إليهم وزوجوها واحدًا منهم.

تدخل طارق:

ـ سنصبح مسؤولية مباحث الآداب إذن!

كان شعورهم بالإهانة جارحًا وعميقًا من تلك الموضوعات التي نشرتها الصحف تطعن في نساء الجماعة، وتقدِّمهم جماعة تتزوج بغير عقد وتهجر لها النساء من أزواجهن. كانوا شبابًا فائر الدم، صعايدة وريفيون بالمولد والمعيشة والنشأة، فكان الكلام عن النساء طعنًا في شرفهم واعتداء على رجولتهم وتشويهًا لسمعتهم بين أهليهم وقراهم، ففكروا مثل أي صعيدي ريفي يسمع أن جارًا يتقول على سمعة أخته أو زوجته فيمد يده إلى الشومة وبندقيته إلى الصدر، ثم لما رأوا الأمر شرعًا قذفًا للمحصنات، فأرادت القبضات أن تجلد أي جلد تصل إليه كرابيجهم، ثم لما كانت هذه الصحف صحفًا يُملى عليها من أمن الدولة، فقد انخدش غرورهم، فقد ظنوا أن الأمن لا يقدر على ردعهم، وأنه يخشاهم ويتوقى الصدام معهم، فلما تجرأت أقلام أجرائه عليهم، كانت رغبتهم أعلى صوتًا من خططهم تطلب الانتقام.

حانقًا تحدَّث أنور أبو مصعب:

ـ بل هم من خطفوا الطفلة فاطمة من أمها، زوجها المرتد الذي غادرنا وهرب تاركًا زوجته الأخت الفاضلة التي آمنت حقًّا حتى إنها لم توافقه على جرمه ولا شاركته في ردته، وبقيت على إسلامها معنا تربي ابنتها، وتطلقت منه بأوراق طبقًا لشرعهم، وتزوجت الأخ أبو هريرة، فيخطفها هذا الأب المرتد ويختفي بها بمعاونة الشرطة، وينشرون هذا الكلام في الجرائد كأننا العصاة الزناة.

أضاف ماهر:

ـ وقد أخذوا أصحابنا من بيوتهم للسجون.

أبو عبيدة الذي هو أبو دنيا قال:

ـ السمع والطاعة يا أبو سعد، أنفرنا إلى غزوتك.

كأنما ضج أبو عبيدة بالمُعاد من الكلام، أو أراد أن يصوب نحو هدف الاجتماع، وأن يجدد البيعة والسمع والطاعة للأمير المهدي.
كان شكري قد امتلك عليهم قلوبهم، ينظرون إليه مهديًّا منتظرًا وهاديًا حاضرًا وخليفة راشدًا، فلم يكن أي منهم في هذه اللحظة إلا زنادًا يتمنى أن تضغط عليه سبابة أبو سعد، فالرجل لا يتحدث معهم إلا بالقرآن الكريم، يردده ويلهج به، وينير لهم طريقهم إلى الله، وينتشلهم من محاضن الكفر، ويثبت إيمانهم. حتى وهم يشاهدون هذا اللجج والعنت من المنشقين المرتدين عنهم، يرونه صلبًا متمسكًا بقرآنه، ومتماسكًا رغم وهن البعض، ما يترى عليهم من هجمات في صحف الدولة، وهو ثابت الجنان لا يهتز ولا يرجف، بل يعدهم بالفوز والنصر. الآن موعدهم مع لحظة انبلاج الصبح، خطة محكمة وضعها طارق مع ماهر يباركها الأمير لدهس رؤوس الكفر.
بدأ ماهر أبو عبد الله يشرح الخطة، وقد وضع ورقة مقطوعة من كراسة ومرسومًا عليها أسهم، ومخططًا فوقها شارع وبيت وطريق، وموضوعة على جوانبها أسماء. يتابع طارق عبد العليم الشرح والتكليف بفخر من أعد الخطة، ويجد فيها أنور مأمون فخرًا حيث هو من استطاع أن يأتي بعنوان الشيخ الذهبي وعاين بيته مع طارق:
ـ ماهر ومجدي صابر في شقة نصر الدين بالهرم حيث ينتظران خبر إتمام التنفيذ.
نظرة انتظار سكنت عيونهم اللهفى، ثم زفير مع برهة صمت، ثم إصغاء مع رهبة ترقب، وأكمل ماهر:
ـ وأنور مأمون وطارق عبد العليم في السيارة الفيات الـ١٢٨ يقودها محمد أبو دنيا، ومحمد صقر في السيارة المازدا يقودها إبراهيم حجازي.
أضاف ماهر:
ـ هذه هي مجموعة الخطف، أبو يوسف بالبذلة الميري، وأبو مصعب مباحث أمن دولة ولا يحتاج بذلة رسمية، وأبو الهيثم وأبو دنيا كذلك. ويخرجون بالذهبي على السيارة الفيات، بينما يعود أبو الهيثم إلى السيارة المازدا ليركب مع أبو سهل، على أن يكون أبو سهل واقفًا بالسيارة في مكان أبعد ومتخفيًا بالسيارة حتى يراقب العملية، ويكون بمثابة الاحتياط للتدخل في حالة أي طارئ مفاجئ.
أومأوا بالرضا، لكن أبو سهل هو من سأل:
ـ هل هناك سلاح؟
رد ماهر:
ـ أبو يوسف فقط، باعتباره الضابط القادم من القسم، هو من يحمل الطبنجة.
ثم التفت إلى شكري:
ـ نحن قلنا من باب التأكد والتيقن، يكون هناك مدفع رشاش مع أبو مصعب.
تساءلت عينا شكري، فأجاب:
ـ ومدفع آخر في السيارة.
ثم أضاف باسمًا:
ـ لو أمرتنا فستكون لدينا ترسانة سلاح غدًا لكننا ملتزمون بالسيف.

تدخل طارق:
ـ لن تكون هناك مقاومة من الذهبي ولا أهله، ولا وجود لسلاح لديهم، ثم لا حرس على البيت ولا على الرجل.
لم يعلق أحد، فواصل ماهر:
ـ صفوت الزيني أبو طلحة ورؤوف عبد العزيز مسؤولان عن توزيع البيانات.
ـ هل كتبناها؟
ـ سنكتبها الآن، فالأخ أبو طلحة قادم بالورق والكربون في الطريق.
ـ والصياغة؟
نظروا إلى ماهر، فأومأ إلى شكري بتمام الأمر، فقد جلسوا معًا ساعتين تداول فيهما كل واحد منهم شرطًا ومطلبًا وهدفًا حتى ضفرهم ماهر ضفيرة واحدة، سيقدمها للأمير بعد انقضاء إملاء الخطة.
عاد ماهر وأكمل:
ـ أحمد نصر ومحمد قطب في شقة شارع حسن محمد لاستقبال مجموعة العملية واستلام الذهبي، بعدها يستلم مصطفى غازي أبو توبة مع أبو هريرة وأبو نعمان حراسة الشقة.
بدت العملية أسهل مما ينبغي، وأبسط مما توقعوه، بل هي أيسر سبيلًا من الهجمات على الهلاوي وأبو دلالة، فانشرحت صدورهم، خصوصًا عندما حضر صفوت الزيني وقد حمل معه حقيبة بلاستيكية فيها رزمة الورق الأبيض والكربون وأقلام جاف من النوع الجديد الذي يملأ مصر الآن، أقلام بيك، ثم فرشوا الأوراق على المائدة الوحيدة.
أخرج ماهر الورقة الصغيرة المطوية في جيبه بخط يده للبيان المجهز، وقدمها إلى عيني شكري، فتفحص السطور سريعًا، وقرأ متمتمًا وهم يتابعون طرب كلماته، يجتاحهم الجذل، ثم فاجأهم بالجلوس على رأس المائدة، ووضع الكربون بين صفحتين ورفع يده، فناوله الزيني القلم، ثم بدأ الكتابة ناقلًا النص من ورقة ماهر، فاغتبطوا بهذه البركة:
ـ بخط يد الأمير نفسه.
تضاحكوا، وأخذوا يقرأون ما يكتب:
ـ لقد بدأنا شوطنا، واخترنا طريقنا لتأديب عصاة الله وتهذيب مستحلي الضلالة، مبتدئين بمحمدٍ حسين الذهبي وزير الأوقاف السابق وصاحب الكلمات البلقاء على الله وجنده، آخذينه رهينةً حتى تتحقق مطالبنا وفي مواعيدها المحددة (سمع تكبيرات وتهليلات)، وهي: ١- الإفراج عن المعتقلين والمسجونين الواردة أسماؤهم في كشف مرفق في أجل غايته الثانية عشرة ظهر الاثنين أربعة سبعة الحالي، وإصدار قرار بالعفو عمن صدر ضدهم أحكام منهم، مع الإعلان عن ذلك العفو في صحف الاثنين أربعة سبعة (كان ماهر قد أخرج ورقة الكشف وفردها أمامهم على سطح المائدة). ٢- تسليم الطفلة فاطمة رجب مختار في العنوان الموضح في الكشف المرفق (لوح الآن ماهر بالكشف مرة أخرى)، ذلك أن هذه الطفلة أمرت نيابة المنصورة بتسليمها لأحد المنشقين عن الجماعة، وهو ليس والدها، بدلًا من ابنته التي أخذتها أمها في حضانتها عندما انفصلت عنه بعد انشقاقه عن الجماعة، وتحدد أجل التسليم في الثامنة مساء الأحد ثلاثة سبعة. ٣- دفع التعويض المبدئي ومقداره مائتا ألف جنيه من أوراق النقد المصرية غير المعلمة وغير المتسلسلة على دفعتين متساويتين: أولاهما مع تسليم الطفلة، والثانية مع ستة

من الأفراد المطلوب الإفراج عنهم تحددت أسماؤهم (ضحك محمد صقر وهو يعلق: «سننتغنغ بفلوسهم أولاد الكافرة». لحق صفوت بتعليق على تعليقه: «ليطبعها السادات بنفسه المائتي ألف جنيه هذه بالذات»). ٤- اعتذار جرائد «الأخبار» و«الأهرام» و«الجمهورية»، ومجلات «آخر ساعة» و«أكتوبر» و«الأزهر»، عما نشرته كذبًا وزورًا عن الجماعة (قال مأمون إن هذه النجاسة لن تعتذر إلا لما تشوف العين الحمراء في حياتها حتى ترى جهنم الحمراء في مماتها). ٥- السماح بنشر كتاب بعنوان «الخلافة» من تأليف شكري مصطفى (صفق محمد أبو دنيا، بينما زغرته نظرة ماهر، لكن طارق عبد العليم قال إنهم لو نشروا لضمنا دخول مصر كلها أمة الإسلام، لكن مأمون كان ساعتها مهتمًّا بإغاظة المرتدين ورد كيدهم في نحورهم أكثر من دخول مصر الإسلام). ٦- تشكيل لجنة تشتمل على أعضاء من البلاد العربية وخاصة السعودية لمحاسبة رجال نيابة أمن الدولة ونيابة المنصورة ورجال القضاء ومباحث أمن الدولة، وإصدار وعد من رئيس الجمهورية بتشكيل هذه اللجنة يتم نشره في الصحف (كان ماهر يظن أن الدولة ستراوغ كثيرًا في الاستجابة لهذا المطلب، لكن الجماعة على الأقل أفهمت السعودية بهذه الطريقة أنها في القلب، ثم إن الجماعة الآن رأسها برأس الدولة وتردع رجال القضاء وإلا القضاء عليهم).

هنا رفع شكري القلم، ثم عاد ووضع سنه غارسًا، وهو يقرأ مع كتابته:

- ونحن نحذر في حالة عدم تنفيذ المطالب في مواعيدها، أو تفقد الجماعة أو مطاردتها، فإنها ستقوم بقتل الشيخ الذهبي، وقد اكتفينا الآن بما ارتأيتم وإن عدتم عدنا.

تلفت لهم شكري ورشق نظراته في وجوههم، ثم عاد وكتب التوقيع في السطر الأخير:

- جماعة المسلمون.

ثم وضع «المسلمون» بين تنصيصين، وأضاف:

- كي لا يقولوا إننا نخطئ في النحو.

جلسوا بعده، ووضع كلٌّ منهم الكربون بين ورقتين، وبدأوا كتابة نسخ أخرى من البيان، الذي كان شكري مصطفى في ذات الغرفة بنفس الشقة يمسك بنسخة منه الآن بعد ليالٍ من هذا الاجتماع، وهو يسمع مفتاح بابها يدور في قفله ثم يصدر صريره الذي يغطي عليه صوت ماهر:

- السلام عليكم يا أمير المؤمنين.

ودخل فوجد شكري مقرفصًا على الحصير هادئًا ممددًا ساقيه أمامه، يضغط بضرسيه على سواك بين شفتيه، فقال:

- الحمد لله يا خال.

أخرج شكري السواك من فمه، وأشار به إلى ماهر أن يجلس بجواره، فأطاع مقرفصًا متهيجًا مبتهجًا ويده مقبوضة الأصابع تهتز في ذراعها:

- خطفنا الذهبي

(3)

دخل غرفة نومه متأخرًا هذه الليلة، كانت الجلسة نعناعية أكثر من الأيام الماضية، النعناع كان طازجًا ويانع الخضرة وفائح الرائحة في الشاي والماء، وفي الكلمات التي أطرت عليه وطيبت

خاطره وطبطبت على روحه. جيران الشيخ حسين الذهبي الذين يتجالسون معه بين ليلة وأخرى على أريكتين في الشرفة، يشربون الشاي ويتمازحون ويثرثرون بما يليق بشيخ وقور وجيران وحيدين في هذا الشارع الترابي، في تلك البقعة البعيدة عن العمار التي لا تزال حيًّا جديدًا على حواف ضاحية حلوان، تهب عليهم نسمات الصيف الرطبة، مع تلك الأضواء الناحلة الآتية من البيوت المتفرقة المتباعدة، يتابعون الشارع الخالي إلا من جار يعود متأخرًا عن موعده وعادته، يركن سيارته أمام بوابة بيته ويلقي تحية باليد على الجيران الساهرين فيردون التحية بأحر منها تلويحًا، بينما يهم أحد الجالسين بالقيام عن الأريكة وهو ينظر إلى زملائه نظرة وقت الانصراف، ثم يتبسم للشيخ الذهبي الجالس بجلبابه الأبيض وطاقية رأسه التي تكشف شيئًا من صلعته التي تتغطى دومًا بعمامته الرسمية، ويقول مادًّا كفه للمصافحة:

ـ نستأذنك يا دكتور، فقد أخرناك عن النوم الليلة.

لا ينام الشيخ الذهبي إلا تخطيفًا للنعاس في ساعات الليل، فقد صار النوم عزيزًا، وعندما يتركه ضيوفه من الجيران الأعزاء يزوره ضيف ثقيل هو الضجر، وما إن يستأذن الضيف الثقيل في الرحيل حتى يداهمه ضيف أثقل وهو الأرق. يودِّع جيرانه ويدخل إلى البيت مطمئنًّا على أبنائه. بنى هذا البيت في هذا المكان الأبعد عن قلب العاصمة حتى تتوفر له مساحة أرض أرخص يتسع عليها بيته، الفلوس التي ادخرها من سنين الكويت خصصها لبناء البيت، ولبعض من التأهب لتجهيز زواج الأبناء، سبعة ليس رقمًا قليلًا، فالأعباء تتضاعف سبع مرات ولا تتقسم على سبعة، عائلة حاملي شهادة الدكتوراه الطبية والعلمية: أسامة ومحمد ومصطفى وعزة وفاطمة وأسماء وسعاد، ربنا يحفظهم، فعلى الأقل سأترك لهم إرث احترام الأب ضمن ثروته، لكن ليس هناك ثروة أصلًا، هذه حصيلة شقائك في العمر يا حسين يا ذهبي. كان يفتح باب غرفة المكتب، وتظهر أرفف المكتبة أمام عينيه، تحيط الجدران بالمجلدات وأمهات الكتب وبناتها، حتى سطح مكتبه الخشبي متخم بزحام من الكتب، فلم يترك فيه فراغًا إلا ما يسمح بموضع الأوراق والأقلام في رقعة تسمح بحركة اليد بالكتابة. لا تزال أوراق مشروعه الذي قدمه للحكومة على مكتبه بخط يده وقلمه الحبر وتشطيباته وتصحيحاته وهوامشه، رغم أنه أرسل إلى الرئاسة والحكومة نسخة مكتوبة بالآلة الكاتبة، وقد راجع حروفها ونحوها وصرفها، فلعله كان يُذكِّر نفسه بنسيانهم لها حين ترك المذكرة المخطوطة أمامه كل هذا الوقت. ربما تلك المذكرة سبب ما فعلوه به؟ كان يبدو زاهدًا عن المنصب قبل أن يتولاه، ولم يفكر أصلًا في أن يكون وزيرًا للأوقاف إلا عندما عرضوه عليه فوافق. كان أمين مجمع البحوث الإسلامية، واعتبر هذا المنصب نهاية خدمته في الدولة مع وصوله لسن المعاش.

هي رحلة طويلة من قرية مطوبس في كفر الشيخ، وكانت لا تزال عند مولده تحمل جينات ولادتها كبلد مخصص لإسطبلات خيل الملك، بينما مصر كلها إسطبل لغير خيله، حتى قامت ثورة ألف وتسعمائة وتسعة عشر فلم يتنبه لها إلا كطفل، مظاهرات تعم البلد حتى بلدته، ثم لم تصبه فورات الغضب والتمرد التي ملأت بعدها صدور الشباب بأي عدوى للسياسة. كان طالبًا أزهريًّا مخلصًا لأزهريته ومتفرغًا لعلوم الدين، ورغم الهوى الذي أوقع قلوب شباب أزهريين في شِباك جماعة الإخوان لما نشأت، وشعبية حسن البنا حين تشعبت، إلا أن الذهبي لم يقترب منها تنظيمًا، بل عاطفة، فالجماعة تسعى إلى أن ينصر الله الإسلام ولا تكتفي بالدعاء. ظل مسالمًا مع الملك ومع عبد الناصر، لا ضرر ولا ضرار. وأصبح الطالب أستاذًا بدكتوراه في التفسير والحديث، ثم سفره للكويت سنوات هناك للتدريس بجامعتها؛ بلد طيب وهادئ ومغرم

بمصر عبد الناصر رغم هزيمة يونيو ١٩٦٧، لكن محبة الكويت لعبد الناصر لم تكن قد انهزمت بعد. ولما عاد إلى مصر كان السادات قد صار رئيسًا يخلع عن البلد عباءة الشيوعية. رأى الذهبي سريعًا، وهو الأمين العام المساعد وقتها لمجمع البحوث الإسلامية، ثوب الشيوعية مرميًّا عن الأكتاف في كل جنبات الأزهر، فلما صار أمينًا للمجمع نفسه وقد قامت حرب رمضان المجيدة عام ألف وثلاثمائة وثلاثة وتسعين هجرية أدرك تمامًا أن السادات ليس كعبد الناصر، بل نفوره من اليساريين أعمق مما بدا ومما ظن، ثم كانت حربه على الشيوعيين برمح وسيف: أما الرمح فكان أمريكا التي ظهرت حتى عندنا في الأزهر، فها هو الإمام الأكبر شيخ الأزهر عبد الحليم محمود يكتب كتابه «فتاوى عن الشيوعية»، ونوزعه على المساجد والمعاهد كأنه صحيح البخاري لهذا العصر. أما السيف فقد كان الجمعيات والجماعات الدينية التي توسعت ومُكن لها ومُكنت. ثم ها هو الأذان يرفع في شاشة التلفزيون، حتى إن البرامج والمباريات تتوقف لحظة الأذان الذي يصدح من كل جهاز «مفسديون»، على رأي الشيخ كشك الذي تنتشر شرائطه في كل مكان في مصر حتى غرز الحشاشين؛ لطيف هذا الرجل، دمه خفيف وعلمه أخف، وعنفه غليظ ولفظه فظ، لكنه يملك قلوب العامة، كما يملكها الشيخ الشعراوي منذ بات ضيفًا ثابتًا في التلفزيون. ألهذا جاءوا بالشعراوي خلفًا لي؟ تحسس الشيخ الذهبي رأسه ومسح صلعته ومرر كفه من رأسه إلى قفاه إلى كتفه إلى صدره، وبقي صامتًا كأنما يتأمل نزول غصة من حنجرته إلى بلعومه. كان يشعر بالغضب كما الحرج، لكنه لم ينطق لأحد، تعلم سنين أن يكتم مشاعره وأن يلجم غضبه ويكظم غيظه، لكن ما فعلوه به كان أشد وطأة وأحد نصلًا مما لم يتوجع منه إلا أمام مرآة غرفة نومه، لعل زوجته وحدها الله يرحمها التي كان يمكن أن يزيح عن حزنه لثامه أمامها. السيدة الطيبة الكريمة، ربة البيت وربة القلب، التي أخذها الله مني مستردًّا وديعته، تاركة لي سبعة من الأبناء درر القلب وزينة الدنيا. لكنه لا يقدم لأحد من أولاده أو من المسؤولين أبدًا صفحة وجهه المتألم مما فعله به رئيس الوزراء ممدوح سالم، ولعل من ورائه الرئيس السادات شخصيًّا. علاقته بهم جميعًا طيبة، فلم يكن يومًا إلا أستاذًا أزهريًّا، لا هو كان ممن يسعون للمناصب، ولا جرى وراء تنظيمات السياسة، ولا كان عضوًا بارزًا في الاتحاد الاشتراكي ولا التنظيم الطليعي، ولا حتى لهث إلى عضوية منبر الوسط الذي صار منذ شهور حزب مصر الاشتراكي الحاكم الذي يترأسه رئيس الحكومة. صحيح أنهم لو عرضوا عليه ودعوه إلى أيٍّ من هذه التنظيمات المكفولة بالدولة، والمربوطة بأجهزة الأمن، ما طاق الرفض، ربما تمنع أو تلكأ، لكنه في النهاية لا يبغي صدامًا ولا يطلب وجع دماغ معهم، فحسبه أن يشتغل ويعمل ويكتب أبحاثه وكتبه. عندما عرضوا عليه وزارة الأوقاف أخلص في الموافقة. وحين حلف اليمين أمام الرئيس السادات الذي سبغ اسمه بلقب «رجل العلم والإيمان» وقع حبهم في قلبه، وتمنى أن يفعلها هذا الرئيس علمًا وإيمانًا.

لم يكن الذهبي يكره عبد الناصر، لكنه كان يحب السادات منذ قال إنه رئيس مسلم لدولة مسلمة. لماذا لا يكملها ويغلق أفواه المتخرصين بالضبة والمفتاح، ويخيط ألسنتهم، فيطبق الشريعة الإسلامية؟ هذه والله لتصبح الحدث الأعظم يفرق بها بين الحق والباطل، ويهجر معها الروس وشيوعييهم وناصرييهم، ويطوي مع عبد الناصر وزمنه وقميصه قطيعة لا عودة فيها، ويخرس الإخوان الذين ما سعوا إلا إلى الحكم، وليست قبلتهم إلا مغانم السلطة، رغم رسالتهم التي لا تخلو من حق، فالصواب كل الصواب في العودة الكاملة إلى الدين فهو حماية وحمى، فماذا فعلنا بجحافل الداخلية والبوليس؟ أمنعنا يدًا تسرق أو قبضة تقتل؟ يا ليت الرئيس يقرأ ما كتبته له في

كتبي. إنك تستطيع أن تتصور ما يعود على مجتمع أغناه تطبيق حدود الله عن هذه الحشود الأمنية الحاشدة العلنية والمستورة، بحيث تعود إلى مكانها من الحياة عاملة منتجة، بدل أن تحيا على مقاسمة المجتمع نتاج عرقه، وهي لا تزيد فيما تؤديه عن كونها رقيبًا يحصي عليه أنفاس الحياة، ولو لم يتعرض لها بشكل مباشر، ولو اصطنع في أداء واجبه كل ضمانات الأمانة وعدم اتهام الأبرياء! طبعًا لن يروق هذا الكلام للأخ وزير الداخلية، الآن أصبح ممدوح سالم رئيسًا للحكومة ووزير داخليتها، ونائبه اللواء النبوي إسماعيل، بعد جائحة مظاهرات الثامن عشر والتاسع عشر من يناير، انتفاضة الخبز التي سماها الرئيس «انتفاضة الحرامية». لو سمع الرئيس كلامي، وقرأ كتاباتي، لكشف عن عينيه غطاءه أنه كثيرًا ما تفتعل أجهزة الأمن مواقف تصور للحاكم أنه في خطر، وكثيرًا ما تجسم من حجم الجريمة، وتهول من شأنها، مدفوعة بوعي أو بدونه، بالرغبة في إثبات وجودها، وتأكيدًا لضرورة هذا الوجود وأهميته. بل ورأينا حين تنحرف أجهزة الأمن، وما يمكن أن يحدث من تواطؤ أو تستر على الجريمة والمجرمين، أو إلصاق التهم بالأبرياء، حين يعوز الوصول إلى الجناة الحقيقيين في قضية ضحيتها شخصية مرموقة أو تكون قضية لأصحاب السياسة، فيكون الإمساك بالمتهم أهم من حقيقة اتهامه. يزداد اليقين يقينًا يا سيادة الرئيس أن تطبيق الحدود يساعد على انكماش أجهزة الأمن، وتضييق دائرتها، وإبعادها إلى حدٍّ كبير عن أن تتحول إلى كابوس يكتم أنفاس الناس ويصادر حرياتهم!

لكن من يقرأ ومن يسمع؟ ثم لو قرأ وسمع، هل يقرأني ويسمعني؟

دخل الشيخ الذهبي إلى الحمَّام وقد طرق بخفه البلاط حتى لا يزعج صدى خطوته في ليل البيت الهادئ الأبناء النيام. لم يعودوا صغارًا، تغلب شقاوتهم تأدبهم، الابن الكبير الدكتور محمد في شقته في مصر الجديدة، سيتصل به غدًا كي يحضر إليه فقد أوحشه، وفرصة تعمل لنا أسماء قرة عيني عشاء في ليلة عائلية تسمح بالسهر المرح. ربما لم يرجع بعد ابنه الدكتور مصطفى من المستشفى، وبالتأكيد أسماء يقظى لا تكف عن التنبه إلى كل ما في البيت من عباد وجماد، بارك الله فيها، تصحو من الفجر تجهز للعائلة إفطارها قبل أن تلحق بالأتوبيس يوصلها إلى وزارة الداخلية، حيث تعمل موظفة مدنية هناك. شمر وبدأ الوضوء متجهزًا لقيام الليل، فلم يكن له أن ينام إلا بركعات قيام الليل، ثم يختلس النوم حتى يضرب المنبه رنته المزعجة، فيصحو عليها قبيل أذان الفجر بما يسمح له بقضاء حاجته ثم الوضوء ثم الصلاة لركعات قبيل الأذان إتمامًا لركعات القيام، وتلاوة ما تيسر من الذكر الحكيم حتى الأذان فالصلاة. خرج من الحمَّام إلى الردهة إلى الغرفة، فقفز مصطفى محمود فجأة إلى ذهنه، كأن رنة برنامجه التلفزيوني «العلم والإيمان» علقت في أذنيه من مساء اليوم. لا يحمل للرجل أي ضغينة، بل ليوفقه الله، فهو يقول كلامًا طيبًا في هذا البرنامج على ما سمعت، فإنني لم أشاهده كثيرًا ولم يشدني فيه إلا أن عنوانه اقتباس من شعار الرئيس السادات أطلقه على دولته. ثم لعلي صادفت الدكتور مصطفى نفسه، وعلى حدٍّ علمي أنه طبيب وليس مُجازًا في الدكتوراه، في ردهة مبنى التلفزيون مصادفة وتصافحنا، ولعل كلينا ساعتها لم ينتبه إلى معركة قد دارت بيننا منذ زمن، حين أتحفنا الأخ مصطفى بكتابه «القرآن: محاولة لفهم عصري»، وقد شننت عليه حملة وعلى مقالاته التي نشرها قبل أن يحولها كتابًا في مجلة «صباح الخير» مستودع هؤلاء الشيوعيين، تلك المقالات التي تجد فيها العجب من هذا التفسير العلمي أو العصري كما يتقولون. لقد اغتر البعض بما لديه فحسِب، وبالذات الأخ مصطفى محمود، وكأنه بلغ مبلغ الراسخين في العلم، ونسي أنه قل في علم اللغة نصيبه، وخف في علم الشريعة وزنه، فراح ينظر في كتاب الله نظرة حرة لا تتقيد بأي

أصل من أصول التفسير، ثم يهذي بأفكار فاسدة تتنافى مع ما قرره علماء اللغة وأئمة الدين، وليته هو فقط، بل مُني الإسلام منذ زمن بعيد وحتى أحدث عصوره بأناس يكيدون له ويعملون على هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد وطرق الهدم، وقد ظهر أشكال الأخ بتاع التفسير العصري كثيرون يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه بآراء سخيفة ومزاعم باطلة، تقبّلها بعض المخدوعين من العامة وأشباه العامة. إنهم يدَّعون التجديد، بينما يسايرون روح الإلحاد، بل يصل واحد فيهم إلى درجة استباحة وقف حدود الله وجعلها مفوضة إلى ولي الأمر، إن شاء أقامها وإن شاء لم يقمها، أعوذ بالله من هؤلاء الشيوعيين الذين أسلموا على كبر، وعايزين يعملوا إسلامًا على كيفهم، والله ما أنا عارف لماذا يقحم هذا أو ذاك رأسه في تفسير القرآن أو في الدين من أصله، فلا يملك أحد أن يقدم جديدًا في الدين، فكل ما نفعله أننا نذهب إلى سوق كتب الأقدمين الذين ما تركوا بحثًا إلا بحثوه ولا علمًا إلا تعلموه وعلموه، وبعضنا يشتري من هذا السوق أغلاه وأنفعه وأطيبه، وبعضنا يتسقط منه الأرخص والأغرب والأسوأ، وليس منا بمن غلا وعلا أو من رخص وترخص أن يدَّعي أنه أتى بشيء من خارج هذا السوق!

حين فرش الشيخ الذهبي سجادة الصلاة تجاه القبلة، تمنى أن يهدأ هذا القلق الذي ينقر قلبه منذ أبلغه مدير مكتبه بالنبأ:

- تغيير وزاري فضيلتك (لم يقل سيادة الوزير)، وشملنا في وزارة الأوقاف.

جمدت ملامح الذهبي وهلة، سرعان ما استعاد بعدها وجهًا كظيم الغيظ، فقال معقبًا عقب الخضة:

- ربنا يوفقهم.

ثم نظر إلى موظفه الذي بدا نصف حزين ونصف متعجب:

- ومَن الوزير الجديد؟

- الشيخ الشعراوي.

قالها الموظف كأنه ناقد أو ناقم، كان ينافقه قطعًا، وكان قلقًا، فهو لا يدري هل سيبقيه الشعراوي وزيره الجديد في مكانه أم ينقله إلى وظيفة هي بكل حال أقل شأنًا من مدير مكتب الوزير. كأنما كان الموظف يكدس جرحه ملحًا، أو ربما حاول أن يبدي محبة مترفقة في هذا التوقيت الرذل:

- هل أساعد فضيلتك في جمع الأوراق ولوازمك الشخصية، أم تترك لي المهمة كاملة وتريح نفسك وأعصابك؟

سيفترض حسن النية أو ضبابية النية من الرجل لحظتها، لكنه فعلًا كان في حاجة إلى أن ينظم أفكاره أو يلم أعصابه، فكيف يفعلون هذا به؟ يتم تعيينه وزيرًا للأوقاف لأقل من عامين، من شهر أبريل الفائت إلى نوفمبر في العام التالي! أي وزير هذا الذي تعجلوا الإطاحة به وتغييره، نعم وسط تغيير وزاري لكنه ليس شاملًا ولا واسعًا؟ ثم حتى لو كان كذلك فما الذي ظهر عليه أو منه من تصرفات أو قرارات، من كفاءة أو اختبارات، تكفي للحكم عليه في وزارته فتقولون له مع السلامة شكرًا، كفاية عليك هذه المدة؟ كان يركب سيارة الوزير للمرة الأخيرة وهو يقفل إلى بيته، يسمع بسطح أذنيه السائق وهو يمتدحه ويشكر فيه وفي فضائله ويذكر أفضاله في الوزارة:

- فضيلتك الوزير الوحيد الذي رفض أن تكون لديه سيارة احتياطية مخصصة من الدولة غير سيارة الوزارة التي يستخدمها في تنقلاته!

همس الذهبي حارًّا حتى إن السائق سمعه يخاطب نفسه:
ـ وليسعك بيتك.
حين دخل بيته كان أكثر ما يلح عليه أنه لا بد أن يشتري قطعة أرض في مقابر الإمام الشافعي، ليبني عليها مقبرته... أم يدفن في مطوبس أحسن؟
* * *
لم يتلقَّ مكالمات تخفف مما حدث أو تفسر ما جرى، وحدهم خلصاء من صحبة قديمة في الوزارة هم الذين صمموا أن ملفات الفساد التي فتحها في هيئة الأوقاف وراء هذه الإقالة الثقيلة الصفيقة، نعم ليس للحقيقة وجه إلا هذا الوجه، فقد أطلق حربًا شعواء على سلفه ورجله مدير الأوقاف في الوزارة لما تكشف له من انحرافات مفجعة، بدت الهيئة مرتعًا للصوص نهمة فجعة، فأتت الثعالب على الداجنة. حتى تكاليف طبع المصاحف يا أوباش! ثم عشرات الفدادين التي اشتراها كلاهما من أراضي الأوقاف بأبخس الأثمان! كانت السرقة فاجرة، حتى إنه بمجرد ما جلس على مقعد الوزارة وهي ترمي نفسها على حجره بأوراقها ومستنداتها. كان بين نارين: نار أن يواجه ويعلنها حربًا لوَّاحة للبشر، خصوصًا أن لهذين رجالهما ولا شك في الوزارة، ومن منتفعي الفساد الذي يسري ويمرح في ردهات الأوقاف، رجالًا كما فئران في جرن الغيط أو في مخزن القمح، بل لعل الوزير السابق ورجله هما الذراعان المكشوفتان لهذا العنكبوت الذي تخفي أذرعه وسيقانه أخطبوطًا عنا جميعًا. والنار الموقدة الأخرى أن لهذين الرجلين، ولا شك كذلك، مَن يسترونهما من خارج الوزارة وربما في الحكومة، أو لعلهم في أبعد وأعلى من الحكومة ذات نفسها، فكيف التصرف لو خبطت يا ذهبي برأسك في جدار سميك، أو الأسوأ إن حطمت أنت الجدار، فإذا بيأجوج ومأجوج يطلعون عليك؟ منذ قرر أن يحيل القضية للقضاء، معلنًا عن تلك الفضيحة الشنعاء، وهو يستغرب هذه الأجهزة التي خرجت عليه من الأرض، وكادت تنزل له من السماء، تحقق معه هو لا معهما! ذهب بالقضية إلى مجلس الشعب، وناقش وشرح وفصَّل وفسَّر. قلت بالحرف الواحد إني حذر من هيئة الأوقاف وتصرفاتها، وإني أحصي عليها كل مخالفاتها، وسيكون لي معها حساب أرجو أن يرضي الجميع. وأضفت، فأنرت وأبصرت، أنني أعلم أن كل لوم يقع على هيئة الأوقاف يراد أن يلتصق بي، ولكني أريد أن أقول إن مجلس إدارة هيئة الأوقاف هو صاحب التصرف في كل شيء وإشرافي كالعدم. آه، هذه الهيئة التي تجلس على مئات الملايين من الجنيهات، وآلاف الأفدنة، ومئات العقارات والشركات، يديرها مصاصون للدماء ولمال الشعب والدولة. قرعت الأجراس، ونالت القضية من معالجات الصحافة وعناوينها ما جعلها قضية رأي عام، لم تستطع الأيدي المنتفعة أو المرتعشة مداراتها ودفنها تحت الركام. رفضتُ أن أكون وزيرًا للتشريفات حيث العمامة المطلوبة في صورة الحكومة الرسمية بعدما تحلف اليمين أمام الرئيس، لن أكون وزيرًا لخطب المولد النبوي وحضور احتفال هلالي شهري رمضان وشوال وسرادق ليلة القدر في سيدنا الحسين. لكنهم نسوا القضية بفسادها بمتهميها بزخمها بنتانة رائحتها بعدما غادرت الوزارة، ثم جاءت لهم مظاهرات يناير، انتفاضة الحرامية طبقًا للرئيس السادات تهكمًا على اسمها الذي منحه لها اليساريون وهو انتفاضة الخبز، فطمرت ودفنت الاهتمام بفساد هيئة الأوقاف انتظارًا لدفنها هي نفسها. صحيح كانت المظاهرات حدثًا مزلزلًا من الغضب والشطط والفوضى والاحتجاج ينسي ما دونه، حتى إنه هنا بالقرب من سكني في حلوان كادت الدنيا تشتعل نارًا لولا أن أطفأها السادات بقراره بالتراجع عن رفع الأسعار، لكنه آثر ألا يبدي شيئًا من رأيه في هذه الحوادث،

اللهم إلا الدعاء حين يسأل، وقى الله مصر شر الفتن، ما هو لو سكتت الدولة على الفساد سيطلع لها بدل انتفاضة الحرامية انتفاضات. لقد صبر واحتسب، فقد كان بائنًا بيان الشمس في وضح النهار أن الوزير السابق ورجله لصَّان، فأحيلت القضية إلى المحكمة، وصرت شاهدًا عليهما بما لديَّ من معلومات وما أملكه من مستندات. الغريب أن المحكمة تطول أكثر من اللازم، ورغم ما تتناوله الصحف وتتداوله الألسنة من معلومات فادحة عن فساد هذين وموظفيهما، فإن القضية ممطوطة في الجلسات. وها أنا أخرج من الحكومة ويدخل غيري، وينتفض البلد، حراميوه أو مواطنوه، وتصخب الأحوال وتهدأ، والقضية لا تزال منظورة! ألهذا خرجت؟ وهل لهذا لا زالت منظورة؟ زادت دهشتي تألمًا عندما زارني ضباط من مباحث أمن الدولة في بيتي عقب الخروج (الإخراج) من الوزارة، فتحادثوا معي في القضية، كأنها لم تعد منظورة أمام المحاكم. ولا تزال كلماتهم لي، وحوارهم معي، يتبدى منه عزم على تهدئة خاطري تجاه هذا الفساد، ويتعللون بأوضاع البلد وحرج أسماء المتهمين. فلما طلبوني في التلفون مرة أخرى للقاء هذه المرة في مكتبهم، أبيت اللقاء، وأخبرتهم إن شاءوا حوارًا مجددًا في القضية فليشرفوني عندي في البيت. أظن أن جلسة المحاكمة القادمة خلال شهر أو شهرين، لا، إنها بعد الإجازة الصيفية للقضاء، فالأغلب في أكتوبر أو نوفمبر. يا ترى ماذا سيفعل الشعراوي وهو وزير الأوقاف في هذه القضية؟ لقد مرت شهور ولم ينطق عنها حرفًا.

ذكي الشعراوي ونشيط، أعرفه منذ كان مديرًا لمكتب شيخ الأزهر منذ قرابة عشر سنوات، لم يكن أحد يتوقع ما وصل إليه من شهرة، ربما كان وصوله إلى مقعد الوزير ممكنًا ومنتظرًا، فالرجل موظف قادر على أن يكسب ود رؤسائه، متوددًا لهم ومطيعًا لتعليماتهم، ثم إنه لا يتوقف عن كتابة قصائده في مدح وتكريم هذا أو ذاك من المسؤولين والرؤساء. وعندما سافر الجزائر ربنا فتح عليه، وسافر السعودية بعدها والجماعة هناك أحبوه، فإن دمه خفيف ولسانه حلو وحواديته حاضرة. ربما لهذا السبب حين ظهر على التلفزيون هنا في مصر ذاعت شهرته وفاجأنا ذيوعها، فالرجل لم يكتب كتابًا واحدًا، ولا هو صاحب رسالة ماجستير ولا دكتوراه طبعًا، ولم يكن بيننا صاحب علم أو فريدًا في تخصص، ولغته العربية كما غيره، وغيره أزيد وأعلم وأكثر تخصصًا وأثقل أكاديميًّا، ثم هو لا خطيب مفوهًا، ولا مفتي صنديدًا، ولا مقق عينيه وأبلى أصابعه في كتابة مئات البحوث في آلاف الصفحات، لكن الرجل يملك شفاهة حسنة، متقافز الكلمات، وحيوي الحركات. عندما أشاهده في التلفزيون أقارنه بتلك البرامج القليلة التي ظهرت أنا فيها، فأراه مختلفًا فعلًا ومسليًا أكثر مني، فأنا أتحدث كأنني في معمل علم أو حلقة درس، ما هذا الوجوم! فلا أبتسم أبدًا، وهذا الأداء الذي لا يختلف عن جلستي أمام الطلبة في محاضرات القاهرة أو الكويت، وهذا الرنين لنبرة وقورة هادئة وإن كنت عصبيًّا، فهذه الكاميرات وكشافات الإضاءة توترني، فلست معتادًا عليها ولا أرتاح لها. أما الشعراوي فوالله شاطر، لا يتوقف عن الحركة يمينًا ويسارًا بجذعه، ويميل بصدره ويطلع وينزل بصوته، ويتكلم كأنه قاعد فوق الفرن يحكي لأقاربه حدوتة، ثم يفصص اللغة كأنما يفصص ثمرة يوسفي للجمهور، أو يدور معهم في دور الشاي يتبادل معهم أكواب الشاي الثقيل المسكر على مصطبة الدوار، ما أبرعه وأمهره، وفهمه للمكان الأسمن في الكتف التي يمكنه أن يأكل منها. هو في الآخر لا يقول شيئًا غير ما يقوله الجميع، بل أقل من الجميع جدًّا، فلعله توقف في قراءته عند المنهج الذي درسه في الكلية، لكنه يبدو محبوبًا حتى صار دمه ظريفًا جدًّا عند الرئاسة. وها هو

يأتي وزيرًا بعدي، لعلهم ينسون بخفته ثقل ظلي عليهم. إنهم حتى الآن لم يردوا على ما أرسلته لهم من اقتراح إنشاء كلية الدعوة!

* * *

عاد بذاكرته إلى تلك المذكرة التي أرسلها إلى الرئيس ملقاة بخط يده أمام عينيه في الرائحة والغادية، يتطلع إليها ويسائل نفسه، لعلهم غضبوا مما كتبه في تلك المذكرة. ولماذا لا يغضبون مني أو لا يتحمسون لي فعلًا ولها، فقد كتبت فيها:

إنه حينما قال الله عز وجل «وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا»، فقد قرر حق الدعوة في حرية مطلقة لا قيود عليها، وأوجب على الدعاة ألا يذعنوا لأي نوع من أنواع الضغط أو التوجيه الذي ينال من تجردهم للغاية التي جردوا أنفسهم لها.

طبعًا يزعلوا، فأنا أقول لهم بمرارة صريح العبارة: ابعدوا عن المساجد يا أجهزة، لا تضعوا قيودًا يا بتوع أمن الدولة والأوقاف على الدعاة، أوامر وزواجر على طريقة قل هذا ولا تقل ذلك، تعليمات وتوجيهات ومخبرين ومرشدين واستدعاءات إلى مكتب أمن الدولة في المركز أو المحافظة. نعم، هي كلمة حق مني صدقوها وصدقونني، لا ينفع أن يكون المرء داعية ومخبرًا للمباحث في الوقت نفسه. ثم أنا قلت بمنتهى الأمانة في المذكرة نفسها، وطبعًا هي وصلت إلى أمن الدولة قبل أن تصل إلى الرئيسين، رئيس الدولة ورئيس الحكومة:

إذا كان من واجب حكام المسلمين أن يوفروا للدعوة هذه الحرية الكاملة، فمن واجب الدعاة كذلك ألا يسيئوا استخدام هذه الحرية، بما يسيء إلى أممهم ودولهم دون غاية من دين أو دنيا تبرر هذه الإساءة.

آه، كان لازم أحذف الجملة الأخيرة، فقد أفسدت عملية الاستدراج والتهدئة للحكومة التي كتبتها في السطور التي أطالب فيها الدعاة بعدم إساءة استخدام الحرية، لكن عميتها حين كحلتها، وكتبت «دون غاية تبرر هذه الإساءة»! يعني يا شيخ ذهبي ممكن أن تكون هناك غاية تبرر هذه الإساءة، نعطيكم نحن الحرية لما يحلو لحضراتكم، ثم لو أسأتم استخدامها، فمعلش أصل هناك ما يبرر هذه الإساءة، ونقعد نفتي ونتحاكى بقى في المبرر! صحيح زمانهم يردون هذا الرد، لكن ليس عليهم أن يتجاهلوا المذكرة وشجاعتها ونصيحتها لهم:

إن ضمير الداعية يجب أن يكون الفيصل في مسألة الرقابة وما يتصل بها، وحاجة الدعاة إلى رقابة خارجية معناها: فشل إعدادهم وتربيتهم من ناحية، وعدم صلاحيتهم لمهمتهم من ناحية أخرى. وخير للدعوة ـ ألف مرَّة ـ أن ينحَّى عن مجالها كل من يحتاج إلى رقابة خارجية من بقائه في ساحتها. وتعني ثانيًا: إحساس جهاز الدعوة التابع للسلطة بأن مصيره وقدره مرتبطان بطاعة أولي الأمر، وأن مخالفته إياهم ـ ولو كان فيها إرضاء لله ـ يعرض حياته وحياة من يعولهم لخطر يتصل بمصدر رزقه. هذا الإحساس يهدهد من شجاعة الدعاة في الجهر بكلمة الحق، وينمي بالتدريج روح الهوينى، ويبرر الخمول والكسل، حتى ينتهي الأمر إلى أداء شكلي هزيل.

طيب ما أنا عندي حق، أليس هذا هو الوضع الحالي الذي حاولت أن أغيره فغيروني؟ ما هو إذا استمر هذا الوضع فستخرج علينا جماعات إسلامية مثل هؤلاء الخوارج الذين هاجموا الكلية الفنية العسكرية وهذه الجماعة التي تُسمي نفسها جماعة المسلمين من خوارج التكفير والهجرة!

* * *

كان الشيخ الذهبي قد أنهى صلاة القيام وتمدد على فراشه، لكن الأرق لم يكن قد أخرج مخالبه من رأسه، حتى إن سيرة جماعة التكفير والهجرة قلبت عليه المواجع. تنهد وهو يمسد الملاءة بكفيه. هذه الجماعة وأمثالها والإخوان وانتشارهم له سبب واحد الآن، لو سمعوا كلامي، لكنهم لا يطلبون سماع كلامي ولا أتطوع وأتبرع به، حتى في مجلس الوزراء واجتماعاته الدورية لم يكن هناك شيء أبعد من التحيات والسلامات والرسميات وقرارات إدارية وأسئلة مالية، ويلتهم الاجتماع وزير التموين ببياناته عن المخزون من القمح والأرز والسكر، والمالية عن الاحتياطي من الدولار، لا أحد منهم سألني عن جماعة التكفير والهجرة التي ترتع الجرائد في الحديث عنها ونشر أخبارها وتتبع أحوالها، ليس أكثر من التندر والتهكم من وزير يتضاحك، وآخر ينكت، وثالث يجامل الضاحك والمنكت، ولا تعليق إلا على هذه الجماعة التي تطلق الزوجات من أزواجهن أو تحل زواج امرأة من غير زوجها لأنه مرتد. والحقيقة أن الصحف أفرطت فيما هو مثير وجالب للعامة فيما يخص هذه الجماعة التي بدت كأنها جماعة للتحلل الجنسي وليست جماعة دينية متطرفة ضالة. كنت أتابع الصحف والمجلات وهي تتوالى في نشر المغامرات والانحرافات، وعناوين مأساة الزوج الضحية رئيس شؤون العاملين الذي قال في جريدة الأهرام إنه فوجئ بزوجته التي ارتبط بها عاطفيًّا واجتماعيًّا (استغرب الشيخ الذهبي أن الصحيفة تنقل عن الزوج أنه مرتبط بزوجته عاطفيًّا واجتماعيًّا، فما الغضاضة هنا؟ وهل الزوج في العادة لا يرتبط بالزوجة على الأقل اجتماعيًّا إن لم يكن عاطفيًّا؟)، ويحكي الزوج أنه أنجب منها ابنه أحمد، ثم تحجبت في البيت فلم يضايقه ذلك، لكنها صارت من يومها ترى أن عمل المرأة حرام، وكانت موظفة بقصر ثقافة، فرفضت الاستمرار في وظيفتها، ووافقها مضطرًّا على المكوث في البيت، ثم لاحظ أن شقيقها أحد أعضاء جماعة التكفير والهجرة يتردد عليها في غالبية الأوقات، لتقول له زوجته فجأة إنها ستذهب لحضور فرح شقيقتها، فوافق، ثم فوجئ أنها أخذت معها طفلهما الرضيع وجميع الستائر والملابس والنقود (مرة أخرى استعجب الشيخ الذهبي من الزوجة التي لمت الستائر)، فذهب الزوج إلى منزل والدها للسؤال عنها، فباغته حماه بأن حماته هي الأخرى قد هربت من منزله، ثم إذا به يعرف أن زوجته التي طلقها غيابيًّا هي الزوجة الثانية لأمير الجماعة شكري مصطفى. هذه الحكاية سمعها من سائقه صباحًا، ومن مدير مكتبه حين وصوله للشغل، ثم من حارسه التابع لوزارة الداخلية. وحين وصوله لاجتماع الحكومة كانت الحدوتة المفضلة للتعجب والتسلية والتندر. لم يلتفت حتى وزير الداخلية ليقول لي وماذا نفعل يا فضيلة الشيخ يا سيادة الوزير؟ هذه آخرة الرقص على السلم ومسك العصا من المنتصف. الرئيس السادات يركب قطار الدين، لكنه لا يصل حتى محطته الأخيرة، فلا يطبق الشريعة والحدود خشية هؤلاء المتفلسفين المتخرصين من الملحدين والشيوعيين، ثم يحارب الشيوعية واليساريين حربًا معلنة، لكنه لا يغمد فيهم الخنجر حتى يزهق روح الإلحاد فيهم، بل يتركهم يظهرون ويتسللون، بل ويتصدرون في منابر لا يذكر فيها اسم الله، حيث السينما والتلفزيون والروايات والبرامج والصحف التي تقطر بسمومهم. هذا إذن سبب ظهور هذه الجماعة، حيث تجد لها أرضًا خصبة في العقول المتأرجحة بين الإسلام والشيوعية، بين الإيمان والإلحاد، فيأخذهم مثل هذا الشكري مصطفى وأمثاله بفارغ القول وهش الفكر وتافه الرأي، مدعيًا أنه الدين الحق ومبتغى الخلاص من البغي والبغاء. لم أقرأ مما تقوله هذه الجماعة أكثر مما هو منشور في الصحف ومنقول عن أفرادها. وقد استغربت أن استضافت «أخبار اليوم» و«الأهرام» عيالًا منهم، وأخذوا يشرحون في حوار على صفحاتهما أفكارهم وفتاواهم، وكله

سخف مجموع من كناسة دكاكين المذاهب المنحرفة في الدين وعنه. والله لو صدقت الدولة في مواجهة هذه الدعاوى ما استغرق منها الأمر إلا نشر وتعميم كتابي الصغير عن الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم. فالشذرات التي قرأتها من هؤلاء الصبية الذين يظنون في أنفسهم العلم والفقه، مجرد انتقاءات عشوائية يمليها الهوى والرغبة في الغرابة والغلو في التمايز، يجمعونها عميانًا وعورًا من كل فرقة في الدين انحرفت في تفسيرها وهوت في أفكارها، مثل المعتزلة والشيعة والخوارج والباطنية من الصوفية، وكل ما فيهم من عبث العابثين وأباطيل الملحدين الذين قطع أهل السنة والجماعة حبالهم وحيلهم وثعابينهم منذ زمن، فأتى هؤلاء الصبية وكبيرهم الدعي شكري مصطفى ليدَّعوا لأنفسهم فكرًا وعلمًا، فلم أجد مما قالوه جديدًا يفاجئني، ولا تخريجًا يصدمني، فكلها أصوات ببغاوات وصأصأة جراء بما لا يفهمونه من هذه الفرق، فقد تركت الدولة ساحة الدعوة فوضى يتجول فيها هواة، ومشعوذون، ودجالون، ومرتزقة كذابون. ولعل ما يفعله شكري هذا وجماعته المهاجرة المكفرة هو صدى يضاد ما يجري تحت اسم الطرق الصوفية في أنحاء العالم الإسلامي، ويمثل أسوأ ما يعترض طريق الدعوة!

كنت قد قررت ألا يكون الرد على التكفير والهجرة مهمة تلك الصحف وأصواتها وأقلامها التي تضرب خبط عشواء، وينتهز بعضهم فرصته وفريسته مما يردده هؤلاء الخوارج فيطعنون به على الدين كله. نعم هناك من يكفر ومن يرتد ويستحق أن نحده حد الردة أيها الشيوعيون المختبئون تحت معاطف الدفاع عن الحرية، ولا يمكن أن نسمح لهؤلاء الخوارج الأدعياء أن يبيحوا لكم نكران هذا الحد. لقد كنت حاسمًا يومها في اجتماعي مع رجال الدعوة في الوزارة، وقلت لهم لا يجب أن نجعل من الإسلام مطية لهؤلاء الخوارج ولا لهؤلاء الشيوعيين، وكدت أخطب فيهم، أو أقرأ عليهم صفحات من كتابي، أو أحاضرهم كأنهم طلابي في الكلية، أو أذيع عليهم كأنني في محاضرة تلفزيونية أو إذاعية، فأقول ليس معنى أن عيال هذه الجماعة يتخرصون ويتهمون مخالفيهم بالردة أننا نتبرأ من حد الردة، أو أننا ننفي وجود المرتدين، نعم هناك حد للردة لهذا المرتد عن دينه، فقد دخل في الإسلام طوعًا فلماذا ارتد عنه؟ إنه أبسط سؤال يترتب على ردته، وهو سؤال ينطوي على كثير من التشكيك في الإسلام! وإلا ففيمَ دخل فيه راضيًا غير مكره ثم خرج منه؟! ما أخرجه إذن إلا اقتناع بعدم صلاحيته أو بأفضلية غيره عليه، فإذا كان المرتد ممن كانت لهم مكانة وموضع مرموق في الجماعة قويت الشبهة واشتد التشكيك، كما نرى في هؤلاء الكتبة ممن حولنا الذين يرون في أنفسهم مفكرين وفلاسفة. إن المرتد في نظر الإسلام مثل من يترك وطنه وينحاز إلى وطن معادٍ، هي خيانة عظمى للجماعة التي ينتمي إليها. وقد قلنا إن الإسلام هو وطن المسلم الحقيقي، وانتماؤه إنما هو إليه بالدرجة الأولى، فهل تغفر الأمم والشعوب لبنيها جريمة الخيانة العظمى؟ وهل يتسامح مجتمع معاصر مع من يتخذ موقفًا معاديًا من وطنه؟

طبعًا لم ينطق أي شيخ من المشايخ أمامي ووافقوني، فزدت وقلت:

ـ يكفي الإسلام تسامحًا في هذا المقام أن يقرر حق المرتد في الاستتابة وفي حوار يكشف شبهته، وأنه لا يُقتل ما بقيت له شبهة لم يُجب عنها جوابًا شافيًا يقطع حجته أو تعلته. لقد كان في فسحة من أمره: أن يبقى على دينه أو معتقده قبل أن يدخل في الإسلام مختارًا دونما إكراه، أما وقد قبل باختياره الانتماء فقد أصبح مسؤولًا ـ بحكم هذا الانتماء والاختيار ـ عن الإخلاص والوفاء لهذا الدين، «قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى»، ثم إن حد الردة يغلق بابًا خطيرًا في وجه من

يريدون إفساد الإسلام من داخله أو التجسس عليه، وقد عانى الإسلام كثيرًا ممن تبطنوا الكفر والتحفوا بالإسلام.

نظرت إلى أحدهم وقد بدا بعمامته متقلقلًا أو أقل حماسًا فعاجلته معالجًا:

ـ وإذا سلمنا يا شيخ بحق المجتمع في قتل البغاة والمحاربين، وهم لم يعلنوا كفرًا ولا ردة، فحق المجتمع قتل من فارق دينه وترك جماعته متبرئًا منها معلنًا عدوانه لها أظهر وأحق.

سألني أحدهم متعجبًا:

ـ ولكن هذا هو عين ما يقوله شكري مصطفى وجماعة التكفير والهجرة!

نهرته حاسمًا:

ـ وأنا ما لي يا شيخ، قاله شكري أو فكري أو بكري، المهم أن هذا هو دين الله وحد الله، فلو قالته جماعة التكفير والهجرة فنحن نحييها على صوابها، ونبرأ من خطئها. بل أزيدك من الشعر بيتًا وأقول إن مجتمعات العالم اليوم إما مجتمعات ملحدة رسميًا وواقعًا، وإما مجتمعات ملحدة واقعًا وإن ظلت ترفع شعار دين من الأديان كشكل رسمي، وفي هذه الأخيرة ينظر إلى قضية الدين على أنها مسألة شخصية تمامًا، وهو موقف متفرع من فصل بين الدين والدولة في تلك المجتمعات.

ثم علا صوتي، وتجلت كلماتي، فاستحسنوا وأومأوا منسجمين من درس السيد الشيخ الوزير، فواصلت:

ـ لكن في الإسلام لا فرق بين رفض نظام الدولة والخروج عليه وتحديه، وبين الردة عن الإسلام، لأن نظام الدولة في مجتمع الإسلام جزء من الإسلام أو هو التطبيق الزمني للإسلام في ذلك المجتمع، ورفض الإسلام بالردة يعني ضمنًا رفض النظام المنبثق منه، لأن الإسلام لا يفصل بين الدين والدولة، ومسألة الإيمان بالدين ليست مسألة شخصية في الإسلام.

ثم طالبت أحدهم:

ـ ها، هل تُسمعني الحديث النبوي الشريف الذي يأتي بالدليل الناصع؟

تبارى بعضهم في ترديد الحديث، فاختلطت أصواتهم معًا متحمسة:

ـ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة».

أضفت:

ـ وفي مسلم: «... التارك لدينه المفارق للجماعة».

هذا هو الفارق بين أن نخاصم جماعة التكفير والهجرة ونلعنها ونردها عن غيها وغبائها من مربع الإيمان وليس من مربع الإثارة كتلك الصحف، ولا من مربع الإلحاد كهؤلاء الذين بدأوا تناول هذه الجماعة بالهجوم والنقد والنقض للطعن في الإسلام، وليس في جماعة باغية خارجة عنه ومنه. حين قررت أن أفند أفكار هؤلاء الصبية كان دفاعًا عن الإسلام، وكي لا يجعلوا من سلوكهم الخوارجي منطًا للقفز على الدين من خصومه وأعدائه. جمعت المكتب الفني للوزارة، وهم مجموعة من المشايخ الأفاضل والدعاة الأبرز، ويملكون علمًا وقلمًا، فقلت لهم لنُعد كتيبًا صغيرًا بالحجج الرافضة المفندة المبددة لما وصلنا من هذه الجماعة كي نكشف عوارها أمام الشباب، فلا يغرر بهم، بل ونوزع هذا الكتيب على رجال الصحافة حتى يتملكوا سلاحًا يردون به بدلًا من أن يلجأوا إلى هؤلاء المتفقهين أو هواة الشهرة والذيوع، فيأخذ الصحفيون من الكتيب

اقتباسات للنشر في الرد على أفراد الجماعة. وافقوا بحماس، شيوخًا وموظفين معًا، واستسهلوا المهمة، فأفكار هذه الجماعة لا تستأهل أستاذًا ليرد، بل ربما طالب علم في سنة ثانية أصول الدين يقضي عليها قضاء مبرمًا. كان لا بد من توجيهات سريعة ترشد لإنجاز أسرع للكتيب، فقلت:

ـ نأخذ بالنا في الرد أن حكم الناطق بشهادتَي أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أن نعتبره مسلمًا تجري عليه أحكام الإسلام، وليس لنا أن نبحث في مدى صدق شهادته، وإنما نكل سريرته إلى الله عالم السرائر. أما بدعة اشتراط الأخ شكري (ربنا يهديه) العمل بمفهوم الشهادتين حتى يصبح المرء مسلمًا، فلم يرد شرع يفيد هذا الربط بين النطق والعمل، وإن من يشترط هذا الربط يكون قد أتى بشرط زائد وخالف هدي النبي واستحدث في الدين ما لم يرد به نص. واشتراط جماعة التكفير والهجرة أن تكون أعمال الشخص مصدقة لشهادته حتى يُحكم بإسلامه شرط فاسد، بل الثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أتى له الزاني والزانية والسارق وشارب الخمر، فلم يعتبرهم كفارًا، ولم يقم عليهم حد الردة، وأنه لا خلاف في أن التوبة تسقط الذنوب.

* * *

لم يطلب مني رئيس الحكومة ولا وزير الداخلية ولا وزير الإعلام شيئًا من هذا الجهد، بل فعلته لمرضاة الله، لا أبغي من ورائه جزاء ولا شكورًا، بل لقد رفدوني بعدها من الوزارة! حتى ضباط أمن الدولة كانوا يجيئون لي يحادثونني عن قضية فساد أراضي الأوقاف التي كشفتها وحاربتها لأخف أو أهادن، بينما لا يتكلمون عن تلك الجماعة ولا يعيرون ما فعلت اهتمامًا، لكن ما ينفع الناس يبقى في الأرض، ويكفي تلك المقدمة التي كتبتها للكتيب (واسمي وحدي مكتوب على غلافه باعتباري الوزير المنوط به مهمة الرد والتفنيد):

يبدو أن فريقًا من المتطرفين يسعون في الأرض فسادًا، ولا يريدون لمصر استقرارًا، استغلوا الشباب، وصوروا المجتمع بأنه مجتمع كافر تجب مقاومته ولا تجوز معايشته، وأن العنف هو الحل لفرض الشريعة، وهذا أبعد ما يكون عن الدين السمح، وعن الوسطية الإسلامية، التي هي شريعة الإسلام وينادي بها الأزهر الشريف. ولهذا أقدِّم هذا الكتيب لشرح معنى الإيمان في الإسلام والوسطية في الدين، وأن مدى صدق شهادة المسلم مرتبط بما في قلبه، وعلى الذين يوزعون الإيمان والكفر على الناس أن يراجعوا أنفسهم وإلا باءوا بإثم كبير.

وزَّعت الأوقاف الكتيب بالآلاف من النسخ، ولم تترك مسجدًا يضم مكتبة إلا ضمته، وتفرق على الصحف حتى اقتبست منه كثيرًا ونشرت مقاطع منه، وأخرجت عناوين من مقدمة الوزير العالم الفاضل، وبذلوا جهدهم في التسخين والتوليع فيها. ولكنه أحس راحة أن قال كلمته، وأن الدولة ممثلة في وزارة الأوقاف لم تقف عاجزة عن فضح هذا الفكر المنحرف، كما أعطى تعليماته بأن تتحول صفحات الكتيب إلى خطب في الجوامع يلتزم بمعانيها ومراميها الخطباء، سواء وعاظ الوزارة أو الخطباء بمكافأة. بعدها بأيام كانت ندوة ما في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، حيث تجمع الحضور، وأغلبهم إن لم يكونوا من أصحاب العمائم فمن أصحاب اللحى. وبينما أجلس في صدارة الندوة فوق المنصة، واللافتة الكبيرة خلفي تعلن عنوان الندوة، والمشايخ يتبارون في الخطابة والمحاضرة، وأنا أتحدث لا أندفع إلى نبرة الخطيب ولا أنجر إلى رتابة المحاضر، إذا بشابٍ ملتح لحية كثيفة (لم يعهدها الذهبي فيمن يراهم من الملتحين، وكان الذهبي في حياته كلها حليقًا بلا لحية، ومنذ عاش في الكويت ترك شعيرات من ذقنه على بياضها تنبت

حينًا ويبقيها فترة، لكن سريعًا ما يعاود حلاقتها، ولا يتذكر الذهبي في مشوار عمره أن رأى أستاذًا له أو عالمًا في كليته أو جامعته بالأزهر ملتحيًا، وإن التحى فليس أبدًا بتلك اللحية الشعثاء الطويلة التي يظهر عليها غلمان الجماعات التي تزحف على حواف الإسلام كالقوارض)، هذا الشاب الملتحي انتفض وهو يقاطعني واقفًا وسط صف الحضور الثاني أو الثالث ويصيح في وجهي:

ـ إنك تشن علينا حربًا يا دكتور ذهبي!

لم أفهم كيف تجرأ مثله على مثل ما يفعل! ثم من هو وأي حرب؟ وبينما أجمع أطراف فكرتي ويهم المشايخ بالتدخل الصوتي والحركي إذا بالشاب يكمل:

ـ نحن جماعة المسلمين، وأميرنا شكري مصطفى، أبو سعد، وأنت كتبت عنا ونشرت وأذعت ما نعتبره حربًا على الإسلام وعلينا!

حاول الذهبي أن يخفف من حدة الشاب التي فاجأته، وهو مندهش؛ كيف جاء الشاب؟ ومَن دعاه؟ وما وظيفته هنا؟ وهل جاء متحديًا أم مخربًا؟

ـ لكنني لا أحاربكم يا ابني.

ـ لست ابنك!

ردَّ بحدة طائشة، وسمع الذهبي من حوله يصيحون في الشاب:

ـ هو أنت تطول أن تكون ابن فضيلته.

تجاوز عما سمعه وواصل:

ـ أنا ناقشتكم بالحوار وبعلماء وزارة الأوقاف والأزهر، ولا تنسَ أنني وزير شؤون الأزهر كذلك.

قبل أن يقاطعه الشاب قاطعه غيره، كان رفاقه من أعضاء الجماعة بدوا كأنهم يرتدون زيًّا موحدًا من الجلاليب التي يرتديها أهل الخليج، كما رآهم وعاش معهم الذهبي، فضلًا عن لحى متباينة الطول لكنها شريكة في الشعث:

ـ بل هي حرب على الدين منكم يا شيوخ السلطان!

رد الذهبي:

ـ هداكم الله.

ثم رقق صوته وهو يرفعه:

ـ والله ما دعوت فيما كتبت إلا أن يحاوركم السلطان لا أن يحاربكم.

انفضوا عن الندوة خارجين، فيما يبدو أنهم نجحوا فيما جاءوا إليه. لكن استغراب الذهبي وصل إلى حد الذهول حين دخل عليه في اليوم التالي مدير الشؤون القانونية في الوزارة يخبره بصوت دهش ونبرة متسائل عما يجري من ورائه ويجهله:

ـ هناك إعلان من المحكمة لسيادتك بصفتك وزير الأوقاف، وبشخصك كدكتور الذهبي، في دعوى قضائية مرفوعة ضدك.

تراجع رأس الذهبي، بينما تقدمت عيناه والرجل يكمل:

ـ الغريب أنها دعوى سب وقذف.

احتج الذهبي على من يملك أن يتهمه، وهو الشيخ المتهذب المتأدب عف اللسان حليم البيان كظيم الغضب رقيق العتب، بأنه يسب ويقذف، لكن الرجل أكمل فألكم:

ـ الأغرب أنها مرفوعة من جماعة التكفير والهجرة.

علق مدير الشؤون القانونية بنفسه على نفسه:

ـ ما الذي يجري في البلد يا سيادة الوزير حتى يقيم عيال مكفراتية وجماعة غير شرعية دعوى قضائية على عالم جليل ووزير فاضل في الدولة يتهمونه بالسب والقذف؟ أهي جرأة، أم وقاحة، أم دعاية ورغبة في الشهرة، أم مدفوعون، أم مندفعون؟

لم يجد الذهبي محتارًا ما يقوله، وقد دهسته المفاجأة، فواصل مدير الشؤون القانونية مرافعته وقد دخل عليهما مدير مكتب الوزير:

ـ ثم منذ متى تعترف هذه الجماعة بالقضاء الوضعي وتلجأ إلى محاكم الكفار من أمثالنا؟

مرت شهور وقد اختفى الكتيب من الوزارة ومن مساجدها بمجرد ما خرجت من المنصب، ولم يعد أحد يذكره أو يتذكره، وتوقفت طباعته طبعًا. حتى هو نسيه وقد ابتعد عن الحكومة وهمومها وتفرغ لكتابة مذكرته عن الدعوة والداعية التي أرسلها دون مجيب، ولكنه يعود فيتذكر تلك الجماعة وهذا الكتيب كلما كلمه أحد من ضباط أمن الدولة متغالظًا أو مغتاظًا، أو صادف في الصحف خبرًا عن جماعة التكفير والهجرة، أو عنوانًا عن حوادثها العجيبة، وقد زادت في الفترة الأخيرة حتى يبدو وكأنها قد عادت من هجرتها. ولم يعرف مصير دعوى السب والقذف منذ توقفت اتصالات موظفي الوزارة به منشغلين عنه.

* * *

كان الشيخ الذهبي قد سلم نفسه وأنفاسه للنوم الهادئ، ثم بدأ صخب يسحبه من نومه، وضجيج يوقظه من منامه، فلما تبين ما حوله وأدار رأسه حتى يقترب من ضوء الوناسة، ورفع معصمه إلى عينيه فوجد الساعة تقرب من الثالثة صباحًا، أقلقته الأصوات التي لم يعتدها في هذا الوقت بمنزله، فلما هم بالنهوض من سريره كانت أصوات غريبة عالية تنحشر في مسامعه قادمة من غرفة المكتب أو الاستقبال، وبينها يبدو صوت ابنه الدكتور مصطفى تائهًا. بحث بقدميه عن الشبشب تحت السرير وقد جلس على حافته، حين طرق مصطفى الباب وفتحه، ففوجئ بوالده قد صحا، فخاطبه برقة قلقة وحيرة متوترة:

ـ فيه ضباط أمن دولة في البيت عايزين حضرتك.

تزاحمت الأسئلة في رأس الشيخ الذهبي تستفهم وتستعجب وقد اشمأز وتشاءم؛ فما الذي أتى بهم؟ وماذا يريدون؟ ولماذا الآن؟ وما كل هذه الجليطة وقلة الذوق وقلة القيمة؟ قام دون أن يلبس شيئًا فوق جلبابه الأبيض، ولا حتى مسح وجهه بقليل من الماء، فقط ارتدى نظارته ممتعضًا طاردًا النوم من عينيه وخارجًا من غرفته إليهم. صحبه ابنه، بينما لاح له وجه ابنته أسماء واقفة عند مدخل غرفة المكتب المواربة تظهر خلفها أجساد ضيوف الليل وزوار الفجر الغرباء الأجلاف. كان وجه أسماء شاحبًا، وشفتاها تتحركان بكلام لم تنطقه، ويهتز جسدها، حتى خصلات شعرها الأسود تحركها أصابعها المرتعشة عن عينيها. حاول أن يطمئنها وهو يتجه إلى الغرفة:

ـ حيكون فيه إيه يعني. اطمئني يا حبيبتي.

أمسك بمقبض الباب وولج إلى الغرفة، فرأى ضابطًا بزيه الرسمي وبذلته السوداء (كانت أسماء من تحيرت عندما رأت زي الضابط؛ أليس مفروضًا أن البوليس قد بدَّل ملابسه وارتدى الأبيض الصيفي الآن؟! ثم هل يمكن أن يأتي ضابط من القسم دونما أن يصحبه أمناء شرطة أو عساكر بزيهم الرسمي؟! إنهم لا يظهرون في الغرفة ولا عند باب البيت، إذن فأين هم؟!)، ووجوهًا يبدو في عيونها وملامحها تصلب مقلق، يتقدمهم ضابط بزي مدني (كانت أسماء هي من تساءلت وقد لعب ألف فأر في صدرها: لماذا يبدون جميعًا صغار السن؟ حتى الضابط برتبة الرائد بذلته أوسع من جسده! وهم جميعًا أقل من هؤلاء الذين يمكن أن يجلبوا وزيرًا سابقًا إلى أمن الدولة في عتمة ليل أو وجه الصبح! ثم كأن أصابعهم ترتجف وملامحهم متشنجة!). نفر منهم ومن الموقف كله الشيخ الذهبي، خصوصًا عندما قال الضابط بجفاء وخشونة، وهو ينقل نظراته من الشيخ الذهبي إلى بندقية في يد أحدهم ثم يعود بنظراته إلى الشيخ:

ـ عايزينك بره في كلمتين.

رد الشيخ الذهبي مرتبكًا في صدمته:

ـ أنا سبت الوزارة، عايزيني ليه دلوقت؟! ومليش نشاط سياسي، عايزيني في إيه؟!

رد الضابط بجفاء وغباء:

ـ عايزينك في كلمتين.

ألح الشيخ حائرًا:

ـ سيبوني للصبح.

اقتحمت أسماء الغرفة عليهم تقذف كلماتها فيهم جميعًا، وسط دهشة والدها، وحيرة أخيها تأخذه تمامًا، وصاحت فيهم:

ـ إنتم مين؟ فين الكارنيهات؟ إنتم مش شكل مباحث، إنتم شغل عصابة!

لطمتهم شجاعة أسماء حتى تحركت وجوههم مرتدة إلى الخلف، واهتزت رؤوسهم تترنح نظراتهم بعضهم إلى بعض، فأجاب الضابط محتدًّا شاخطًا:
ـ إحنا أمن دولة.
ـ وما بنشيلش معانا كارنيهات.
كان أحدهم من يضيف من خلف الضابط متعاليًا متحديًا.
أسماء وقد أحست بيقينها يجتاحها، أمسكت بيد والدها، ووقفت ملتصقة به، وأشارت إلى أخيها آمرةً:
ـ اتصل يا مصطفى بمجلس الوزراء وشُفهم مباحث ولَّا لأ.
كانت الغرفة كلها تحت أمر أسماء اللاهثة الناقمة الحارسة لوالدها بظهرها تتقدمه، وممسكة بكفه وقد تجمد الرجل مذهولًا، فأكملت:
ـ نادِ يا مصطفى بسرعة على جارنا الضابط يشوف لنا حكايتهم.
حينها رأوا المدفع الرشاش في وجه أسماء، والمسدس في رأس أبيها، بينما اندفع أحدهم وقبض على ذراعي الشيخ الذهبي، وشبكهما خلف ظهره، ودفعه خارج الغرفة ناحية باب البيت، فتعثر الرجل في سجادة خلعت شبشبه عنه. جره اثنان منهم وقد تعصى عليهما وقاومت ساقاه الحركة، وتخبطت أجسادهم في مسند الأريكة ومائدة البهو، وأسقطوا مقعدًا، وأوقعوا فازة ورد، ودفعوا مصطفى بقبضاتهم فكاد يهوي مترنحًا. كانت أسماء فاغرة الفم صائحة، تسح دموعًا، وترتجف أصابعها وشفتاها، وتصطك أسنانها، وتلتصق خصلات شعرها بدموعها، وهي ترى والدها مهانًا مجرورًا مدفوعًا متكتف الذراعين زائغ العينين. انكسر قلبها فصرخت حتى ظنت أنها لن تتوقف عن الصراخ أبدًا، لا تعير للمدفع الرشاش أهمية، ولا ترى المسدس في جنب والدها مغروس الفوهة:
ـ بابا! بابا!
تتابعهم لهفى لاهثة غاضبة وهم يفتحون الباب ويحملون والدها خارجه، يركضون ناحية سيارة تنتظرهم، بينما يعدو مصطفى مبهوتًا تنتفض كل خلجاته، وهم يحذرونه ملوحين بالمدفع الرشاش، في حين يدفسون جسد والده من الباب الخلفي للسيارة الفيات التي انطلقت بهم.
ارتفعت صرخة أسماء تنادي والدها، وهي تمسك فردتي شبشبه وترتجف وهي تضمهما إلى صدرها:
ـ خطفوا بابا!

(4)

أطرق ماهر بعدما أبلغ شكري:
ـ خطفنا الشيخ الذهبي.
لم يكن ينتظر أن يسأله شكري الإضافة، فهو يعرف خاله وأميره أكثر مما ينبغي.
أراد ماهر أن يضعه في الصورة، فقال وهو يعد لنفسه شايًا يطيل به وقت تحمله قبل أن يرتمي على السرير ليأخذ سِنة من النوم تؤهله لمتابعة الساعات المهمة القادمة بعد عملية الخطف:
ـ حصلت مشكلة مع أبو سهل.

لم يُثر ماهر بما قاله شكري ليرد أو يستفهم أو يستزيد أو يتوجس، بل ظل في صمته وفي قرفصته، ثم رد فجأة وقد كاد ماهر أن يضيف مفسرًا، فتراجع ليسمع كلام خاله:

ـ محمد منيب كان إخوانيًّا قُتل في السجن ونسيه الإخوان، وألهتهم فرحة خروجهم من السجن واستشراق الدنيا بعدما أفرج عنهم السادات، وصمتوا عن ذكر محمد منيب.

ثم أرهق شكري ماهر حين بدأ يلقي شعره:

وأقسم لا أبقى على الأرض ساعة
أنازع إلا والحديد لباسيا
تراني مغلوبًا تراني غالبًا
ولكن محالًا أن تراني شاكيا

ابتسم ماهر فقد حاول أن يحفظ أشعار خاله، خصوصًا أن الخال يعتز بها، كأنه أحكم من المتنبي وأشعر من حسان بن ثابت، إلا أن ماهر حفظ شعره حبًّا وإيمانًا واعتيادًا من كثرة ما أتحفه به خاله منفردًا به في ساعات طويلة دونًا عن بقية الإخوة، فلعله لا يسمح للشاعر فيه أن يعرب عن نفسه إلا أمام ذوي الرحم وصلة الدم يأتمنهم على هيامه. أومأ ماهر وقال:

ـ أبو سهل ليس سهلًا، ولن يتمكنوا من نزع كلمة من بين شفتيه.

كان ماهر يعرف أنه ليس إبراهيم حجازي وحده من سيكون مقبوضًا عليه محتجزًا خلال ساعات، بل هناك اثنان من الجماعة على الأقل بعد نحو أربع ساعات من الآن سيسلمون أنفسهم للشرطة.

* * *

كان ماهر قد استأخر المجموعة قليلًا، وهو ينتظر في شقة شارع نصر الدين بالهرم أن يحضر طارق عبد العليم خالعًا أو لابسًا بذلته الشرطية ليخبره بتمام العملية، فالطريق من حدائق حلوان حتى شارع الهرم في تلك الساعة من نهايات الليل تقطعه سيارة نصف مسرعة في أقل من نصف ساعة، فالشوارع خالية من السيارات ومن الشرطة ومن الزحمة. لم يسمح للشك ولا للخوف أن يتسللا إلى قلبه، ظل يراجع نسخ البيان ويعيد قراءتها، ويضغط بقلمه الأزرق على حروف باهتة في نسخ الكربون حتى وصل طارق (كان لا يزال بالبذلة الشرطية). أخبره ووجهه طافح بالاهتياج أن العملية نجحت، وأنهم سلموا الذهبي إلى مصطفى غازي أبو توبة لحراسته، لكنه عرف أيضًا أنهم فقدوا إبراهيم حجازي.

يعرف ماهر أن الخطة نفسها، سواء رسمها، أو أصَّلها شرعيًّا لهم، أو كما اقترحها طارق عبد العليم وتحمس لها مأمون، كانت تقف على عنصرين: الأول ثقة وثبات منفذي العملية. والثاني صدمة وذهول الذهبي وأهل بيته من المفاجأة. لم يعمل ماهر حسابه لابنة الشيخ الصاحية المنتبهة التي أفسدت عليهم هدوء الخطف، لكن ماهر أدرك أن طارق خجل من أنه لم يملأ عين الابنة؛ بذلته وسمته وخبرته لم تسمح له أن يكون مقنعًا وهو الضابط الحقيقي، لم يلجم بتصرفاته الواثقة ولا بكلماته الحاسمة حنق الابنة أو تردد الابن أو قلقلة الأب، ثم إن وجود طارق لم يغطِّ توتر صقر ولا عصبية مأمون ولا تشنج أبو دنيا، فلما هددتهم البنت ونهرتهم أسقطت كل قدرتهم على ضبط النفس وإحكام التمثيل وتماسك الانفعالات، ففككوا جميعًا أحزمة هدوئهم، وارتدوا إلى غرائزهم، وتعرت حقيقتهم. أرعبتهم البنت بشعرها السافر، وشجاعة النمرة التي تدافع عن أسدها العجوز، فانفلتت أعصابهم، أول ما زعق مأمون، حيث أدركوا أنهم في مأزق،

وصاروا الأضعف، فلجأوا فورًا إلى التهديد والترويع، وقد فشلوا في وثبة الثقة تمامًا. خنق صقر ذراعي الشيخ ولفهما خلف ظهره، فأحنى الرجل ودفعه، ثم استدار ناحية الباب وبدأ سحبه. بينما أشهر مأمون المدفع الرشاش في وجه الابنة، وانتقل بفوهته بينها وبين أبيها، وهو يتراجع مع صقر الذي عاونه أبو دنيا في جر وسحب ودفع الشيخ الذي كاد يترنح ثم يسقط مرتين قبل أن يلقوه في الأريكة، ووراءه مأمون، بينما لف صقر بسرعة ملهوفة ناحية السيارة المازدا حيث يقف إبراهيم حجازي، وقد اندهش أنه لا يزال واقفًا، ففي اللحظة التي يركب فيها أبو دنيا مقعد السائق في الفيات كان يجب أن يجلس حجازي في المازدا مديرًا الموتور ومتحركًا ناحيتهم بها ليركب معه صقر، لكن حجازي بدا مشلولًا، كان ممسكًا بكوريك السيارة في يديه، وقد أسند الإطار الاحتياطي على جانب السيارة لاستبدال العجلة التي نامت. لعن طارق سنسفيل المفاجأة المربكة، وهو ينتهي من دفع الابنة والابن للرجوع إلى باب بيتهم بفوهة المسدس، يلوح به في وجه البنت ويغرسه في صدر وكتف الولد. صرخ طارق في صقر أن يركب معهم في الفيات مسرعًا:

ـ مفيش وقت! خلص إنت (أشار إلى حجازي) ثم حصَّلنا.

اندفع ناحية الفيات، ووضع جسمه سريعًا بجوار مقعد السائق، بينما قفز صقر وحشر الشيخ الذهبي بينه وبين مأمون الذي تسلَّم من طارق كلابشًا حديديًّا ثقيلًا صدئًا قدَّمه له من درج السيارة وأطبقه على معصمي الشيخ. وعلى الرغم من أن الرجل لم يتكلم ولم يئن وظل على ذهوله، فقد أمسك صقر بشاله القماشي العريض فأحكم به إغلاق شفتي الشيخ، ودس شيئًا من القماش في فمه، فتضرجت الحمرة في وجه الشيخ وبدأ سعالًا مكتومًا، فأسقط مأمون رأسه إلى الخلف، ووضع مرفقه بكتفه متثاقلًا وضاغطًا على صدر الشيخ:

ـ لا تتحرك وإلا والله أقتلك هنا!

كانت مقدمة المدفع تحك في فخذ الشيخ الذي ارتج بدنه وراء الجلباب الذي تلوث بتراب وغبار من جراء الجر والدفع والسحب، وارتجفت عيناه وراء عصابة من القماش الأسود أخرجها مأمون من جيبه وأحكم وثاقها على عيني الشيخ، وقد تاهت وماهت وشاهت ملامح هذه الوجوه الحانقة بنظراتها الكارهة وأنفاسها الناقمة وراء سواد العصابة السوداء وعينيه الكليلتين، وقد سقطت نظارته وتكسرت تحت أقدامهم وهم يدفعونه إلى السيارة، بقي منها ذراع وحيدة وقطعة من عدسة رماها صقر حتى يخلي وجه الشيخ للعصابة التي يضعها مأمون.

كان الطريق خاليًا وممتدًّا بلا أضواء كثيرة ولا رفقة مزعجة من سيارات أو مركبات. انشغل طارق طوال المسافة بالنظر إلى الخلف بحثًا عن المازدا يقودها إبراهيم حجازي، لكنه كان يفقد الأمل في ظهوره وظهورها كلما اقتربوا من الهرم، وحين وصلوا إلى الفيلَّا كان بصيص أمل يراوده في أن حجازي سبقهم (كيف؟ ومتى؟ ليس مهمًّا، بل كان مجرد بصيص). نزلوا في الشارع الهادئ الصامت ذي العمارات الصغيرة والبيوت ذات الطابق والطابقين الموزعة على الجانبين، وكان الوقت رغم صيفه متأخرًا، والنوافذ المفتوحة لهواء الليل الصائف فارغة من الوجوه المطلة، والأضواء القادمة من البيوت وناسات، والحركة هامدة إلا من همهمات تقلبات الأجساد فوق المراتب بخلخلة خشب السراير. نزل مأمون أولًا من السيارة، ومسح المكان بعينيه، ثم سحب الشيخ المستسلم من تحت كتفيه، وقد دفعه صقر من ناحيته، ثم نزل مسرعًا ليلحق بمأمون وطارق وقد أحاطوا بالرجل يدفعونه للداخل. وركن أبو دنيا السيارة في مكان خالٍ أمام الفيلَّا التي تضم الشقة التي اختاروها مكانًا لإخفاء الشيخ؛ فيلَّا مفروشة للإيجار، وتضم

تلك الشقة التي لا يسكنها غيرهم، ولا يوجد داخلها جيران متطفلون، وليس لها زوار مفاجئون، ثم إنها بلا بوَّاب أو حارس يعيش بأسرته في غرفة البوَّاب ويتابع الداخل والخارج، ثم إنها كبيرة وواسعة، والأصوات منها لن تصل إلى الجيران، خصوصًا مع الحديقة الممتدة من بابها الداخلي إلى بوابتها الخارجية. وصلوا حتى باب الفيلَّا الداخلي، فخرج لهم مصطفى غازي أبو توبة، وقد اشتعل وجهه حماسًا، فتسلم الذهبي قابضًا على معصميه وكتفه. انضم إليه أبو هريرة، ورفعا الرجل عدة درجات في سلم الشقة الداخلي. فتح لهم أبو نعمان درفتي الباب، ثم أعاد إغلاقه بالترباس والقفل، وهما يجران الشيخ زاحفًا بقدميه، ثم يدفعانه إلى غرفة تضم سريرًا بقواعد ومساند من قضبان حديدية، مفروشًا بملاءة رخيصة على مرتبة أرخص، عليها وسادة وحيدة، فألقياه على الفراش، ثم رفع أبو توبة ساقيه، وأمسك أبو هريرة بقدميه وجرهما ناحية قضبان السرير الحديدية، وكان أبو نعمان قد سحب كرتونة من أسفل السرير أخرج منها جنزيرًا حديديًّا فلفه على قصبتي ساقي الشيخ وربطهما محكمًا على كاحليه، ثم أوصل الجنزير بقضبان السرير.
اقترب أبو توبة من وجه الشيخ، وشد مفرشًا على مائدة صغيرة بجوار السرير، ورفع رأس الرجل بكف ثم لف المفرش وربطه على عيني الشيخ الذهبي وقد نزع عنه العصابة السوداء التي جيء بها، فقد بدت له أقصر وأصغر، وتفككت في الشد والدفع، وتزلقت مع العرق، بينما كان أبو هريرة يتأكد من إحكام الكلبش على معصمي الشيخ وقد تسلم مفتاحه من مأمون. أنجز كلٌّ منهم مهمته وأتموا الخطوات التي تجهزوا لها، بينما كان طارق يركب السيارة مع البقية، وقد تأكد أن إبراهيم حجازي فشل في الخروج بالمازدا، وأغلب الظن أنهم أمسكوا به الآن، وربما هرب تاركًا المازدا وجرى من الشارع ثم المنطقة مستغلًّا الظلام وملتحفًا بالليل، ويبحث عن وسيلة مواصلات تنقله إلينا، أو لعله ذهب إلى بيت أبي مصعب في المعصرة، أو لعل كل هذا محض فض قلق.

* * *

لم يحكِ ماهر كثيرًا لأميره وخاله وهو موقن أن حجازي سيصبر ويحتمل. ماهر أدرى بهم جميعًا، وخبير بهم، فقد اختارهم واختبرهم. نعم لخاله نظرة ومعرفة وقدرة على سبر أغوار الناس، لكنه كالعادة يطفو، ومهمة ماهر الغوص، الخال يحلق وماهر يحط، شكري يقول وماهر يفعل. كان خاله يبهره بتلك الأفكار التي تأخذه من زقاق قريتهم الضيق، ومن عائلته التي تتهامش في حواف القرية، ومن أقرانه الذين يتساوى معهم في الملامح والهيئة، ويرفعه من متره الصغير الذي يجلس عليه في جامع قريتهم إلى عالم أعلى رحيب مهيب رهيب، حيث لا يكون هو ولا خاله شخصين عاديين ولا مسلمين عابرين، بل مجد الإسلام يُجدد على أيديهما ويتساعد بسواعدهما. لم يكن خاله كأي خال، بل كان بطلًا مسجونًا، لأنه يدافع عن الإسلام، فلما تكلم معه في زيارات السجن رأى إسلامًا آخر غير ما يسمع به من واعظ الجامع أو في المدرسة أو من أهله أو من تلك الكتيبات التي يوزعها عليهم الإخوان وجمعية أنصار السنة. وجد ماهر بطله وإسلامه معًا، ووجد دورًا ورسالة ومهمة وجهادًا. ليس مجرد فتى، بل فتى من فتيان الكهف، أهل الكهف. لماذا تكون شخصًا عاديًّا إذا كان ممكنًا أن تكون مسلمًا فارسًا مقاتلًا مجاهدًا فاتحًا، بل قبل هذا كله تعيد الإسلام لبلد كفر، ولمجتمع جهل، ولأمة ماتت؟ كان يحفظ ما يقوله ويكتبه شكري مصطفى ثم يدعو به ويجند له، فلما زادت الجماعة مكنة وتعمقت تمكنًا اكتشف أن خاله لا يفهم في السياسة، نعم الأمير هو، قرأ الكثير إن لم يكن كل كتب الفقه والأصول والحديث، مثل: الموافقات للشاطبي، والأحكام للآمدي، وابن حزم، وأصول الفقه،

وتفسير القرآن لابن كثير وغيره، وصحيح البخاري، ومسند أحمد، وسيرة ابن هشام، وحاشية البيجوري والزركشي، بل وفقه الخوارج ومتكلمي المعتزلة والأشاعرة، ولكنه لم يقرأ من كتب صدرت في الثلاثمائة عام الأخيرة إلا كتب سيد قطب، لم يقرأ كابن أخته صحف هؤلاء الكفرة، ولا اطلع على الكتب العصرية الدنيوية التي أخرجتها المطابع عن عبد الناصر وعصره، ولا مذكرات هؤلاء الفاضحين للحكم في هذا البلد. وظل خاله نابذًا الإخوان وجماعات الجامعات الإسلامية حين أكمل بكالوريوسه، فكانت عزلته هي حياته، عزلته الشعورية عن المجتمع المحيط، وعزلته عن مساجد ضرار كلها، وعزلته عما يدور في العالم المعاصر من الأفكار أو الحوادث، فكأنه الخليفة الذي خرج من كتب التاريخ ومن بين صفحاته، لا هو صادف واقعًا ليعرفه، ولا رأى دنيا ليتبينها، فكانت مهمة النزول من السماء للأرض، والخروج من التاريخ إلى الواقع، ومن الفقه إلى السياسة، هي مهمتي، مهمة ابن أخته، فكنت أنا فيلسوف الجماعة كما يصفني تهكمًا هؤلاء المنشقون أو ضباط أمن الدولة، أرسم وأحدد وأخطط وأكتب الموقف السياسي الشرعي للجماعة وللأوضاع العالمية والمحلية، بل كثيرًا مما جمع شكري مصطفى عما يدور في البلد من أفكار وأسماء وحركات إنما كان من ماهر. كان الخال هو الخليفة الأمير صاحب البيعة، فلا يهتم كثيرًا ولا قليلًا بما يجري على الأرض إلا بمقدار، وهو يعانق السماء ليس للناس إلا أن تسمع له، فإن أجابت دعوته ودخلت الإسلام سلمت ونعمت، وإن أعرضت كفرت، وإن خرجت ارتدت.

كان خاله يأخذه من يده بعدما خرج من السجن وأنهى الجامعة، وبدأ في أيام الجماعة الأولى، فيصحبه إلى مركز الشرطة، حيث يدخل بلحيته وجلبابه، ولا يهمه كبير ولا صغير، ولا يلقي سلامًا، ولا يتودد للمخبرين والصولات الذين ترتعب قريتهم لو رأت أحدهم يمر على شارع أو ينظر إلى عابر، فإذا بشكري يتعامل معهم كأنهم ذباب يهشه عن وجهه، فيدخل على مكتب ضابط أمن الدولة بدون استئذان، ولا حتى ابتسام، ويلقي التحية بيده فيلومه الضابط مداعبًا قائلًا:

ـ طيب ألقِ السلام يا شيخ شكري!

فيرد بعجرفة وقد جلس ووضع رجلًا على رجل، ورفع رأسه بنظراتها إلى السقف:

ـ السلام يكون على المسلمين، وأنت كافر، فلك الإيماءة بالكف أو الإشاحة بالوجه، فهذا ما لك عندي!

كان ماهر الذي أجلسه شكري على مقعد قبالته مبهورًا بهذا الخال الذي يهز عرش الداخلية في عرينها، ويهزأ بالضابط المرعب، بل وينزل عليه بلطمات كلماته، كأنما جاء فقط للسخرية منه:

ـ أنتم يا كفرة لن تقفوا أمام الإسلام، ولن تقدروا، فليس عليك إلا أن تترك هذه الوظيفة الدنسة وتتخلى عن الكفر وقد أبلغتك بلاغ الإسلام، ودعوتك للدخول في ديننا.

يتباله الضابط ويتخابث، ويثرثر بكلمات تبلع وقاحة الإهانة، لكنه لا يرد حادًّا ولا جادًّا، ويطمئن على شكري وأحواله، ثم ينط شكري من مقعده فجأة، ويأخذ بيد ماهر ويرحل عن الضابط ومكتبه وشرطته، لم تهبط نظراته لحظة لترى بلاط قسم الشرطة.

* * *

قرر ماهر أن يفرد جسمه على سرير الغرفة الصغير، فهو يحتاج إلى شيء من نوم، فأمامه بعد ساعات عدة مهام هي الأهم من نجاح الخطف نفسه. لم يفكر في أن يتفقد الفيلَّا حيث يخفون

الذهبي، فلا يريد أن يراه، لم يكن قد نسي ملامحه في ندوة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية حين نافحه وواجهه هو وصفوت الزيني وسط رجاله ووعاظه الذين يترأسهم ويتشامخ أمامهم، ها هو الآن مكبل بالسلاسل، مكمم الشفتين، مغمى العينين، مرمي بلا حول ولا قوة. كان ماهر هو من اختار الذهبي للاختطاف، كان غضب أميره وخاله قد بلغ حافته؛ هؤلاء التبع الذين تنمروا وتمردوا علينا، بل تقاوح حسن الهلاوي مرددًا أنني أنا ماهر عبد العزيز بكري أبو عبد الله نائب الأمير قد راجعت نفسي، وعدت عن موقفي، ونويت الانشقاق عن خالي وأميري بعدما شنف الهلاوي طبلتي أذني بمناظرته وأنصتُّ إلى حججه. هذا الإمعة الفاشل الذي انسلت منسلًّا من متهمي الفنية العسكرية واتحدف علينا ليس إلا خائرًا خائبًا، هو ملوث بأفكار الإخوان، لم يقدر أن يطردها من رأسه، بل رتعت ورسخت كأنما لا تنقلع أبدًا، يريد انقلابًا على الحكم لا تغييرًا في المجتمع بأسره. هؤلاء جميعًا أغبى من أن يهديهم الله، إنه وجماعته شباب محمد عار على محمد، وأين هم من شباب محمد الأوائل؟ بل نحن شباب محمد الأواخر الذين أحببنا محمدًا دون أن نراه، وصدقناه دون أن نصحبه، ودخلنا دينه وقد ارتد الناس عنه، بينما سموا هم أنفسهم مسلمين زورًا وبهتانًا وكذبًا على الله ورسوله، فنحن فقط المسلمون، ومن جاءنا يسلم معنا. حتى طلال الأنصاري زميلك في جماعة شباب محمد يا هلاوي يا تافه، وهو قدها وقدود وموجود في السجن، المتهم الثاني المحكوم عليه بالإعدام قبل أن يخفف للمؤبد، والمعدود بين أفراد جماعة صالح سرية (لا تقولوا جماعة شباب محمد فأين أنتم من محمد وشبابه؟) نائبًا لأميرها، وليس مثلك فسلًا كذكر النخل لا تبلح، ها هو وهو في السجن ينضم إلينا، وقد سمع بنا ومنا، وتخلى عن كفره في جماعتكم البائسة، وأسلم وجهه لله، وأسلم ودخل معنا مسلمًا في جماعة المسلمين، لهذا وضعناه في أول المطلوبين للإفراج عنه مقابل إطلاق الذهبي (آه، اسمك بين السبعة يا هاشم يا أخي، لا تظنني نسيتك أبدًا ولا خالك شكري، فوالله لو لم يطلقوا سراحك لأشعلتها نارًا في قصبهم). يتذكر ماهر نفرته من مماحكة عبد الرحمن أبو الخير، وهو الذي يظن في نفسه أفهم وأفطن، ويرى في رفقته لخالي وبكارة ولائه وانقلابه من ناصرية الكفر إلى إسلام المهدي أسبابًا كي يكون قرينه ومشيره، ويعتقد أن وظيفته القديمة محررًا صغيرًا في «أخبار اليوم» تجعل منه سياسيًّا فيلسوفًا مؤرخًا، فيقول لإثبات شيء غامض في دواخله:

ـ بارك الله فيكما (كان معي أنور مأمون)، لماذا لا نصلي على كلٍّ من الشيخ صالح سرية وكارم الأناضولي صلاة الغائب، فهما شهيدان من شهداء الحركة الإسلامية؟

لم أخفِ غلياني في وعائي، بل نفرت وغضبت:

ـ متى جعلتهما شيوخًا؟ وأي حركة إسلامية تلك التي تتحرك من غيرنا؟ ومن هما هذان الكافران كي نصلي عليهما غائبًا أو حاضرًا؟

لم أعرف إذا كان أبو الخير هذا معنا أم علينا وهو بيننا واكل شارب مصروف عليه من بيت المال، ثم إذا كان عزيزًا على أمير المؤمنين الذي بايعه وانضم إليه مؤمنًا، فلماذا لا يتحفه بهذا السؤال؟ فمن يلقي سؤالًا مثل هذا كأنه فارقنا، ثم كانت قدامه جماعة شباب محمد، وهؤلاء أصحابه من سنين، فلماذا لم ينضم لها ويغادرنا مرتدًّا؟

حاول أنور مأمون أن يخفف من غضبي، فأجاب هو معلقًا على سؤال أبو الخير:

ـ لأننا قد بلَّغناهما بالحق فرفضوه.

أبى أبو الخير إلا أن يتذاكى:

ـ ومتى بلّغتموهما؟
رد مأمون:
ـ هل نسيت أن بعضنا زاملهما في سجن مزرعة طرة؟
أردت أن أقاطع قائلًا: حيث أجاب طلال الأنصاري البلاغ وحين أعلن فراقه شباب محمد وصار مسلمًا لرب محمد. لكنه استغرب سؤال أبو الخير الذي بدا استجوابًا:
ـ علامَ اختلفتم يا أبو مصعب؟
ردَّ:
ـ اختلفنا في مسألة أقوال الصحابة وأقوال الفقهاء، فإنهم يأخذون بهذه الأقوال، وهي لا تلزمنا ولا نعول عليها.
ـ ولكنني قرأت محاكمة صالح سرية ومرافعة كارم الأناضولي عن نفسه، وكلامهما واضح بائن يقول ما نقوله ويرى ما نراه.
ثم أمهل نفسه كأنما الإمام الألباني سوف يتحدث:
ـ يعني مثلًا هم يرون الحكم بغير ما أنزل الله عبادة من دون الله والطاغوت، فالطاغوت هو كل من تألّه أو ألَّه أو ألّهه الناس أو صرفت له عبادة من العبادات، كالذبح أو الدعاء، وكل من نازع الله في ألوهيته أو في صفة من صفاته، وهو رأس الكفر، وهو نفس ما نقول، ثم إنهما صدحا بالحق في وجه الحكومة والمحكمة فقالا بجاهلية هذا المجتمع وتلك الدولة.
حاول مأمون أن يتفلت من هذا اللجج، فقال مشيحًا بيده:
ـ لكنهما رفضا أن يبايعا الجماعة، ونحن جماعة الحق، ومن عدانا فليس بمسلم.
أخذ أبو الخير يلف ويدور ويتسحب ويتقرب، كأنه يريد لنا أن نقبل تعدد الجماعات، ويتكلم عن ضرورة التنسيق في المعركة الواحدة ضد الكفر والجاهلية، كفر الحاكم والحكم، وجاهلية الناس والمجتمع، نتوحد ضدهم ونعلو فوق خلافاتنا كجماعات إسلامية، قد لا نندمج ولكن نتحالف، قد لا نتحالف ولكن ننسق، فالمهمة واحدة، وهي إعلان دولة الإسلام وتطبيق الشريعة، صحيح أن أنور مأمون أوقف تحايله قاطعًا:
ـ الحق واحد والجماعة واحدة والأمير واحد.
كان أبو الخير ينظر إليَّ نظرة محب متودد ألانت هذه الحدة التي امتلكتني، فصمت وهو ينتظر مني كلامًا، فهو يدرك منزلتي عند خالي وأميري، ولو وافقته وأنا رأس حربة الجماعة ما احتاج أحدًا غيري، لكنني تغالظت مهمهمًا:
ـ صلِّ أنت عليهما وحدك لو أردت!
كان أبو الخير مثله مثل بعض الحافين من حول خالي وأميري، تشعر أنهم يتصورون في أنفسهم ندية مع الرجل، ويظنونه مثل غيره من الإخوان المسلمين الذين يشقون طريقًا إضافيًّا ولا ينشقون بمنهج مخالف مغاير. والعجيب أن أبو الخير نفسه المبايع في منتصف ليل، كان يتشدد ويشد حروفه وكلماته لأعلى حين يتحدث عن هذا المجتمع الكافر، ويرى مصر كافرة كغيرها، والشعب في جاهلية أسوأ من جاهلية المشركين، وأن الهجرة هي الحل والملاذ لنصرة دين الله في الأرض، لكنه يحن ويخف حين يدافع عن الإخوان، ولا يراها جماعة كافرة، ولا جماعتنا هي الجماعة الوحيدة، ويلغو كثيرًا عن التاريخ الإسلامي كأنه كان هناك بعد الرسول إسلام وخلافة حقًّا. لم أكن أفهم لماذا يبقي عليه خالي، ولماذا يبقى هو، لكنني عمومًا تجنبت أن

أضع له دورًا في خطف الذهبي، فقد يتردد وقد يعك وقد يشك، وإن كنت قد سمعت صدى صوته في سؤال خالي وأميري عن سبب اختياري الذهبي وقد امتلأت مصر بالكفرة ومشايخ الكفرة، ورددت عليه كما كررت ما قلته له إلا قليلًا لأبو مصعب وأبو يوسف وأبو الهيثم وأبو طلحة:
ـ الذهبي كافر، أفي ذلك شك؟
ـ كلهم كفرة. السؤال لماذا نخطف هذا الكافر دون أقرانه؟
ـ هل لأنه نشر شيئًا ضدنا؟
ـ كثير قد نشر.
أخذ ماهر ناصية الكلام وأدارها ناحيته وقتًا أطول مما يسمح بمقاطعته (عندما كان يشرح لشكري لم يسأله خاله، ولم يقاطعه، وسلم بما قاله، وكان يمكن ألا يقوله، فالخال مهدي منتظر وإمام هذا الزمان ونحن في نهاية الزمان، وهو منشغل بمقابلته لعيسى ابن مريم حين ينزل إلى الأرض وتوزيع الصلاحيات بينهما في الحرب ضد جيش الظلام، فلا يمكن للذهبي أن يكون إلا حصوة في جبل اهتمامه):
ـ ومن قال إننا لن نقتص من كل الكفرة جميعًا؟ لكن نحن الآن بصدد التخطيط لاختطاف ولعملية واحدة تستهدف الإعلان عن الجماعة في مواجهة رياح الدولة التي أوشكت أن تكون عاصفة، ثم إن العملية ذاتها ونجاحها ومقايضة الذهبي بإخوتنا وبأموال من صناديد الكفر، إنما مكسب وفوز لدعوتنا، فسوف يقبل عليها الشباب الطامحون إلى مجد الإسلام واليائسون من الجماعات الأخرى الرخوة التي تدعي لنفسها العمل على استعادة الخلافة، بينما كل ما تفعله هو السيطرة على جامع أو الخناقة مع مسيحيين قدام كنيسة.
كان ماهر، وهذا ما فسره تفصيلًا لخاله، يؤمن أن الجماعة وقد اتسع انتشارها وزاد عددها لن تعدم الأعداء من تلك الجماعات الإسلامية التي تتكاثر في الظهور داخل الجامعات والجوامع، وهي جماعات ينفق عليها من أجهزة الدولة ومن السعودية، وتصرف عليها الآلاف والملايين من الجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة المحمدية، ثم إن الإخوان يستعيدون حركتهم ويجندون شبابًا في الجامعات، بل إنه يعلم علم اليقين أن العيال بتوع كلية طب قصر العيني، عبد المنعم أبو الفتوح وعصام العريان وحلمي الجزار، قد انضموا لجماعة الإخوان وأمتنوا عود تلك الجماعة المائل، ولم تعد مقصورة على العجائز الذين أفرج عنهم أنور السادات وأعادهم من السعودية والخليج وأوروبا. ثم نحن نحرم التعليم في مدارس وجامعات الكفر، بل لا نرى لهذا التعليم حاجة، وقد ألقى أطباء ومهندسون ومدرسون ومحاسبون بيننا بشهاداتهم عند أقدام العنز والخراف في صحراء المنيا يوم هاجرنا جميعًا، فكيف سنستقطب جددًا؟ ومن أين ونحن نترك حقل التجنيد في مزارع الجامعات؟ هذه العملية هي مغناطيس كبير يجذب لنا الكثيرين، ويفكك جماعات من حولنا لأن أعضاءها سيسارعون إلينا أفواجًا.
حين سأله أبو توبة:
ـ وهل ذلك الخطف يتعارض مع أننا في مرحلة الاستضعاف والهجرة؟
كان جاهزًا لهذا السؤال، بل ينتظره:
ـ الاستضعاف ليس أمرًا مطلقًا، ومن حقنا أن نعمل ما يقربنا من هدفنا، وما يجلب لنا من نفع ويدفع عنا الضرر.
ما قاله لخاله:

ـ الدولة ستجد نفسها في مأزق شديد، فلو رفضت مطالبنا فكأنها تتورط في قتل الذهبي، وهي تخشى طبعًا أن يتهمها البعض بذلك فعلًا، فالرجل ليس محبوبًا عندها، وهو يشد رجالًا في الدولة نحو المجهول باتهامه لهم بالفساد في قضية الأوقاف، فليس بعيدًا إطلاقًا أن يقال إنها من حرضتنا على قتل الشيخ المناكف حتى تدفن الفضيحة معه في قبره، فليس أمامها إذن إلا الرضوخ لنا.
ـ وإن لم تفعل؟
ـ هذا مستبعد جدًّا، لكن لن يكون أمامنا إلا أن ننفذ تهديدنا، وساعتها سنقوى أكثر.
ينظر ماهر إلى صفوت الزيني وعيناه تسألانه سؤالًا، بينما لسانه يسأله سؤالًا آخر.
أما العينان فسؤالهما:
ـ هل ترى مناسبًا أن نحكي لهم عن اجتماعنا بالمسؤول الكبير في أمن الدولة؟
أما سؤال لسانه فكان:
ـ هل توافقني يا أبو طلحة؟
* * *
كانوا في شقة المحامي شوكت التوني في المعادي، لم تكن المرة الأولى التي يزور فيها محاميه الكبير اسمًا وسنًّا وعلمًا، لم يكن مجرد محامٍ سمع عنه وعن مرافعاته، بل قرأ كتبه التي ألفها عن المحاماة وعن تجربته في محاكم جمال عبد الناصر، وقد دافع عن إخوان مسلمين كثيرين، بل كان لهم فوق كل ذلك أبًا فاضلًا حانيًا. ولم يخطئ ماهر قطُّ في استشفاف تعاطفه معهم، فالتوني يراهم شبابًا نقيًّا مسلمًا طاهرًا، وإن كان يعتب عليهم بعض الاعتداد لديهم، وشيئًا من الأنفة الخشنة والشطط فيما يسمع منهم، وفي كلامه معهم وعنهم لا يتوقف عن الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية بفخامة الصوت وجلال الإلقاء، وإلقاء كل سبب للبلاء على عبد الناصر وعصره، حتى إنه يغفر لهم كل ما يفعلون لأن منهم من سجنه عبد الناصر، ويترافع عنهم بلا مقابل مادي لأنهم شجعان في الحق ومهاجرون لله رغم بعض الغلو.
كان ماهر المسؤول عن العلاقة بين الجماعة وشوكت بك، لكنه آثر هذه المرة أن يصحب معه الزيني ومأمون، حيث طلب الصحفي محمد عبد القدوس، وهو شاب إخواني، وليس مثل أبيه الإباحي، إجراء حوار لـ«أخبار اليوم» مع شباب من جماعة المسلمين التي ذاع صيتها بين جنبات المجتمع، فدبر التوني الموعد، ورحت فقابلت مع صاحبيَّ هذا الصحفي الذي بدا رقيقًا دمثًا هادئًا وشبيهًا بوجه أبيه، يعمل كذلك في مجلة «الدعوة» التي تصدرها جماعة الإخوان المسلمين، قالها كأنما ليزيدنا اطمئنانًا إليه، فأنقص من حيث أراد الزيادة، قال لنا إنه أراد أن يدافع عنا أمام هذه الحملات التي تصفنا بالتكفير والهجرة، وذلك بأن يسمع الناس آراءكم الحقيقية منكم. لم ينشر شيئًا من الحوار الذي جمعنا، فلعله هاله، فقد قلت له إجابة عن سؤال ربما ظن أنه سيسمع إجابة أخرى عنه، قلت:
ـ القوة ليست مطلبًا أساسيًّا لنا فحسب، بل القوة هي المطلب الوحيد لحركتنا، سواء داخل المجتمع وقبل الهجرة أو بعد ذلك، وبالطبع نحن نسعى للحكم.
تركت وقتًا ليتفرغ فيه لدهشته، ورفع قلمه عن الورقة، ونظر إليَّ ولحيته تستند على صدره، ثم أكملت:

ـ يستحيل أن يكون لك فكر وأن تكون إنسانًا جادًّا حريصًا على تنفيذه، وأن تعلم أن هذا الفكر هو الحق الذي من دونه الباطل، ثم تتواضع للناس قائلًا إنني لا أسعى للحكم.
وقف سن قلمه عند آخر حرف للكلمة التي قلتها، وبينما يهم بسؤال أكمل صفوت الزيني الذي كان حريصًا في أول اللقاء على أن يخبره أنه مهندس، وأن مأمون مهندس زراعي، وأنني طالب:
ـ هنا نقطة مهمة لا بد من ملاحظتها يا أخ محمد، نحن نسعى لحكم الأرض كلها، وليس لحكم بلد بعينه.
أضاف مأمون:
ـ وحتى نحكم الأرض، وهو أمر قريب نكاد نراه، فإننا لا نرضى أن نُحكم وأن يحكمنا غيرنا بغير الشرع، وليس للرسول أن يحكمه أبو جهل!
شيء ما من الإعجاب كان يتابعنا به شوكت التوني الذي أحكم حزام روبه على ملابسه الأنيقة، وكان حريصًا على أن يتشاغل بأوراق على مكتبه وقراءة صفحات ما وتقليب مراجع، بينما يتابع من تحت نظارته ما يدور أمامه. حاول فقط أن يتداخل حين تحدثنا عن اعتقادنا بأن الخدمة في الجيش الآن حرام لأنها خدمة في غير سبيل الله تعالى، حتى لو كان ذلك قتالًا لليهود الذين هم أعدى أعداء الإسلام، فقال كلامًا مفرطًا عن نصر أكتوبر وحرب رمضان والرئيس المؤمن محمد أنور السادات، فقاطعته، فتحملني الرجل صابرًا رغم أنه محامٍ لا يطيق مقاطعة مرافعته أو لا يقبلها إلا من رئيس لمحكمة على منصته، وأسكت أنا الحوار بضربة قاضية:
ـ لا يكفي أن يكون الذي أمامك يهوديًّا، بل يجب أن تكون أنت قبل ذلك مسلمًا لتنتصر الإسلام على اليهود.
كما جاء ابن عبد القدوس قبلنا ظل بعدنا، وسبقناه إلى الانصراف، وقد داعبنا شوكت التوني وهو يودعنا على باب بيته قائلًا:
ـ اوعوا يا أولاد تكونوا شايفني كافر، واضح إنكم أبلغتوني دعوتكم وأنا لم أستجب، واقعة سوداء لأكون كافرًا من وجهة نظركم!
خبط على كتفي مخصصًا الكلام لي:
ـ طيب، كيف تأمنون لكافر الدفاع عن قضاياكم؟!
لكمه صفوت الزيني بحجته:
ـ الرسول الكريم استعان بعبد الله بن أريقط الكافر لمعاونته في الهجرة من مكة إلى المدينة.
ـ خيبة الله عليك! لا أنتم النبي ولا أنا ابن أريقط أيها الشجعان الحمقى!
قالها ضاحكًا وأضاف:
ـ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا ستقابلون الرجل غدًا؟
وكأنه يعاتبني ممازحًا:
ـ يعني أنت طلبت المقابلة معه كي تدعوه للإسلام؟
ـ أنا لم أطلب، سيادتك من نقلت لي دعوته.
ـ لا، ليس دقيقًا، اسأل زميلك صفوت وهو يلتقي بمن هم دون هذا الرجل المهم، إنه مسؤول كبير، وقال ليأتوا للقائي في أي وقت ما دمت يا شوكت بك متحمسًا لهم وتثق في دينهم

وأخلاقهم. ثم لعلك يا ماهر يا ابني تصل معه إلى خير للدين والدنيا معًا، ثم إنك لست ملزمًا بأن تتفق معه على ما لا تبغي، ولن تقبل بما ترفض، فما الضرر؟ ثم كم مرة جلس أبو سعد مع أولي الأمر، فأنت تتبع لا تبتدع.

ـ أبو سعد لن يمانع ولم يكن ليمتنع، على بركة الله، لننتظر وننظر ماذا يريد.

ـ لكن اذهب وأنت تعرف مبدئيًّا ماذا تريدون أنتم.

ورُحت.

* * *

كان الرجل دمثًا حتى المبالغة، وودودًا حتى التزلف، بذل جهدًا كبيرًا من المبالغة كي يصطنع أهمية للاجتماع، من أول هذا الضابط الذي قابلني حفيًّا على مدخل مبنى الداخلية، وكأنني ضيف جاء ليفتش عن حسن سير العمل، إلى التحيات والسلامات التي استقبلني بها ضباط سكرتارية الضابط الكبير، وكأننا كنا معًا بالأمس في صلاة العشاء، ثم أوامره بألا يدخل أحد عليه إلا الذي يحمل كوب الليمون الذي طلبه لي، ومنع تحويل أي مكالمات تلفونية إليه، ومعانقته لي كأننا في فرح بنت أخته، ولم يخاطبني في الجلسة كلها بماهرٍ، بل بـ«يا أخ أبو عبد الله»:

ـ يا أخ أبو عبد الله، ربنا يقول: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ» (كان قد أمسك لحظتها بالمصحف الموضوع في علبة قطيفة على يمينه فرفعه وظَلَّ معلقًا بيده في الهواء قليلًا، وكانت لوحة نحاسية على مكتبه تقول إنه اللواء عليوة زاهر). ويعلم الله أنني صادق، والله على ما أقول شهيد، وأنا هنا لا أتحدث باسمي، بل أمثِّل الدولة بأكبر رؤوسها، يعني الدولة قاعدة معك الآن، وتقول لك تعال نضع يدنا في يد بعض.

كانِ الرجل محافظًا على رشاقته، فلم تظهر عليه بدانة الجالسين على المكاتب، ويبدو شاربه أنيقًا وأنه بذل وقتًا صباحيًّا للاعتناء به، ويرتدي بدلة سوداء بقميص أبيض ورابطة عنق عريضة ذات نقوش صفراء، وغرفة مكتبه فسيحة تدل على أهمية منصبه، وصورة الرئيس السادات تتصدر الحائط خلفه تبرز في جبهته زبيبة الصلاة كأنها تشهد حوارنا. أكمل الرجل عرضه، ولعله رأى في عينَي لمعة ضاعفت قطع اللحم التي يرميها للأسد عربون صداقة في الغابة:

ـ أنا أعرف كل شيء عن جماعتكم وعن أعضائكم، ليس لأننا نراقبها ونتابعها فقط، بل لأنكم أكثر جماعة إسلامية صراحة وشجاعة ووضوحًا في كلامكم وتصرفاتكم، والحقيقة أنا لست منزعجًا ولا الدولة طبعًا مما تقولونه، في الآخر أنتم ناس تصلي وتصوم، متدينون وملتزمون، وتعلمون الشباب قواعد دينهم بدلًا من أن يغرقهم الشيوعيون بعفونة أفكارهم أو تجذبهم الجماعات المتمسحة بالإسلام للعنف والتطرف مثل جماعة شباب محمد، ويقومون بعمليات عنف وإرهاب، ومحاولة قلب نظام حكم مثل اقتحام الكلية الفنية العسكرية. وأنتم تجذبون الشباب المتحمس للالتزام الديني ولنصرة الإسلام، غير جماعة الإخوان التي لا تملك ما لديكم من نجاح مع هذا النوع من الشباب صاحب الدم الساخن والعقل الناشف (وضع ابتسامة كبيرة على فمه وهو يرفع يده معتذرًا). أنا عارف طبعًا إن خالك أبو سعد كان إخوانيًّا منذ شبابه (ضحك مفتعلًا)، لا، هو لا يزال شابًّا، عمره خمسة وثلاثون سنة، أليس كذلك؟ نعم كذلك، عمومًا هل فهمتني؟

لم أكن قد فهمته تمامًا، خصوصًا أنه كان يضع أمام كلماته ستائر كثيرة، شفافة لكنها تمنع كمال الرؤية، تُظهر بنفس ما تُخفي. لم أكن أريد أن أستنتج شيئًا، بل أسمعها واضحة أذهب بها إلى أبو سعد بينة بائنة، فدفعه صمتي لأن يتكلم:
ـ شُف يا أبو عبد الله، لا من مصلحة الإسلام ولا من مصلحة الدولة، وعلى فكرة مصلحة دولة الرئيس السادات هي مصلحة الإسلام، إنه تطلع جماعات عنيفة ترفع السلاح كي تنفذ انقلابات من أجل تطبيق شرع الله. طيب ما نحن نطبق الشريعة، والرئيس السادات لم يسترد قناة السويس من إسرائيل فقط، بل استرد مصر كلها من الشيوعية، ثم الدولة لما تلاقي جماعة ترفع سلاحًا هل ستسكت؟ سترد وتضرب وهي الدولة، طيب من استفاد هنا؟
لا يرد أبو عبد الله.
ـ من استفاد يا أبو عبد الله؟
يرد ماهر:
ـ أعداء الإسلام.
يخبط الرجل على سطح المكتب:
ـ الله يفتح عليك! أعداء الإسلام الذين هم أعداء الرئيس، الشيوعيون والناصريون.
خرجت من الاجتماع وقد وضعت في رأسي ثم في أوراقي الخطة، سميتها «خطة الحسابات الدقيقة»، صفحات قادت إلى صفحات، أسانيد الشرع ومواقف النبي ودراسة الواقع، إنه حساب دقيق للغاية شرحته لأمير المؤمنين:
ـ شُف يا خال، عرضت الحكومة علينا رغبتها في التعاون معنا.
صمت تلقاه، لكن بقبول لما سيأتي بعده:
ـ طبعًا هم يخافون من أمثال صالح سرية والأناضولي وأولئك الانقلابيين الذين يعتقدون أن حركة مسلحة وكم رصاصة على عدد من التفجيرات والاغتيالات ممكن تعمل دولة الإسلام، يبقى دورنا من وجهة نظر الطاغوت إننا نحارب هذه الجماعات حين نجذب نحن الشباب إلينا، نحن لا ندعو للانقلاب بل للهجرة، وقد كتبت يا أبو سعد في كتابك «التوسمات» عنوانًا نحفظه عنك: «دولة الإسلام لا تقوم عن طريق الانقلابات العسكرية أو عن طريق التسلل إلى وظائف الدولة القيادية»، الآن دولة السادات تلعب خطتها لاحتواء الدعوة الإسلامية واستغلالها، وأنت يا أمير المؤمنين من علمتنا بأن الاستضعاف الذي نبديه يغري الأمن بالظن أننا سنقف عند الهجرة والاعتزال، فلا يجدون مشكلة في أن نظهر ونستمر وننتشر، يحسبون أنهم يستخدموننا بينما نحن الذين نستخدمهم.
ابتسم شكري مصطفى:
ـ وقد قبلنا ذلك.
كان يعرف أنها طريقة خاله وأميره منذ اليوم الأول، وقد سمعها منه كثيرًا متمازحًا متخابثًا، كأنما يسخر من عقل الطاغوت الذي يصدق حججه:
ـ إنني أقول للطاغوت أنا لا أشكِّل عقبة في طريق خطتك بحجبي للنساء والشباب عن الجامعات والمدارس، بل أقول للطاغوت أنا أريحك من مشاكل تعليمهم وانتقالاتهم، ولماذا تأخذ على خاطرك وتتضايق بينما هجرتي لا تشكل خطرًا انقلابيًّا عليك؟ واحد سايب لك البلد وما فيها وماشي، قل له غور في داهية أو مع ألف سلامة، على الأقل أساهم في تخفيف مشاكل السكان،

وبترك الوظائف أريحك من المرتبات التي تدفعها لهم، وأوفرها يا سيدي لتدفعها إلى زبائنك وزبانيتك.
كان هذا العرض عند أبو سعد هدنة مؤقتة مع الحكومة، هي خطوة تساعده على مزيد من التوسع والتوغل في أرض الكفرة، يقضم من الجاهلية مساحات من أرضها، ويغزو فيها حدودها. لهذا كان قد قرر أن الهجرة، وإن كانت واجبًا ومنهاجًا وشريعة، لا تقتصر على الهجرة في المكان، بل يمكن أن تهجرهم وهم بجوارك وفي كتفك، ويمكن أن ننتقل من الصعيد والمدن والقرى للقاهرة فننتشر فيها (بتنا خمسًا وعشرين شقة للجماعة غير ما يمتلكه أفرادها من ورش ومحلات وبيوت) حتى تتسع لنا أرض الهجرة، ونصبح إن شاء الله الجماعة الوحيدة في مصر.
قرأ شكري «خطة الحسابات الدقيقة» فأقرها، ولم يمانع في نسخها لأعضاء الخلاصة من الجماعة. تماحك عبد الرحمن أبو الخير وهو يناقشني مع صحبة من الجماعة في بيته، وكنت أزوره تلبية لدعوته الملحاحة، فهو يظن أنني عقبة على جسره إلى عقل أمير المؤمنين. الحسابات الدقيقة لم تكن دقيقة لديه، فاصطنع الحكمة وقال:
ـ إن هذا استدراج من الطاغوت لاحتواء الجماعة أو استخدامها في ضرب وتصفية جماعات الحركة الإسلامية الأخرى، ثم يستدير علينا ليصفينا بعد أن نكون قد أدينا غرضه.
ـ حسنًا، نحن من مصلحتنا تصفية الجماعات الأخرى، فهي ليست إسلامية كما تقول وتزعم، ولا أظنك تبقى معنا في جماعة المسلمين وأنت تظن أن غيرها على الحق. وهذه التصفية لا قتال فيها منا، وإن كانت تحتاج منا القتال لقاتلنا، ولكنها تصفية لوجودهم، حيث ترتفع كلمة الحق من جماعتنا فينضم إليها الناس أفواجًا، ثم الدولة إن فكرت أن تستدير علينا فقد جنت على نفسها براقش، ستكون شوكتنا قد قويت، وزاد عددنا، وتراكمت أموالنا. وما أردته أنت يا أخي سيتحقق، وهو المواجهة مع الطاغوت، ولكن وقد أعددنا له من قوة ورباط خيل.
حاول أبو الخير أن يقول شيئًا ولن يكون خيرًا فقاطعته:
ـ ثم سمعتك غاضبًا على إقامة دعاوى قضائية ضد الذهبي وأمثاله الذين تطاولوا على الجماعة، وأيضًا على تلك الصحف التي هاجمتنا!
ـ نعم.
ثم تلا من قول الله تعالى: «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا».
ـ أنا أحفظ الآية يا أخ عبد الرحمن جيدًا، لكن سمعها أيضًا من أُوحيت إليه، رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد دخل في جوار كافر. لقد دخل في جوار مطعم بن عدي ليحميه من الكفار في الطائف.
كانت الحسابات الدقيقة تقول إنه لو هناك اتفاق بيني وبين الطاغوت سوف ينتهي بربح للطاغوت بنسبة ستة وأربعين في المائة، وبربح لي أربعة وخمسين في المائة، فأنا ملزم شرعًا بالموافقة عليه، ولم يكن معروضًا علينا تنازل عن أي رأي أو فكر أو حركة أو موقف أو شاردة أو واردة، وسوف أكسب (وللأسف معي الإخوان المسلمون يكسبون على الطوار الآخر، وربما تكسب أكثر مما كسبت). إنها الحرية في الحركة، فأصل للناس كما شئت وأينما شئت، ويخسر الطاغوت حين يظن نفسه كاسبًا، حتى ظننت أنهم إما بلهاء أو سفهاء وليس أمامهم إلا نقض

العهد. لا بد أن هذا اللواء حين خرجت من غرفة مكتبه، ورفع الأمر إلى رؤسائه، اكتشفوا معًا أنهم ثلة من الحمقى، وكما يهود بني قريظة ستجدهم ناكثي عهد يخونون الرسول مع الأحزاب. وهذا ما جرى، فلم نكسب قضايا رفعناها في المحاكم رغم براعة شوكت التوني وثقته التي تنتفخ غرورًا، ولم نحصل على مليم أحمر تعويضًا عما ألحقوه بنا، ولم يفرجوا عن أحد من معتقلينا، ولم تتوقف سفاهات صحفهم ومجلاتهم، بل زادت وتساخفت وتحولت إلى قذف المحصنات فينا. صحيح أنهم سحبوا كتاب التخرصات المضلل الذي أصدرته وزارة الأوقاف خصوصًا بعد طرد الذهبي من منصبه. لا بد إذن أن يتلقوا درسًا، ويتعلموا شيئًا عنا، وقد ظنوا بنا الضعف، وهو استضعاف، وتخيلونا أصحاب مدى وسكاكين ومفضلي السيوف، بينما نحن نملك المدافع والمسدسات والعبوات الناسفة. في الصبح الأبلج، وبعد أن أنعس ساعتين، سأصحو لأذهب وأرى خزيهم وأنا واقف على الرصيف أتابع اندلاق كرامة الطاغوت تحت أرجلنا.

* * *

ـ لا، اللبس يبقى عاديًا، لا نريد لفتًا للانتباه في أول ظهوركما، لكن أبقيا على اللحية، لا تحلقاها لأجل هذه المهمة.

التفت إلى صفوت الزيني الذي وافقه وهو المسؤول عن تكليفات توزيع البيان. شرح أبو طلحة:

ـ أصاب أبو عبد الله، لا مشكلة في الإخوة الذين سيتوجهون إلى الجرائد ووكالة رويترز والفرنسية، نروح بالجلباب أفضل، حيث استغراب الصحفيين سيجعلهم أكثر اهتمامًا، ثم لن يكون رد فعل أي صحفي أن يبلغ البوليس، بل سيفرح بما جاءه من خبر صحفي سيعتبره فوزًا جاءه حتى باب مكتبه، كل واحد فيكم لديه عنوان الجورنال أو الوكالة.

نظر إلى ماهر:

ـ زاروا الأماكن يا أبو عبد الله، وراحوا العناوين منذ الأمس للمعاينة، بل دخلوا حتى استعلامات الجرائد.

عاد والتفت إلى الإخوة في شقة نصر الدين الذين كانوا يتلقون التعليمات، فكل واحد منهم سينزل صباحًا من بيته، كما منع عنهم فتح الأظرف وقراءة البيان، وإن كان صفوت قد لخص لهم ما فيه ليعيشوا جلل ما يفعلونه:

ـ لن نترك البيان في الاستعلامات، لازم تطلبون الأسماء التي كتبتها لكم كي يتسلموا بأنفسهم.

عاد إلى ماهر برأسه:

ـ صحفيون متخصصون في الأخبار والكتابة عن الدعوة أو الحوادث، وبعضهم معارف وفيهم إخوان.

وأضاف لهم:

ـ لو كان أحدهم غائبًا فاطلبوا زميله في القسم أو المكتب.

صمت، ثم وجه كلامه إلى جمال ورزق:

ـ أما مجلسا الوزراء والشعب، فهناك مكتب أمن واستعلامات في المدخل، لكنه لا يتحسب قدوم غريب ولا يتوقع خداعًا، فيكفيه بطاقتك الشخصية، ولو قلت إنك صحفي أو ذكرت اسم موظف أو مسؤول بالداخل قد جئت لمقابلته لسمحوا لك بالدخول، لكنكم لن تفعلوا ذلك، ولن تتحايلوا أو تكذبوا، بل ستقولون بمنتهى الوضوح عايزين نسلم بيانًا من جماعة المسلمين تعلن فيه خطف الشيخ الذهبي وزير الأوقاف السابق.

قال ماهر:
- وإن سألوكم ومن أنتم، فأجيبوا بكل صدق، فبطاقاتكم معهم.
مرة أخرى التفت إلى صفوت:
- لن تستخدموا بطاقات مزورة.
أومأ صفوت موافقًا، فأكمل ماهر:
- نحن لا نخاف ولا نهاب، قولوا أسماءكم إن سألوكم ما صفتكم.
رد صفوت:
- مسلم من جماعة المسلمين.
- ثم صمت مطبق، لا تفتحوا أفواهكم صيامًا عن الكلام ثلاث ليالٍ، وبعدها قولوا ما شئتم.
كان شكري مصطفى هو من طلب أن يذهب أعضاء الجماعة بالبيانات بأنفسهم، وبالذات إلى قصور الحكومة ومكتب رئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب تحديدًا. كان يريدها تحديًا واستعراضًا وتباهيًا بالشجاعة والمواجهة، ثم كان يريد للحكومة أن تعرف ماذا يفعل رجاله بها وأمامها. فهذا إذن شاب يعلم أنه حين يسلم لهم بيان خطف رجلهم فسوف ينكلون به، يحبسونه، يستجوبونه، يعذبونه، ورغم ذلك ذهب إلى فرعون حيث طغى، لا ولن يقول له قولًا لينًا، بل يردع ويهدد. وهذا الأخ الذي أرسله لكم في مجلس الوزراء أو مجلس الشعب ليس موسى ولا هارون، بل هو من صغار فرخي، إنهم يلقون بأنفسهم من فوق سور قلعة لو أمرت، ويلقون في وجوهكم ورقة بيان لو شئت.
صحا ماهر بعد نومة قصيرة لعلها غفوة، نزل من الشقة مودعًا خاله ومقررًا أنه سوف يعود إليه في شقة الأميرية، حيث سيذهب شكري إلى زوجته التي أنجبت له منذ أسابيع طفله. كانت زوجته الأثيرة بين الثلاث، فقد أنجبت، وأنجبت الذِكر. لكن ماهر لم يشعر أن هذا الرضيع سوف ينتزع منه أبوة خاله. لم يلحظ في خاله شراهة قَطُّ، رغم أن نساء المسلمين كلهن رهن إشارته، يهبنه أنفسهن. لا شهوة ولا شبق يحومان أو يهيمان في عروق الخال، فواحدة من زوجاته أخت شاب إخواني شارف أن ينشق عن جماعته ويعلن إسلامه، وثانية شقيقة الخضيري أخلص مخلصينا، وثالثة هجرت زوجها الكافر وغادرت وظيفتها وبيتها وطلقت نفسها، فما كان منه إلا أن يكرمها ويجبر بخاطرها ويتزوجها. كان أسعد ما يسعد به أبو سعد هو خلوته، وليس النساء ولا الطعام.
يغذ ماهر في السير يمينًا وشمالًا يرقب تلك الناصية التي تجمع على ضفتيها قصر مجلس الوزراء ومقابله مبنى مجلس الشعب. سوف يرى الآن كرامة دولة تندلق، وكبرياء حكومة تسال، وغرور طاغوت يراق، وهو يقف على رصيف شارع القصر العيني، يطرد عنه أي شك في النصرة، وتزداد نبضات قلبه دقًا، وقد لمح محمد جمال يتجه ناحية باب المبنى، وقد أمسك ظرفًا أصفر قابضًا عليه بأصابعه. تدفق منتظم لا يتوقف من سيارات ومركبات تقبل من ناحية ميدان لاظوغلي والسيدة زينب وتبطئ قليلًا في شارع حسين حجازي الذي ينتهي عند شارع القصر العيني، وتقع بين ناصيتيهما مباني الحكومة والبرلمان. تبدو الحركة أمام المجلسين لا تهدأ ولا تتوقف ولكنها تبطئ وتتروى، خصوصًا أن عددًا من المواطنين والموظفين وضباط الأمن يتنقلون بين مجلس الوزراء ومجلس الشعب وهم يمرون بين السيارات ويشيرون لسائقيها بأن يبطئوا السرعة حتى يتمكنوا من الولوج للمبنى المقابل، لا ينتظرون إشارة حمراء ولا خضراء،

فيبدو أن العابرين في هذه المسافة من الأمتار يملكون إشاراتهم الملونة في صدورهم. حين ظهر جمال متجهًا إلى مبنى مجلس الوزراء، لاح رزق بعده بلحظات، وقد تبادلا النظرات وهما يقطعان الطريق معًا، كلٌ في اتجاه غير اتجاه أخيه. رزق يقبض على حقيبة بلاستيك تحمل اسم محل من محلات وسط البلد، وقد لبس قميصًا وبنطلونًا أوسع من بحبحة الجلباب، ويبدو أن لحيته طالت في ليلة واحدة حتى بدت أكثف وهو الأمرد. فكر لحظتها أنه سيضيف اسميهما على قائمة المطلوبين للإفراج حين تعلن الحكومة موافقتها على شروط الإفراج عن الذهبي، فسوف ينزلان سجينين من هذين المقرين، وكذلك إبراهيم حجازي، فهو ممسوك الآن عندهم، لعلهم نقلوه إلى مبنى أمن الدولة المجاور هنا، من الصعب أن يرحلوه إلى حجز قسم حلوان، فالأمر لن يكون خاضعًا لسلطة المباحث العامة، ولا يظن أنها ستملك حق التصرف في هذه القضية، فمباحث أمن الدولة سوف ترمي خيمتها على كل شيء ولكنها ستعلق فشلها في رقبة المباحث العامة طبعًا. أبو سهل لن ينطق بكلمة. هذه الساعات التي مرت منذ خطف الذهبي، كم؟ آه، مرت ست ساعات الآن فقط. طبعًا حايلوه في البداية وتنعموا معه وترققوا به وترفقوا بحاله حتى يخبرهم من الذي خطف الذهبي، ومن شركاؤه، وأي جماعة، وأسماء المجموعة، والعنوان الذي كان سيقود سيارته المازدا إليه. لن يجيب حجازي، وهم لن يتجهوا إلى الضرب واللكم سريعًا، لا يزالون مرتبكين ومذهولين، ثم لم يجمعوا أي خيط بعد، حتى السيارتان فقد أجرناهما ببطاقات مزورة، لكنهم هذه الساعة سوف يعرفون كل شيء عندما يصعد جمال ورزق إلى ممدوح سالم وسيد مرعي.

ظل ماهر يراوح محله، لا يبغي رحيلًا، ولا يقدر بقاء. كانت فكرة أبهرته حين لمعت في رأسه، ربما قالها أبو يوسف بحكم خدمته في الشرطة، فقد عاصر حوادث خطف وطلب فدية خصوصًا في أرياف مصر، لكن ماهر لم تحفظ ذاكرته قَطُّ أي حادث خطف في الإسلام، كل ما يعرفه هو أطياف قصص تُروى في الصعيد عندهم عن لصوص الجبل الذين يسرقون مواشي الفلاحين ثم يقايضونهم على إعادتها مقابل الحُلوان، مال زاد أو قل، ولعله نسبة من ثمن البهيمة في السوق، فيردونها له إن دفع أو يبيعونها خارج المنطقة لغريب أو يذبحونها ويوزعونها على معداتهم وأمعائهم، كلٌ بمنابه. أو خطف طفل لوقت مقابل مال أو أرض، وربما يعود الطفل الرهينة حيًّا أو مقتولًا. لكنها حكايات مخزونة في الذاكرة لأنها قليلة الحدوث إن لم تكن نادرة. هذا كل ما سمعه عن عمليات الخطف، حتى رمى الفكرة على حجره طارق عبد العليم، فملأت عقله، ثم تخير المخطوف فيها، ثم عرضها، ثم خطط لها مع أبو يوسف وأبو مصعب، وها هي قد تمت في خطوتها الأولى، ليكتب تاريخ الحركة الإسلامية أن جماعة المسلمين فعلتها لأول مرة، وتنتصر بها على حكومة فاجأتها بما فعلت وباغتتها بما أقدمت، وها هو جمال الآن ورزق في مكتبَي الرجلين الثاني والثالث في الدولة بخبرهما اليقين.

كان جمال قد وقف أمام سكرتير الأمين العام لمجلس الوزراء مستخفًّا ومترفعًا بما لا يتناسب مع رداءة ما يلبس، فهو رثٌّ بين عدة بدلات تجلس متأنقة في انتظار مواعيدها مع السيد رئيس الوزراء، ثم حداثة سنه التي يبدو معها كأنه صبي دخل تطفلًا أو خطأ إلى غرفة الناظر في المدرسة. لكن خشونة حنجرته وغلظة خطابه في حضرة موظفي ومسؤولي وضيوف رئيس الوزراء، جعلت العيون تتجه إليه وتنتبه لدخوله، وقد صاحبه موظف من الاستعلامات لم يستوعب ماذا يقول هذا الصبي، لكن يبدو كلامه خطيرًا، فلجأ إلى موظف الأمن فسلمه الفتى مرددًا كلامه أمامه:

ـ يقول إن معه بيانًا يريد تسليمه لرئيس الحكومة!
ترفَّع موظف الأمن حتى عن تأمل وجه جمال، وأمسك الظرف بطراطيف أصابعه:
ـ نعم يا اخويا!
أخوه موظف الاستعلامات اعتقد أنه عمل ما عليه، فأخذ بعضه ورجع إلى مكتبه الزجاجي في مدخل القصر عند بوابته الرئيسية، بينما أكمل موظف الأمن ببذلته التي حاول أن تبدو مكوية هذا الصباح استفهامه إلى جمال:
ـ من أنت بقى يا أخ؟
ـ مسلم من جماعة المسلمين.
ـ نعم يا روح أمك!
ثم أمسكه من ذراعه وصعد به السلالم:
ـ إنت باين عليك مجنون!
ابتسم جمال وقال سعيدًا بارتجاله:
ـ لو لم تُبلغ رئيس الحكومة وتقدم له هذا البيان فسوف يموت الشيخ الذهبي!
ـ الشيخ مين؟!
ـ الذهبي.
فاضت حيرة الموظف الأمني حتى قرر أن يصحبه إلى رئيسه، ثم استوعب أن رئيسه في اجتماع في لاظوغلي، فقرر من قصيرها أن يذهب به إلى مكتب أمين عام مجلس الوزراء وهو يتصرف، خصوصًا أن الولد قابض على الظرف بأصابع متصلبة ابيضت أناملها، كأنه سحب كل دمها منها إلى مخه. وصل إلى المكتب، ووقف الولد ولا يهمه من يجلس ومن يسأل أو يجيب، تسلم السكرتير الظرف، وقال متهكمًا:
ـ تحب أوقع لك على إيصال استلام أو على ساركي؟
رد جمال:
ـ لازم يقرأه رئيس الوزراء الآن، وإلا الشيخ سيقتل!
أكمل سكرتير الأمين العام سخريته بصوت أعلى ونبرة أرفع:
ـ شيخ! وقتل!
فتح الظرف، وأخرج الورقة، فتزحلقت ورقة أخرى معها، قرأ ففوجئ ثم صُدم فاهتم ثم توتر، فقام وقال لموظف الأمن وسط دهشة الجلوس الذي تابعوا الهمسات واسترقوا سمع الكلمات واستغرِبوا من مثلث التفاوض الغريب:
ـ تعال معي.
دخلا إلى مكتب مدير مكتب الأمين العام، وظل جمال واقفًا دقيقة فأخرى فثالثة، ثم لم يجد لزامًا لأن يبقى فمشى ومضى خارجًا، هبط السلالم وعبر الساحة الأمامية ثم وصل إلى البوابة، تجاوزها ووصل إلى الشارع فغاص في زحمته، ثم لمح وجه ماهر يتجه ناحية ميدان التحرير، فركض نحوه، ثم ألجمت جريه يدٌ قبضت على كتفه وأوقفته، فأحس خوفًا يعتريه، وتثبتت أقدامه في الأرض للحظة، ثم قرر الركض أسرع ليفلت من اليد القابضة، فيبدو أنهم نزلوا يبحثون عنه من مكتب رئيس الوزراء، لهث وهو يفلت كتفه ويهرع بساقيه فإذا به رزق:

- اهمد يا جمال، لماذا تجري؟
التفت له، فبث فيه حماسًا هائجًا:
- سلمت البيان أنت أيضًا؟
- نعم.
- وتركوك؟
- أخذوا الجواب وقالوا لي طيب يا ابني مع السلامة.
- فتحوه؟
كان ماهر هو من يسأل وقد رآهما بطرف عينيه، فعاد عدوًا ناحيتهما، وشدهما ناحيته ليمضوا في شارع جانبي، وهو مأخوذ من المفاجأة، ومتعجب، ومحبط من أنهم لم يقبضوا على جمال ورزق.

أجاب رزق وقد هرع وراء ماهر ماشيًا:
- قدامي لا، لكن الرجل قال لي إن سيد بك مرعي سيأخذ البوسطة بعد الجلسة.
- وقلت لهم من أنت؟
- لم يسألوا.
- طيب هل أخبرته أن جماعة المسلمين خطفت الشيخ الذهبي؟
- نعم.
- وبمَ رد؟
- تحيَّر ولم يفهم، ثم تلفت وهو يحوقل ويردد يا حول الله ليه كده.
- وبعدين؟
- ولا حاجة، وضع البيان في البوسطة، وقال لي فيه حاجة تانية، قلت له لا، سلام عليكم، فأجاب وعليكم السلام.

(5)
- مجموعة مسلحين خطفوا الشيخ حسين الذهبي من منزله الكائن في حدائق حلوان، تنكروا في زي وهيئة رجال شرطة وهربوا في سيارة فيات.
جاء صوت الإخبارية بالتكتكة والشوشرة ناعقًا في خشخشة لاسلكي سيارة نائب وزير الداخلية الذي هو وزير الداخلية الفعلي، فكأنما صفعت رصاصة مسامعه، ونسفت شحمتَي أذنيه، وخرقت رصاصة أخرى عظام ترقوته فتفتتت وهي تقذف مزقات جلدها وشظايا عظامها في الهواء.
حاول اللواء النبوي إسماعيل على الصبحِ الحفاظ على هدوئه، فأحسه العسكري الذي يسوق السيارة وضابط الحراسة مصدومًا، فلا علَّق ولا رد ولا شد اللاسلكي ليسأل ويستفسر. التفت الضابط إلى السيد اللواء بجانب جذعه وواجهه بوجهه وهو يرى هندمة بدلة اللواء المتأنقة (صمم النبوي ألا يرتدي البدلة الصيفية بكميها القصيرين، التي اعتاد أن يقوم بجولاته بها، رغم أن الرحلة إلى السويس طويلة والدنيا صيف وحر وسيارة الداخلية غير مكيفة الهواء، وفضل أن يلبس بدلة بقميصها برابطة عنقها مانحًا للزيارة طابعها الرسمي، فقد رأى البدلة الصيفي توددًا

غير مرغوب، رغم أن الرئيس السادات نفسه يظهر بها كثيرًا ويزور بها ويستقبل. لكن الرئيس يلبس ما يشاء، فهل نملك أن نظهر نحن بالجلباب البلدي أو بالشبشب كما يفعل الرئيس؟)، وهم أن يتكلم، فقاطع النبوي نيته:

ـ على حدائق حلوان فورًا.

قرر النبوي أن يغير وجهة الرحلة فورًا بعدما خرج في الخامسة صباحًا، وقد عدت عليه السيارة في البيت لينطلق إلى السويس في جولة تفقدية على المنشآت الشرطية والحالة الأمنية والتموينية هناك، فلا تزال السويس تلملم أحوالها بعد عودة المهجرين وإعادة فتح المدينة لأهلها وسكانها، بعدما هجرت الدولة الآلاف منهم، بل لعلهم كلهم إلا من بقي من بضع مئات من السوايسة عنيدي الرأس وناشفي الدماغ الذين أصروا على البقاء في مدينتهم، بعد أن تدمرت في نكسة يونيو حتى جاء نصر أكتوبر، لكنهم حوصروا مع المدينة من الجيش الإسرائيلي بعد الثغرة، حتى نجح الرئيس السادات في توقيع اتفاق فض الاشتباك، فانفض الحصار بعد مائة يوم من خناقه ومقاومته، وها هو الرئيس بعدها يعيد افتتاح قناة السويس، ويعيد المهجرين من مدن قناة السويس إلى بيوتهم ومزارعهم، ثم هم أنفسهم من يخرجون مع من خرج في محافظات مصر في مظاهرات يناير ضد السادات، شعب مقاوح صحيح.

يعرف السويس جيدًا، بل يحفظ السويس كأبنائها، فقد خدم فيها رئيس مباحث السكة الحديد حين رد لأمن الدولة شرفه المبعزق عندما أمسكت المباحث العسكرية بتنظيم سيد قطب، وكانت الداخلية نائمة. أما من أيقظها فهو أنا، الضابط الذي لم يخدم في أمن الدولة أيام ما كان اسمها مباحث عامة إلا فترة قصيرة حين بدأ عبد الناصر إنشاءها، وكان زكريا محيي الدين وزير الداخلية، ثم رحت بعدها إلى بعثة اسكوتلاند يارد، ولما عدت تسلمت الخدمة في مباحث المواصلات، ولكنني في السويس جندت المصدر الذي كشف لي خطة تفجير منصة عبد الناصر ورجاله في سرادق احتفال العيد القومي للسويس. فاكر لما رحت إلى مدير مباحث أمن الدولة الذي طلب مني بعدما أعلمته بالتفاصيل التي لم تصله من ضباطه أن أتولى بنفسي مهمة تسجيل الاجتماع التنظيمي لهذه العصابة الإخوانية الجديدة، وأخذت زميلي حتاتة المسؤول عن جهاز التسجيل والشرائط ووضع ميكروفونات التنصت، والحمد لله وبعون الله سجلت وأحكمت القضية، وكان انتصارًا رفع رأس الداخلية في عهد أول وزير داخلية من ضباط الشرطة بعدما كان المنصب حكرًا على ضباط يوليو، صحيح أن المنصب ذهب إلى العسكريين بعدها إلى أن أعاده الرئيس السادات لضباط الداخلية مع ممدوح سالم، آه ممدوح سالم، لا أعرف لماذا تبدو علاقتي معه هذه الأيام فاترة، وربما بردت، ولعلها ستنقطع. معقولة غار مني بعد نجاحي في جولاتي لضبط الأسواق التموينية في البلد واجتماعاتي مع التجار الكبار والتجزئة، وناقص أعدي على البقالين كي ألجم ارتفاع الأسعار؟! لهجته وطريقته تغيرتا معي، وقد أحسستهما حين بدأ يلومني على قرار كلما ظهر اسمي في الجرائد بعد حملات تموينية أو اجتماع مع تجار أو تفقد للأسواق، خصوصًا أنني بوجهي وملامحي وبذلتي مرسوم الآن في كاريكاتيرات صلاح جاهين ومصطفى حسين.

ـ هذا ليس عمل الشرطة يا نبوي!

يقولها لائمًا.

ـ بل هي صميم عملنا يا ممدوح بك، وما شغلة مباحث التموين؟

يرد متهمًا:

ـ أخشى أن يشغلك هذا عن عملك يا نبوي!

أنا أحفظه، ومذاكره جدًّا، فأنا مدير مكتبه منذ سنوات حين تولى وزارة الداخلية بعدما أطاح الرئيس السادات بمراكز القوى، ثم ظللت مدير مكتبه وهو رئيس الوزراء، وأخيرًا أعتقني من مكتبه لما أطاح بالسيد فهمي من الوزارة بعد مظاهرات يناير وضم الداخلية له ووضعني نائبًا لوزير الداخلية، حتى حينها كنت مدير مكتبه المحبب المقرب، لكن لما انطلقت يدي أعمل وأشتغل أوغر صدره ضدي، لكن عمومًا هو رجل طيب ووحيد، فلا زوجة ولا ولد ولا بنت، وليس له إلا السياسة ونيسًا أنيسًا وحياة ودنيا، ربنا معه.

كانت هذه الأفكار تمضي بالنبوي إسماعيل ساعة الصبح حين لبس ملابسه وتناول كوب الشاي ونزل للسيارة وركبها ومشت به مسافة، حتى ضربه الخبر القادم من خشخشة اللاسلكي، فقرر فورًا أن يؤجل سفرته، فما سمعه جلل وخطر. صمت عندما انتهت الإخبارية، حتى ظنه السائق والحارس نائمًا لم يسمع، لكن ألف لكمة كانت تتخذ من رأسه لحظتها كيس ملاكمة، فكان يستوعب النبأ متنبئًا بمصيبة. نحن لا زلنا نخرج ببطء وألم من مظاهرات يناير، مرت ستة أشهر نتحسس فيها مواضع القدم وملامس اليد، بعد فوضى عارمة طاحت في البلد وكشفت عوار الأمن وعورة السياسة. صحيح كنت وقتها مدير مكتب ممدوح سالم رئيس الوزراء، لكن ممدوح رجل لا يسمع الكلام، أنا شخصيًّا رأيي أنه طعن الرئيس السادات بإعلان قرارات رفع الأسعار من غير إحم ولا دستور ولا تجهيز ولا إعداد، ولا قرأ تحذيرات الداخلية من الغليان، ولا تقارير الرأي العام التي تخشى من وعود الثراء والرخاء ورفع المعاناة عن الشعب التي تمتلئ بها الجرائد والنشرات في الإذاعة والتلفزيون، بينما المجموعة الوزارية تخبئ وراء ظهرها قرار رفع الأسعار.

يتأمل النبوي إسماعيل الطريق إلى حلوان، وقد هبت نسمات الهواء الرطب من النيل والسيارة تشق الكورنيش مسرعة، وظل اللاسلكي في شوشراته ووشوشاته وإخبارياته الفارغة لا يمده بتفاصيل جديدة عن البلوى التي يذهب إليها الآن، فالشرطة كانت غائبة، حتى إن الأهالي هم الذين أمسكوا بسائق سيارة متعطلة مشتبه بمشاركته في عملية الخطف. يا ترى من يخطف هذا الرجل المحترم الطيب؟ كانت الأخبار عن قضية الأوقاف عنده أولًا بأول في مكتبه كمدير مكتب رئيس الوزراء، ويشهد أن الذهبي ما طلب منها إلا وجه الله، لكنه شيخ غشيم في الحق، فلم يستطع أن يشتغلها سياسة، ويصل بها إلى محاربة الفساد كما يسعى. لكن والله العظيم ما فكرنا نعاقبه لما أخرجناه من الحكومة، يمكن الرئيس السادات لم يحب طريقة معالجته للمسألة، لكن ليس معنى ذلك أن الرئيس يدافع عن الفساد، قطع لسان من يظن ذلك من كلاب الشيوعية، لكن تصوير وزارة في مصر أنها مستنقع فساد يطهره وزير، فكأن أجهزة الدولة كانت نائمة أو متواطئة ورئيس الجمهورية ولا هنا، لكن ممدوح سالم وعد الشيخ الذهبي بمجلس الشؤون الإسلامية أو المؤتمر الإسلامي وقد يكون مرشحًا لمشيخة الأزهر أيضًا، فالرجل كان وزيرًا للأزهر وخبيرًا به. يا حول الله! من الذي خطفه؟ كون إنهم تنكروا في ملابس شرطة، فهذا يعني أنهم محترفون وعصابة، لكن لماذا تخطفه عصابة أصلًا؟ وماذا يعملون به أو يفعلون معه؟ فهو متوسط الحال، فلو طلبوا مالًا لن يجدوه، والخطف لو بغرض الفدية كانوا خطفوا أحدًا من عياله وليس الرجل نفسه. لا يمكن أن يكون المتهمون في قضية سرقة الأوقاف، لأنهم ناس أصحاب حيثية ولهم تاريخ وطني حتى لو كانوا قد ضعفوا وانحرفوا، وهم من نوعية المتهمين تخصص

نيابة الأموال العامة فقط، وليسوا من هؤلاء الذين يتورطون في اختطاف وفدية وجرائم جنائية خطيرة، ثم حتى لو كانوا مجرمين مستعدين لارتكاب مثل هذه العمليات فماذا سيستفيدون منها؟ وافرضوا خطفوه، فلا فائدة من الخطف، كانوا يقتلونه أحسن لهم كي لا يشهد أمام المحكمة، لكن حتى هذه ولا تفرق، فالرجل أقواله في النيابة ومستنداته كلها محفوظة في ملف القضية، ثم شهد أمام المحكمة فعلًا. لا، ليست جنائية، وهذه هي المصيبة السوداء. أنا لا زلت أجمع شتات أجهزة الشرطة التي لبست تهمة التسبب في مظاهرات يناير، وتهمة أنها لم تقدر على لمها، فلجأ الرئيس للجيش كي تنزل قواته ودباباته في الشارع لتحفظ الأمن وتفرض حظر التجول، وها نحن نظهر أمام الناس أنها بلد فوضى وسائبة، إلى درجة أن عصابة تتنكر في زي شرطة وتخطف رجلًا من بيته ووسط عياله! ليس أي رجل، بل وزير سابق وشيخ له اسمه واحترامه!

حين بدأ الحارس يسأل عابرين يظهرون الآن في شوارع حدائق حلوان الواسعة الخالية الترابية وهم في طريقهم للشغل أو للمدارس عن الطريق إلى عنوان بيت الشيخ الذهبي، كان النبوي إسماعيل قد وصل إلى نتيجة واحدة واضحة بخبرة الضابط الذي ودَّع أمن الدولة منذ ثلاثة وعشرين عامًا: لو أن السائق الممسوك قر واعترف يبقى القضية جنائية وتسهلت، أما لو لم يعترف فلا شك أنها وراءها جماعات دينية.

* * *

عندما دخل النبوي إسماعيل بيت الشيخ الذهبي أدرك في لحظة أنها جماعة دينية خطفت الشيخ الذهبي، فالجنائي كان سيخبط ويرزع ويبلطج ويضرب، ويسرق من البيت أي شيء يعلق بيده، ويكسر ربما في أثاث ونوافذ، ويبرطم ويتوعد ويهدد وهو يقوم بعملته، ثم لا يمكن أن يغامر أصلًا ويقتحم البيت، بل كان يخطفه من السيارة في طريق مقطوع، ولا يقدم الجنائيون وجوههم هكذا مكشوفة أمام أهل المخطوف، وكأنهم يقولون لهم هيا تذكروا ملامحنا واحكوها لرسام وزارة الداخلية أول ما البوليس يسألكم عن ملامح المتهمين.

كان البيت قد امتلأ بالجيران من الشارع كله تقريبًا. إحساس أنهم عملوا ما عليهم كان واضحًا حين رأى السائق الممسوك مزنوقًا في ركن ومحاطًا بالجيران ووجهه متلطش رقعًا حمراء وكدمات زرقاء، فيبدو أنه حاول أن يقاومهم، فقاموا بواجب الجيرة وهم يدفعونه داخل البيت. فهم أن شابين كانا سهرانين في حلوان وعادا متأخرين منها إلى الشارع حيث يسكنان، فلما شافا هذا الأخ (طلع اسمه إبراهيم حجازي) واقفًا أمام سيارة مازدا يبدل إطارها، استغربوه في هذا الليل، خصوصًا وقد خرجت مجموعة من باب بيت الشيخ الذهبي تجر الشيخ بجلبابه إلى سيارة فيات وابنته تصرخ وتصيح وابنه مترقِّع بمدفع رشاش في وجهه، ارتبك الشابان، لكنهما لم يترددا في الجري خلف السيارة المنطلقة، فلما أسرعت وبعدت التفتا إلى الشاب الذي يقف أمام المازدا وقد ترك إطار السيارة وهو يصرخ فيهم:

ـ ابعد يا ابني أنت وهو، نحن مباحث أمن دولة.

لا هيئته ولا شكله ولا أداؤه المهتز المرتبك كان يوحي بأنه رجل أمن. صراخ أسماء ابنة الشيخ الذهبي، وزعقة الدكتور مصطفى ابنه بأنه واحد منهم، جعلا الشابين يداهمان رجل المازدا ويطلبان منه البطاقة، فلما رفض فهموا أنه مع العصابة فأمسكا به، فتملص وحاول الفرار، ومن حظهما أنهما قبل سهرتهما كانا قد أنهيا تدريب مركز شباب حلوان، فطرحاه أرضًا وهو يقاومهما، التم الجيران وقد خرجوا على الزعيق والصوات، وأطبقوا معهما على سائق المازدا، وأخرج بعضهم ما في داخلهم من قلق وذعر في وجهه وصدره، وسحبوه حتى بيت الشيخ

وحبسوه بينهم، بينما أسرعت أسماء الذهبي منتفضة وجسدها يرتجف من حمى خوفها على والدها ويرتج رجًّا، فأمسكت بالتلفون وأشارت إلى مصطفى الذي كان الندم يحطمه تحطيمًا أنه فتح لهؤلاء اللمامة باب البيت، وكان يظنهم يطلبونه لعلاج مريض في هذه الساعة المتأخرة، فنال نبله طعنة غادرة بما جرى، قالت له وهي تلهث بحروف متقطعة:

ـ هات رقم تلفون الصحفي صاحب بابا.

كان مصطفى يريد أولًا طلب النجدة أو القسم، فتركته يطلب ما شاء، وجرت هي على مكتب والدها لتعثر على دفتر تلفوناته، ثم رفعت سماعة التلفون الموجود على المكتب، فأدركت أن أخاها على الخط نفسه يحاول الاتصال بالنجدة، فصاحت:

ـ اقفل يا مصطفى!

قفل مصطفى، وأدارت هي قرص التلفون، فأجاب الصحفي بعد لحظة، مستيقظًا من نومه، وبصوت متوجس من مكالمات وش الصبح.

ـ أستاذ رجب، أنا أسماء ابنة الشيخ حسين الذهبي.

قبل أن يجيبها بتحيات واجبة مرتعبًا أن يكون الشيخ مريضًا محتضرًا، أخبرته الأغرب:

ـ خطفوا بابا!

لما روت له متلعثمة ومحمومة التفاصيل أغلقت السماعة فهو سوف يتصرف، وتصرَّف فعلًا. رجب مهنا هو من تكلم مع مكتب مدير أمن القاهرة، ثم بدأت تتوالى بعدها مكالمات ضباطها تبلغ وتستدعي، ولما وصل الخبر مكتب نائب الوزير ثم للنائب نفسه حضر على وجه السرعة، لكن هذه السرعة كانت سلحفائية جدًّا أمام أرنب الخاطفين، فقد وصل ضابط من القسم ومعه دورية بعد ساعة ونصف من مكالمة أسماء للصحفي، ثم وصل مدير أمن القاهرة نفسه اللواء أحمد رشدي بعد نصف ساعة من وصول ضابط مباحث القسم، ثم ها هو نائب الوزير يدخل بعدهم. وقد أضفى حضور نائب وزير الداخلية شخصيًّا، بقامته القصيرة، وبدنه الممتلئ، وبدلته، وتعليماته، وأسئلته، وكف يده المربتة والملوحة، هيبةً في البيت حصنت أصحابه من اليأس السريع.

طمأن نائب الوزير العائلة، وكان الدكتور محمد الذهبي الابن الأكبر للشيخ قد وصل واستقبل المسؤولين، وكلما سألوه أحالهم إلى أسماء، فوجه لها النبوي حمولة خبرة ضابط شرطة أكمل ستة وثلاثين عامًا في الخدمة:

ـ اطمئني يا بنتي.

لم تطمئن أسماء، فالنبوي إسماعيل نفسه لم يكن مطمئنًّا لحظتها، حمل قلقها معه وهو يرحل، فقد حضرت النيابة وتحررت المحاضر وأخذت الأقوال، فأخذ بعضه وغادر لميدان لاظوغلي حيث مبنى الوزارة الذي دخله مع مطلع الشمس على نافذة مكتبه.

* * *

اتصل النبوي أول ما وصل برئيس وزرائه ووزيره ممدوح سالم، استهول سالم الخبر، وقد قدمه له النبوي هائلًا فعلًا. الغموض يكتنف الواقعة، وفضيحة خطف وزير سابق من منزله من عصابة متنكرة بزي الشرطة أفضح. لما استوضح سالم عن حراسة الوزير أين كانت، رد أن الشيخ الذهبي لم يرَ لها فائدة وكانت عبئًا عليه. إنت عارف سيادتك المحروس يبقى مسؤولًا عن أكلهم وشربهم ومكان يضمهم في الخدمة، وأشياء مكلفة لا يتحملها معاش وزير، فطلب رحيلها. كان ممدوح سالم أول ضابط شرطة يصبح رئيسًا للوزراء، وهو ما جعله لا يطيق تلك الخروقات الأمنية التي تنفتق في حكومته منذ مظاهرات يناير. أحس النبوي أن وزيره غاب كثيرًا عن الشارع، فهو ضابط توقفت عنده خبرة الشرطة منذ سبعة عشر عامًا، فقد تولى حراسة الرئيس جمال عبد الناصر سبع سنوات، وهي الحراسة التي لا دخل لها بحرامية، ولا عصابات، ولا محاضر تموين، ولا مطاردات هاربين، ولا اقتحام أوكار في جبل، بل هي إلى التشريفات أقرب، ثم صعد من حراسة الرئيس إلى منصب المحافظ والوزير ثم رئيس الوزراء.
كانت المكالمة بينهما تقشر طبقات الثلج التي تراكمت حين سأله:
- وأمن الدولة عندهم حاجة بخصوص هذه المصيبة؟
كان توتر ممدوح سالم قد ركب كل حرف في سؤاله، فأجاب النبوي وهو مصمم ألا يكون ضحية التقصير:
- حتى الآن لا.
يا ترى سوف يحملني رئيس الوزراء مسؤولية أمن الدولة أيضًا! ألا يتذكر أنني حين نقلت منها ضابطًا اتصل وعتب وغضب مع أنني نقلت الضابط إلى إدارة أخرى، ولو عليَّ كنت أنهيت خدمته؟
- أبو باشا في ألمانيا وراجع بعد غد، عمومًا لا تزال الصورة غير واضحة حتى الآن.
بعد الآن بقليل كان النبوي يتلقى البلاغ الأجد؛ بيانًا وزعته جماعة المسلمين التي هي التكفير والهجرة على وكالات الأنباء تعلن أنها خطفت الشيخ الذهبي. وصل الغليان درجة احمرار كل سنتيمتر في وجه النبوي إسماعيل وهو يتفاجأ بالتجرؤ الصفيق:
- هاتوا البيان فورًا.
- الجرائد تسأل هل تنشره.
- الوكالات ستتنيل وتنشره طبعًا.
- أين البيان؟ هاتوه حالًا!
ثم صبت المفاجآت نارها على النبوي وهو يتلقى رصاصها في مكتبه، حيث كلمه مدير مكتب رئيس الوزراء:
- وصلنا البيان.
ظن أنه يحدثه عن وصول البيان عبر الوكالات أو أحد من الصحفيين، لكنه لم يطق نفسه من الغضب حين اكتشف أن عيلًا من الجماعة أوصله بنفسه:
- وتركتموه يمشي؟!
لم يسمع الإجابة، فقد هاج وماج وبدأت صيحاته ترج الضباط من حوله الذين تدافعوا من كل الإدارات والمكاتب المستدعاة إلى مكتبه، وبدأ يرمي في وجوههم أوراقًا وألفاظًا وأوامر (لم يكن سيد مرعي قد فتح بعد البوسطة التي تركها له مدير مكتبه في رئاسة مجلس الشعب).

وصل البيان إلى النبوي مملى من مندوب جريدة «الجمهورية» في الداخلية قبل أن تأتي نسخة منه إلى مكتبه. قرأه مع ضباطه، فركبه الغم والهم. إنه يتعامل مع جماعة مجنونة ولا شك، إنهم يشترطون على الدولة ويقايضونها ويبتزونها، لأ وأيضًا موعد غايته الثانية عشرة ظهر الاثنين أربعة سبعة الحالي، غدًا يعني، وأيضًا مائتا ألف جنيه واعتذار... ثم ومن هذه الطفلة يا مجاهد؟
كان قد استدعى العقيد عادل مجاهد مسؤول النشاط الديني في أمن الدولة، الذي وقف أمامه برشاقة قامته، وشعره الأسود الذي لم يضربه بياض، وببذلته الصيفية البيضاء، فأمره بالجلوس كأنها ناقصة احترامات وتضييع وقت يا مجاهد! جاءته المكالمة المنتظرة، ممدوح سالم على الخط:

- ما هذا الجنان يا نبوي؟!

- كما تقول سيادتك جنان!

- وبعدين؟

- لا تشغل بالك يا دولة الرئيس، هؤلاء شوية عيال وسنلمهم.

- إنهم يهددون بقتل الشيخ الذهبي بكرة الظهر!

- تهويش.

- طيب، وماذا أقول للرئيس السادات؟

كان الرئيس في زيارة لدولة أفريقية، وهذا من ألطاف الله، فأن يخبره بالتلفون أرحم من أن يقف أمامه الآن وجهًا لوجه يعطيه تمام فشله، بل ويخبره أن العيال طالبة فدية أيضًا ومحددة موعدًا نهائيًّا.

- قل له إننا سنعيد الشيخ الذهبي إلى بيته كاملًا مكملًا.

- ومطالبهم؟

- تعليماتك يا أفندم.

نعم، كان ممدوح سالم ينتظر منه اقتراحات ولا يجره لتعليمات. التعليمات بعد الاقتراحات والتوصيات يا نبوي، خذ بالك يا نبوي النجاح سيكون نجاحي والفشل سيكون فشلك. تجاهل تخابث النبوي وقال:

- بمَ توصي أنت ورجالك؟

- مطالب إيه يا أفندم، نحن الدولة، ولن نهتز أمام كائن من كان، ما بالك بعيال مختلة!

علَّق سالم:

- أنا لو استجبت لهم فسوف أصحو كل يوم على وزير مخطوف أو شيخ مأخوذ من بيته!

كان الحوار محسومًا ومنتهيًا عند جملة سالم:

- ربنا يستر.

وتعليق النبوي:

- ربنا معنا.

لعن النبوي إسماعيل سنسفيل الجماعات الإسلامية التي بدأت تنتشر في البلد أكثر من الجمعيات التعاونية. مالهم الشيوعيون؟ لماذا يصر الرئيس السادات على إطلاق يد هذه الجماعات الإسلامية في البلد يرتعون ويمرعون لا حسيب ولا رقيب؟ (لا، طبعًا هناك رقيب، لكنه لا

يحاسب، بل يتحالف ويتوافق ويهادن). صحيح أنني بعيد عن أمن الدولة، وحتى عندما كنت مديرًا لمكتب وزير الداخلية لم أكن صاحب هذا الملف، ثم الرئيس السادات يشتغل فيه بنفسه، ويكلف أناسًا من خارج الداخلية، بل ومن خارج الأجهزة، ليديروا اللعبة ويعقدوا الصفقة، وهم يلاعبون التمساح، وفاكرين أنفسهم مروضي سيرك. ألم يصل إليهم أن الأسد أكل مروضه محمد الحلو، أشهر مروض أسود في البلد، بل وصاحب السيرك نفسه؟ فها هي هذه الجماعات تقضم وتهضم! مالهم الشيوعيون؟ آخرهم بعد أن تسجنهم وتعذبهم يخرجون من السجون والمعتقلات ليكتبوا مقالات وكتبًا ومسرحيات وقصصًا للسينما، بل ويشاركون معك في الوزارة والحكم، وأقصى ما يقولونه هو أنك عميل للإمبريالية وخائن للقضية، بل حتى في مظاهرات يناير أنت من مكنتهم منك، وأقصى ما فعلوه أنهم ركبوا المظاهرات، وهتفوا للعمال والفلاحين، وهذا الكلام الفارغ الذي لا يودي ولا يجيب، ويتلم بقرشين وشخطتين، فهم لم يرفعوا سلاحًا، ولا خططوا لنسف كوبري، ولا دبروا لاغتيال أحد. لكن هذه الجماعات التكفيرية أوسخ من الإخوان، محمية من الدولة بينما تكفر الدولة وكل خلق الله من أول الرئيس حتى أم أي واحد فيهم، ويقبضون من السعودية، ويقولون لك إن الجيش جاهلي، والسادات طاغوت، وأكتوبر حرب يهود ضد يهود، ويستبيحون دمك على أول ناصية، وماسحين دماغ الشباب، وها هم يخطفون الشيخ الذهبي من بيته ويعطوننا إنذارًا لو لم ننفذ مطالبهم! فلماذا يخلقهم ويخترعهم وينتصر إليهم السيد الرئيس؟ لكنها الأوامر والتعليمات، ثم إن السيد الرئيس بحكمته العميقة ورؤيته الثاقبة أعلم وأحكم، وهو ملك التكتيكات، وخبرته السياسية منذ مطلع شبابه حتى انتصاره العظيم في حرب أكتوبر لا تجعلنا نجرؤ على مخالفته، فهو صاحب أوراق اللعبة يوزعها كما يشاء، فهو في السياسة مقامر لا يخسر.

كان قد قرأ البيان مائة مرة، وفي المرة الأولى بعد المائة قال لضباطه:

ـ أهم شيء عندي حياة الشيخ الذهبي وبأي ثمن، لكن بدون ذرة تنازل.

ثم تنازل، وقال لمجاهد:

ـ اتصرف في حدود الحفاظ على حياة الشيخ الذهبي.

فأجابه:

ـ أنا أفضِّل أن نفرج عن واحد منهم ويكون لنا وسيطًا.

ـ لا أستطيع أن أفرج عن أي واحد في القائمة التي أرسلوها، وإلا أبقى ذوقتهم لحمي.

ـ يا أفندم، شوَّق ولا تذوَّق، ثم الولد الذي أقترح الإفراج عنه ليس من المحكوم عليهم في قضايا، بل معتقل عندنا.

ـ مَن؟

ـ عيِّل اسمه هاشم.

صمت عادل مجاهد ثم أضاف:

ـ ابن أخت شكري مصطفى وأخو نائب التنظيم.

ـ أنت تعرفهم؟

ـ بالاسم والشكل.

ـ قعدت معهم؟

ـ مع شكري شخصيًّا كذا مرة.

ـ يا فرحتي! ولم تتوقع ماذا سيفعلون؟! ولم تأتك إخبارية بالعملية؟! نايمين على ودانكم! عمومًا ليس وقت الحساب، خرَّج الزفت الذي تقول عليه، وشُف ما الذي سوف تصل إليه معه.
ـ حاضر.
ـ هو من المحامي الذي كان يترافع عنهم في تلك القضايا؟
ـ شوكت التوني.
ـ يا رجل!
ثم كأنه تذكر:
ـ فعلًا.
التفت إلى عليوة زاهر وكيل أمن الدولة الذي يجلس منتظرًا التعليمات حذرًا من أي تطوع باقتراح أو إجراء أو موقف:
ـ كلم شوكت بك التوني، عايزه هنا فورًا.
رفع رأسه ونقل نظراته من نائب مدير أمن الدولة إلى المسؤول عن النشاط الديني في أمن الدولة وقال:
ـ وما رأيك في عمر التلمساني؟
لا بد من عمر التلمساني الآن، هذا وقته وذلك دوره.
* * *
فكر النبوي إسماعيل وهو يتصل بالتلمساني بنفسه ويطلب لقاءه في مكتبه، فرحب الرجل شاكرًا ومشكورًا. يحب النبوي مرشد الإخوان منذ عرفه من زمن. منذ بداية خدمته وهو يتابع خطوات هذا المحامي عازف العود في الحفلات والأفراح، وزبون علب الليل، لما هداه ربنا وانضم إلى جماعة الإخوان أيام حسن البنا، رقيقًا ودمثًا وناعمًا، والغريبة أنه لما دخل السجن لم تتغير قلوب رجال البوليس تجاهه، ليس أنا فقط، بل حتى ضباطه السجانون وزملائي في المباحث العامة، مضى به السجن سبعة عشر عامًا بين أسواره وقضبانه، بعد قضية إخوان سنة أربعة وخمسين، ولم يتغير. في نهاية السنة السابعة عشرة للسجن، كان يجلس أمامه في مكتبه بعدما أفرج عنه الرئيس السادات، وفي نهاية السنة الأولى لحريته كان الرئيس يطلق يده في البلد، وليس في الجماعة فقط. فقد مات الهضيبي المرشد الثاني، واقتصر العزاء على تشييع الجنازة، وكانت جنازة مرحلة تسلم بعدها التلمساني الجماعة، وسلمه الرئيس السادات المجتمع. فهل يقدِّم التلمساني خده الأيسر بعدما تسلمت الدولة خده الأيمن سبعة عشر عامًا؟ هل هو الصبر والجلد، أم عقيدة مروية بدم عروق الرجل التي جعلته جالسًا أمامه بوجهه الأبيض وشعره الناعم الممسوح ونظراته الخالية من الغل، يحييه ويحمد في النبوي إسماعيل سؤاله عنه وتعض الشيوعيين والناصريين. بينما كانت الأجهزة ترفع للسادات تقاريرها، وتسمعه كلامها، في ساعة روقانه ورغبته في أن يعمل فيها عمر بن الخطاب مشيرًا ومستشيرًا وفاروقًا، وتنصح بأن يتفقوا مع الإخوان وحدهم، ففي الأول والآخر الأجهزة عايزة جهة واحدة تتفاهم معها، وكبيرًا واحدًا تكلمه، وبعثرة الجماعات في البلد بعيال عاملين فيها أمراء مؤمنين تحت الثلاثين ومؤمنين تحت العشرين، خطر محدق، وباب فتنة وانفلات. فما كان من السادات إلا أن سمح بالأمرين: رهان على الإخوان، ورهانات على الجماعات. جلس مع عمر التلمساني وهو يهدده بوجه عبد

الناصر معلقًا على الحائط، ويمن عليه بوجه السادات الذي أفرج عنه ويسمح له بالبرطعة في البلد بشرط يا عمر.
- تؤمر سيادة الرئيس.
أغلب الظن أن السادات وعمر التلمساني كانا معًا في الجماعة في عام واحد أو فترة واحدة، ولعل السادات كان أقرب للبنا وألصق من عمر، ويعرف عن الجماعة دواخل مَن خبرها عضوًا ومَن حاكمها عضوًا في محكمة الشعب، حيث تراص قدامه كل المتهمين في تنظيم الإخوان، بمن فيهم الهضيبي بل والتلمساني شخصيًّا، فكانت عين الرئيس التي تنظر إلى عمر الآن في استراحة القناطر هي نفسها عين القاضي التي كانت تنظر إليه من فوق المنصة، والنبرة العريضة الثقيلة التي تشترط عليه الآن هي ذاتها النبرة التي كانت تستجوبه في المحاكمة، وسبحان مقلب القلوب.
النبوي مدفوعًا بظهره إلى ركن الحلبة، ملتصقًا بحبالها كما يفعل محمد علي كلاي عندما يتلقى اللكمات، أجلس التلمساني أمامه، والحبال تلمس ظهر النبوي وتحك فيه وتجرح جلده، فمصر كلها في أزمة في تلك الساعة، وشيخها مخطوف، وشكلها عِرة، إذا أفلت هؤلاء العيال بخطتهم ومخطوفهم، ولو قتلوه كانت الفضيحة أشد من أن تحتملها الدولة. صحيح أنني سأصفيهم واحدًا واحدًا من على وجه الأرض لو فعلوها، لكن إنقاذ الذهبي مهمته وهمه وخطته وهدفه، وآن للتلمساني أن يدفع كلفة شهر العسل مع الدولة. الرجل أثبت منذ خرج واتفق أنه عند حسن الظن، فلا يوجد إخواني واحد شارك في مظاهرات يناير، ولا أمسكنا بعضو واحد منهم ولو واقفًا في المظاهرات على سبيل الفضول أو الفرجة أو التشفي حتى، ولا التقطنا صورة واحدة من آلاف التقطناها للمتظاهرين تضم وجهًا إخوانيًّا.
طلب التلمساني الينسون من العسكري الذي وقف منتظرًا طلبه، فزجره النبوي متمازحًا رغم أن الوقت ليس مناسبًا بالمرة:
- ينسون إيه يا أستاذ عمر! خليها شاي يا ابني.
خاطب العسكري، بينما واصل وقد قام وجلس أمام التلمساني:
- ينسون لما تبقى قاعد مع الجماعة بتوعك وعامل فيها مرشد عليهم.
تبادلا الضحك لما أخرج النبوي سيجارة وقدمها للمرشد الذي تناولها برضا وقبول حسن، وأخفض رأسه ليد النبوي الممدودة بالولاعة تشعل له سيجارته. لم تكن زيارة التلمساني الأولى له نائبًا لوزير الداخلية ووزيرها الفعلي في مكتبه، ورغم أنهما يلتقيان في منزله كثيرًا وفي بيوت أصدقاء فإن كل اجتماعاتهم لا تخلو من ضحك وممازحة وقصص تصلح لشهرزاد إن عازتها الحواديت في ليالي ما بعد ألف ليلة. يجيد النبوي، أو هكذا يعتقد في نفسه، ارتداء كلامه زي من يتحدث معه، كثيرًا ما جمعت شرفة بيته أو غرفة الاستقبال عددًا من نجوم المجتمع في السياسة والفن والصحافة، من أصدقائه ومن زملاء حرمه فايدة كامل المطربة الوطنية التي احترفت الوطنية والسياسة، وتمثل المرأة المصرية ودائرتها الانتخابية في مجلس الشعب. يجمع في خبرات حياته بين مباحث أمن الدولة، ومباحث السكة الحديد، وبعثة إنجلترا، وجلسات الفنانين، ونقاشات الصحفيين، ولغو أهل السياسة، وسماجة وظرافة ومكر وخيابة رجال هيئة التحرير والاتحاد القومي والاتحاد الاشتراكي وحزب مصر. وها هو مع عمر التلمساني صديقان مرتاحان ومبحبحان، ولا يتورع عن تقريعه على مقال خشن ورخم في مجلة

«الدعوة»، أو تلقيحة في خطبة لإخواني على منبر جامع، أو تهديد مبطن له بأن يلم رجالته. بينما التلمساني لا يتفزع من الرجل، فيرد بأنه لزوم ما يلزم وسنعقله، وطيب كيف سنكسب الشباب الشارد يا نبوي باشا دون أن نزودها حبتين؟
- حبتين آه، لكن ثلاثة لأ.
- يا سيدي الطبخ نَفَس.
يقهقهان، والنبوي يظن التلمساني عميله الأمين، والتلمساني يظن النبوي جسره المتين.
تنهد النبوي، ولم يضيِّع وقتًا في استهلالات:
- طبعًا عرفت الولد شكري مصطفى ماذا فعل.
- آه عرفت.
نخزه النبوي بالسؤال:
- عرفت منين؟
- حيكون منين؟ إذاعة لندن.
- هي أذاعت؟
- وراديو إسرائيل.
- أنت تسمع راديو إسرائيل؟!
ضحك التلمساني:
- لا، لكنني أعرف من يسمعه.
انتقل النبوي إلى صلب الموضوع، فالتلفون لم يتوقف عن الرنين وهو يرفع سماعته ليسمع جملة أو يقول كلمة ثم يغلقه:
- رجع لي الذهبي.
- وهذه كيف أفعلها؟
- باقولك إيه يا عمر، العيال دي كلها طالعة من حضانة الإخوان، وأنتم تعرفون عنهم أكثر مما يعرفون عن أنفسهم!
ثم أضاف وقد بدأ السيجارة الثانية:
- ثم لو الأمور تفاقمت كلنا سندفع الثمن.
ثم ضغط على حروف جملته وهو يكررها:
- كلنا سندفع الثمن.
- سأبذل كل جهدي.
رجع النبوي بظهره إلى الخلف:
- لا، أنا الذي سأبذل كل جهدي، لكن أنت قل لي أبذله أين ومع من.
- وإيش عرفني
- لأ، ما أنا سأتركك لغاية آخر النهار.
نظر في ساعته ووجدها الحادية عشرة:
- وستعرف وتقول لي.

ـ بص يا نبوي، الشيخ الذهبي رجل محترم، وأنا أحبه وأقدره، رغم أنني لم أتعرف عليه شخصيًّا، ثم حتى لو كان شخصًا أو شيخًا آخر غير الذهبي، كنت سأعمل كل ما يقدرني عليه ربنا، لكن هل أنتم متأكدون أنها جماعة التكفير والهجرة؟
ـ أكد لنا أنت. ما نعرفه هو ما أرسلوه إلينا من تهديد ومطالب في البيان الذي سمعته حضرتك من راديو إسرائيل.
ـ لا، أنا سمعته من إذاعة لندن.
ـ لندن يا شيخ عمر ولَّا إخوتك في الله أبلغوك قبل حتى ما أعرف أنا؟
ـ يا ساتر، هل تلمح لشيء يا سيادة الوزير؟
ـ نائب وليس وزيرًا، ثم لو أريد أن أقول شيئًا كنت أقول لا ألمح.
ـ طمنتني.
حين قام النبوي نهض التلمساني من مقعده وسلم عليه، فأخذه النبوي بالحضن، فأدفأ التلمساني حضنه وربت على ظهره:
ـ بإذن الله تنقذ الشيخ الذهبي، إنت قدها وقدود.
ـ دعواتك.
وهو يخرج من الباب عقَّب التلمساني:
ـ دعواتي ودعوات الإخوان كلهم.
رفع النبوي كفه:
ـ لا، دعواتك إنت كفاية، الإخوان كلهم ضلالية وأنا عارفهم واحدًا واحدًا.
قهقه التلمساني، بينما أضاف النبوي:
ـ أنا سأخبر الرئيس أنك تعاونت معي.
ـ السيد ممدوح سالم؟
رد النبوي مؤنبًا والنني نزل إلى قاع رمشه:
ـ السيد الرئيس السادات يا عمر!
* * *
هم أن يفك رابطة عنقه، لكنه فوجئ بعادل مجاهد يدخل عليه وقد طرق الباب ثم فتحه سريعًا، مفسحًا الطريق للمحامي شوكت التوني كي يسبقه بالدخول. كان التوني كمن جاء إلى محراب محكمة ببدلته الأنيقة ورابطة عنقه المُحكمة، وشيب شعره الوقور تحت صبغة من يتلمس شباب عمره، وثقته التي تحتضن الغرور تسبق خطواته. عاد النبوي وضيق رابطة العنق على عنقه، وخرج من وراء مكتبه يستقبل التوني مخففًا من مستوى المرح المفتعل في استقباله، فالحدث جلل، والرجل يقف على ناصية طريق الحل للأزمة السوداء التي دفعتهم في ركن حلبة باتساع مصر. كان قد أمرهم بألا يقف الأستاذ شوكت التوني ثانية واحدة أمام باب مكتبه بل يدخل فورًا. هو يعرف حساسية الرجل وسنه العجوز الذي لا يطيق صدره كتم غيظه، فيطلق احتجاجاته الغضبى على صغائر الأمور قبل كبيرها. أخذه النبوي في حضنه وذهب به إلى الأريكة حيث هواء التكييف صاعد من فتحاته العريضة يهب برطوبته على مسندها. جلس وقد أشار لمجاهد أن يتخذ مقعده بجوارهما، وقد نظر إليه نظرة حائر، فهذا الضابط مسؤول النشاط

الديني في أمن الدولة، وكل ملفات هذه الجماعات بين إبطه ودرجه، يبدو مهتمًّا بالحضور معه لقاء التوني، فليس وراءه إذن ما يشغله في البحث عن الشيخ الذهبي، كما أنه يشاركه رهانه على التوني، وقد رميا كل أوراقهما مكشوفة أمام الرجل:
ـ طبعا مجاهد قال لك.
أومأ شوكت التوني وقد لمعت مقدمة رأسه المسحوب منها الشعر للخلف وهو يقول:
ـ تفضَّل العقيد مجاهد وأخبرني بهذا النبأ المؤسف، وعرض لي مجمل ما أتى به بيان جماعة المسلمين من بلاغ وإبلاغ.
كان التوني يتحدث باللغة العربية المفخمة، معطيًا لكلامه جلالًا أفخم كثيرًا من حقيقة ما يقول. أعرف التوني، وتقاطعت بنا الحياة مرة أو اثنتين، آخرهما حين زار ممدوح سالم أول عهده بوزارة الداخلية، وكنت مديرًا لمكتبه، يشكو من أمور عالقة بينه وبين إدارة الحراسات. لقد قابل النبوي كثيرين ممكن يكرهون عبد الناصر، لكن التوني ليس منهم، بل هو درجة أخرى أعمق وأحد؛ إنه لا يكره عبد الناصر بل اتخذه عدوًّا، كأنما كان يترافع أمام ممدوح سالم بعدما احتفى بالرئيس السادات ومدحه وحمد له وشكره، ثم تحدث بأسى كبرياء مجروح يستعيد الأيام التي فرض فيها جمال عبد الناصر الحراسة عليه:
ـ والله يا سيادة الوزير كان قرابة ثلاثمائة جندي يحيطون ببيتي في المعادي، وهو مكون من فيلَّتين؛ واحدة لي بطابقين، والأخرى لأخي المرحوم محمود التوني. وفي لحظات كانوا يستولون على كل ما في البيت من مال ومشغولات ذهبية، بل حتى أقلام حبر أبنائي لأن لها غطاء مُذهبًا، واستولوا في الوقت ذاته على اثنين وعشرين ألف جنيه ثمن محصول القصب، وستة آلاف جنيه كانت معدة للإنفاق منها على الزراعة، واستولوا كذلك بعدها على محاصيل مائتين وخمسين فدانًا قمحًا وفولًا وكركديه وكمونًا وخضراوات، وعلى الأراضي نفسها التي نملكها في الفيوم وكوم أمبو!
اقترب منه متوددًا الآن، وقد قطع كلامه عن التكفير والهجرة التي سماها التوني «جماعة المسلمين»، فامتعض النبوي ورمى نظرة إلى مجاهد كأنه يقول له: «من أولها؟!».
ـ طمني أولًا هل ردت إدارة الحراسات لك الستة آلاف جنيه؟
ضحك متأسيًا مشيحًا بيده:
ـ ألا زلت تذكر يا نبوي باشا؟ والله لم يفعلوها حتى الآن، بعدما استولوا على محاصيل وإيجار وزراعة لمدة عامين لم ننل تعويضًا منهم مليمًا واحدًا، أقولك ورغم تدخل السيد ممدوح سالم، ولعل هذه المقابلة عالقة في ذاكرتك حتى الآن.
ـ طبعًا، كانت منذ ست سنوات أظن.
ـ ظن حسن، ولم يعيدوا شيئًا، بل العكس، خرجنا مدينين للحراسة باثنين وعشرين جنيهًا!
ضحك ثلاثتهم، ثم التفت النبوي إلى مجاهد وأدفأ كلامه:
ـ على فكرة يا سيادة العقيد، الأستاذ شوكت التوني قامة وطنية عظيمة، وتاريخ كبير، ليس في المحاماة فقط، بل في النضال السياسي.
أطرق التوني وقد أطربه المديح، فزاد النبوي:
ـ كان من شباب الوفد مع سعد باشا زغلول شخصيًّا.
أبدى مجاهد عِلمًا متفاجئًا بعد جهل مصطنع:

ـ يا سلام!
قاطعه التوني:
ـ طبعًا، أربعون يومًا في قرة ميدان بعد حادث السير لي ستاك.
تدخَّل النبوي:
ـ تعرف أنت السير لي ستاك يا مجاهد؟
ـ أخذناه في المدرسة طبعًا. مقتل السير لي ستاك الحاكم الإنجليزي للسودان.
أكمل التوني متفاخرًا:
ـ وفي سجن المحافظة أيام محمد محمود باشا، والاستئناف سنة ١٩٣١ في قضية قنبلة طما، وفي سجن الأجانب سنة ١٩٤١ في قضية مؤامرة على الجيش البريطاني، وبعدها في قضية هروب عزيز المصري، وأخيرًا ثمانمائة يوم في سجون عبد الناصر من أبي زعبل إلى طرة.
ثم التفت إلى النبوي ومجاهد في نظرة واحدة جمعتهما تحت عينيه:
ـ يعني محسوبكم سوابق جامد قوي.
ضحكوا وكأن الوقت يتحمل خفة الظل. قرر النبوي أن يزايد عليه:
ـ لعلمك يا شوكت بك، أنا كنت في هذه الفترة ثائرًا لكن داخل وزارة الداخلية، أصل سهل يا مجاهد (نظر إلى مجاهد يُشهده على ما يقول) أن تكون مناضلًا وأنت في الحياة المدنية، لكن لما تكون ضابط شرطة مثل حالاتي! كانت الحكومات أيامها حكومات حزبية، فكل حزب يجري وراء مصالح أعضائه ورجاله، وتضيع حقوق الضباط الصغيرين، والله والكبار كذلك، فبدأنا نكتب منشورات بخط اليد، وفيه منشورات طبعناها في مطبعة بالوظة، خذ بالك يا مجاهد، ضباط في عمل سري، تخيل إنت بقى.
ثم مال على التوني:
ـ أنا عارف إن شوكت بك يكره الضباط الأحرار، لكن نحن كان ممكن نبقى ضباط الشرطة الأحرار.
رد التوني:
ـ هم بصراحة يحق عليهم الكره، لكن أنت لم تفعل أقل منهم، ما الحكاية كلها كانت منشورات لغاية يوم ثلاثة وعشرين يوليو الصبح!
ضحك النبوي وهو يشير إلى مجاهد:
ـ شفت؟ ألم أقل لك إنه يكرههم؟
ـ وبعدين يا أفندم؟
كان مجاهد من يسأل يريد أن يعرف بقية القصة المثيرة عن ماضي نائب وزير داخليته المجهول:
ـ أبدًا، اتقفشنا.
قالها واحمر وجهه من الضحك، وأضاف بين ضحكاته:
ـ اهتزت الداخلية كلها من المنشورات، والبلد كلها بدأت تتكلم. لقد كانت صرخة عالية وجريئة تعلن مطالب ضباط الشرطة، وتحسين أحوالهم، وقصر الوظائف الرئيسية في الوزارة وأجهزتها على رجال الشرطة وليس على محاسيب الأحزاب من خارج الشرطة الذين يتحكمون في مقاليد

الوزارة، لكن منه لله البوليس السياسي (أنت يا مجاهد يعني، أمن الدولة زمان كان اسمه القلم السياسي).
أضاف التوني:
ـ والقلم المخصوص قبلها.
ـ شفت موسوعة أستاذنا شوكت التوني.
ـ العفو.
ـ البوليس السياسي قبض علينا، ونحن كلنا في سيارة واحدة، الضباط الخمسة، بمنشوراتنا في سيارة واحدة، مفيش سرية أهبل من كده.
ـ وماذا حصل؟
ـ أبدًا، الرجل المحترم السياسي الحقيقي فؤاد سراج الدين كان هو وزير الداخلية، هذا الكلام سنة ١٩٥١، ناقشنا بهدوء وبمحبة، وقال لنا إنهم داخوا وراء حقيقة هذه المنشورات، ولكنه مبسوط منا لأننا وطنيون، وليس لنا علاقة بأي جهات أجنبية، بل هدفنا الصالح العام، واعتبروا الموضوع منتهيًا، ولن يكون له أثر في ملفاتكم، ولكن لا يجب أن يشعر أحد بأنه قُبض عليكم أو أنني التقيت بكم.
ثم فاجأ النبوي كليهما بالانتقال مباشرة إلى جدول الأعمال وهو يقلب لهجته إلى جدية صارمة:
ـ كيف تعرفت على هؤلاء العيال يا شوكت بك؟
كانت النقلة محيرة وخاطفة، بلعها التوني سريعًا ورد بثقة:
ـ أحدهم اسمه ماهر بكري، جاءني منذ فترة وطلب مني أن أتولى الدفاع في قضايا الجماعة، وقدم لي مجموعة مقالات صحفية وأخبارًا تهاجم الجماعة، وتصفها بأنها جماعة إرهابية تدعو إلى الفسق والفجور وإلى قلب نظام الحكم.
كتم النبوي في قلبه هذا الحنق، فالتوني يعتاد الدفاع عن قضايا قلب نظام الحكم منذ قضية سيد قطب، ولم يكن مهمًّا أن يسأله لماذا اختاروك أنت محاميًا لهم، وهم لا يقدرون على أتعابك، فقد بات مشهورًا بالتعاطف بل الانحياز للإخوان وقطبهم المعدوم، وقد سمع الطلقاء منهم والسجناء عن مرافعاته الذائعة اللاذعة. بات التوني صديق الإخوان، ومن ثَمَّ صديق الجماعات الإسلامية.
كان التوني قد توقف، فلن يضع نفسه موضع المحامي عن نفسه أمام تلك الهجمة المباغتة من النبوي، لكنه آثر أن يواصل كلامه كي تكتمل أمامهم الصورة، فلا أسوأ من صورة مشوهة عند هؤلاء فيزيدونها تشويهًا:
ـ طلبت منه أن يكتب لي مبادئ الجماعة حتى يتسنى لي التعرف عليها، والاستناد إليها في المرافعات.
ـ وتسنى؟
ـ ماذا؟!
ـ أقصد ماذا وجدت؟ أنا لا سمح الله لا أستجوبك، بل أطلب الصفح منك لو ظننت أنني أستجوبك.
ـ لا لا، العفو.
ـ فقط أريد أن أفهم ماذا نواجه؟
ـ والله مبادئهم هي ذاتها مبادئ فِرق المسلمين التي وُجدت في صدر الإسلام.

ـ صدر الإسلام فيه فِرق كثيرة، لكن قل لي من هؤلاء العيال؟
ـ والله من التقيت بهم منهم كانوا في منتهى الوداعة والخُلق والأدب والتهذب.
ـ التهذب؟!
توقف النبوي أمام التهذب، ونظر إلى محامي المهذبين وأضاف:
ـ طيب الآن نريد منك التواصل معهم، ونصحهم بأن ما يفعلونه خطير ومدمر لهم قبل أي أحد آخر.
ـ نعم الرأي.
ـ لا أريد استخدام العنف أو الشدة، وكل ما أسعى إليه نجاة هذا العالم الجليل بحياته.
ـ أستطيع أن أؤكد لك بمعرفتي بهم أنهم لن يمسوا الشيخ الذهبي بسوء، وأنه سيعود معافى مكرمًا إلى بيته.
ـ معافى جائز، لكن مكرمًا بعد كل ما فعلوه، يحكي لك سيادة العقيد.
تدخَّل مجاهد:
ـ الحقيقة اعتدوا عليه وقيدوه بعدما هددوه، فضلًا عن خطفه في الفجر من سريره وبيته وأمام أبنائه.
ـ يعني ننسى حكاية مكرمًا.
كان النبوي هو من تدخل، فلم يصمت التوني:
ـ أعني مكرمًا بالاهتمام به من أعلى مستويات الدولة، ومن كل أجهزة الداخلية للحفاظ على حياته.
ـ تخريجة وجيهة.
قالها النبوي مبتسمًا ثم أضاف:
ـ لكن هل عودته معافى كما تقول، معلومة لديك أم رأي؟
ردَّ حادًّا ونافرًا:
ـ لا معلومات عندي يا سيادة اللواء!
تدخَّل مجاهد:
ـ إذن خلينا في المعلومات التي لدى سيادتك. كيف تتصل بهم؟
ـ كل ما أملكه هو رقم تلفون أتصل به حين أحتاج الأخ ماهر الذي يبدو المنوط به التعامل معي.
ـ وهو الذي يرد عليك؟
ـ لا، في الغالب سيدة عجوز، وحينًا رجل عجوز، أُبلغ أيهما بأنني أرغب في محادثة الأخ ماهر، ثم يطلبني هو بعد وقت يطول أو يقصر.
عقَّب النبوي:
ـ يقصر بإذن الله هذه المرة.
ثم ضغط على زر بجواره.
ـ كمِّل القهوة يا شوكت بك، أقولك هذه بردت، لنطلب أخرى.
ـ لا لا شكرًا، لا أريد أن أثقل عليكم.

ـ يا شوكت بك، نحن في عرضك، فأثقل علينا أرجوك.
دخل ضابط إلى الغرفة، طلب منه النبوي أن يحضر أحد أجهزة التلفون من على المكتب حتى مكان جلوسهم، ثم مال على التوني:
ـ هل نطمع في رقم التلفون نطلبه الآن وسيادتك تكلمه؟
تردد التوني وهو يقول:
ـ لكن رقم التلفون في المكتب.
ـ بسيطة، اطلب المكتب.
ـ صحيح، فورًا.
جاء التوني بالرقم من وكيله في المكتب، وأدار القرص، بينما كان النبوي يحدق في وجه الضابط ويسأله:
ـ سجلت الرقم؟
ارتبك الضابط؛ فلم يفهم هل رئيسه تعمد أن يعلن سؤاله أمام المحامي، أم أنه جاء حماسة عفوًا. أومأ وهو يرى شوكت متململًا حيث لم يرد أحد على مهاتفته:
ـ طبعًا يا أفندم.
قدم للنبوي ورقة صغيرة كُتب عليها الرقم، فأمره النبوي وهو ينظر إلى مجاهد:
ـ عايز كل بيانات هذا الرقم فورًا، وتروح قوة من أقرب قسم للعنوان حالًا.
حين استجاب الضابط للأوامر بالهرولة خارج الغرفة، كان ضابط آخر يقف على بابها صحبه سكرتير النبوي حتى عتبته، وقال متأدبًا هامسًا وهو يشير للنبوي ثم للضابط ثم للعقيد مجاهد:
ـ حضرة الرائد عايز سيادة العقيد مجاهد.
أومأ النبوي لهما بالموافقة، فدخل الرائد وخفض رأسه حتى صدر العقيد، بينما قرر شوكت أن يتكلم بعد أن أغلق السماعة ساخطًا وقد تمتم أن أحدًا لم يرد:
ـ هو للأسف أنا مسافر غدًا للولايات المتحدة الأمريكية، وأخشى ألا أقوم بدور فاعل في حل هذه الأزمة الطارئة.
ـ قبل الساعة الثانية عشرة أم بعدها؟
لم يفهم التوني سؤال النبوي، فحرك رأسه تجاهه ثم هزه مرتين في الاتجاهين علامة غموض نية السؤال، فرد النبوي:
ـ لأن الأخ شكري ولَّا ماهر ولَّا من فيهم أمهلوني حتى الساعة الثانية عشرة ظهر غد، وإلا قتلوا الشيخ الذهبي، فكنت أطمئن هل أنت معنا حتى الموعد المضروب أم مسافر قبله.
قرر التوني أن يترافع حين قام مجاهد واقفًا بجوار الرائد واستأذن من النبوي:
ـ اسمح لي يا أفندم، الأمانة جاءت من أبو زعبل.
قال النبوي متنهدًا:
ـ تأخروا، لكن عمومًا ربنا يوفقك، بلغني بالتطورات أول ما تخلص المهمة.
أومأ مجاهد وصافح التوني:
ـ لا أقدر أن أقول إنها فرصة سعيدة يا شوكت بك.
تدخَّل النبوي:

ـ شوكت بك مسافر غدًا وتاركنا في هذه المصيبة وحدنا!
كان مجاهد يخرج بينما التوني يتململ في جلسته ويهم بالاستئذان للانصراف:
ـ أثق أن هؤلاء الشباب لن يمسوا الشيخ الذهبي بسوء، وأن الموعد المحدد من ضرورات الإلحاح وادعاء الجدية يا نبوي باشا.
نهض النبوي متعشمًا أن الرجل يفهمهم أفضل مما يفهم النبوي:
ـ على الله.
ـ والله غالب على أمره لكن أكثر الناس لا يعلمون.
قالها التوني مفخمة ومجودة، ولم يفهم النبوي هل هو وعظ أم لمز!
* * *
حين خرج المحامي من مكتبه، كان رئيس الوزراء يستدعيه لقصر الحكومة. تمم على قرارات لم تنفع، وسمع أخبارًا لم تضف، لكنه احتفظ بأمل باهت بأن شوكت التوني ورقم تلفونه المجهول، وجلسة العقيد مجاهد مع نزيل أبو زعبل، سوف يطرحان جديدًا. ثم في نهاية الممر وقد أوشك على الوصول إلى المصعد، برقت في رأسه فكرة الاتصال بمحمد عثمان إسماعيل، فنادى ضابطًا من الذين صاحبوه من باب مكتبه إلى باب المصعد:
ـ كلم لي محمد عثمان إسماعيل محافظ أسيوط، وشُف بلغه خبر خطف الذهبي وغالبًا بلغه، عمومًا قل له ينتظر مكالمة مني بعد انتهاء اجتماعي مع السيد رئيس الوزراء.
هناك لما دخل عند رئيس الوزراء، مر على مكتبه القديم فلم يفتقده، ودخل على ممدوح سالم الذي كان مهمومًا، فقرر أن يرفع روحه المعنوية فقال:
ـ يعني ستكون أسود من يناير؟
لم يكن هناك ما هو أسود من مظاهرات يناير عند ممدوح سالم، فقد ظن أن رأسه سيطير من رئاسة الحكومة مع أول إطار سيارات اشتعل في ميدان التحرير. ولما بلغته هتافات الشتائم للسيدة جيهان السادات، أدرك أن رأسه قد طار فعلًا، لكنه فوجئ ببقائه، بل بتوليه وزارة الداخلية إلى جانب رئاسة الحكومة. فمَن عبَر سواد يناير لن تصدمه رمادية يوليو.
رد سالم وقد ضاقت عليه حوائط غرفة رئيس الوزراء بصورها ولوحاتها وأرائكها وموائدها حتى كادت تطبق على صدره وتخنق زمارة رقبته:
ـ كنت خجلان وأنا أبلغ الرئيس السادات بالحادث.
جلس النبوي وقد ثبت السادات نظراته عليه من الصورة المعلقة فوق رأس ممدوح سالم، ولم يستوعب لماذا بدت فيها زبيبة الرئيس أوسع وأثقل سوادًا:
ـ نحن نسير وراء كل الخطوط.
ـ لكن الوقت ضيق جدًّا!
ـ لا أظن أنهم جادون في هذه المواعيد.
ـ هل سنفرج عن قائمة المساجين التي طلبتها الجماعة؟
قالها وهو يرفع ورقة البيان، ثم يرميها على سطح مكتبه ويرد على مكالمة بضغط على زر جهاز الاتصال مع مدير مكتبه:
ـ لا تحوِّل لي أي مكالمات الآن.

توقف رنين التلفون وسالم يقبض على البيان:
ـ فيهم ولد من جماعة الفنية العسكرية.
ـ صحيح، ذاكرة ممتازة يا سيادة الرئيس، اسمه طلال الأنصاري.
ـ لن نفرج عن أي واحد فيهم!
ـ ممكن نفرج عن واحد أو اتنين لزوم التهدئة والتفاوض وكسب الوقت.
ـ هل سنتفاوض؟!
أومأ النبوي صامتًا، كأنه يريد أن يرد عليه بهل عندك حل ثانٍ، لكنه فضَّل الصمت، فتلقى سالم الصمت بالصمت، ثم قطع صمتهما النبوي:
ـ خير يا أفندم؟ كنت تريدني في شيء معين؟
ـ آه.
ـ بخصوص خطف الذهبي؟
ـ هل وراءنا الآن غيره يا نبوي؟!
ـ طبعًا لا وراءنا ولا أمامنا إلاه.
تنهد سالم، وقد أمطرا بعضهما الآن بدخان السجائر، ثم قام من وراء مكتبه ومشى حتى الصالون وتبعه النبوي، وتمجلسا مرهقين:
ـ الشيخ عبد الرحمن بيصار كلمني منذ قليل يعرض دفع الفدية.
استغرب النبوي:
ـ وما دخل الأزهر في شغلنا؟! ثم وكيل الأزهر معه مائتا ألف جنيه منين؟!
ـ طبعًا لا معه ولا حاجة، واضح أنه لما عرف ذهب إلى عثمان أحمد عثمان، هو وعدد من زملاء الشيخ الذهبي، وطبعًا عثمان وافق أن يدفع الفدية.
ـ هل الشيخ بيصار أبلغك بذلك؟
ـ لا، عثمان هو من كلمني وأبلغني العرض، على اعتبار أن المبلغ سيصل للخاطفين من خلالنا.
ـ وطبعًا رفضت.
ـ اتصلت بالشيخ بيصار وشكرته، وشرحت له بالأدب موقفنا، وطمأنته، لكن كنت أخشن مع عثمان، وأفهمته أنها عملية عيال، وساعات وسيرجع الشيخ الذهبي، وأننا لو دفعنا لهم ممكن يخطفونه هو شخصيًّا بعد أيام.
ـ أشك.
ـ هو أيضًا ضحك وقال إنه يشك.
ـ علاقته بهم سمن على عسل.
ـ بمن؟
ـ بالإخوان.
ـ وهو الإخوان الذين يخطفون؟!
ـ لو عايزين يخطفون سيخطفون، لكن يخطفون ليه ما دام غيرهم بيخطف؟
تنهد سالم وقال:

ـ المهم، أنا عايز قرارًا واضحًا، هل أذهب غدًا أم لا؟
ـ المؤتمر.
علم سالم أن النبوي صاحي، فقال مبتسمًا:
ـ آه، مؤتمر حزب مصر في السيدة زينب.
ـ طبعًا تذهب.
ـ والمخاطر يا نبوي؟
فهم النبوي أن هناك من أخاف سالم وأوجسه من أن تكون هناك خطة لاستهدافه، وربما تفجير المؤتمر، وأن هؤلاء العيال لن يتوقفوا وسيستغلوا الانشغال الأمني في البحث عن الذهبي بضربة إضافية أسرع وأوجع.
ـ طبعًا لازم تروح المؤتمر، وممكن تقعد فيه عشر دقائق كفاية كي تكون مطمئنًا، لكن عدم ذهابك سيتم تفسيره خوفًا وارتعاشًا من الدولة.
أومأ سالم متأرجحًا بين ملاحة الرأي وفداحة المخاطرة.
طرق مدير المكتب الباب ثم دخل وهو يتجه ناحية رئيسه، وقال:
ـ الإخوان طلعوا بيانًا وزعوه على الصحف.
سلم سالم صورة منه وأخرى إلى النبوي. رميا نظرات سريعة عليه، وكان النبوي أسرع تعليقًا:
ـ يشجب ويستنكر والشويتين الملزقين بتوع الإخوان.
تهكَّم سالم:
ـ ألم يكن عمر التلمساني في مكتبك الصبح؟
لم يكن النبوي في حاجة للتأكد من أن سالم تصله معلومات عن كل ما يفعله في التوِّ واللحظة من عيونه في مكتبه بالداخلية، فرد مانحًا كلامه عادية مبالغًا فيها:
ـ وفي الآخر كسبنا بيانًا مثل قِلته!
ـ حبيبك التلمساني يا نبوي؟
ـ الإخوان ليس لهم حبيب، لكنه رجل محترم ومهذب وأحبه فعلًا.
ثم رمى رمشًا على مدير المكتب، ففهم سالم، فصرفه بإشاحة من رأسه.
وتقدم بصدره ومال برأسه تجاه سالم:
ـ إذا خرجت هذه الجماعات إلى النور، فبإمكاننا أن نقبض عليهم بدلًا من أن يكونوا في أوكارهم، وما داموا ظهروا على السطح سيكونون في متناول أيدينا، ولكن لا يجب أن نظهر أمام رجالنا في حالة قلق حتى لا تنعكس عليهم.
فهم سالم أنه يتهمه بالقلق، وأنه يشكك في قدرة حسن أبو باشا رئيس أمن الدولة الذي عينه، فاحمرت وجنتاه واتسعت حدقتاه، فهرع النبوي يعرض أن يتلقى رصاصة في صدره إنقاذًا لسالم:
ـ أنا أتحمل مسؤولية هذا الموضوع أمام الرئيس السادات.
نهره سالم، وقد أمال وجهه في وجه النبوي:
ـ تتحمل إيه يا نبوي؟! أنت نائب وزير من كم شهر، وأنا هنا وزير الداخلية، فكيف تتحمل المسؤولية؟

لكنه تنهد وأضاف:
ـ والرئيس غاضب فعلًا.
هب النبوي منتصبًا:
ـ أنا مسؤول عن تصفية هذا التنظيم.
حين عاد إلى الوزارة ثم صعد إلى مكتبه ثم جلس على مقعده متلاحق الأنفاس، قدم له مدير مكتبه بيانًا أصدره المحامي شوكت التوني ووزعه على الصحف، قرأ النبوي بصوت متمهل مرتفع:
نداء من شوكت التوني محامي جماعة المسلمين
من قلب أنتم تعرفون عاطفته نحوكم، وقد منحتموه الثقة الغالية بأن عهدتم إليه بمهمة الدفاع عن قضاياكم، ومنحكم هو من جانبه كل ما يملك من جهد.
من قلبي أبعث إليكم رجاء أن تحكموا أوامر المولى عز وجل، وتحكموا العقل الذي أعهده فيكم، ولا ترتكبوا أي مخالفة للقانون.
إنني أطمئنكم على أن أمر إخوانكم المسجونين سيُحل بالطريق القانوني المشروع، وولاة الأمر مهتمون به كل الاهتمام.
إنني أرجوكم أن تتصرفوا تصرف الذين يرعون حق الله في عباده، وإنني على استعداد للتدخل إن شئتم.
رمى النبوي بالورقة من أمامه وتمتم ناقمًا:
ـ هوَّ شوكت التوني يكتب خطابًا لزوجة موكل عنده طفشانة كي ترجع إلى بيت زوجها؟!
عاد وأمسك بالورقة وأمعن فيها:
ـ وماله التوني يملأ البيان بقلبه هكذا؟!
ردد النبوي الكلمات يتوقف عندها بعينيه:
ـ من قلبي، عاطفة، قلبي، أبعث إليكم.
رماه مرة أخرى:
ـ هذه رسالة غرامية!
شخط في مدير مكتبه:
ـ كلم لي محافظ أسيوط.
ثم برطم قائلًا:
ـ لنرَ بركات مربي الثعابين، سيطلع شيخ من الرفاعية أم مجرد حاوي في مولد!

(6)
لا على حامٍ ولا على بارد منذ اتصل به النبوي إسماعيل، صاح وشخط وأمر وطلب ونهر وأنب في موظفيّ المحافظة، محاولًا التماسك أمام زواره في المكتب، بدلات وعمائم، قفاطين وقمصان، الغرفة التي تتسع لسبعة أو ثمانية بالكثير فاضت عن الثلاثة عشر. كان حريصًا باعتباره محافظ أسيوط ونائبًا أسيوطيًّا قديمًا ورأسًا من رؤوسها ألا يجعل أحدًا ينتظره في مكتب سكرتيره أو سكرتير المحافظة، فهم يتعاملون مع هذا الانتظار انتقاصًا من قدرهم

وتفضيلًا لغيرهم. وحكاية المواعيد المحددة سابقًا، واللقاءات مقيدة التوقيت، لا يستملحها أهالي أسيوط، وخصوصًا كبراءها بل حتى فلاحوها، وما إن يتذمر واحد ويتشكى ويلوم المحافظ متهمًا إياه بالتكبر أو التبغدد على الناس حتى تنتشر السمعة صيتًا يلتصق بسترته وسيرته. لذلك فإن محمد عثمان إسماعيل يبدو أرحب مما يحتمل، وأرحب مما يضيق، ولهجته الصعيدية تغمس كل حروفه، ولمَ لا فكل بكوات مصر وباشواتها كانوا يطلقون عليه لقب «الصعيدي» تندرًا، ولكنه مغرم بصعيديته كما يتباهى الرئيس السادات بأنه فلاح. أكواب الشايات داخلة خارجة، والقهاوي مصبوبة من كنكاتها في فناجين خزفية صغيرة، والكلام يروح ويجيء حول قرارات بناء وأخرى إزالة وإدارة هندسية وأرض زراعية وظهير صحراوي، وهو يرد ويتداخل كأن رأسه معه، بينما هو تائه في دوامة رماه فيها النبوي حين طلب منه التدخل في حادثة خطف الشيخ الذهبي.

كان قد بلغه الخبر صباحًا، فلطم وجهه، فما جرى يهدد كل ما بناه، بل قد يرمي لطشات سوداء على ثقة الرئيس السادات به، وهي أعز ما يملك. منذ جريت في ردهات ومكاتب في مجلس الأمة يومها متحمسًا للسادات رئيسًا للجمهورية، كنا بعد موت عبد الناصر، ولم يكن قد نشف طين تربته، وقد أدركت فتور جماعة علي صبري وشعراوي جمعة في المجلس تجاه انتخاب السادات خليفة لعبد الناصر، لم يكن أمامهم إلاه، ولم يكن في أياديهم حيلة إلا الرخامة والتباطؤ في انتخابه، لكنني حبًّا في الرجل وكرهًا في أولاد الكلب، وأولهم الذئب الميت عبد الناصر، جريت في ردهات البرلمان بأسقفه العالية ذات نقوش ورسوم قصور زمن الأسرة العلوية، والأعمدة المذهبة، وصور عبد الناصر على الحيطان والجدران وتماثيله مختلفة الأحجام تطارده في القاعات والغرفات والممرات. لماذا لم يدفنوها معه؟ عكفت بحماس على إطلاق الرصاص في أفراح أسيوط ابتهاجًا ومجاملة على جمع توقيعات من جميع نواب المجلس عن الصعيد حتى صعيدت السادات تمامًا. وأيضًا ضممت عددًا من نواب القاهرة والإسكندرية ممن يجري في جسمهم العرق الصعيدي، وكانت غضبة جماعة قميص عبد الناصر تكاد تطق طوق القميص، فلم أرَ إلا شذرات عيونهم شررًا، وغيظ كلماتهم حممًا، لكن على مَن!

الدنيا حر، وصوت جهاز التكييف الطنان مع طواحين ريشات ثلاث مراوح، مع ضجيج الضيوف، جعل من مكتب المحافظ دوار عمدة على الزراعية، لكن موتور أفكاره يطغى على أي صوت في مسامعه. أبعد هذه السنوات يأتي ممدوح سالم وينتقم مني ويعمل عملته؟ أنا أعرف يقينًا أنه لا يطيق صداقتي للرئيس، وقعد يحرن كثيرًا كي أبتعد عن منصبي مستشار الرئيس وأمين تنظيم الاتحاد الاشتراكي، ولن أنسى وجهه الأحمر ونبرته المرتفعة وهو يعاتبني:

ـ يا أخ محمد، ليس كل ما يُعرف يُقال للسيد الرئيس.

كدت أصرخ فيه: نعم يا أخويا؟! أنا صديق الرئيس وأمين سره وأمين تنظيمه ومستشاره، وسأضع كمامة على فمي! لكنني كتمت ما في داخلي وقلت له بنبرة خشنة:

ـ يا ممدوح بك، أنا لا أقول شيئًا إلا إجابة عن سؤال يوجهه لي الرئيس، ثم أنا لا أكذب أبدًا، ويوم ما أكذب لن أكذب على الرئيس.

نخ ورجع للوراء:

ـ أنا لم أقل إن المفروض أن تكذب لا سمح الله، ولسنا نحن من يكذب على رئيسنا يا سيد عثمان، لكن هناك شواغل كبيرة عند الرئيس، ولا يجب أن نضيف على شواغله الكبيرة أشغالًا

صغيرة.
نادى عثمان إسماعيل سكرتيره بصوته صائحًا إلى خارج باب الغرفة المفتوح، رغم تداخل الأصوات المتناقشة والسلامات والتحيات والتوصيات والتوديعات والاستقبالات للداخل والخارج، ثم لما بدا صوته مختفيًا بينهم ضغط ملحًّا على الجرس فجاءه السكرتير:
- هل راح لهم أحد؟
- لمن؟
زغره بنظرة حادة:
- عائلة الواد شكري مصطفى.
- طبعًا يا أفندم، نحن كلمنا مدير أمن الدولة.
كاد عثمان يصفعه، فقد كان الخيار بين أن يلطم أو يلطمه، أمسك نفسه بالعافية، وتماسك أمام العيون الشاخصة له من ضيوفه:
- من قال لك تكلم أمن الدولة؟! طيب ما كنت أنا أكلمهم يا أخي، أنا قلت واحد منكم الذي يروح لهم!
ثم أضاف وهو يشيح له بكفه:
- كلم مغاوري ولَّا عبد القوي، وفورًا يكون عندي أحد من أهله.
ثم نزع قلمًا من مقلمة أمامه، وكتب سريعًا على ورقة شدها نحوه، ثم انتهى وسلم الورقة للسكرتير:
- بلغ عبد القوي بهذه التعليمات فورًا.
التفت له الحاج عارف العدوي:
- إنت عايز مين يا سيادة المحافظ نجيبه لغاية عندك قبل أن يرتد إليك طرفك؟
ضحك عثمان مقهقهًا وراضيًا:
- قدها وقدود يا حاج عارف.
كان يعرف أنهم يستطيعون أن يعاونوه كما فعلوا منذ أربعة أعوام، حين أرسله ممدوح سالم لإخماد مظاهرات جامعة أسيوط التي قلبت هوجة وشغبًا وضرب نار على الطلبة، ورد الطلبة بإصابات في الشرطة، كان أمينًا للاتحاد الاشتراكي وزنقه ممدوح سالم أمام الرئيس ليحرجه:
- ما دمنا لم نقدر على أسيوط فليس لها إلا الأخ محمد إسماعيل يا سيادة الرئيس، فهو كبير أسيوط، أليس كذلك؟
كان يتحدث بجدية وغرابة إعلان هزيمته كوزير داخلية أمام الرئيس شخصيًّا وطلبه الاستنجاد بي، كان فخًّا في الغالب، وأوشكت على الوقوع فيه، بل وقعت فعلًا، فلما جئت إلى أسيوط بالطائرة مكلفًا بإنهاء الفوضى، زادت، رحت الجامعة وحاولت تهدئة القلوب وتبريد الرؤوس، وفشلت بسبب عيل شيوعي اسمه القط جنني وسخن الجامعة كلها وولعها مظاهرات، من أجل الحرية والديمقراطية يا روح أمك، شيوعي عايز ديمقراطية! حش رقبتك، ومنذ متى أنتم دعاة ديمقراطية يا كفرة؟ المهم المسائل ولعت، وفشلي أغرقني، وشماتة ممدوح سالم ستأكل وجهي أمام الرئيس. لغاية ما ربنا كرم وأنا قاعد في مكتب الاتحاد الاشتراكي، وإذا بأهل أسيوط الكرام، ناسي وعزوتي، جاءوا إلى حد عندي للترحيب بي، ومنهم المرحوم الشيخ فراج من

أعيان مركز الغنايم. وبعد الأحضان والسلامات والتحيات وذكريات ما فات سألني عن سر حضوري الفجائي، ولم أبلغهم بمجيئي قبلها كما اعتدت، فقلت له:
ـ إنني هنا من أجل محاولة فض اعتصام الجامعة.
ـ طيب ما تفضه.
ـ يا شيخ فراج كدت أن أفعلها، لكن هناك طالب اسمه القط مدوخنا، عامل كل هذه الضجة، أنا جئت لفض مظاهرات فقلبت اعتصامًا، وكأنني لما كلفوني أكحلها عميتها!
دوى صوت فراج مستنكرًا:
ـ نهار أسود! تأتي من مصر لأجل عيل!
ثم ارتفعت نبرته مع حماسه مع ارتفاع جسمه الذي وقف من جلسته:
ـ طيب والذي يجيبه لغاية عندك هنا؟
لم أجد أي مشكلة في أن أفرح وما أصدق وألتقط الفرصة وأقبل العرض:
ـ أتتكلم جَدًّا؟
ـ جَد جدًّا.
ـ كيف؟
ـ كل ما أحتاجه أن سيادتك تتصل بمدير الجامعة، ليسمح لنا بباب مفتوح للمدينة الجامعية بعد منتصف الليل.
ـ ثم؟
ـ اترك الباقي على الله، ثم علينا.
ـ وهل تعرفه؟
ـ لا أعرفه ولا سأعرفه، لكن ما دام أغضبك يحضر حتى قدميك، اسمه القط وطالب في الجامعة، هذه معلومات تكفي جدًّا.
قلت مازحًا ومعجبًا:
ـ ماذا ستفعل يا عم فراج؟
رد بأريحية وبساطة سلسة:
ـ ولا حاجة. سنخطفه.
مع وجه الصبح كان يتصل بي:
ـ القط عندنا بينونو تعالوا استلموه.
عنها، وأرسلت المباحث أخذوا الولد، واختفى مواؤه عن الجامعة، وجلستين على الصبح وغداء الظهر قرأنا الفاتحة على العصر، وتفاهم الطلبة مع الأساتذة مع الإدارة مع الشرطة، وحفل شاي بالليل تبادل فيه الجميع العتاب، وقدمت الشرطة الاعتذار، ورجعت الدراسة بعدما توقفت خربشات القط وقططه. هل الحاج عارف سيكرر الآن معي جميل الحاج فراج؟
كان كل ما يريده في ساعته وحينه أن يجهض تأثير مصيبة خطف الذهبي على الجماعات الإسلامية، فهي ابنته وصنيعته ومشروعه وحياته، لا يفخر في حياته بشيء قدر تلك الصحوة الإسلامية التي أحياها في جامعات مصر كلها، منذ أشار على الرئيس السادات بأن يفعلها. كان إسماعيل أكثر كراهية لعبد الناصر من خواص السادات المحلقين حوله، وبقدر كراهيته لعبد

الناصر بقدر حبه للسادات، والقدر عظيم في الحالتين. لا تقل لي أنت أمين تنظيم الاتحاد الاشتراكي، فكيف ترى أن الإسلام هو الحل، وتطبيق الشريعة ينقذ مصر، والإسلام ديننا ودولتنا؟ هذا كلام الإخوان المسلمين. لا يا سيدي، لست إخوانيًّا، أنا راجل من يومي الأول في السياسة تحت كتف وكنف عبد الناصر، من الاتحاد القومي للاتحاد الاشتراكي، من التنظيم الطليعي إلى مجلس الأمة، شمَّام مع الشمَّام وبطيخ مع البطيخ، نحن نخدم البلد ومصالح أهلنا، ليس لنا دعوة بالاشتراكية ولا خرائها، ولا علاقة لنا مع الشيوعية وقطرانها، ولا الديمقراطية فارقة ولا نائمة ولا شاربةٍ معنا، وأصلًا الإخوة الذين مرمغونا اشتراكية، رحرحوا واغتنوا وبنوا عمارات وحازوا شققًا. لا أنسى ما فعله الليثي عبد الناصر فيَّ وفي أسيوط، وحلقته وشلته التي اضطهدتني في كل شيء. ها هو الرئيس السادات يكرمني، حتى إنه بعدما صدر قرار الرئيس بانتقالي للعمل بالقاهرة، صار لي ثلاثة مكاتب للعمل: مكتب منهم بمجلس الشعب حيث كوني مستشار الرئيس لشؤون مجلس الشعب، والثاني مكتب في قصر عابدين حيث كوني مستشارًا في رئاسة الجمهورية، ومكتب ثالث بمبنى الاتحاد الاشتراكي حيث إنني أمين تنظيم الاتحاد. وكنت أدير البلد من السيارة وأنا أنتقل صبحًا وليلًا طوال الأسبوع بين المكاتب الثلاثة، شغال فيهم كأنني أجزاخانة أربعًا وعشرين ساعة على سبعة أيام حتى نحل وبري!

خلالها كان الرئيس السادات هو من بادر وسأل:

ـ أين التنظيم السياسي؟

كان يفتقد دور أعضاء الاتحاد الاشتراكي في مواجهة الهجمات على سيادته في الجامعات، ويشعر بخذلاننا له، مما أثر في نفسي، فأنا المسؤول عن هؤلاء الأعضاء الذين إما هم مجموعة من الانتهازيين المتسلقين أولاد كلب لا خير فيهم ولا نفع منهم، أو أنهم من بقايا عبد الناصر وماسكين في كم قميصه، وأولاد ستين كلب يكرهون الرئيس السادات، فيحمون عليه النار لا يطفئونها عنه. كنت أحمل معي في ذاكرتي دائمًا تلك الليلة العظيمة التي وقفت فيها في مسرح قصر ثقافة بني سويف أشخط وأنطر، وأنا محافظ الإقليم، لاعنًا سنسفيل كل من شارك في هذه المسرحية التي جئت لافتتاحها، مسرحية شيوعية حقيرة دافع لها من ميزانية المحافظة ثلاثمائة جنيه دعمًا يا لمامة الشيوعيين. هجت فيهم، وزعقت في مدير قصر الثقافة، وأمرته بإلغاء المسرحية فورًا، ووضع صفة الإسلامي على لافتة القصر، قصر ثقافة بني سويف الإسلامي، وكل أسبوع مسرحية دينية تعلم الشباب الإسلام، وندوة كل أربعاء لشيوخ وعلماء دين تبدأ بتلاوة القرآن الكريم، ونضع لها ميكروفونات في الشوارع وسأحضرها بنفسي. ونفذت كل هذه الخطة، ونجحت نجاحًا جعلني أتأكد أن العقيدة الإسلامية في قلب كل مصري، ولا بد أن نحييها ونوقظها ونشعل نارها فينا، فقلت للرئيس وجلال هذه الليلة يمطرني بالأفكار:

ـ عندما كنت طالبًا بجامعة فؤاد الأول، كانت الجامعة تشغي بكل الأحزاب، مؤتمرات ومظاهرات وخطب وخطباء، لكن يكفي أن يقول طالب إخواني واحد بصوت عالٍ «الله أكبر ولله الحمد»، وفي ثانية تجد حوله المئات من الطلبة الإخوان، ويبدو بقية الطلبة بأحزابهم والتيارات بطلابهم متفرقين ومشتتين، بينما لمة العيال الإخوان تملأ عينيك، ونظامهم وطاعتهم تأكل دماغك، أنت تحتاج مثل هؤلاء يا ريس كي يقفوا معك ويؤيدوك بعقيدتهم.

ـ ما قصدك بالضبط يا محمد؟

ـ سيادتك لك الأمر من قبل ومن بعد، ومن أنا الفسل بجوار حكمتك وتاريخك كي أقصد؟!

تجاهل السادات محاولات عثمان للتزلف البلدي، وفطن أن الولد فهم خبيئة قلب السادات، فعثمان ريفي صعيدي متدين ذلك التدين الذي لا يتجاوز التصديق الكامل لخطبة الجمعة، والغرام بالغزوات والفتوحات كأنها السيرة الهلالية، ثم هو لا سياسي ولا يفهم ولن يفهم في السياسة، لكنه أخلص غبي نشيط عرفه في حياته على كثرة من عرف، وكثرة الأغبياء والنشطاء الذين التقاهم.

ـ خلاص يا محمد أنا موافق.

ـ على؟

ـ على الذي تريده، اعملها.

ـ جماعات إسلامية.

ـ في كل كلية، يتكلم الشيوعيون قال لينين، قال تروتسكي، يرد رجالتك قال الله، قال الرسول. الناصريون يقولون قومية عربية، يرد أولادك أمة إسلامية. لكن اسمع، لا دخل لك بالإخوان، دع هؤلاء لي، أنت فقط شُف من سيتعاون معك وركز في جماعات دينية جديدة.

ـ جماعات تربي الشباب تربية دينية ليصطبغ المستقبل بالصبغة الدينية وبالقيم والمبادئ، قيم الحضارة الإسلامية ومبادئ المنهج الإسلامي.

ـ الله يقوي إيمانك يا ولد يا محمد.

كان لحظتها السادات جالسًا مقرفصًا على الأريكة، مرتديًا قميصه الأبيض، راكنًا بذراعه اليمنى على مسند الأريكة، وماسكًا بكفه اليمنى الغليون، وواضعًا قدمًا بساقه اليمنى تحت فخذه اليسرى، متأملًا خضرة الجنينة، حين قرر أن يعيد مصر إلى الإسلام.

من صباح اليوم التالي تحرك عثمان، هو يعرف أن السادات لن يجمع هيئة ليناقشها فيما عزم، ولن يستدعي لجنة ليفكر معها في خطته، ولن يخطط أصلًا، بل يطلق الفكرة ووراءها التعليمات للجميع بتنفيذها ومتابعتها تفصيلًا وتجهيزًا وتتميمًا وتكميلًا، ولن يسمح بأن يرده فيها أحد، أو تردعه عنها لجنة أو هيئة أو جهاز أو وزارة، فكان حين يطلب من مسؤول قرارًا وجده تحت يديه، ومن جهاز خطوة وجده يركض نحوه بها، ولو أمر بأموال من خزينة الدولة للصرف على شيء ذهب المال محمولًا على أطباق من الفضة والأوراق تخلص براحتها. وجدت الأبواب تنفتح أمامي وتشاركها الشبابيك، والحواجز تتساقط ومعها العقبات، كنت مستعجلًا جدًّا ومتحمسًا جدًّا. تقول لي ماذا قرأت لأخطط؟ ولا أي حاجة. تسألني هل خططت أصلًا؟ إطلاقًا ولا أعرف أخطط أساسًا، أنا رجل على باب الله. طيب هل ثقافتك الدينية تسمح لك بأن تضع برامج تربية وتدريب؟ طبعًا لا، ولا تسمح لي حتى بإلقاء خطبة جمعة، لكنني اعتمدت على جماعة أصحابي من الإخوان المسلمين الذين تركوا الجماعة تنظيمًا، لكنهم احتفظوا بأفكارها عقيدة، وكذلك كم واحد من مدرسي وموجهي الاتحاد الاشتراكي الذين كانوا متدينين ومثقفين إسلاميًّا، فكنت أراهم الوحيدين الذين ينتهون من المحاضرة فيتوضأون ويصلون ليلحقوا بصلاة الظهر أو العصر، ثم كم كتاب مجلد مذهب من مكتبتي، على كم مقال مما صادفت فأعجبت، حتى إنني طلبت منهم طلابًا ومسؤولين ممن تحت يدي أن يقرأوا ويذاكروا كتاب سيد قطب، «معالم في الطريق»، وكنت شايف ولا زلت أنه شهيد، وكتابه غرضه الأساسي رفعة الإسلام وعودة الخلافة وبناء المجتمع المسلم. وهذه حاجات عظيمة، وماله لما العيال يعتنقونها، أليست أحسن من كلام الشيوعيين؟ وهل لنا إلا رسول الله معلمًا ومرشدًا وهاديًا ومنذرًا وبشيرًا؟ عمومًا الحمد لله أن

قيض لي زميلي المرحوم المستشار منير السعيد مدير مكتبي بأمانة التنظيم، كان رجلًا فاضلًا تربطني به صلة صداقة وأخوة، لذلك صارحته بالأمر، فسعد به، وأبدى استعداده لاختيار الطلاب الذين نبدأ بهم الجماعة الإسلامية، ووالله العظيم ما أعرف كيف ولماذا ومتى اختارهم، لكنهم كانوا ممن يتسمون بالخلق القويم والاستقامة. وطبعًا بدأنا معهم نحذرهم من ضياع الدين والجامعة، ومعهما البلد، نتيجة سيطرة الشيوعيين على الطلبة والنشاط الجامعي، ونناشدهم الحماسة والغيرة على الدين. وامتلأ بهم مكتبي ثم معسكرات ولجان ومعارض ورحلات ودعم مالي كريم ومغدق. وتكونت أول جماعة إسلامية في كلية هندسة القاهرة، وأسمت نفسها «شباب محمد بن عبد الله». واستبشرت خيرًا حينما أطلق الأولاد اسم نبينا المصطفى على الجماعة، وقلت والله إنها لبعثة نبوية جديدة وما نحن إلا في دار الأرقم بن الأرقم. ومن كلية الهندسة انتقلت دار الأرقم، أقصد الجماعة، إلى الكليات الأخرى، ثم غطت جميع كليات جامعة القاهرة في وقت قصير، كأن الملائكة معنا في بدر، ومن جامعة القاهرة انتقلت الفكرة إلى جامعة الإسكندرية ثم جامعة أسيوط. ثم يأتي شكري مصطفى بعد هذا كله ويفسد علينا كل ما فعلناه حين يتحامق ويخطف الشيخ الذهبي؟! ما صدقت إن ربنا سلم ولم ينقلب الرئيس عليَّ وعلى الجماعات الإسلامية بعدما جرى من حادث الفنية العسكرية، ورغم سخافات الإخوان ورذالاتهم، ومحاولاتهم خطف عيالي من الجماعات الإسلامية لجماعتهم، لكننا نجحنا نجاحًا منقطع النظير، كأننا كنا نروي أرضًا عطشى، فقد سيطرت الجماعات الإسلامية على جميع الأنشطة في جميع الجامعات، ودحرنا الشيوعيين والناصريين، وتمكن أعضاء الجماعات الإسلامية من اتحادات الطلبة في كل الكليات تقريبًا، وكذلك الاتحاد العام للطلاب، واستغلوا كل قرش من الدعم الممنوح لهم (ميزانية الجامعة وأنشطتها كانت تحت يدي، وتبرعات الباشمهندس عثمان أحمد عثمان وصحبه كانت مطرًا بعدما عرفوا أنها تحت رعاية وطبقًا لتوجيهات السيد الرئيس)، واشتغلنا في طبع المذكرات وتصوير الكتب غالية الثمن مثل كتب كليات الطب، وبعناها في تلك النسخ الضوئية بأسعار زهيدة جدًّا، ثم نزلت علينا مائدة من السماء، من سماء السعودية.

وقف سكرتيره أمامه وقال:

- الولد وصل.

- أي ولد؟

- أخو شكري مصطفى، إبراهيم أحمد مصطفى.

احتار عثمان إسماعيل أين يجتمع بالأخ القادم، فالمكتب أزحم مما يحتمل، وهو عاجز عن طلبه من زواره الرحيل، فرحل هو، استأذنهم ومشى بسرعة وخفة وراء سكرتيره، وكل ما يضطرب في عقله هو ما ينتظره من ممدوح سالم والنبوي إسماعيل. كاد أن يبرم شاربه الخفيف وينزع شعره توترًا، وهو يتذكر كلمات سالم الرصاصية له وهو يستقبله ي مكتب رئيس الوزراء وينهره هذه المرة معنفًا:

- يا أخ محمد، هذا شيء لا يحتمل، عيالك في الجماعات الإسلامية زودوها جدًّا، وأنا لن أستمر في منع الأجهزة أن تردعهم، أليس كافيًا أننا ندعمهم ونسكت على ما يفعلونه، بل والضباط أصبحوا يصلون معهم في الزوايا التي فتحوها في الجامعات، وسمحت لإدارة الجامعة أن تبني مسجدًا واثنين وثلاثة رغم أنها جامعة وليست جامعًا؟ ثم تكافئني في الآخر بأن يثير هؤلاء

العيال الفوضى ويعتدون بالجنازير والمطاوي على زملائهم الذين فرشوا معرضًا وعملوا مسرحية!
كانت أعصاب عثمان الصعيدية قد بلغت حلقومه، وضغطه ارتفع، فقرر أن يخفضه فصاح:
ـ يا ممدوح بك، هذه معارض كفر وإلحاد وشيوعية وبلاء أزرق ونيلة سوداء، ثم إنها مسرحيات عهر تلك التي تدافع عنها! ثم من قال لك إن أولادنا هم الذين اعتدوا بالمطاوي والجنازير؟ ما يمكن العيال الشيوعيين.
قرر ممدوح سالم أن يطلق على صعيدية ضيفه إسكندرانيته حتى يلجم تخابث ولؤم عثمان، ففرد صدره فطالت قامته الطويلة أصلًا وظهرت قسمات الغضب على بياض وجهه:
ـ شيوعيين من الذين يمسكون المطاوي يا محمد؟! هل سنضحك على بعض؟
دافع عثمان عن نفسه عندما وجد ظهره مكشوفًا:
ـ طيب ما رأيك بقى إن العيال قالوا لي إن المباحث هي التي أوعزت لهم بذلك، وقالت لهم سنسامحكم لو قلتم إنها أوامر من محمد عثمان إسماعيل؟
احمر كل عضو في وجه ممدوح سالم، أنفه، خداه، شفتاه، ولما طقت عيناه بالاحمرار شخط محاولًا أن ينهي هذه المهزلة:
ـ اسمع يا محمد، أنت لا تفهم في السياسة، ولا أظنك تفهم في الدين.
ـ ما هذا الذي تقوله يا ممدوح بك؟
ـ أقول ما تسمعه، وإذا كان الرئيس السادات منحك ثقته، فهذا لأنه يعرف أنك تعرف حدود هذه الثقة، لكن غير مسموح بتجاوزها!
لحظتها تأكد عثمان أن ممدوح ما كان يجرؤ على هذه اللهجة إلا لو كان استأذن من الرئيس، وأن الرئيس (وعثمان يفهمه جيدًا) قال له لا مانع من شد أذنه يا ممدوح، لكن ممدوح قرر قطعها. كان ممدوح سالم مخنوقًا من هذا الرجل الذي يتصرف كأنه شيخ قبيلة الإسلام، ويتعامل مع الجماعات الإسلامية كأنها عزوته في البلد وسيؤدب بها العائلات المنافسة أو سيأخذ ثأره منها. لم يكن سالم يمانع أن يلعب الرئيس بالنار ونلعب معه أيضًا، وماله، لكن أن يضع هذه النار في يد رجل مثل عثمان إسماعيل، فهذا يعني إشعال حريق فينا قبل أن يكون في خصوم الرئيس. خفف رئيس الوزراء من لهجته ومنحها رقة وتوددًا (عاد إلى شد الأذن لا قطعها):
ـ يا أخ محمد، الشيوعيون ممكن نلمهم خلال ساعتين على طول البلد من الإسكندرية لأسوان، وعارفين أسماءهم رباعية نفر نفر، لكن الجماعات الإسلامية حصان جامح، ولو لن تزعل، فهي ثور هائج لو تركنا له العنان فلن يستطيع أحد السيطرة عليه.
ما صدق عثمان إسماعيل تغير لهجة سالم فقفز فوقها:
ـ ألسنا مسلمين؟
ـ يا نهار أسود على سؤالك يا محمد! إنت ما رأيك؟ ما إجابتك؟
ـ طيب إذا كان كده.
ـ كده إيه؟
ـ مسلمون. فلماذا تقف أمام هذه الجماعات؟
تعجب سالم نافد الصبر ضيق الصدر:

ـ أأنا أقف أمامها يا رجل؟! وهل أحد يتركك تفعل معها ما تشاء مثلي؟ وهل تظن أنها أصبحت مقصورة على جماعاتك أنت؟ أنا عندي في الجامعات وغيرها أكثر من مائتي جماعة إسلامية غير الحوت الإخواني الكبير، لكن أنا أخشى على النظام منهم.
ـ لماذا؟
ـ لأنهم يسعون للحكم.
تعابط عثمان إسماعيل وقال يطمئنه مطمئنًا:
ـ لا يا أخويا، الجماعات كلها مع الرئيس وحكم الرئيس.
بعدها الرئيس عينه محافظًا لأسيوط، وكأن نفوذ ممدوح سالم ظل وراءه حتى أطاح به من مناصبه الثلاثة ومن الجلوس بجوار طبلتي أذن السادات.
حدث عثمان نفسه: والله ليس بعيدًا أن تكون حكاية خطف الذهبي ملعوبًا من الداخلية كي توقع بين الرئيس وهذه الجماعات، وتجعله يتراجع عن أعظم قراراته. لماذا لا تكون ملعوبًا فعلًا؟ هم هؤلاء العيال ماذا سيستفيدون من خطف الذهبي؟ بل ومن هو الذهبي أصلًا كي يخطفوه؟ يا إما جندت الداخلية عيلين تلاتة عملت بهم هذه الشغلانة، أو أنها حلت الحلة في عيون شكري مصطفى ليأكلها فيطفحها. أليست أجهزتك يا عم ممدوح هي من ضيقت على الجماعات في الجامعة، وشطبت أسماء بعضهم من قوائم المرشحين في الانتخابات، وزودتم عليهم الضغط وجعلتموهم يعقدون الاجتماعات في المساجد، ويخرجون مطلوقين من أسوار الجامعات؟ طيب اشربوا بقى.
ستجدها ممن ولا ممن يا محمد؟ العيال أنفسهم بدأوا يتمردون عليك، ويتنمرون على قراراتك، ويتطاولون عليك في الاجتماعات، هذا إن حضروها. ورقابتك وقيادتك تفككت منذ فترة، وتشتتوا وتوزعوا في كل محافظة بدلًا من الجماعة عشرة، ودخل عليك في الخط أشرف مروان يشرف على مجموعة، وتوفيق عويضة على مجموعة تانية، ولم يعد القرار موحدًا ولا الموقف واحدًا، وصار كل عيل منهم فاكر نفسه أميرًا للمؤمنين. ودخل بضعة شوارعية على طلبة الجامعة، حتى إن نجارين وسباكين باتوا زعامات إسلامية. وجمعيات ومشايخ السعودية فتحت جسورًا بينها وبين العيال، فلم يعد هو وسيطها ولا كبيرها. وبدأت خطبهم تتلاسن على الرئيس المؤمن أنور السادات نفسه، طبعًا، لقد أحسوا أن السلطة تعاديهم وتحاربهم، فزرعتم يا أجهزة شجرة العداء معهم، لكن ليس مهمًّا، هؤلاء سيعقلون بعد وقت، والأهم أن الناس تلتم وراءهم على كلمة ربنا، ولا ينكر الرئيس شخصيًّا أن الجماعات الإسلامية دحرت الشيوعيين والناصريين في الجامعات والمجتمع، وكفاية وقفتهم مع الرئيس في مظاهرات يناير، حيث لم تشارك لحية واحدة في أي مظاهرة، ثم إن المشوار لا يزال طويلًا، والمستقبل بات قريبًا، فلا أسوأ من أن يستعجل هؤلاء الشبان الوصول والتمكين أو أن يسخط ويضج منهم الرئيس وينقلب عليهم.
* * *
نبهه سكرتيره أنه يدوس على حصائر الصلاة في الممر، فارتعب وعاد بحذائه ملدوغًا:
ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.
كان الموظفون قد فرشوا حصائر صلاة الظهر منذ فترة، ويتجهزون لإقامة الصلاة وينتظرون قدومه، وقد أجلوا الجماعة حتى يأتي سيادة المحافظ. إنه أول محافظ يقيم الصلاة الجامعة في

مصلحة حكومية، بل ويرفع الأذان بين مكاتب المحافظة، ويؤمهم ما دام موجودًا في المكتب وقت الصلاة. احتار أمام نظرات منتظرة وعند باب الغرفة التي يجلس فيها الأخ أخو شكري منتظرًا، ففتحه وخاطبه دون أن يتأكد أن الجالس على الكرسي وحيدًا أمام مكاتب فارغة هو الشخص المعني:

ـ ما تيجي يا ابني تصلي معنا الظهر، لقد أخرنا إقامة الصلاة كثيرًا منتظرينك.

لا مانع من كذبة بيضاء سريعة لعلها تؤتي أكلها. فجاء وصلى، ثم انصرف المصلون إلى مكاتبهم متباطئين، وبعضهم استغرق في صلاة ركعتي السنة بعد الظهر، ولم آخرون حصائر الصلاة، فأشاح لهم سيادة المحافظ بيده أن يبتعدوا ويتركوه وحيدًا مع زائره:

ـ شُفت ماذا فعل أخوك؟

ـ لا أخي ولا أعرفه.

ـ يا راجل!

ـ محسوبك إبراهيم أحمد مصطفى.

ـ تشرفنا.

ـ والله يا سيادة المحافظ منذ هرب هو وأمه من البلد سنة ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين، لم يدخل القرية بقدمه، ولا نعلم عنه شيئًا إطلاقًا، ولا نأتي له بسيرة ولا عايزين، خصوصًا من بعد ما جر العيلين ولدَي أخته فوزية في الخية معه، وسمعنا أنه أصبح خليفة للمسلمين وأميرًا للمؤمنين.

ـ وهل هذا شيء يغضبك يا أبو خليل، لما تكون شقيق أمير المؤمنين؟

لم يعرف إبراهيم هل المحافظ يسخر منه أم يجر رجله أم يتمنى فعلًا أن يكون شقيقًا لأمير المؤمنين.

أضاف السيد المحافظ:

ـ شُف أنا خايف عليه وعليك، فالبلد مقلوبة، والرئيس ذات نفسه كلمني ومتابع الموضوع، ولو لديك أي صلة أو معرفة بأخيك لازم ترجعه عما يفعله وتنصحه.

ـ والله ما أعرفه، ولا لساني خاطب لسانه.

ـ ما أنا عايزك تعرفه ولسانك يخاطب لسانه في عرضك، نريد إنقاذ الشيخ الذهبي. اسمع، هل كلمك أحد من أمن الدولة أو مباحث المحافظة؟

ـ لا.

نهض عثمان بسرعة ساحبًا إبراهيم من ذراعه:

ـ أنا سأجعلك تكلم السيد نائب وزير الداخلية من مكتبي، وتقول له إننا أحضرناك هنا قبل أي جهة من الداخلية، وإنك ستفعل كل ما تقدر عليه مع سيادة المحافظ لضمان سلامة الشيخ الذهبي.

وهو يتعثر خلف المحافظ الذي يلبس حذاءه بسرعة قال إبراهيم:

ـ سأفعل ما تأمر به يا سيادة المحافظ، لكن من هو الشيخ الذهبي أصلًا؟

انتبه عثمان لملامح إبراهيم لأول مرة وقميصه وبنطلونه الواسعين عليه:

ـ أأنت شقيقه؟

ـ نعم.

ـ وماذا تشتغل؟
ـ موظف في مطاحن أسيوط.
ـ هم جابوك الآن من المطاحن؟
ـ نعم.
التفت إلى سكرتيره:
ـ يعني ضيعنا كل هذا الوقت في البحث عنه في قريته وهو هنا جنبنا!
قالها لائمًا مستنكرًا، لكنه أدرك معها أن إبراهيم مصطفى بلا أي قيمة، فهو لا يزال أفنديًّا يعمل موظفًا في الحكومة، بينما أخوه يحرم الحكومة والعمل بها من أساسه.
كان إبراهيم أسرع في الإجابة عن سؤال لم يسأله أحد:
ـ شكري شايف أهله كفار قريش.
حوقل عثمان وتعوذ، ومضى إلى مكتبه ووراءه سكرتيره جارًّا مجموعة من الموظفين الذين يظهرون كلما ظهر المحافظ، ويمشون خلفه وحوله أينما ذهب. تاه إبراهيم وسطهم، فالتفت المحافظ وهو يدخل غرفة مكتبه:
ـ أين أخو أمير المؤمنين؟
خشي إبراهيم مصطفى لحظتها أن ينقله المحافظ من المطاحن إلى المجاري عقابًا على ما فعله أخوه:
ـ الله يأخذك يا شكري يا ابن أبي!
* * *
حي على الفلاح إذن، هم يستأخرون ويستبطئون فليكن، جنوا على أنفسهم وما جنيت على أحد. كان شكري مصطفى قد بلغه أذان الظهر فكأنما بلغ آخره، لا شيء من الحكومة قد وصله، الطاغوت يعاند ويظن أنني أهوش، وأن وعيدي بقتل الذهبي جعجعة بلا طحين، ليكن، حتى الآن لم يطلق سراح واحد منا، وكأن في آذانهم وقرًا، فلنخرقها إذن.
زن رضيعه النائم على وسادة فوق الأرض، فجاءه الصوت صويتًا رفيعًا، وتحركت قدما زوجته من المطبخ لاهثة، يُصدر ذيل جلبابها الواسع رجرجة هواء، فلا تريد لطفلها أن يزعج زوجها في خلوته. لا عاطفة متقدة من شكري لزوجته أم ولده، ولا تجاه غيرها، ولا حتى لولده. سماه إبراهيم تيمنًا باسم ابن المصطفى المختار، لكن شكري ليس بالحنون مندلق العواطف، ولا هو بالصعيدي القبلي الذي يظن إرثه في ولده، فهو المهدي المنتظر، ولا يعتقد أن ابنه سيعيش ليكبر، فالقيامة قادمة ونحن في آخر الزمان والمعركة ستنشب وولده سيذهب إلى آخرته طفلًا كما كان في دنياه، أو رفيقًا له في صف أول في ذات المعركة، لو طال الزمن وامتد العمر مع الأمر.
ـ أعمل لك لقمة.
نادته كأنها تعتذر عن صريخ ابنها الذي ارتفع وفشلت وقتًا في أن تهدهده ليسكت. لم يرد شكري، فعلمت أن صمته رد نفي. منذ عدى عليها هو وماهر وأخذاها مع ابنها إلى شقة الزيتون، وهي ترى في وجهه جهامة يطليها بالثقة، ولما صعدت معه إلى الشقة فنظفتها سريعًا ونفضت ترابها العالق على الأرائك والحصائر وفرشت ملاءاتها، وآوت إلى الغرفة وقد ودعه ماهر، فبقي في جلسته على مسند منجد بالقطن تحت شباك مفتوح يلقي ضوء نهار ربنا في الشقة وهواء محشوًّا بذرات الحر وصمت الشارع. لماذا تبدو كل الشقق التي يتنقلون منها وإليها

متطرفة عن زحام الأحياء، ووحيدة في عمائر بلا أهل؟ كانت تعرف أنه ينتظر شيئًا من السماء أو من الأرض، حين يعتكف في سكوته تزداد رهبته، وحين يتكلم يبدو صوته قادمًا من نفق طويل بعيد لا يجلجل ويتجلى إلا لو كان في حضرة من يسأله أو اجتماع عدد من المسلمين حوله. وكثيرًا ما حاولت أن تقلب مختلسة في الكراسات التي يكتب فيها في خلوته حين تطول، فلا تفهم مما كتب شيئًا، رغم أنها بكالوريوس وحافظة للقرآن، لكن غموض كتابته لا يفكه لها إلا كلماته حين تُعلِّم وتشرح، فتتلقى عنه شيخًا لا زوجًا، خليفة مهديًّا لا أميرًا لجماعة. لطالما أرادت أن تبوح له بمكنونها فتذهب حتى قدميه وتجثو وتقول له: «فداك أبي وأمي يا أبو سعد».
هي كلها له، إن أمرها بأن ترمي نفسها من حالق فستفعل، بل لو طلب منها أن ترمي وليدهما من شاهق لرمت. فهو الخضر بيننا، يعلم من تأويل الأحاديث ويخبر مما لا نفهم، فليس له إلا أن يأمر فنطيع. هو ليس خليفة انتخبه أهل الحل والعقد، ولا أميرًا بايعه قوم المسلمين بيعة ليس فيها مستكره ولا مستغلب، بل هو مرسل للهداية لا منتخب للإمارة. رجل جاء من أقصى المدينة يسعى بشيرًا وهاديًا ونذيرًا، يعيد للدين أمته وللإسلام دولته. لم يكن زوجًا كما الأزواج يتحين للفراش موعدًا، ويتودد ليدفن وتده بين فخذَي، بل ضياء يغمر، وروح تحتوي، ونهر يروي. لو طلب لوهبته النساء أنفسهن، لكنه يتعفف، حتى إنها لا ترى في عينيه لمعة شهوة ولا اغترار فحولة. هي كما هو، تعرف أن النساء للتسري ولرباية العيال ولجدران بيتها، ولهذا تركت دراستها وشغلها ووظيفتها، بل تغادر الدنيا كلها مهاجرة له ومعه. هذه الشقق الصغيرة ليست بيتها، فهي ترتحل بينها ولا تمكث في إحداها وقتًا يسمح لها بأن تحفظ لون فرشها، ولكن بيتها قلبه. لو أراد أن يعيش مترفًا لعاش، لكنه أخذها إلى الصحراء فسكن، وإلى المساكن فتصحر، لا شيء من متاع وأثاث مما يسعى له الناس، ولا شيء من ذهب ومصاغ مما تتعلق به النسوان، بل هي هجرة لله ولرسوله حتى تأتي الساعة لا ريب فيها، فلتعلون كلمة الله بلسان أبو سعد.
حضَّرت له ينسونًا مما وجدته في المطبخ، وعانت في العثور على جاز للباجور وكبريتًا للنار، واستغربت تعثرها في طرق الشقة بحقائب وصناديق وأسلاك في لفات، وكرتونة تمتلئ بعِدد كهرباء، وخراطيم ومواسير بلاستيكية ونحاسية متعددة الحلقات، متنوعة الأقطار، منها الرفيع والضيق والواسع المنفرج، هي لأعمال الرجال، وشأن الأمير، فلم تشأ أن تلمسها أو تجمعها من الطريق أو ترصها في ركن أو تحشرها تحت أريكة أو وراء مائدة، بل صرفت عنها عينيها، ومضت له بالينسون، متغافلة عن سؤاله عن هذه الأشياء، فلا تسأل عن أشياء إن بدت لها إجابتها تسؤها أو لا تسؤها، فلا حاجة لها أن تعرف. صادفت تمرًا في صحن فوق مائدة في الصالة فابتهجت، وعادت إلى المطبخ غسلته وجففت ماءه، وراحت بصينية مكسورة وضعت كوب الينسون مع صحن التمر فوقها، ودخلت عليه خافضة الرأس والجذع، ففاجأها:
- «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ».
لم يكن يحدثها، بل كان مغمض العينين يهاتف نفسه، فلما شعر بحركتها فتح عينيه وابتسم وقال لها وهي تضع صينيتها:
- هل صليتِ الظهر؟
لم يكن من عادته أن يسألها في التوقيتات القصيرة التي يقضيها معها هذا السؤال، لكنها أجابت:
- سأصلي الآن إن شاء الله.
- طيب توضئي وتعالي نصلي جماعة.

لم يفعلها من قبل، ولم يؤم زوجاته حين يتجمعن معًا معه، ولا تظنه فعلها مع واحدتهن ولا معها، فانتعشت روحها. كانت تتمنى أن تصلي خلفه وحدها صلاة جهرية، لكن أن يؤمك الأمير في صلاة سرية أو جهرية فهو حظ مؤمنة، ونيل شرف مسلمة، فسارعت للوضوء تلهث في جلبابها.

كان يردد «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» لنفسه، وهو يستطعم انتقامه من هؤلاء الكفرة الذين لم يحركهم خطف شيخهم المضل، فلم يطلقوا أسر أي أخ ممن اشترطنا إطلاق سراحهم من معتقلاتهم، لو كانوا قد فعلوا لأسرع ماهر وأبلغه بنفسه أو عبر رسول، ولو كانوا ينتظرون حتى الموعد النهائي ظهر الغد، فلماذا لم يعلنوا الموافقة أو الشروع في ذلك؟ كان ينتظر الصبي طه كلما مر الوقت، فلا جرسًا دق ولا بابًا طرق، لا يسمع إذاعتهم، ولا تلحق صحفهم بنشر شيء الآن، فلا خبر يأتي إلا من طه الذي لم يأتِ، ثم الساعة الثامنة مساء حيث موعد تسليم الطفلة والمائة ألف جنيه دفعة التعويض الأولى قد اقتربت دون بشير ولا بادرة. والله لو عضوا على نواجذهم وأبوا الرضوخ لأحيل نهارهم ليلًا وبردهم نارًا، أيظنون أنني أهزل حين أزلزل؟ وهل قرأ واحد من طواغيتهم كتابي «الخلافة»، وتشاكل عليه ما كتبت أن الحركة الإسلامية التي نشأت في أرض الكفر عليها أن تقيم خطتها على أساس اتجاهه وتناقضاته والسياسة العامة التي فيه، وهي لا تملك إلا أن تستخدم وسائل ومرافق العدو وموارده في الحياة والحركة؟ أفهمتم هذا استسلامًا وممالأة وموالاة؟ بئس فهمكم! بل هو استخدام أدواتكم القذرة لتطهيرنا من قذارتكم. هل خال عليكم وتخايل ما كتبت أن على المؤمنين ترك باب مفتوح مع الكافرين، يتمثل في صورة معاملات وأخلاقيات ومعاهدات، بل أيضًا يمكن الدخول في جوار الكفار، إذا لزم الأمر لحماية الدعوة الإسلامية، بل يمكن الاستفادة من حكم الطاغوت في أمور هي لصالح الحركة، وترك ذلك يعتبر عين الإبقاء على حكم الطاغوت؟ آه، لعلكم ظننتم أن هذا استسلام لكم وتشبُّه بكم، بل هو منكم ضدكم يا بلهاء! أخطف كما تخطفون مسلمينا، وأقتص من مالكم كما تسطون علينا، وأهادنكم لأحاربكم، وأعاهدكم لأخونكم، وأدخل في جواركم لأمزقكم شر ممزق. اقرأوا يا ملاعين جيدًا، فأنتم كالحمار يحمل أسفارًا، لهذا اشترطت عليكم أن تنشروا كتاب «الخلافة» في صحفكم، كي يعلم المسلمون ويهتدوا ويبلغهم أي منقلب ستنقلبون. ماذا لو أحسنتم القراءة فرأيتم في سطوري ردعكم ووعدي ووعيدي لكم؟ إن خطط وأساليب ونظريات الكافرين لن تتغير في العداوة والكيد، وهي ثابتة ومتوارثة ما دام دين الله قائمًا على أسس لن تتغير. أكمل القراءة يا نبوي باشا، يا أبو باشا، يا حضرة الرائد وسيادة العقيد، إن العلاقة مع الكافرين يجب أن تنطلق بالمثل، فالعفو والصفح والإعراض في العلاقة مع الكافرين يجب ألا يضر بمصالح الحركة الإسلامية والدعوة، وأن يكون ذلك في خدمة المعركة الإسلامية العامة والغاية الإسلامية الكبرى. وأما إذا كان على حساب دماء المسلمين ومستقبل الإسلام فلا، لا يا سادات، لا يا طاغوت. أتحسبني صدقت رياءك وصورك الكذوبة تسبل جفنيك مصليًا وظهرك لحائط مسجد ضرارك، أو طنطنة رعاعك بأنك الرئيس المؤمن؟! أضحكتني وأنا قليل كشف السن. الرئيس المؤمن بالكفر جائز. إننا نصبر حتى نتحيَّن، ونتمهَّل حتى حين، والحين حان. أتستهينون بي وتتعالون عليَّ وسط أمتي؟ لو سكتُّ يا أبو عبد الله (هذا ما سأقوله لماهر قبل أن يتعجل فيبدي لي رأيه ويعمل لي فيها فيلسوف الجماعة فعلًا) وتراجعت عن تهديدي وسمحت لهم بنيل مكاسب وكسب وقت وتنازلت عن مطلب واحد فقط مما اشترطت، لذاقوا لحمنا وسحقوا عظمنا. ثم ماذا سنقول لرجالنا؟ نحن آسفون خذلناكم، نعتذر لكم عن خيبتنا. لضاعت هيبتنا يا رجل، وصرنا

بين المتربصين بنا مضغة. طيب لو أصررنا ونفذنا، ماذا في ذلك؟ أليس هذا ما توعدناهم به والوعد رعد حين نطلقه؟ بل سوف يخافوننا ويهابوننا، سيلاحقوننا لكننا الفائزون المنتصرون حتمًا، لن يمسكوا بنا، فالله لا يضيع أهله.

أقام الصلاة ووراءه الزوجة الوجلة الفرحة، فإذا بالجرس يرن في الركعة الثانية، وهو يهم بقراءة الفاتحة، فترك الصلاة وتركها، وذهب ففتح الباب، فوجد طه فاستبشر، ولم يرد على سلامه، بل دخل إلى الغرفة، ووقف وقفته في الصلاة، وأكملها. فأسرع طه وتوضأ ولحق به متقدمًا على زوجة الأمير بخطوتين، وركع مع ركعته وحين سجد سمعا لهاثه، فقد كان قادمًا جريًا، ووثب ركضًا على درجات السلم، وتوضأ قفزًا.

كان طه صبيًّا يتجاوز العاشرة، بجسم يتجاوز الرابعة عشرة، أما صوته فكان بحماس العشرين.

قال وقد غادرت الزوجة توًّا فور انتهاء الصلاة:

- لقد أخرجوا هاشم من السجن.

- أبو حذيفة؟

- نعم.

- متى؟

- منذ ساعة.

- وأين هو الآن؟

(7)

سمع اسمه اليوم ألف مرة في السجن، من عنبره، إلى ممراته، إلى غرفة المأمور، إلى ضابط مباحث السجن، إلى الضابط الأهم من هؤلاء جميعًا؛ ضابط أمن الدولة الذي تفحصه وكأنه اطمأن إلى قميصه الأزرق وبنطلونه وحذائه كاوتش باتا الأبيض، فأخذه من يده وأمره بأن يلم حاجته من العنبر في حقيبته الجلدية الرخيصة التي كانت بمثابة دولابه، وسأله:

- هل عليك حاجة للكانتين؟

ولما لم يكن له ولا عليه في الكانتين، مشى هاشم وراء الضابط الذي أخرجه من السجن، بعدما وقَّع ضابط المباحث أوراقًا أمامه وسلمها إلى الصول المصاحب، ثم ركبوا سيارة الشرطة، ولم يكن هاشم مكترثًا بالسؤال عما يحدث بالضبط.

منذ أدخلوه السجن وهو يعلم أن خاله سوف يخرجه منه، وإن انشغل خاله فبالتأكيد شقيقه ماهر سوف يفعلها. فالجماعة التي تكسب معركة آخر الزمان، لن تسكت على سجن هاشم الشاب، الذي أول من أسلم وأول من هاجر وأول من نصر وابن شقيقة المهدي. كانت كل خلاياه مشبوبة بهذه الرسالة التي حملها خاله شكري مصطفى للعالمين. صحا على عودة خاله من السجن، فلم يجد فيه إلا ظلالًا من شجن أمه التي ما برحت تذكر أخاها كأنها يعقوب يبكي يوسف، فلما وجد أخاه الكبير ماهر وقد انجذب إلى الخال حين تكلم ودعا وخطب وصلى، تأثر بأخيه قبل خاله، ثم امتزجا عنده في تلك العاطفة التي تأخذ قلبه وروحه وتملأ عليه سنواته العشرين. هجر التعليم طاعةً لأمير المؤمنين أعلمهم بالدين، والذي علَّمهم أن العلوم التي ندرسها ونتعلمها اليوم إنما هي فتنة تطغى بها البشرية وتستغني بها عن ربها، أما العلم المطلوب فهو علم الآخرة، والذي أراده الله حتى لا نطغى، بدليل أن الرسول لم يتوجه إلى المسلمين إلا بعلوم الآخرة. ذهب معه

إلى الصحراء متخليًا عن الأهل والعشيرة والمدرسة والجامعة، شاعرًا أنه ينتمي إلى قضية عظمى، إنه أبو حذيفة. نعم، حين اختاروا لأنفسهم أسماء من سيرة رسول الله وعهده الأول، حتى يتمثلوا حياته، ويستعيدوا جهاده، ويعيشوا عصره، ويخلعوا عنهم زي الجاهلية وأسماءها، ويعزلوا أنفسهم بالمشاعر والعواطف كما بالأسماء والملابس عن أهل الكفر المحيطين، اختار لنفسه اسم «أبو حذيفة»، متمنيًا أن يكونه هو حذيفة بن اليمان سر رسول الله الذي كان يحفظ أسماء المنافقين الذين حاولوا قتل رسول الله رغم مسوح الإسلام التي ارتدوها، ورغم شهادة أن لا إله إلا الله التي يرفعونها، بل حتى إنهم حاربوا في صفوف النبي وشاركوه نصره وغنائمه. أكان يقدر أن يكون هو حذيفة حين مد يده وسكينه على حسن الهلاوي المرتد يصفعه ويطعنه؟ وحين هاجم مع ثلة الإخوة رفعت أبو دلالة الذي خان وخلع البيعة وارتد عن جماعة المسلمين وأعان الطاغوت فكشف لأمن الدولة أسماء وشققًا وأعضاء؟ نعم والله، هي كما أعلمنا أبو سعد أن أعداء الحركة الإسلامية اليوم كُثر، يأتي في مقدمتهم من هم في الأرض التي ولدت فيها، أي الأهل والعشيرة الأقرب فالأقرب، فليس الرؤساء والقادة وحدهم الذين يحاربونهم، إنما المجتمع أيضًا. نعم، هذا الكافر الضابط الذي يجلس بجواري في سيارة الشرطة، مطرق الرأس يرتعش فكه وراء جلده يخفي توترًا ويداري قلقًا بابتسامة متوددة وتربيت على الكتف يجفل له بدني، بينما صغار الكفار مثل هذا العسكري الذي يسوق السيارة أو ذلك الصول الذي يجلس بجواره، يتبادل ثلاثتهم حوارًا ملولًا. لكنْ هناك نوع آخر من الأعداء، نطاق عمله أضيق لكن أثره خطير وهو النفاق والمنافقون. نعم يا أميري وخليفتي ومرشدي الهادي، قل ونسمع ونطيع، إنهم جرثومة الشر في جسم الجماعة المسلمة، ومعول الهدم في كيانهم المترابط، هم العدو حقًا، الألد والأصعب، المنكشف على عورات المسلمين، المتحصن بحصن الإسلام بلسانه وإيمانه، وهو الحري أن تحذر منه الجماعة المسلمة حقًّا، وتعد له العدة، وترصد له الرصد. وقد بيَّن الإسلام جملة من صفاتهم، وجلب آيات وآيات على نفاقهم، إذ إنهم أول المرتدين، وأول الراجعين على أعقابهم، وأول الضاربين والطاعنين في الإسلام وأهله عند ظنهم بأنه سيُقهر. لذا، تظهر حركات الارتداد التي يقوم بها المنافقون فجأة وفي الأوقات العصيبة مع إعداد سري مسبق وكيد مخفي مبيت متشعب. أوَليس كل ما عشناه في الشهور الأخيرة من تضييق بعد سعة، وقبض بعد يسر، وتشهير وتجريس في الصحف بعد مهادنة وطبطبة، إلا من أعمال هؤلاء المرتدين الذين خرجوا عن الجماعة وشقوا عصا الطاعة؟ فكان لا بد لهم من ردع وإرهاب، فيتخطفني رجال المباحث ووراءهم أو أمامهم رجال أمن الدولة، ويلقون بنا في السجون لأننا نؤدب منشقينا ونقتص من مرتدينا! طيب يحمدون ربهم لأننا اكتفينا بطعنهم بالسكين والمطاوي ولم نفعل ما فعلناه في قطب حسين، ذلك المرتد الأثيم الذي أعدكم أن تموتوا جميعًا وأنتم تجهلون أين اختفى وكيف، ولا تشغلوا بالكم بسؤال إلى متى، فلا متى تنفعه وتنفعكم.
تنهد، وتشاغل بالتسبيح على أنامله، وهو يسأل نفسه في تلك السيارة المسرعة: هل أفرجوا عنه كي يساوموه على معرفة مصير هذا الغائب المختفي أو للدقة المخفى؟ هل يتصورون لحداثة سني أنني شاب غرير أو عود طري يستنطقونه فينطق؟ لكنهم لم يفلحوا منذ أسابيع، فهل يظنون في أنفسهم القوة الآن، أم ينتظرون مني الضعف؟ لا يمكن أن يكون إفراجًا ما دام الضابط لا يزال معي برجاله والسيارة لا تتجه إلى قسم شرطة لإفراج. يا للهول! إنني في لاظوغلي، أمام مبنى وزارة الداخلية نفسه، ثم نلج البوابة ملوحًا ضابطنا لضابطهم بالتحية، ثم تقف السيارة

وتنفتح أبوابها، وإذا بالرائد عبد الهادي الذي استجوبني من قبل، وهو الرتبة الأكبر التي صادفتها، يستقبلني حفيًّا:
ـ حمدًا لله على السلامة يا هاشم.
كان عقله يحدثه: عن أي سلامة تلك التي يحمد الله عليها (وإن كان حمده واجبًا على كل حال) وهي سلامة تستقر بي في وزارة الداخلية؟! أخذني من يدي وصعد بي سلمًا ثم مصعدًا، ثم وجدت نفسي أمام كبيرهم، ومكتوب على لوحة النحاس على سطح مكتبه «العقيد عادل أحمد مجاهد». كانت الغرفة تقارب سعة غرفة مأمور السجن، وكما أن المصحف على يمين المأمور فهو على يمين العقيد مجاهد، وكما سجادة الصلاة مطوية على مسند أريكة مكتب المأمور فهي مفروشة تجاه القبلة في مكتب العقيد. كيف يضع مصحفًا بجواره وصورة السادات طاغوتهم فوق رأسه؟! هنا الإضافة الواضحة، صورة ملونة للكعبة، معلَّقة كما مذياع يشغل صوت مقرئ قرآن كريم يأتي صوته مرتلًا تحت أصوات الغرفة. ابتسم العقيد الرشيق ذو الشارب، وبينما صافحني استقبل الرائد بإشارة للجلوس، ثم التفت لي:
ـ اقعد يا هاشم، أم أقول يا أبو حذيفة؟
شرح العقيد:
ـ نحن نفرج عنك يا أبو حذيفة، وستخرج من مكتبي إلى بيتك، لكن قبل أن تصل بيتك أنا لي طلب، أو قل رجاء.
لم يرد هاشم، وتغالظت قسمات وجهه، وتخاشنت نظراته، لكن مجاهد تجاهل ردود فعله:
ـ خالك خطف الشيخ الذهبي!
فاجأ الخبر هاشم، حتى إنه لم يستطع مداراة ملامحه المندهشة التي تحولت دهشتها إلى فرحة تغمره حتى طفح سروره من عينيه ودلدق من شفتيه المفتوحتين.
ـ غالبًا أنت كنت تعرف شيئًا من نواياكم أو خططكم قبل أن نقبض عليك، فأنا أعرف أنك في الدائرة الأقرب لخالك، وماهر يحبك ويوليك اهتمامًا، وحتى أبو مصعب وأبو يوسف وأبو الهيثم وأبو طلحة يعتبرونك من النقباء المختارين.
كان يتزلف إليه أو ينفخ فيه حتى يمهده إلى ما سوف يطلبه:
ـ لكن هذه العملية جنون وخطر عليكم قبل ما تكون على الدولة يا هاشم.
رفع بسرعة وبانقلابية غريبة من صوته ولهجته، وتحول من الصوت المرتفع إلى الصياح إلى الصراخ في ثلاث كلمات:
ـ الدولة لن تسكت! ولو لم تذهب حالًا إلى خالك وتقول له يفرج عن الشيخ الذهبي فورًا والليلة، فوالله يا أبو حذيفة لو أنت أبو بكر نفسه رضي الله عنه فلن تحتمل ما سنفعله فيكم! خذ بالك، لم يمسك أنت وزملاءك أحد في التحقيق ولا في السجن، ولا امتدت عليك يد، ولا نزلت فوق رأسك عصا، ولا اتعلقت من رجليك، كأنك كنت قاعد معنا في فندق، الرئيس السادات منع التعذيب، واسأل خالك يحكي لك ما هو التعذيب في السجن الحربي زمان، قل له لا يصح يا خالي تدفع الرئيس المؤمن يرجع التعذيب لأنكم ضايقتموه.
ثم وقف مجاهد وهو يشيح له بيده كأنه يطرده:
ـ اتفضل مع السلامة، لكن هذه السلامة مشروطة بأن تكون وسيطًا بيننا وبين خالك، وأسمع منك ردكم، ولا رد غير المكان أو العنوان الذي ستتركون فيه الشيخ الذهبي، ولن تتنازل الدولة وتقبل

شروطكم، وكفاية أننا أفرجنا عنك!
ثم هبط بحمولة صوته، كأنما رمى كل أقراص الحديد من العمود الذي يرفعه على كتفيه:
ـ خلينا أصحاب أحسن، قل لخالك يزورني كما جاء من قبل، ونقعد نتفق ولن نختلف، وكل ما تريدونه سوف أحققه لكم بالشرط الذي بيننا منذ زمن وأنتم أخللتم به، لكن ولا كلمة بيننا إلا بعد الإفراج عن الشيخ الذهبي، ولو مسستم طاقيته وليس رأسه فسترون وجهنا الثاني الذي لم يره حتى الآن شكري مصطفى!
حين وصل هاشم إلى الباب، فتحه الرائد عبد الهادي وهو يقدم له يده بورقة تحمل رقم تلفون، طواها ودسها في جيب بنطلونه.
ـ تكلمني أول ما تخلص مع خالك شكري.
تركه الرائد وحده، لا قاده للخارج، ولا استلمه ضابط، ولا انتظره صول، ولا صاحبه عسكري، فخرج يمشي في ممرات وزارة الداخلية يسأل طريق الخروج من أين.
راعه النهار الذي استقبله حين خرج من مبنى وزارة الداخلية: الحر والشمس، وزحام السيارات، وتدفق المشائين، وأبواق ونفير المركبات، والأجساد التي تتدلى أقدامها من على حافات أبواب الأتوبيسات الخلفية.
كان هواء الفوز ينفخ كل عروقه، ويرفعه من فوق الأرض رفعًا. أجبروهم إذن على إطلاق سراحي، بل ويجلس واحد من كبرائهم يفاوضني ويطلب وساطتي. ثم ها نحن ضربناهم وخطفنا شيخًا من شيوخهم، كافرًا من كفارهم، ولا يملكون أمام ما فعلناه إلا التودد والتوسط. ثم هذا التهديد الهش والزعيق المصطنع، أعلى ما في خيلكم اركبوه.
وصل حتى رصيف باب اللوق أمام السنترال، حيث تكدُّس الواقفين وتكالب العابرين، يرمي نظرته على هذه الوجوه التي لمحها تلاحقه منذ خرج من لاظوغلي. آه، لهذا تركوه يخرج من مكتب العقيد وحده حتى يتوه في طريق الخروج، فلما يخرج يكون المخبرون قد تأهبوا وتمكنوا في كل ركن لانتظار خروجه. لا يدرك عددهم، لكنه خمن أنهم ثلاثة وربما أربعة. لم يحفظ ملامحهم وسط الزحام، ولكن سمح لنفسه بالشك في كثيرين، لهذا اعتمد أول ما اعتمد على شبابه، وعلى أنهم ليسوا كذلك. كان الأتوبيس قد خرج من محطته واندفعت سرعته حين قرر هاشم فجأة أن يعدو بجوار الأتوبيس المزدحم المسرع ثم يقفز ممسكًا بجسم وخصر واحد من هؤلاء المعلقين على حافة الباب الخلفي، فلا مكان لأحد آخر، حتى لو ركض مثله ثم قفز مثله فإنه لن يتمكن من التعلق بذراع أحد من المتكومين على الباب، أو أن يعلق ساقًا في الهواء وأخرى على حافة الحافة في الأتوبيس الذي صار طائرًا. أأفلتَ منهم؟ ربما، وقد لا يكون. أخذ ينظر إلى الشارع الذي ضاعت ملامح وجوه ناسه، وتاهت أجسام عابريه، واختفت معالم بناياته. ظل واقفًا على عتبة الأتوبيس رغم محطات توقف فيها، لم ينزل إلا حين أخذ الأتوبيس ملفًّا بعد ميدان العتبة، فقفز أثناء سير الأتوبيس إلى رصيف مزدحم، فمضى بين العابرين واحدًا منهم، وخلع قميصه واكتفى بفانلة السجن الداخلية ذات الكمين، ثم عاد ورمى نفسه في أتوبيس، ثم كرر قفزته النازلة والصاعدة من وإلى أتوبيسين آخرين، حتى كان الآن في قلب العباسية حيث تبلع زحمة الميدان الجميع. أصبح متأكدًا أن لو وزارة الداخلية كلها تطارده، وليس ثلاثة أو أربعة مخبرين، ما عثرت عليه الآن. لقد ضللهم، لكن تحسب حسابًا أخيرًا، فقرر أن يمشي مسافة أطول يتخطف فيها نظرات خلفه وحوله.

كانت المرة الأولى التي يتهرب فيها من مطاردة مخبرين، لكنه كان راضيًا عن أدائه، حتى إنه صعد العمارة التي قصدها في شارع عبده باشا، حيث واحدة من شقق الجماعة، وقد سكن فيها وقتًا قبل ذلك. فلما طرق الباب ولم ينفتح، عاد ونزل خارجًا من العمارة، متلفتًا في كل زوايا الشارع، ثم ركب أتوبيسًا، وهذه المرة جلس في مقعد من مقاعده، فلما سأله الكمساري التذكرة اعتذر له متوددًا ومترددًا، فليس في جيبه إلا رقم تلفون. قفز أثناء سير الأتوبيس وقد وثق في قدرته، حتى إنه ذهب إلى شقة خاله في عزبة النخل، وقد باتت الشوارع خالية من الزحام، ومكشوفة للعيون، ومفتوحة أمام المراقبة، لكنه اطمأن إلى أنه لا أحد يلاحقه لبعد المكان وتطرفه عن العاصمة الصاخبة. عبر محل الترزي المنشغل بقص وخيط أمام البيت الذي يسكنه خاله شكري، ثم صعد السلم فلم يجد أحدًا في الشقة إلا سيدة من نساء الجماعة وحيدة، كلمته من خلف الشراعة وأخبرته أن أبو سعد لم يحضر هنا منذ أيام، غالبًا هي زوجة خاله، لكنها مضطربة وهو مستعجل، فلن يطيل معها كلامًا، ثم نزل وأخذ أقرب مواصلة إلى حي الزيتون، لم يعد منشغلًا بالبحث عن مطارديه إطلاقًا، فقد تبخر منهم وعادوا بخفي حنين. وصل حي الزيتون وقصد الشقة، فوجد فيها علامات حياة وحركة فتنهد سعيدًا، لكن فتح الباب أخ من المنصورة كان واضحًا انشغاله بإعداد الشقة لحدث فهمه هاشم دون سؤال. تحاضنا وتبادلا التحية وهو يتابع بعينيه المواسير البلاستيكية والخراطيم والأسلاك والدوائر الكهربائية التي تملأ الصالة مفروشة وموزعة وممدودة. عرف أن خاله أغلب الأمر في شقة دير الملاك، فقد غادر الزيتون في ساعات الصباح الأولى.

كان العصر قد أوشك على الأذان حين فتح له ماهر باب شقة دير الملاك واحتضنه وقال له:

ـ ادخل سلم على خالك.

* * *

كان أبو مصعب قد وصل بسيارته وركنها أمام عمارة الزيتون، ثم نزل منها ماهر وطارق، فتبادلوا تفتيش الشارع بعيونهم: حركته هادئة، دكانان وحيدان في الشارع، بقال ومكوجي، الأدوار الأرضية مغلقة النوافذ والشرفات، بما يعني أن لا سكان فيها، فمن يحتمل نوافذ وشرفات مغلقة في عز يوليو إن كان موجودًا في شققها، حبال غسيل تتدلى بغسيلها المنشور، عدة صبية يلعبون كرة شراب على الناصية، امرأة ترمي ماء على أرض الشارع الترابية، الشمس في الشرفات العلوية المفتوحة لا تسمح بجلوس رجل بفانلته الحمالات في هذا الهجير. عليهم أن يرحلوا قبيل المغيب قبل أن تمتلئ الشرفات برجالها بملابسهم الداخلية والسجائر والقلل وشقق البطيخ، يغلبون حر الصيف بخلع الملابس والهموم. صعدوا إلى الشقة حيث فتح لهم طه الزيني.

كان ماهر قد ترك أخاه صفوت راكبًا إلى شقة الهرم، وكان ماهر عنيدًا في رفض انضمام طه إليهم فهو تهمة؛ صبي وغاضَب أباه وأمه، وتلاعن معهما واتهمهما بالكفر، وطفش من بيتهم حالفًا على اللحاق بأخيه الكبير صفوت، وفوجئوا به بينهم يدفس رأسه ويدس أنفه في اجتماعاتهم، وكلما ذهب من شقة إلى أخرى صادفه فيها ساعيًا، حتى قرر أبو سعد أن يجعل منه ساعي بريد الجماعة، ثم قالها مبتسمًا، على ندرة ما يبتسم، إن طه أول من أسلم من الصبية، فكأنه علي بن أبي طالب للنبي محمد، واعتبر طه الأمر وسامًا، حتى إنه بدأ يتصرف باعتباره عليًّا بين شيعته، يساعده في ذلك استئناس أبو سعد به، ورعاية أمهات الجماعة بالبكر من أبنائها. دخلوا إلى شكري مصطفى الذي بادرهم بالشعر:

ويقولون على الإسلام هجرًا

ويكيدون له برًّا وبحرا
ويودون بأهل الله شرًّا
مستهينين به صبحًا وظهرا
أنت إن وادعتهم وادعت شرًّا
وإذا عاهدتهم عاهدت غدرا
وإذا خاصمتهم أصليت فجرًا
وإذا صادقتهم باعوك خسرا

أطربتهم راحة باله، هو يعرف أكثر، يتكشف أمامه ما لا يتكشف لهم، ثم إن اختصاص الإمام إنما هو أن يأمر ويجيب بقدر المصلحة، واختصاص المأمور أن يطيع، وألا يسأل إلا بقدر الحاجة. ماذا سنفعل؟ كان هذا السؤال الملقى من جوف ماهر إلى معدته. وماذا سنفعل؟ كانت إجابته بين ضروس طارق يهرسها خشية التفلت من فمه. وماذا الآن؟ كان سؤال أنور مأمون وكانت قبضتا يديه قابضتين، كأنهما لا تزالان بكتف وذراع ومعصم الشيخ الذهبي، يحس نفضة قلب الرجل ورعشة بدنه وتصلب عظمه. لكنهم لم يتكلموا، لا سألوا ولا أجابوا، تعلموا الصمت طاعة كما الصمت تأدبًا في حضرة الخليفة الإمام. لن يكونوا بأذكى منه نباهة، ولا أوعى منه وعيًا، ولا أبصر منه بصيرة، ثم إنهم خاضوا المعركة بسنابك خيولهم، وهم في الميدان الآن، فلا حاجة إلى سؤال يستفهم، فالاستفهام تشكك، والتشكك تشكيك، ثم إن الشعر الذي قاله المهدي نجابة لماحة، فهو يصف ما يجري ويوصِّف ما يحدث، دون أن ينتظر منا إلا فضول النظر مع فضيلة الصمت. ولقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية عبد الله بن جحش، فكتب لهم كتابًا مغلقًا، وأمر أميرهم ألا يفتحه إلا بعد مسيرة ثلاثة أيام، ثم يفتح الكتاب وينفذ ما فيه. إنه أعظم درس عملي في السمع والطاعة من غير معرفة العلة، فكم من غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل فيها من قتل وغلب فيها من غلب وجهل أصحابه وجهتها إلا النفر اليسير منهم. وها هي غزوة الخطف نخوضها، وغبار ميدانها فوق الرؤوس.

جمعوا ما في الشقة على عجل، وقد سبق طه الجميع راحلًا مصطحبًا معه زوجة شكري بطفلها، حيث تنتظرهم شقة دير الملاك. كان مطلوبًا منهم مغادرة الشقة للإخوة من المنصورة، وقد أوشكوا على الحضور لإعداد الشقة وتجهيز عبواتها.

وهم يغادرون قال ماهر لطارق:

ـ سترجع يا أبو يوسف لتتمم عليهم آخر الليل.

وافقه طارق متحمسًا، بينما أحاطوا شكري وهم يرقبونه والجًا جسده في أريكة السيارة.

وفي الطريق إلى دير الملاك سأل شكري:

ـ هل أبو حذيفة يعرف أين سنكون؟

ـ لا، لكنه سيبحث عنا ويجدنا.

كان ماهر من أجاب. أعفاهم شكري من لجلجة السؤال في عقولهم:

ـ ماذا تقولون لو لم يستجيبوا لما أنذرناهم به؟

ـ نقول ما تقول يا أبو سعد.

كان مأمون أسرعهم وألهفهم على الإجابة.

كان قد علَمهم فأحسن تعليمهم أن طاعة الإمام فيما تحب وتكره، وفيما يشتبه عليك وما لا يشتبه عليك.
وصلوا شقة دير الملاك، اتخذوا إجراءات الحذر والتحوط في النزول من السيارة على مبعدة من الشارع، الدخول للشارع متفرقين مبتعدين، الدلف في مدخل العمارة على دفعات، كل أخ يراقب المكان لأخيه، ويؤمن التخفي لمن يسبقه، ويمهد السبيل لمن يلحق به.
صعدوا ودخلوا وجلسوا، وحمل لهم طه من زوجة الأمير صينية بما وجدته في المطبخ من حلبة حصى وينسون.
ـ قل ما في رأسك يا أبو يوسف.
احتاج طارق السؤال ليقفز ضابط الشرطة من صدره:
ـ يا أبو سعد، نحن لم نضع في هذه الخطة إلا احتمالًا واحدًا، وهو أن تسلم لنا الحكومة بما نطلب، وكنا نعرف أنها قد تراوغ وتسوِّف.
ـ لكن هل تأبى الحكومة وترفض؟
كان سؤال مأمون الذي جعل غيظ الغيرة ينقر قلب ماهر، فهذان مهندسان زراعيان وذاك ضابط، وهو ماهر الطالب الذي لم يكمل تعليمه، فهو المضحي بينهم، لكنه يحمل شهادة فيلسوف الجماعة ومُنظِّرها، قاطعهما:
ـ ما تتحرق الحكومة وتأبى وترفض كما تشاء! فنحن لها ولن نرحمهم ولن نسكت!
اغتبط شكري بأن ماهر يردد صدى كلامه.
* * *
احترقت الحكومة فعلًا ورفضت. لقد وصل هاشم وفتح له ماهر، فقد كان طه قد أُرسل ليتأكد من وصول مجموعة المنصورة للزيتون، ويعود بالموعد الذي يضربونه لطارق كي يتمم عملهم. تحاضن هاشم مع الجميع، ونزل على ركبتيه إلى شكري المقرفص، فقبّل كفه ورأسه وجلس بين يديه، وحكى لهم عن الساعات الماضيات، ونقل إليهم رسالة العقيد مجاهد، ثم طرقت زوجة شكري الباب، فسكتوا لوهلة، فعادت هي بخطواتها من حيث أتت، فقام ماهر ووجد صينية البيض والجبنة مع رغيفين ناشفين، هي وجبة العائد الجائع، حملها وأغلق الباب ووضع الصينية أمام هاشم، وأمرته إطراقة رأس شكري بأن يأكل، فالتقم الأكل مزدردًا يسد جوعه.
كانت عيونهم جميعًا في أعمق لحظاتها عتامة وعمى عن عواقب رفض الحكومة الاستجابة. أمن الدولة أرسل رسالة مائعة، لا هو استجاب ولا رفض، أخرج واحدًا وأبقى ستة، عشم بالسماح كأن العفو عما سلف ثمن الإفراج عن الذهبي، حتى الطفلة لم يتنازلوا ليرجعوها، والفلوس أعز عندهم من تسليمها للجماعة. كانت الرسالة مهينة. أكان خطأ اختيار الذهبي للعملية؟ لو كانوا انتخبوا للخطف رجلًا أعز عند الدولة منه، أكان يمكن أن يستجيبوا؟ كانت الأخماس تُضرب في الأسداس، والمثلثات تتخبط في المربعات في رؤوسهم. شكري بتلك الثقة التي تملأ روحه ولا تغادره لحظة فلا يزوره أبدًا قلق ولا يعتريه شك، كان مؤمنًا أنهم لن يقبضوا عليه، ولن يتمكنوا منه، وسينجيه الله منهم لأنه محصن وموعود ومنتظر، وإن اعتقلوا الجماعة كلها، فهناك آلاف آخرون موجودون وقادمون، ثم جماعته في مشارق الأرض ومغاربها، فلن تقل ولن تنقص ولن تفنى، بل ستملأ عين الشمس بحق فالق النهار.
كان ماهر من تكلم مستعيرًا حنجرة خاله:

ـ أعلى ما في خيلهم يركبونه!
خيل الحكومة كثير وتعجبهم كثرتهم، لكننا سنغلبهم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، بل سيحارب معنا الملائكة كما حاربوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في بدر، سنحارب نحن في سفنكس وفي العتبة والأوبرا والتحرير ورمسيس.
التفت ماهر إلى طارق:

ـ هل العبوات ستكون جاهزة حين نحتاج إليها؟

ـ طبعًا.

ـ إذن ليس علينا إلا التكليف وتوزيع المهام.

كان طارق أشدهم حماسًا لخوض معركته ضد الدولة، استنزاف وحرب عصابات وترويع، ونجعلها حكومة هزؤًا ومسخرة. يريد أن يحطم بفأسه أصنامهم ذوي الشرائط والكتافات والكابات والبذل السوداء والكاكية. كان دائمًا ضد الهجرة والاعتزال حتى لو بالقلب وبالشعور، بل هي المصادمة والمحاربة.

أما مأمون، فقد كان فائر الأعصاب كسيفًا، وقد أحس حين قذف الذهبي في السيارة مكومًا أن نصر الله قريب، وأن هذه الحكومة سوف تخضع. أكان ولا بد أن ننزل من الكهف يا أبو سعد؟ ألم نبدأها هجرة؟ «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَٰهِيمَ وَلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ للَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ لْعَدَوَةُ وَلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُواْ بِللَّهِ وَحْدَهُ» فلماذا عدنا إليهم؟ كان ماهر يجيب: عدنا لأنهم لم يسمحوا لنا بالهجرة، وأفسدوا علينا اعتزالنا، فلا هم رضوا بأن نظل في جبالنا أو حتى شققنا نتعبد الله وننتظر نهاية الزمان، ولا هم احترموا الحلف بيننا على أن نصمت عليهم ويسكتوا عنا، فليدخل من شاء إسلامنا وليكفر كفارهم معهم دون أن يمسونا، زرعوا بيننا المنافقين والبصاصين، ونزعوا من فراشنا إخوتنا، وقذفوا في محصناتنا ومحصنينا، فكان علينا أن ندافع عن أنفسنا.

كان الحر ينافس حرارة عواطفهم التي تدمدم الآن في جوانحهم جميعًا، لا يهم ما هو القادم، فقد أشعلت الحكومة غضبهم، وثقبت بالون كبريائهم، وجرحت رجولتهم، لكن لا رسالة أمن الدولة ولا رسالات الدولة كلها، بضجيجها وعجيجها وجعجعتها، سوف تهز يقينهم بأنهم جماعة آخر الزمان، وأن السيد المسيح ينتظر أبو سعد ربما اليوم أو بعد أسبوع أو شهر أو سنة، ربما في دير الملاك هنا أو في سيناء أو مكة أو في مرج دابق.

ـ المرج أم عزبة النخل؟

سأل ماهر خاله فلم يجب، بل نظر إليهم وأمرهم:

ـ كان موعدنا في الثانية عشرة ظهر غد، لكن أما وهذا ردهم فلا حاجة للانتظار، لقد نصرنا الله بما فعلوا.

تحسس طارق الطبنجة فوق حزامه حين قال شكري مصطفى:

ـ اقتلوا الكافر الذي لديكم.

(8)

أكانت إغماءة أفاق منها برعدة أرعشت جسده؟ سقى الخوف عروق دمه الناشفة فانتفض جسده فرقًا. كل أعضاء الشيخ الذهبي الراقد مقيدًا على سرير صغير ضيق، وفوق مرتبة رديئة التنجيد، تئن من الألم، رضوض أو سحجات من الدفع والجر والقبض، وعظام مرضوضة أو مخبوطة، وعضلات متشنجة متصلبة من ذعر الصدمة. أحس أنفاسه معروقة بالماء ترتد إلى أنفه، حاول أن يسعل فكتمت القماشة المكممة لفمه محاولته، فرجعت السعلة لاسعة لحلق جوفه. أدمعت السعلة المرتجعة عينيه سخينتين، ففكت تجمد دمعات بقيت متحجرة عند ركني مقلتيه، فتبللت العصابة على عينيه بالدموع، أحس دفئها لهبًا. كان الهوان يشق صدره. تململت قدماه

فاختنقتا بحلقات الحديد التي جرحت مفصليه. ضرب الحزن أوصاله، واشتد وجيب قلبه، وتسارعت نبضاته حتى إنه سمعها دقات تخبط وتتخبط مضطربة مطَّردة بين جنبات قفصه الصدري. حاول جسده أن يقاوم القيود والرقدة والحبسة، بينما تفكيره مشلول تمامًا، غارق تحت ماء الصدمة، لا تشب يداه ليقفز ليتنفس ليفهم ماذا يحدث معه أو ماذا حدث له! ضباب في غيام يأتيه بصور وجوه شائهة بلا ملامح تقتحم عليه بيته، تخنقه بأذرعها، تشده تجره تسحبه تسحله تلكمه تلكزه تدفعه في صندوق مغلق لعله سيارة.

يسمع الآن طنينًا في أذنيه، وكلمات ملغزة متقطعة الحروف تتحشر في أذنيه، لكن الهواء ينسحب من صدره، تفرغ رئتاه من الأكسجين أو حتى ثاني أكسيد الكربون، يعجز عن التنفس، يختنق، يجثم الظلام على وعيه، تنسل منه روحه. في آخر لحظة السقوط المتهاوي في فراغ مسود محمر يبزغ وجه ابنته أسماء، كأن نظراتها تجذبه ترفعه تعيده تحييه، يرفع رأسه ينفض العتمة، يستفيق واعيًا، يقوم من رقدته قفزًا بجذعه كأنه يصعد بيديه الملوحتين المطبشتين ونطحات من رأسه فيشق حجابًا أو يعبر حاجزًا، يخرج من حفرة رموه بها لاهث الشهيق وعالي الزفير، متمتمًا: «اللهم عافني من شر ما ينزل من السماء إلى الأرض، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر طوارق الليل والنهار».

دعا أن يكون كابوسًا من وسوسة الشيطان، لكنه أحس الشيطان نفسه معه في المكان، عادت إليه الساعات الماضية وكأنها كانت قد فارقته، تذكرهم وهم يحملونه من السيارة ويرفعونه بينهم سلالم ودرجات وسط صمت الليل إلا من همهماتهم الغضوبة وهمتهم اللهفى. عتمة الظلام تزداد بعصابة القماش على عينيه. كانت قبضاتهم غليظة وتنشب أصابعها في لحمه وتقبض على عظمه ورموه على سرير، أحسهم وهم يقيدون قدميه بالحديد مع صرصرة الجنزير في قضبان السرير المعدنية، ويحكمون ربط يديه من معصميه، ويدسون القماشة في فمه أعمق حتى الانحشار في اللسان، وإحكام العصابة على العينين حتى إظلام نقطة شعاع ضوء متسللة من ثغرة ملليمتر. لماذا يفعلون ذلك؟ من هم أصلًا؟ لم يقدر على الخروج من الصدمة، بل قدرت الصدمة عليه وأطبقت وعيه فكأنما أغشي عليه. لحظة إفاقته الآن كان يشعر بأنفاس النهار من وراء الباب، فهوى قلبه جزعًا على أسماء وعلى أبنائه السبعة، الدكاترة والأساتذة عيون القلب وزينة الحياة الدنيا، وهم يرون والدهم مهانًا مدحورًا من قوم مجاهيل منكرين. ألهب الحزن قلبه، فبكى محبوس الدمع خلف العصابة ومخنوق النشيج وراء الكمامة. لكن الدولة لن تسكت، لا يمكن أن يختطف من بيته على هذا النحو بتلك الخفة والسهولة خارقين أمانه وأمان الناس، ثم لا يردعهم الأمن ويلقنهم درسًا ويخزيهم خزيًا. لكن هل يعرف رجال الأمن من هؤلاء أصلًا؟ ثم ألم يكن أحدهم يرتدي ملابس الشرطي، بل وعرَّفوا أنفسهم بأنهم رجال البوليس؟ قطعًا انتحلوا هويتهم، لكن من هم؟ ما مصلحتهم في أن يخطفوني؟ ولماذا أنا؟ أنا الذي وادعت العالم كله تقريبًا، لم أؤذِ ولم أضر ولم أدس ولم أمكر، بل ولم أعارِض ولم أشق طاعة ولا ناصبت أحدًا عداوة، لم أكن إخوانيًّا في يوم من الأيام حتى أعتاد أن أُرهِب وأُرهَب، ولا أنا بالوفدي حتى أعارض وأشاغب فأُطارد وأُشرد، ولا أنا بالحرامي الانفتاحي حتى أسرق، فأصارع منافسين وأُصرع من أعداء.

دار برأسه في الغرفة، تحسس ضيقها من اتساعها بالتنفس، ثم وأدت القيود عزيمته أن ينزل من السرير، فارتكن إلى الحائط، بحث عنه بظهره مخافة أن يسقط، فلما وجده استند عليه فأحس رطوبته، فأدرك أن وراء الجدار جدارًا ومباني وليس مكشوفًا لشمس أو طل. ارتعشت يده،

وجف حلقه، وبردت أطرافه، وعرق جبينه. لم يذق طعامًا ولا شرابًا، فالسكر يذوي في جسده، وينشب الصداع في رأسه، فكأنما كماشتا حديد تضغطان على جانبي دماغه. قرر أن يصرخ فصرخ، فخرج الصراخ فحيحًا مكتومًا تحت كمامة. لم يسمع ردًّا ولا استرق صوتًا. لا، هناك صوت، نعم هو يسمعه، أطرق وانتبه ووضع حواسه كلها في أذنيه فجاءته شقشقة عصافير تطير أو تتقافز فوق أغصان شجرها. فجَّرت الشقشقة بكاءه، تذكر عصافير شجر بيته توقظه من نومه في الغرفة العلوية، وتصاحبه صباحًا عند شرب الشاي في شرفة المنزل، وشكواه من نقرها لحبات الجوافة التي لم تنضج بعد في موسمها، فتسبق العصافير إليها فتفسدها وتسقطها على أرض الجنينة منقورة. جاشت عواطفه. أهذه الخاتمة يا ذهبي؟ أبعد كل هذا العمر تصير مخطوفًا ملقى مقيدًا مأسورًا بين الحياة التي تكاد تبعد، والموت الذي يكاد يطبق؟ ألا يحسن الله خاتمتي، فتكون هذه الذكرى آخر ما بقي لأولادي، وتكون تلك سيرتي بين الناس في آخرتي؟ كل هذه المؤلفات والكتابات والمحاضرات والتلاميذ والطلاب والعلم والعمل وخدمة الإسلام والمسلمين ومجمع البحوث أمينًا، والأوقاف والأزهر وزيرًا، وفي النهاية شيخ ضعيف مهان الكرامة مداس الكبرياء من لمامة بشر وحثالة ناس يعتدون على حدود الله؟! يا رب، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم. لكن مَن هم؟ تتلاطم الحيرة في عقله كأنها موج البحر اللجي، كأنه ملقى في بطن حوت لا يشعر إلا بالتخبط بين أسنانه وأنيابه ولزاجة سوائله ونتوءات عظامه ودكنة عتمته. ما السر؟ ما الهدف؟ ما المصير؟ هل عليه أن يسلم ويستسلم ويترك نفسه لسلام المغادرة وهدأة الوداع، أم يتشبث بأمل ويتعلق بأهدابه ويُمني نفسه خلاصًا من عثرة، وخروجًا من حفرة، وعودة إلى حضن أبنائه ودفء حياته؟ لعله يوم بغيض كبيس ساقه الله لي كي أشكره على النعمة، وأحمده على راحة البال وعادية الأحوال. تخبط بين الحديد الذي يلجم حركته وبين الأفكار التي تنفلت من رأسه سابحة في الفضاء تتعارك على نيل حظها في الثبوت. آه إن عرفت من هؤلاء عرفت نواياهم، لكن أي نية لديهم تجاهي وهم قد خطفوني حاسري الوجوه مكشوفي الملامح أمامي وأمام عيالي؟ لا أتذكر وجوههم وإن طلبوا مني وصفًا ما وصفت إلا زي شرطي وألوان ملابس وقسمات غضب، لكن أسماء ستعرفهم وتتعرف عليهم، لن تتساهم أسماء أبدًا، يا ابنتي يا حبيبتي أكاد أرى دمعك الآن ولهفك وحزنك وقلقك، جففي عنك دموعك أنت وإخوتك يا حبة القلب، فما كان أبوك أخ سوء ولا كان جبارًا عتيًّا، بل كان مؤمنًا نقيًّا، اتقى الله فيما كسب وكتب وقال وخطب وعامل وعمل. نعم من يخطفني بلا لثام يعني أنه سيقتلني ولا كلام، لكن لماذا لم يقتلوني وأنا خارج من مكتب أو بيت، سائر أو عابر في طريق؟ لماذا يخطفون ويتكلفون هذا الجهد وتلك المشقة، بينما كانت رصاصة بعدة قروش من مأمن أو مخبأ أو مكمن يمكن أن تنهي حياتي؟ ثم لماذا يقتلونني أصلًا؟ ماذا فعلت لهم؟ بل ماذا فعلت ابتداءً غير ما يفعل رجل يخشى الله في سره وعلانيته؟ دمعت عيناه وتبللت القماشة دمعًا وعرقًا، كان تقلص يكويه توجعًا، فالمثانة ببروستاتا رجل جاوز الستين لا تصمد أمام كل هذه الساعات، دون أن تذهب إلى حمَّام فتفرغ سمومها، الحصرة مع الجوع مع الظمأ أهلكوا أعصابه. تمتم مع ارتعاش بدنه كله الذي بات كأنه لحم محموم، يرتج ويهتز ويعرق ويبلل ويسخن ويتشنج: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي».

نادى بصوت مكمم:

ـ يا جماعة يا اللي هنا.
كانت الكلمات كلها مجهضة الحروف والنبرة، سمعها في أذنيه همهمة وحشرجة. هوت محاولته على السرير معه، وهو يشد ركبتيه بألم حاد كالنار ليضمهما ناحية بطنه فلا يقدر إلا على زيادة الألم. يتساقط إعياء على الفراش وقد تحول جسده برد ثلج، وعظامه نخر خشب، نحلت أفكاره وتضببت، يهمس في سره في رأسه: «لكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».
توقف كلب القلق الأسود عن عضه حين بدأ وعيه ينسل من روحه وروحه تتسلل من جسده، وبدا أن مفاصله السائبة وأنفاسه الرائحة إنما تذهب إلى حيث لا تعود. أهي إغماءة أخرى أم غشية ثقيلة أم رواح بلا رجعة؟ ولج ظلامه وهوى في فراغه، لم تزره أحلام ولا كوابيس ولا صور ولا شيء، فكان العدم. هل استغرق الأمر وقتًا طال أم قصر؟ لا يعرف فقد انتفضت فجأة كل خلاياه، وقفز مِن العدم للوعي، حين التقط سمعه صوتًا ينادي اسمًا:
ـ أبو هريرة، تعالَ هنا.
أحقًّا ما سمعه؟ أبو هريرة؟ أهو خرف أم هذيان أم خيالات، تهيؤات أم ضلالات؟ نفس الفراش ونفس الحر الثقيل والقيود الموحشة. رعدة عادت فسيطرت على قلبه، وطاحونة الصداع رجعت بدوران ريشاتها تدوي في دماغه. كان آخر ما يمكن أن يتخيله هو أن ما سمعه حقيقي وصحيح. عندما أحس أن بشرًا في المكان، وأنه ليس مهجورًا، إذا بالكلمات التي تمتصها أذناه تزيده تحيرًا وتحيره زيادة، مرتبكًا يتحرك يجلس بجذعه يميل بصدره ناحية مصدر الصوت، فيتسمع وقد ارتجف، حممه عرق الصيف والخنقة حتى إن جلبابه الأبيض تلزق بجلده، أصغى:
ـ أبو هريرة.
يبدو أن أبو هريرة ضج بالنداء فرد:
ـ ما تسكت يا أبو نعمان!
ظهر صوت ثالث أغلظ نبرة وأعلى رتبة مارس عليهما السُّلطة:
ـ أنا فضلت ساكت كل هذا الوقت كي تناما، وأول ما تفيقان من النعاس تزعقان وتشخطان؟! قوما للوضوء، فقد حان موعد صلاة المغرب.
أبتنا في المغرب؟ ألنفس اليوم أم أن الإعياء الذي ينزع روحه من أطراف أصابعه دليل على أيام مرت ولم يشعر بها؟ الجوع والعطش والبرد والحمى يقولون إنه هنا حبيس منذ زمن. أنصت مرة أخرى إلى حركات الأقدام خارج الغرفة، وخرير ماء وهمهمات وتمتمات ثم صوت إقامة الصلاة ثم تلاوة بعد تكبير. أهم قوم يصلون؟ دقت الحقيقة في رأسه كمطرقة حداد على سندان قلبه، إنهم جماعة التكفير والهجرة، من سيخطفك يا ذهبي ثم يصلي المغرب جماعة إلا هؤلاء الخوارج الذين قد يتوضأون بدمك؟ ربما شعر بالراحة الآن، على الأقل فك اللغز، ثم انقلبت الراحة هدير قلق. لماذا يفعل هؤلاء الحمقى ما فعلوا؟ أيردون بعد كل هذه الشهور على سطور كتبتها في كتيب، أم ينتقمون لكلمتين قلتهما في ندوة (كلمتان فقط)؟ يسمع تلاوتهم للقرآن فيها لحن مع حماس، والآيات المرتلة قتال وحرب على الكفر والمنافقين، وأخرى وعد بالنصر والفوز الإلهي، ركعات المغرب الثلاث قضت وقتًا طويلًا يعصر قلب الشيخ الذهبي ويجر أمعاءه من بطنه ألمًا. هؤلاء غلاظ مغلقو العقول، وها هم اتخذوا العنف جهادًا والخطف غزوًا والقتل

في سبيل الله سبيلًا، فأنت هالك حقّا يا شيخ ذهبي. أيمكن أن أحاورهم؟ أدفع عن نفسي تهمتهم (بعد أن أعرفها) وأدفع عن روحي أذاهم؟ هل يسمحون فيسمعون وينصتون فيفهمون، لعلي أرقق قلوبهم وأنير عقولهم وأهديهم الرشاد؟ أقول لهم إننا لا نختلف على حق نتنازعه من بعضنا، بل نحن مسلمون موحدون، ومحمد رسولنا والإسلام ديننا والقرآن كتابنا، نصلي تجاه قبلة واحدة، ونصوم رمضان معًا، ونقرأ من مصحف واحد، لماذا تخطفونني أو تسعون (قطعًا) إلى قتلي؟ أقصاص مني وأنا المسالم المستأمن؟ أخلاف بيننا في اجتهاد؟ وما له؟ لننظر إلى القاسم المشترك بيننا، أنا وأنتم نرى للإسلام أعداء، ونؤمن أن الإسلام دين ودولة، وكلانا يوقن أن الشريعة الإسلامية لا بد أن تطبق بكلها لا ببعضها، بشمولها لا بتجزئتها، وأن الحكم لله ومن لم يحكم بما أنزل الله فهم الكافرون والفاسقون والظالمون. ما بيننا من اختلاف هو أنكم تكفرون مرتكب المعصية حتى لو من اللمم، ولا تعترفون بالكفر الأصغر والأكبر، ولا ترون المعصية إلا شركًا، وأنا أقول لكم إن هناك كفارًا بيننا فعلًا، وإن هناك كفرًا يحيا ويعيش ويعتاش في جنبات الأمة، بل وتنفتح له أبواب الدولة ليكتب في صحفها ويخطب في مؤتمراتها ويؤلف كتبًا ويتحدث في الإذاعة والتلفزيون، بل ويتولى مناصب ووظائف. ألم تقرأوا كتابي «الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن»، حيث كتبت أهوي بمطارقي على رؤوس المضلين، مضمري الكفر من هؤلاء الماديين؟ ألم تقرأوا دراستي عن أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع، حيث قلت وكتبت بالحرف الواحد: «لو طُبق حد الردة في حزم، أكنا نسمع عن أولئك الذين أغراهم في الظلام دعاة المادية من هنا وهناك؟». (هل أخذتم بالكم من كلمتي هنا وهناك، هنا، أليست هنا إلا مصر وأمتنا الإسلامية؟) وأضفت عن حد الردة داعيًا لتطبيقه، ومذكرًا السلطة أن تراخيها عن تطبيقه أودى بنا إلى التمدد طعامًا في مأدبة أعداء الإسلام. نعم، لو طبقنا حد الردة لما سمحنا للشيوعيين والماديين والمتغربين أن ينتشروا بيننا. أرأيتم أننا في مربع واحد، وإن كنتم لشبابكم ولحداثة اطلاعكم وتسطح دراستكم لعلوم الدين، أسرع في الغيرة فأغضب في الحكم فأبطش في العنف؟ حنانيكم! لكنهم يا ذهبي غلف القلوب، غفل العقول، يخطفون عالمًا يقول ربي الله، يحارب أعداء الإسلام، فما بالهم ماذا يمكن أن يفعلوا مع هؤلاء الذين أعلنوا إلحادهم في كتب وتفرغوا لشن الحملات على الإسلام مدعين إصلاحًا وزاعمين تجديدًا! نخزه اليأس وألقى به على الفراش متكورًا بركبتيه عند صدره، بوله محبوس مع كل محابيسه.

صمت ران على المكان، وبغتة انفتح الباب على درفتيه مصفقًا يخبط في الحائط، فجفل وذعر، ثم ارتد إلى الحائط عصيًّا، مقاومًا الأيدي التي تشده من قبضتيه وتجره من كلابشات معصميه، فخاطبه أحدهم:

- لا تقاوم، نحن لن نؤذيك.

استمر في التملص والفلفصة والانكماش والتصلب.

- ما قلت لك يا أبو توبة ما نتركه مكانه ولا نسأل في هذا الكافر ولم تسمع كلامي!

كان صوت أبو هريرة من يتكلم، لكن أبو توبة تجاهله وهو يستعجل الثالث:

- أبو نعمان، فككت الجنزير؟

- نعم.

جروا الذهبي من السرير، فتهاوت قدماه تعلق بهما الجنزير الذي يحتك بالبلاط العاري، فيصر صريرًا يتابعه في خطواته الزاحفة، أحسها عدة أمتار أخرجوه فيها من الغرفة ودفعوه إلى باب

مغلق انفتح برميتهم لجسده عليه، ففاحت منه رائحة عطانة تكاد أن تغشيه، وقد شعر دوارًا هائلًا يلف برأسه ويترنح به جسده، فوجئ بذراعين تندسان فوق جلبابه، فترفعه ثم تنحشر فتسحب لباسه حتى رُكبتيه ثم تدوس على كتفيه وتُنزله إلى الأرض مقرفصًا:
ـ العين تحتك، اقض حاجتك وخلصنا.
أحس أنفاسهم وأجسامهم تحجز الباب عن الانغلاق، وتضيق مساحة الحمَّام التي تكاد تطبق عليهم جميعًا جدرانًا وروائح. كاد أن يسقط الشيخ الذهبي ثم توازن في لحظته الأخيرة. كان في حاجة مسيسة لقضاء حاجته وتفريغ بوله، ولشد ما شعر بالامتنان لهم في هذه اللحظة، وظنها رقة تقود لما بعدها، لكنهم لم ينزعوا كمامة فمه ولا عصابة عينيه، بل والجنزير يحيطه في عين الحمَّام، وقد تلوث بماء الأرض وتدنس برذاذ البول الذي جاءه رغم حيائه الذي أوشك على قتله وهو خجلان من أن عيونًا ترقبه وهو يبول. الشيخ الوقور الدمث الحيي عاري الفخذين والمؤخرة أمام حثالة تحبسه بعد خطف وتهينه بعد حبس، لا أطعموه ولا أشربوه ولا تركوه يتوضأ مصليًا، ولا حتى بادلوه حوارًا، ولا واجهوه تهمًا، ولا حاكموه شرعًا! حين شدوه ورفعوه ومال أحدهم فجذب لباسه إلى أعلى، جروه ودفعوه إلى خارج الحمَّام عدة أمتار، ثم كادوا أن يحملوه، فألقوه على السرير، فأحدثت رميته أنينًا من ألواح السرير وخبطًا في قضبانه، وصلصلة الجنزير الذي عاد والتف من قدميه إلى أعمدة السرير.
حين أغلقوا الباب خارجين وقد أحكموا قفله، وجد الشيخ الذهبي نفسه منهارًا في بكاء حار حاد حميم لهيب، يرتج بدنه كله رجًّا. وحين هدأ روعه لما هده تعبه، تمدد مرتجفًا يحس بردًا وتشنجًا أو حمى وتيبسًا، صار يتغلب عليها بصوته يخرق الخرقة المبللة التي تكمم فمه وتكتم لسانه: «يا رب، أسألك يا الله أن ترزق أبنائي الصبر والقوة والجلد، أن تتفضل بنعمتك على أسامة وتحميه وتصونه وتنجحه في عمله».
كانت كل خلاياه تبكي: «ومحمد تكرمه يا رب، فيكون نعم الزوج كما كان نعم الابن، ونعم الأخ، ونعم الطبيب، وترزقه من حيث لا يحتسب. وتسدد خطى مصطفى، وتجعل طريقه نجاحًا وفلاحًا وفوزًا وعزًّا، وترزقه الذرية الصالحة. وتوفق وتكرم وتستر وتصون ابنتي عزة وأخواتها فاطمة وسعاد، وترزقهم السعادة والرضا والهناء، والزوج الصالح والأبناء الأوفياء».
بات البكاء نحيبًا من كل أعضاء جسده: «وتخفف حزن الحبيبة النجيبة أم أبيها أسماء، وتطيب خاطرها، وتطمئن قلبها، وترزقها الزوج الصالح والذرية الطيبة، وترفع عنها البلاء والغم، وتنزل عليها المحبة والسكينة والرضا. وتبدل سيئات أبنائي وبناتي حسنات يا الله، وأن تغفر لهم وترحمهم يا الله، وأن تجعلهم أهلًا لفضلك وكرمك وعفوك ومغفرتك يا الله، وتجعل من أمامهم نورًا ومن خلفهم نورا يا الله».
تداعى الشيخ الذهبي، وأدار دواره رأسه حتى سقطت كتفاه من على حافة السرير وهو يتمتم: «يا رب إني مغلوب فانتصر».
* * *
لم تكن هناك أوامر أو نواهٍ أو حتى زواجر كي يلتزم بها مصطفى غازي ويلزمها في هذه الشقة التي تقع في الطابق الثاني من فيلّا أجروها فارغة من سكانها، مفروشة بأثاث رخيص وقليل، هي أيام ويتركونها، لكن متى بالضبط؟ يجهل الوقت والمدة، لكن يعلم المهمة؛ حماية هذا الكافر وحراسته حتى نسلمه للحكومة ماشيًا أو راقدًا. ظل في الشقة التي استخدم فيها غرفة وصالة فقط

بمنافعهما يومًا أو بعض يوم متجهزًا مع أبو نعمان وأبو هريرة لتسلم الذهبي. الأمر من أبو عبد الله أن أبو مصعب سيسلمه الأمانة ويغادره مع القادمين، بينما يكون الذهبي مسؤوليته في تلك الشقة المخبأ. لا قال له أطعمه واسقه، ولم يقل جوِّعه وعطِّشه. لم يأمر بأن أضيق عليه بوله فأمنعه الحركة حتى دخول الكنيف لقضاء الحاجة، ولم ينهَ عن ذلك، أو أن يدعه يتكلم فنحاوره ونناظره، نقيم عليه الحجة ونمتحنه ونمهله لاستتابته، لكن لو شاء الأمير لامتحنه بنفسه، لكن هذا الشيخ الذهبي لا توقف ولا تبين معه، فقد حكمنا عليه وقضي الأمر الذي فيه تستفتيان. لقد كفر، فقد بلغه بلاغنا فأباه وحاربه، إذن نكممه ونخرسه ولا نتبادل معه حرفًا ولا لفظًا. طيب، هل يظل مربوطًا مقيدًا مكممًا معصوبًا، أم أنه لا بأس من بعض العفو وبصيص من يُسر؟ كان مصطفى غازي أبو توبة هو أمير المجموعة، وهو حر فيما ينتهي إليه، لكن البط توفيق أبو هريرة كان أحدَّ منه حين لاحظ تردده، فقال:

ـ لنترك هذا الكافر مرميًّا كالكلب ينبح نفاقه وراء كمامته، ولا نشفق عليه أو نرق. ومتى كنا رحماء على الكفار! بل أشداء عليهم كما أمرنا الله سبحانه وتعالى.

انضم إليه صابر مختار أبو نعمان واثقًا في كلامه، وهو يمد قدميه لأخذ سِنة من نعاس، فقد كان دوره الأول في النوم بعد يقظة طوال الليل، انتظروا فيها قدوم المخطوف، ثم ساعات الفجر حين سيق المخطوف وقد تسلموه فألقوه في جبه، وعادوا إلى الصالة لشُرب ماء في هذا الحر وقد نسوا إحضار لوح ثلج معهم. صمم أبو توبة أن تبقى الشبابيك مغلقة، فلا قُلل تتندى ويبرد فيها الماء، ولا هواء يدخل فيرطب ويخفف. باب الشرفة المطلة على الشارع محكم الإغلاق بدرفتيه الخشبيتين، فلا يجب أن تظهر حركة وراء هذه النوافذ. صحيح أن الشقة تطل على الحديقة الخلفية للفيلَّا، وبينها وبين الشارع مسافة تمنع عن نوافذها العيون المتطفلة، ثم إن البنايات المحيطة لا ترتفع عن طابقين فلا تجرح حرمة الفيلَّا، ولا ترى حتى من السطوح المجاورة شيئًا داخل الفيلَّا، لكن الحذر واجب، والحذر نفسه هو ما جعل أبو نعمان يضيف متناعسًا:

ـ ثم لو فككنا قيوده، فقد يزعجنا بحركته، ثم من يعرف ماذا ستحرضه عليه نفسه السيئة إن وجد نفسه حر الحركة؟ ولو حررنا عينيه فسوف يتحقق من وجوهنا فيتبينها، ونحن لا نعرف مصيره حتى الآن، فقد نطلق سراحه، فإن استجوبوه أذاع لهم ملامحنا، أما لو تركناه يتكلم فسوف يصدع رؤوسنا وينتحب أو يخطب أو يستغيث ويستنجد؟

تدخَّل أبو هريرة وهو يزجر أمير المجموعة أبو توبة:

ـ لكنه على الأقل الآن يسمع، فإن ظننت أنك سوف تهديه وتُدخله الإسلام، فتفضَّل بنفسك حتى يتمكن أبو نعمان من النوم فألحق به.

كان البط توفيق يتساخف على مصطفى غازي، فلم يستسغ كثيرًا إمارته للسرية وقيادته للشقة، لكنها أوامر الأمير وليس علينا إلا السمع والطاعة. لكن ما حاك في صدره أباحه في اللهجة والإشاحة والإيماءة. كانوا محقين في توجسهما، فسكت مصطفى غازي متجاوزًا عن جحوظ حسد البط له. كف عن النطق والحركة جالسًا بظهره إلى باب الغرفة التي احتجزوا فيها الذهبي، بينما نزل البط إلى الحديقة حيث يتعسس ويتلصص ويأخذ دوره على الثغر. كانت نافذة غرفة المخطوف مغلقة بألواح خشب مسمرها وثبتها أبو هريرة وأبو نعمان قبيل الليل، وهي المتنفس الوحيد للغرفة، ولا يمكن لرجل في سن الذهبي وحالته أن يتمكن من زحزحتها لو فكر، وإن حاول فسوف يصدر ضجة تكفي لاقتحام الغرفة عليه وهدها فوق رأسه، ثم هو مقيد اليدين والساقين والقدمين فلا حول له ولا حركة. لكن هذا لم يمنع مصطفى أن يفتح قفل الباب كل

ساعة يطل ليتفقد ويطمئن، فيرى الرجل عاجزًا عن العودة إلى الحياة التي كان يعرفها، وربما للحياة أيًّا كانت صور معرفته بها. فمن فعل معصية ولو مرة واحدة، ولم يتب عن هذه المرة فهو مُصرٌّ عليها كافر، فما بالك بالذهبي وهو في المعاصي أستاذ، من الحكم بغير كتاب الله بمناصرة الطاغوت، والقسم على احترام دستور الكفر، مُصرًّا بلا تراجع، مصممًا بلا تردد، ومستمرًّا بلا توبة، فيحشر مع فرعون وهامان وقارون، ولعلنا نكون من نحشره اليوم أو غدًا. إعياء الرجل ومهانة رقدته وذبول هيئته لم يثر فيه عطفًا، بل أحس شفاء لغليل صدره، فكلما نجحوا في رمي الكافرين هذه الرمية، رفعوا شأن الإسلام الذي يبدو غريبًا في أرضه. كان إحساسه بالغربة عن هذا العالم هو أول ما جعله يلبي دعوة أبو سعد لما جاءته من صفوت الزيني أبو طلحة، جزاه الله عنا خيرًا وأكسبه من ثوابنا نصيبًا، فهو من تعرف عليه في المسجد وأحس سعيه للحقيقة الغائبة. كان في جمعية أنصار السنة المحمدية بين الدروس والعظات، وقراءة مجلة «التوحيد» التي تصدرها حتى حفظ ما فيها، لكنه لم يجد فيها إلا الكلام عملًا. كان ينتظر توزيع القوى العاملة له، حيث وظيفة منتظرة بدبلوم التجارة الذي يحمله. وجد نفسه تهفو إلى جماعة التبليغ والدعوة، حيث تعرف عليهم حين اعتكفوا في العشر الأواخر من شهر رمضان في جامع قريب، فاعتكف معهم، وأنعشت روحه ورضيت بهذا الليل القوام والنهار المرتل، ووجدهم موظفين وأطباء ومدرسين، تركوا أعمالهم وعائلاتهم للدعوة لله، فلم يخرج من اعتكافه إلا مصاحبًا لهم، ولم يجد فيما يقولون أبعد مما وجده في أنصار السنة، لكنهم أكثر حماسًا وإخلاصًا وحركة. كان يرتحل مع مجموعات التبليغ والدعوة أينما رحلوا، فزار كثيرًا من بلاد مصر، داخلًا جوامعها، مناديًا على الإسلام، واعظًا الناس، قائمًا معتكفًا في الجوامع. رأى المال وهو مجموع لسبيل الله، والإنفاق وهو ذاهب على أثمان الأطعمة والأشربة والتنقلات، فشعر نفسه قريبًا من الله بعيدًا عن خلقه. فلما صادف الزيني ذات مرة فحدثه عن الهجرة لله روى ظمأ غربته. وجدها إذن، هؤلاء قومي من أهلي وعشيرتي خلوا بالإسلام وتخلوا عنه، وها هم قوم يدعون له. أما التبليغ والدعوة، رغم حسن رفقتهم وإخلاص نيتهم، فلا يفعلون إلا تهيئة الأرواح وتذكير النفس وتزكية المسلم، ويرون في كل شخص يلتقونه فرصة متاحة للدعوة وسانحة للتبليغ. بينما ما نقله أبو طلحة أقوى وأشد إيغالًا وغورًا. إن جماعة المسلمين تعيد الإسلام إلى أهله، وتعود بي وكأنني في أيام الإسلام الأولى نقيم دولة الرسول. يملأني الأمير شكري مصطفى حين جلست بين يديه وتعلمت منه بعزة الإسلام وعظمة رسالته، ويرشق قلبي بسهم الحقيقة حين يقول إن وجود كيان إسلامي متجمع على نفسه خارج ضغوط الجاهلية هو هدف إسلامي شرطي لظهور الإسلام، تسعى إليه جماعة المسلمين من أول يوم، وذلك بتجميع الذرات الصالحة الضائعة هنا وهناك في مجرى النهر ثم القفز بهم قفزة رائعة خارج المجرى. إنها الطريق، وإنها بداية الحياة، وبداية الانطلاق حقًا. وهكذا الحل ـ حل الاعتزال ـ هو الحل الحق في جميع الحالات الفردية والجماعية، فقد جاء في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «هلاك أمتي على يد أغيلمة من قريش» فما المخرج من ذلك؟ قال: «لو أن الناس اعتزلوهم». انصرف عن وهم الوظيفة المنتظرة يا مصطفى يا غازي الذي صرت أبو توبة، وودع عائلتك غير آسف، وانتقل مهاجرًا مع الجماعة. عمل نجارًا حينًا لكسب الرزق في ورشة يملكها عضو مسلم، لكنه لم يجد في نفسه همة النجارة، ولا حتى أعمال التشييد، رغم حلاوة ندائاته من زملائه من فوق السقالات ومن وراء دوران منشار الخشب: يا أبو توبة. هو الذي اختار كنيته، فقد كان يدعو الله أن تكون توبته عما ارتكب

واقترف جهلًا في زمن جاهليته، وكان الذنب ينهشه حتى ألصق التوبة باسمه. ثم تشارك مع أخين في شقة بغرفتين في إمبابة: أحدهما كان طالبًا في كلية الهندسة، هجر والده الأستاذ في كلية الطب وأهله، وانضم إلى جماعة المسلمين، فكنت فخورًا به ومتقويًا بتضحيته وهجرته لعز بيته ورفعة تعليمه، وصرت أراه قدوة في إسلامه. وكان الآخر طالبًا في تربية طنطا، ودع هذا التعليم الجاهل كما فعل طالب الهندسة. كنا نذاكر كل ليلة كراسة للمهدي أبو سعد بعد انتهائنا من صلاة العشاء وقيام الليل، نحفظها ونتلقاها نورًا يسري بيننا، ونغلي حماسة ونحن نقرأ، نهز رؤوسنا كأننا نتلو قرآنًا، وتطرب أرواحنا استحسانًا، فالمهدي يضرب ويكشف ويعري:

أصبحت قولة لا إله إلا الله، أو فعل شعيرة من شعائر الإسلام، ليست برهانًا على أن صاحبها مسلم، ولا تدل عليه، ولا تنتقل خطوة واحدة عن كونها ادعاء للإسلام، يحتاج إلى بينة إن إثباتًا أو نفيًا.

يا سلام على الحق البائن البتار، صحيح هوَّ أي حد معدي يقولك لا إله إلا الله يبقى مسلمًا؟! هي سهلة هكذا؟ إنهم يتخفون بكفرهم وفسقهم وراء قولة يرددونها، إنما نحن المسلمون، نواصل الحماسة مع القراءة:

لا يستوفي أيٌّ من هؤلاء حق كلمة لا إله إلا الله ولا حق الإسلام، بمجرد أن يرددوا مقرين الشهادة مع بقائه في هذا المجتمع، وهذا أمر لا ينكره إلا كذاب.

وما أكثر مسلمات الكذابين السائرين المشائين بيننا.

ومن الممكن أن يقولها أحدهم وهو بعد يحاربها (نعم يحارب لا إله إلا الله) باشتراكه العملي والفعلي في سن قوانين ضد الشريعة، كما تفعل الهيئات التشريعية ومجلس الشعب والاتحاد الاشتراكي (الذي صار الآن منابر وأحزابًا اصطنعها السادات لنفسه وعلى عينه)، أو يشارك في تنفيذ هذه القوانين بالقوة، مثل الجيش أو البوليس أو كالمخابرات بشتى هيئاتها.

بخ بخ يا أميرنا وعزنا، هم محاربون لله ولا إله إلا الله، إن كانوا في جيش أو بوليس أو مخابرات، بل ويزيدها نورًا على نور أبو سعد فيضيف على هؤلاء المحاربين لله محاربين آخرين كثر:

ومن الممكن أن يقول أحدهم لا إله إلا الله ويحاربها في ذات الوقت، مثل أكثر أفراد الشعب الذين يدلون بأصواتهم مؤيدين هاتفين وداعين ومغنين وناظمين وناشرين، أو يعادونها بالفتاوى الافترائية والخطب المنبرية، ويتولى كبر هؤلاء رجال الأزهر وعلى رأسهم شيخه. وكل هذا أمر ملموس مشاهد لكل ذي عينين. وحصيلة رأينا في النهاية أن من ينسب نفسه إلى الإسلام في هذه المجتمعات بقولة أو شعيرة لا نضمن منه استيفاء حقوق لا إله إلا الله.

لكن من يستوفي يا مهدي؟ نردد لاهجين فخورين:

إن الانتساب إلى الجماعة الإسلامية أو الدولة الإسلامية شرط يقيني لازم في إيجاب الحكم بالإسلام. أما ادعاء الإسلام بقولة أو شعيرة فليس دالًّا على الإسلام في شيء.

كنت أمضي بين الناس تطول رأسي سمائي، فأنا بينهم مسلم وحيد، يركب تروسيكل، ويحمل صندوقًا من الكتب الإسلامية بت أرتزق بها علمًا ومالًا، أشتريها من مكتبات ودور الطباعة بحي الأزهر والحسين، ثم أنطلق إلى ضواحٍ كالهرم وعين شمس وجسر السويس وعزبة النخل، وتلك الشوارع التي صنعتها بيوت امتدت على أطراف المزارع وعلى حواف الترع في حواف القاهرة، فأبيع الكتب لمكتبات إسلامية أنشأتها حديثًا الجماعات الإسلامية عبر أفراد منها،

وأتقاضى فارقًا في السعر ضئيلًا لكن حلالًا، وأطوف في صلوات الجُمع حيث لا أصليها خلف إمام، فقد أسقطها عنا المهدي حتى تعود دولة الإسلام، فكلها مساجد ضرار، لكن لا مانع من فرش الحصر أمامها، ووضع الكتب عليها مع زجاجات من العطور الإسلامية والسواك (كنت أرفض بيع شرائط الكاسيت حتى للشيخ كشك، فهؤلاء دعاة تحت ظل الدولة ويحركهم حبل السلطان وحيل الشيطان)، فأبيع للمصلين الذين يأمنون للحيتي وجلبابي ويتعطشون لنيل معارف دينهم. وكم طلبت أن نطبع كراسات المهدي لبيعها، لكن رفضًا قابلني ومنعًا صدني، فآمنت أن المهدي يخص جماعته المؤمنة بالعلم قبل أن يذيعه للعوام السائبة.
قام أبو نعمان من نومته، وعاد أبو هريرة من نوبته وقد قفز بفكرته في وجوهنا:
ـ ماذا لو بال هذا الكافر على الفراش؟
أومأ أبو نعمان مطرقًا، بينما أكمل أبو هريرة غاضبًا وقد بانت قلة نومه شحوبًا في وجهه وسوادًا تحت عينيه:
ـ هكذا ينجس علينا السرير.
استقر ثلاثتهم على جذبه إلى دورة المياه، ففعلوا متنافسين في مغالظته ومباغضته، وإن ارتاحوا لأنه لم يتبول على روحه. ولما أعادوه إلى الفراش وأغلقوا الباب عليه، وقد بدا أخف وأنحل وأنشف مما كان عند تسلمه فجرًا، تبادلوا الأدوار، فنام أبو هريرة وحرس الغرفة أبو نعمان ونزل إلى الحديقة أبو توبة.
كان مصطفى قد تزوج من شابة في الجماعة، ابنة صالحة لأخ من إخوة المسلمين، فالزواج بين الجماعة واجب وفضل. أنجب ابنة سماها «توبة»، فبات أبو توبة اسمًا وفعلًا. كانت مضغة لحم تركها في حضن أمها منذ أعلمه أبو عبد الله بالعملية، وانتقل من اجتماع شقة نصر الدين إلى شقة الفيلّا هذه. وقد ألجم أبو عبد الله رغبة مصطفى أن يشارك في الخطف، وبشره بأن مهمته أصعب ولا يتصدى لها إلا الأشداء، وأنه يعول عليه أكثر من أبو هريرة وأبو نعمان في تلك الغزوة يا مصطفى يا غازي. ضحكا عندما استخدم اسمه لا كنيته، وحين أوحى من اسمه بفعله، غازي الغازي فعلًا. الحرارة الشديدة في خارج الفيلّا وبين حديقتها أكثر احتمالًا من داخل الشقة، لكنه يشعر بتيبس عضلاته وتنميل أطرافه، فهو لم ينم منذ ليلتين، وها هو الليل جثم حتى بلعه، فنام على حشائش الحديقة. صحا مع نزول الندى على وجهه، لزجًا كل جسمه، ومبلولة ملابسه. فزع أنه لم يستيقظ على أذان الفجر رغم قرب ميكروفون أحد الجوامع من المنطقة. لعب القلق في ملعب قلبه، فانتفض وجرى صاعدًا إلى الشقة، طرق الباب ففتح له بعد لحظات طارق عبد العليم ببنطلونه وقميصه ولحية نابتة وعينين جاحظتين ورعشة خفيفة تسري في شفته السفلى وعند فكيه، فاجأه حضوره واقتلعه من أرضه فورًا.
ـ قالوا لي إنك تحرس الحديقة.
ـ نعم.
ـ حسنًا، أنت تملك مفتاح باب الغرفة.
ـ نعم.
أخرج طارق طبنجة من حزامه:
ـ هاتِ المفتاح.
مد يده مصطفى ليأخذ منه الطبنجة:

ـ هاتِ الطبنجة.
رد طارق مستنكرًا:
ـ لماذا؟!
أجاب بحدة، بينما كان رأسا صابر والبط يظهران فوق كتفي طارق:
ـ لأنني المسؤول هنا، ولو جئت بأمر أن نقتل الذهبي، يبقى أنا الذي يجب أن يقتله.
أرخى طارق أصابعه المشدودة على الطبنجة، فشدها منه مصطفى، لكنه حين قبض عليها باغته طارق:
ـ الأمير هو من كلفني بقتله وأن أُحسن القتلة.
يبدو أن طارق استمتع باللحظة تمامًا، جذب الطبنجة مرة أخرى من يد مصطفى المستسلم، ثم سبقه وأدار المفتاح في قفل الغرفة. ضرب طارق الباب بقدمه فانفرجت درفتاه، انتفض الشيخ فزعًا، مد طارق يده ونزع عصابة العين عن وجه الذهبي، ورفع طبنجته ودس فوهتها في عين الشيخ اليسرى. لم يكن الذهبي قد قدر على فتح عينيه ليرى ويتحقق مما يرى حتى انغلقت إحداهما بفوهة الطبنجة، فأرعشت روحه، وسرت الحمى في بدنه، وتثلجت ملامح وجهه الشاحب الممصوص دمه، وجبينه المتعرق، وبلل كمامة فمه يتحول قطرات رذاذ، إنه يتمتم بدعاء أو يسأل سؤالًا أو يتلو قرآنًا أو يوصي شيئًا أو يودع عياله أو يردد شهادة أو يصرخ أو يصيح.
فجأة دس طارق يده اليسرى في بنطلونه، وأخرج من جيبه بأصابع يضربها التشنج حبة بطاطس كبيرة بنتوءاتها وقشرتها، كان قد حشرها في جيبه فنفخته، رفعها بكفه اليسرى ودفسها في العين اليسرى للشيخ الذهبي الذاهل، وقد أغمض اليمنى ترتجف رموشها وتنبض تحت جفنها المغلق، بينما صوت طارق عبد العليم يطلق رذاذه في وجه الذهبي، وهو يدس فوهة المسدس في حبة البطاطس التي أسندها على عين الذهبي وعظمة وجنته، ثم غرسها أكثر بضغط ماسورة المسدس عليها. كان يريد أن تكتم حبة البطاطس صوت دوي الرصاصة، لكنه هو من دوى صوته عاليًا يصم أذني الذهبي بصراخ حنجرته، بدا صوت طارق مهووسًا وهو يصرخ عريضًا جهوريًّا خطيبًا مستقويًا مستعرضًا مستأسدًا متفاخمًا متفاخرًا منافخًا:
ـ سأطلق الرصاصة في عينك اليسرى، العين التي يسكن فيها الشيطان.

(9)
فارت أعصابه، ولو كان أحد أمامه الآن في غرفة مكتبه لربما كان رماه من الشباك. أحس هو نفسه شعور ملاكم ألقى به منافسه من فوق الحلبة. صرخ العقيد عادل مجاهد في الشخص الذي يكلمه في التلفون:
ـ نعم؟! هرب منهم! فرافيرو مثلًا ولَّا همَّ مجموعة مخبرين عجزة فشلة؟!
بح صوته، وكاد أن يهرس لسانه تحت ضروسه الضاغطة، لم يصدق أن هاشم بكري زاغ من مراقبيه بعد خروجه من مبنى لاظوغلي، ضرب يدًا بيد، وأزاح أوراقًا وملفات، وخبط على سطح المكتب، ورزع درجًا، وركل مقعدًا، وشتم كل ما صادفه باله من أشخاص وأسماء. كان يعوِّل على خيط يمسكه من وراء هاشم، بل على الحبل الذي يلفه على رقبتهم ويضبطهم قبل أن ينفذوا تهديدهم بقتل الشيخ الذهبي. نعم يمكن أن يفعلوها، يعرفهم، بل يحفظهم جيدًا. يعمل في

النشاط الديني منذ عشر سنوات حتى صار مسؤوله في أمن الدولة، وها هي الكتب والمراجع والمجلدات التي أخذ يذاكرها حتى يفهم هؤلاء الذين يراقبهم ويسعى وراءهم، أصبح خبيرًا في كتب الحديث من البخاري للألباني ومن العسقلاني للسيد سابق، والتفسير من الطبري والقرطبي والزمخشري (وقد جمع كل الإصدارات الشهرية التي تصدرها دار الشعب لتفاسيرهم)، حتى تفسير عصري للقرآن الكريم لمصطفى محمود، وقرأ كتاب سيد قطب «معالم في الطريق» عشرين مرة، ولم يكمل قراءة «في ظلال القرآن»، ثم صار خبيرًا في جماعة الإخوان كأنه عضو فيها، وضليعًا في كل الجماعات الإسلامية، يحفظها كأنها منهج البلاغة والنصوص في الثانوية العامة. بات يشغل إذاعة القرآن الكريم في سيارته أكثر، وفي المكتب طوال الوقت، ويضع المصحف والمصلية في غرفة مكتبه، ويصلي جماعة مع ضباط بدأوا ينتظمون في الصلاة (كل فريق النشاط الديني في أمن الدولة يصلي ويصوم، وكلهم تقريبًا حجوا مع بعثة وزارة الداخلية السنوية للحج). أكان تأكيدًا أننا متدينون مؤمنون أمام هؤلاء الذين يأتون أمامنا تحت الشبهة أو التهمة أو الرقابة فيكفروننا ويعتبروننا حربًا على الله ودينه ورسوله، أم كان استغفارًا منا واعتذارًا لله خشية أن يكون ما تقوله هذه الجماعات حقيقة الإسلام، ونحن نجهله، فنكون قد تورطنا عن غير علم أو غير قصد؟ لا، لا يمكن، ثم ماذا أفعل لهم أصلًا؟ أولًا، أن أحمي بلدي وأتبع أوامر رئيسي، أليس هؤلاء أولي الأمر؟ أليس هذا هو السمع والطاعة؟ ألم يأتِ في البخاري ومسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن كَرِه من أميره شيئًا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شِبرًا مات مِيتة جاهلية»؟ (هل عرفتم أننا نعرف ونحفظ مثلكم، ولستم وحدكم من تقرأون البخاري ومسلم يا أولاد الهرمة؟). ثانيًا، أن أراقب هذه الجماعات ولا أتدخل فيها ولا أقترب منها إلا عندما تتطرف، طيب ما أنا (لا لست أنا، بل نحن، هذه دولة لها كبير، وهذه داخلية لها وزير، وهذه إدارة لها مدير) ماشي على التعليمات أن نتركهم لحالهم، عيال تربي لحاها وتخطب وتجند، وتكون جماعات، وتشكل جمعيات، وتسيطر وتهيمن وتُكفر وتُزندق وتجلد وتحرق وتكسر، وتتهم خلق الله بالردة، هي حرة، اتركوهم، لا تتدخلوا فلا نتدخل، فقط نتابع، نعرف، نجمع معلومات، نضع تقارير، نعمل تحريات، نكبر ملفات، ثم نعمل فيها من بنها.

استدعى العقيد مجاهد مساعديه فملأوا المكتب بقلقهم، واستخدموا كل أجهزة تلفونات المكتب الثلاثة، وكاد يجلس موظف السويتش معهم، ثم انفتح الباب وانغلق عدة مرات كل عدة دقائق لدخول وخروج، ثم أمرهم بتركه مفتوحًا، ثم أقبل آخرون بأخبار وبلاغات وظل بعضهم واقفًا على الباب، ثم انتشر دخان السجائر وتكومت أعقابها، وانفتح رغم التكييف الشباكان، واشتغلت مروحة السقف، ولا شيء في حصيلة النهار، أمامه قائمة بالشقق التي وصلوا إلى عناوينها يؤمها أعضاء الجماعة، وتقرير عن آخر مستجدات التحقيق مع الولد سائق السيارة المازدا، وثرثرة صحفيين ممن التقوا بأعضاء الجماعة سابقًا، وملفات شكري مصطفى ورجاله أمامه مفتوحة ومقلوبة وموزعة صفحاتها بين الضباط، طالبًا منهم سرعة المراجعة وتنبه القراءة والتقاط الخيوط وتشبيك الدوائر. كلما قرأ أول سطر في أول صفحة في أي تقرير في ملف شكري وجد تعريفه بأنه عضو جماعة الإخوان المسلمين، عرف أن مرشد الإخوان عمر التلمساني صديق النبوي إسماعيل نائب الوزير يلاعب صديقه من صباحية ربنا ويراوغه كما يصنع ويبرع دومًا منذ أخرجه الرئيس السادات من السجون ووضعه على خشبة المسرح. كان الرئيس مشغولًا جدًّا بفتح الستائر حتى تبدأ المسرحية، فلما لم يقدر الإخوان على ملء الخشبة

سريعًا سارع بجلب ممثلين كومبارس من الكواليس، فاحتلوا الخشبة، حتى إن الإخوان تعجلوا إسدال الستار. ها هو محمد عثمان إسماعيل مستشار الرئيس ريجسير الإسلاميين يحمل تكليف السادات بصناعة الجماعات الإسلامية، فأول حاجة يفعلها ابن الذين أن يسرع إلى عمر التلمساني في نفس الليلة ويطلب لقاءه، وبعد نصف ساعة كان عمر التلمساني يزوره في بيته (غالبًا صلى المغرب معه. أيظن عثمان أننا لا نتابع التلمساني؟ وأيظن التلمساني أننا لا نعرف خطوات عثمان؟ نعرف نعم، أما ما نفعل بما نعرفه، فهذا ليس دورنا، بل ننتظر الأوامر ممن يتلقون التعليمات ممن له وحده الأمر والنهي). صد نفسه رد مرشد الإخوان لما عرض عليه عثمان أن تتولى الإخوان تشكيل وتكوين جماعات إسلامية لا تحمل اسم الإخوان ولا مصحفها وسيفيها في الجامعات لمواجهة الماركسيين والشيوعيين والعيال بتوع قميص عبد الناصر:

- أنور السادات يريد أن يستغلنا.

لما قال التلمساني هذا الرد المتغطرس في وجهه، هرع عثمان إسماعيل بلهفة رجل مستثار لا يتمالك ضبط هياجه:

- سنفترض أن الرئيس يريد استغلال الإخوان، لماذا لا تستغلونه أنتم لمصلحة الدعوة الإسلامية؟

خرج عثمان غاضبًا متحديًا مصممًا ليؤسس جماعاته، فاكر إنه يفعلها من ورائنا أو من غير علمنا، بل إنه ظل يجهل حتى وقت قريب أن أشرف مروان كان يشرف بتكليف من الرئيس شخصيًّا على تكوين جماعات إسلامية أخرى غير تلك التي يمسك عثمان بحبال عرائسها، بل وحتى حين أزيح مروان من منصبه كمدير لمكتب الرئيس، ظل في تلك المهمة الإسلامية يشرف عليها خلال الوقت المتبقي له بين لعب الورق ورشف الشيفاز. كما انفرد توفيق عويضة وزير الأوقاف الأسبق بتكليف مباشر من الرئيس بإنشاء جماعات إسلامية هو الآخر (هي جت عليه). أهو هذا العويضة، الضابط صغير الرتبة ضئيل المرتبة في تنظيم الضباط الأحرار، هو من كلَّفه عبد الناصر بتأسيس «أُسر ناصر» في الجامعاتٍ كي تحمل اسمه وأفكاره وبرنامجه، وتحفظ خطبه وتقتدي خطواته، يقوم الرئيس السادات يكلِّفه بتأسيس الجماعات الإسلامية التي تحارب عبد الناصر وتدوس صورته بالنعال في الجامعة، أهو الوحي أم تلك العبقرية يا ريس؟ لكن عويضة عليه العوض، فالوزارة أداست قدمه في الوحل. ثم إن أشرف مروان ظن أنه عمل ما عليه وترك الابن الذي رباه يكبر ويعتمد على نفسه، وإن كانت أصابعه تدير الزمبلك وتملأه متى أراد. حتى عثمان إسماعيل فقد صار يمشي وراء الجماعات الإسلامية لا أمامها، ويتمسح بها بعد أن كبرت عليه وانفصل أمراؤها عنه، بل عادوه بعد أن استضألوه فاستعبطوه واستهيفوه، ولم يبقَ له إلا بضع جماعات في أسيوط تؤنس شعوره وتنفخ غروره. لا يفهم كيف يلجأ النبوي إسماعيل إلى هذا الرجل ويتصل به كي يتوسط! بالذمة هل هذا كلام؟ أهو في النهاية كما جاء في تقرير أمن الدولة في أسيوط، استدعى شقيق شكري مصطفى وهو الموظف عنده في المحافظة وعمل فيها وسيطًا، كما فعل التلمساني الشرير الدمث، مجرد بيان تافه وزعه على الصحف والوكالات، أهذا آخره؟ إنه الوحيد الذي يمكنه أن يقدم شيئًا. معجب أنا بالتلمساني، فهو يلعب على كل الحبال، ويقفز عليها بخفة وقورة، ويلم عيال الجماعات مثل أبو الفتوح والعريان والجزار من كلية الطب تحت إبطيه، ويضمهم للإخوان دون أن يعرف زملاؤهم من أعضاء الجماعة الإسلامية التي أنشأها ثلاثتهم ضمن جماعات عثمان إسماعيل للمسلمين الأوائل. لكن التلمساني يلعب لعبة الضابط الطيب والضابط الشرير بالمعكوس، إنه يريد للدولة أن تتركه حرًّا بجماعته راضية بها وبه وبما يفعلانه، بل تعاونهما الدولة وتساعدهما باعتبار الإخوان الجماعة

الطيبة، وإلا فإن الدولة ستضطر للتعامل مع الجماعات الشريرة الطائشة الحمقاء العنيفة. اتركوني أتصرف وسأكفيكم الأشرار المزعجين، أو لا تواجهوني أنا، فجماعتي هي الطيبة التي يمكن التفاهم معها، فمن مصلحتكم أن أجذب الشباب وأضمهم لي بدلًا من أن يجروا على الأشرار الذين لا يمكن التفاوض معهم ويدهم على الزناد دومًا.

كل ما يخشاه العقيد عادل مجاهد الآن أن يضيع الشيخ الذهبي في الرجلين. تقدم أحد الضباط له بملف من قصاصات الصحف بمختلف الأحجام ملصقة على ورق الأرشيف، ثم قال:

- دوَّرنا يا أفندم كما أمرت، ولم نجد أي شيء.

- أي شيء.

- نعم، ولا مقالًا ولا دراسة ولا حتى حوارًا.

تعجب مجاهد أمام ملف ضخم لكل ما نشرته الصحف عن جماعة التكفير والهجرة، هل معقول أنه لا يضم مقال الشيخ الذهبي الذي هاجم فيه جماعة التكفير والهجرة كما سمع من ضباطه؟ فكل ساعة، حين يسألهم عن تقديرهم لسبب اختيار الذهبي للخطف، يقولون لأنه هاجمهم في الصحف، لأنه كتب مقالات ضدهم وهاجمهم بعنف.

- معقولة جماعة تخطف شيخًا وتهدد بقتله لأنه نشر مقالًا عنها في جورنال؟! لا أرى فيما تقولونه أي منطق.

تنهد وأضاف:

- ومع ذلك ماشي نفرض، أين هذا المقال؟

بحثوا في أرشيف الإدارة التي يجمعون فيه ملفات الصحف، ثم هاتفوا الصحف الثلاث وطالبوها بالبحث في أرشيفاتها وإبلاغهم إن وجدوا مع إرسال المقال أو المقالات فورًا، ثم تحول الأمر مع آخر النهار إلى أنهم أحضروا الأرشيفات الجاهزة الكاملة في كل الصحف، وكانت النتيجة هذه الجملة التي قالها الضابط لرئيسه وهو يسلمه ملف الأرشيف:

- لم يكتب الشيخ الذهبي حرفًا واحدًا في الصحف عن جماعة التكفير والهجرة.

صاح فيهم العقيد مجاهد:

- عايز أعرف آخر تطورات التحقيق مع سائق المازدا، وأقوال عائلة الذهبي.

ثم التفت:

- هل أحضروا طلال الأنصاري من السجن؟

- في الطريق.

أشعل سيجارة، وجلس يرقب الليل الذي حل على سماء تظهر خجلة من وراء الشباك. لماذا أقدم شكري على هذه الخطوة المختلة؟ هل ينتحر هذا المجنون؟ هل وصلت به ثقته في نفسه حد إشعال النار في جماعته معتقدًا أنها ستنجو من الحريق؟ لم تمتد يد الدولة له بأي أذى، بل كلها حاجات كقرص الأذن، أو ربما أقل، مجرد تحديقة عين، حتى لما زودها شكري مصطفى وأطلق عياله يعتدون على المنشقين الذين هددوا جماعته بالتفكك، لم نفعل نحن شيئًا، المباحث العامة اشتغلت شغلها، فهناك بلاغات من أهالي وشهود ووقائع وأدلة، فقبضت وقدمت إلى المحكمة، وتكررت الحوادث فاعتقلت. لكن أنا كنشاط ديني ماذا فعلت؟ طلبت من شكري يزورني ويقابلني في المكتب، وجاء، دخل الوزارة معززًا مكرمًا بأم جلابيته الزرقاء وعمامته ولحيته الكثة وبلغته في رجله، وبعينيه المرفوعتين مع عنقه إلى أعلى كأنه يحدثنا من منبر

سيدنا النبي، ماشي يا عم الأمير، جلس هنا في هذا المقعد مرة واثنتين، وقلت له متوددًا ومتقربًا وكأنني أتقدم لأطلب يد بنت أخته:
ـ يا شكري، نحن ساكتون، ولم نأتِ ناحيتك، فلماذا تستفز الدولة؟ ما أنت كنت ماشي كويس.
ترفَّع عن أن يجيب محدقًا في عيني، منتظرًا مني أن أخاف أو أتصرف غاضبًا انطلاقًا من نظرات الاحتقار التي يصوبها في وجهي. تمالكت أعصابي وقلت فوت عليه يا عدول خناقة يريدها، ما هو يعلم جيدًا أنني لو كنت ناوي أقبض عليه كنت فعلت ولو كنت قدها كنت عملتها.
ـ أنا مهمتي هنا يا أبو سعد (قلت أدخل له من حتة طرية، وأدلك غدة غروره فأخطب وده بمخاطبته بكنيته) مراقبة التطرف الديني وليس النشاط الديني، وإنت نزلت من خط ورايح على الخط الثاني.
ـ قصدك التطرف الديني.
شكره على تواضعه بالرد عليه وهو يضطجع ويتنحنح ويطلع ويرجع برأسه وصدره، فأجاب على شكري رافعًا حرارة كلامه قليلًا:
ـ ما هو تطلع جبل، وتدخل مغارات، فاكر إنك في غار حراء ولا ثور، وتهاجر أو تقعد، تعمل فيها أهل كهف وتجيب كلبًا باسطًا ذراعيه بالوصيد، تلم شبابًا حولك، وابن أختك على صاحبك على أخو صاحبك على رجل يجر عائلته وراءك، تطلع عيالًا من المدرسة وتشغل دكاترة باعة عسل، أنت حر وهنيئًا لك بأحبائك، لكن تقرب من الدولة تتعب، يا سيدي نحن كفار، وماله، الله يسامحك، لا أحد جاء ناحيتك ولا زعَّلك، لكن تبدأ تلم سلاحًا وتهاجم المنشقين عنك، وتحاولون أن تقتلوهم، هنا بقى يا شيخ تحرجون الدولة وتتحدون سلطتها، وساعتها تفتح لك الدولة دفاترها، وتأخذ بالها فجأة من أن هناك قانونًا، وفي القانون مواد، وفي المواد بنود ألف وباء وجيم تمنع وتحظر، فتتهمك بأنك جماعة سرية أنشئت على غير القانون.
قهقه شكري مصطفى وقد وضع فخذًا تحت فخذ وأخرج سواكه يلاعب به لثته وسنيه:
ـ ألن تحلق شنبك يا عادل؟
هكذا عادل بدون أي ألقاب، مستفزًّا أعصابه ومستعرضًا تجرأه.
ـ من السُّنة أن تقص شاربك.
ـ ما أنا أخففه كما ترى.
تحسس شاربه الرفيع المرسوم فوق شفتيه، بينما تلقى كلمات شكري التالية:
ـ ثم أي جماعة سرية تتحدث عنها؟ أنا لست سرًّا ولا سرية ولن أكون، ولست انقلابيًّا ولن أكون، أنا أمامك هنا في وزارة الطاغوت مرتديًا جلبابي، وبلحيتي المطلوقة، وعمامتي الملفوفة، وأسير بها معلنًا في العلن وكل من معي بجلاليبهم وعماماتهم ولحاهم، فأي سرية هذه التي تزعمونها؟
قام موجهًا إصبعه في وجهي:
ـ شُف يا أخ عادل.
ممتاز، أعاد الاحترام وإن كان قد نزع الرتبة، لكن على الأقل وضع لقبًا، ثم أخ هذه تعني اعترافه بإسلامي على الأقل.
ـ سترى بنفسك وأنت في مكتبك هذا شكري مصطفى وهو يرث الأرض ومن عليها.

رد على الغرور بالتهكم:
ـ على اعتبار أن شكري مصطفى نجل صاحب الأرض!
لم يسمع عبارة عادل ولا أعارها اهتمامًا، وأكمل بصلافة:
ـ سأرث الأرض ومن عليها، وهذه الجماعة التي تهددها مستمرة وقادرة على عمل أي شيء.
ضحك عادل مجاهد، فأسوأ ما يفعله شكري مصطفى هو أن يظن أن الشويتين دول سوف يخيلان عليه، هل سيعمل لي فيها كتاكيت وقرش براني ولا مخروم بتاع عبد الفتاح القصري.
ـ حيلك حيلك يا شكري، لا تضايق نفسك واهدأ، أنا أناقشك ناصحًا لمصلحتك، وأنت افعل ما تشاء.
كان عادل مجاهد عبد المأمور تمامًا، فكل ما يسعى إليه مع هذا المختل المختال هو تصفير المشاكل حتى يستمر الوضع كما هو مرسوم له، الإخوان متروكون مطلوقون في البلد من فوق إلى تحت، والجماعات الإسلامية سارحة في الجامعات وبين الطلبة والشباب، يأكلون في مرعى اليسار وحقول الناصريين كالجراد، ولكن ممنوع على الجراد الحوم على الحمى والطيران فوق قصر عابدين، ومحظور على قطعان الإخوان السائبة في مراعي الحكم، تدخل وزارات، تجند مسؤولين، ماشي، لكن ليس لها أن تقترب من الجيش والشرطة. الإخوان فعلًا أذكى وأشر، فهم يبتعدون عن هاتين المؤسستين ولو في الظاهر، ومن فيهما منهم فهو مستتر مخفي. أما معاتيه التكفير والهجرة وصالح سرية أو الجماعات الإسلامية، أول حاجة عملوها أن ضموا أو انضم إليهم ضباط من هاتين المؤسستين، أليس الولد طارق عبد العليم، الأخ الرائد، هو من رمى نفسه في أحضان شكري مصطفى؟ أيظنان معًا أننا نجهل هذه الحقيقة؟ أأعميان هما؟
انتشله الخبر من تأمله في ملف شكري مصطفى وتقليب أوراقه، سمع ضابطًا يدخل فينادي عليه:
ـ مجاهد بك.
حين التفت وجد الرائد عبد الهادي وهو باش الوجه مقبل عليه من الباب حتى المكتب في اندفاعة واحدة:
ـ الولد اتصل.
ـ أي ولد؟
ـ هاشم بكري.
قام من جلسته منتفضًا، وقبض بكفه على سماعة التلفون بجواره، ورفعها وهو يرد على مكالمة لم تأتِه، سمع صفارة وطنينًا، بينما كان عبد الهادي مستغربًا رد فعله، واصل ليصحح موقف مديره ويرفع عنه حرجه:
ـ كلمني من تلفون في الشارع.
كان مجاهد لحظتها قد انتبه إلى اللامعنى في إمساكه بسماعة التلفون، فعمل فيها ناويًا على الاتصال بأحد ما، فظلت معلقة بين كتفه وأذنه وهو يواصل الاستماع إلى عبد الهادي:
ـ قال لي إن شكري مصطفى سيرسل الصبح مندوبًا عنه لإبلاغ رده.
أحسها مجاهد مراوغة وتلكؤًا خبيثًا وتلكعًا ملاوعًا، فابتأس وندت منه همهمة تحمل بلغم شتائم، ثم رزع سماعة التلفون في قرصها مستغنيًا عن تمثيليته. عاد فجلس مدركًا أن عيون وجوه ضباطه تعلقت به، وقد أوقفت كل ما في أفواهها وبين أيديها:

- هذا المختل يضيع وقتًا فيما يظن أنه يكسبه!
- الموعد النهائي لتنفيذ تهديدهم بقتل الشيخ الذهبي لا يزال الساعة الثانية عشرة ظهر غد...
أضاف عبد الهادي محاولًا دهن مرهم على التهاب الأعصاب:
- لا يزال أمامنا وقت.
اتصال تلفوني برنين مرتفع، ترك أحدهم يرد عليه، كان اللواء النبوي يريد أن يكلمه، فتناول مجاهد السماعة، وسمع النبوي يطلب أن يجتمع هو بنفسه مع طلال الأنصاري عندما يحضر إليهم:
- هاته وتعالَ.
* * *
ضجر مجاهد بتدخلات النبوي مستغلًّا غياب أبو باشا أو متصورًا أن ضابط مباحث السكة الحديد أبرع منهم في فك ألغاز قضايا أمن الدولة، والتعامل مع الإسلاميين. لقد كان لقاء النبوي بشوكت التوني جلسة في دوار عمدة أو سرادق عزاء، وكان ناقصًا أن يقوم أحد ويوزع سجائر وهو يهتف «شكر الله سعيكم». شوكت التوني ينبض بحب هذه العيال، وكأنه يجد نفسه في شجاعتهم، ويستعيد أيامه القديمة كقتَّال قُتلة تحت راية الجهاد ضد الإنجليز، حين يرى شبابه في هؤلاء المعتوهين. إنه ينتقم من الدولة التي أهانته، ومن السادات الذي لم يرد اعتباره بوضعه على سدة منصب أو سؤدد سلطة، رغم أنه يوزع النفوذ على كارهي عبد الناصر كالحمص في المولد. إن كان عليه لطلب ملف شوكت التوني وأرسله إلى النبوي، لكن لا وقت لديه، فضلًا عن أن السيد نائب الوزير وزير فِعلي، فعليه أن يلتزم بتعليماته حتى يعود أبو باشا ويصطفيان مع بعضهما. المهم الآن بِركة الوحل التي نغطس فيها، الشيخ الذهبي مهدد فعلًا، وشكري يعجن ويعك، فهو أبله من البلاهة في تقدير السياسة، ومعه ابن أخته ماهر فيلسوف الغبرة، عيل صعيدي غشيم كخاله، ومغرور كخاله، وهما معًا أشد عنادًا من ثور الحظيرة. لما نشوف الأخ طلال الأنصاري ماذا يملك في جعبته، سأجلس معه قبل أن آخذه من يده إلى النبوي، هذا الشاب وراءه سر وأمامه سر، محكوم عليه بالإعدام مع زميليه صالح سرية وكارم الأناضولي، فإذا بحكم الإعدام ينفذ فيهما، بينما يخفف عنه ويتحول إلى مؤبد الأشغال الشاقة!
رمى ملفه أمامه وكان قد قرأه مائة مرة، إنه إخواني بايع حسن الهضيبي بعدما كان تلميذًا نجيبًا لعبده إسماعيل (أستاذ شكري مصطفى الأول) شقيق عبد الفتاح إسماعيل شريك سيد قطب في التنظيم والإعدام، الذي عرفه على زينب الغزالي التي سلمته للهضيبي هو وقلة من العيال طلبة الثانوي بالإسكندرية. موج غم وقرف طالع من عروس البحر، كأنها تترمل بسرعة، حتى إن مكتب أمن الدولة في الإسكندرية بات كأنه فرع لجماعة التبليغ والدعوة، فكمية الجماعات الإسلامية الموجودة والمنتشرة والمتمكنة هناك تجعل من تراب الإسكندرية الزعفران قطران. ماشي التعليمات نفك ونفتح ونترك العيال تهيص وتكون وتجند وتجن وتخبط وترزع وتنتشر وتطيح، لكن ليس إلى هذه الدرجة، ناقص يصلون الجمعة على بلاج ستانلي. ابتسم رغمًا عنه فقد اتصل بضابط النشاط الديني في الإسكندرية من أسبوع يخبره أنه سوف يصيف مع العائلة في آخر يوليو ومازحه:
- إوعى يا سيادة المقدم آجي إسكندرية أصيف ألاقي الجماعات الإسلامية نازلة ضرب بالخرزانة والكرباج في الناس القاعدة تحت الشماسي كما يفعلون في حفلات الغناء في الجامعة.

ـ لا يا ريس، يستجروا، أنا أخليهم يحجزولك بأنفسهم شاطئًا خاصًا، ويمنعون أي أحد من الوصول إلى شمسيتك، أنا مسيطر هنا يا ريس.

طبعًا لا مسيطر ولا نيلة، والإسكندرية تصدِّر له كل يوم مصيبة وجماعة وإرهابًا، وها هو طلال الأنصاري وعشرات غيره جرادك يا إسكندرية، هذا الإخواني الغامض الذي بايع الهضيبي كأول شباب الإسكندرية ولاء وانتماء للجماعة، ويؤم بيت المرشد في القاهرة مرتين في الشهر، ثم يطلب منه المرشد التواصل مع زينب الغزالي فقط، ثم تعرفه شمطاء الدعوة بنت الكذابة على صالح سرية الفلسطيني الموظف بالجامعة العربية الذي يقنعه أن الانقلاب هو الطريق الوحيد للحكم الإسلامي، وينضم إلى تنظيمه، ويقول الأنصاري:

ـ لكنني إخواني بايعت فضيلة المرشد!

يرد سرية:

ـ وأنا على العهد، وقد بايعت المرشد الهضيبي، وإن بيعة كلينا للمرشد مستمرة، لكن العلاقة به من خلالي أنا فقط.

جوامع الإسكندرية التي صارت مزارع للإخوان والجماعات الإسلامية تشهد تجنيد طلال الذي صار طالبًا في كلية الهندسة (ومدرجات الهندسة كانت مفارخ للإخوان والجماعات أيضًا)، وانضمامه لصالح سرية في عملية مجنونة لا ينفذها عيال بريالة أو ناس شاربة مخدرات. كانت الخطة خطف الرئيس السادات وإعلان الحكم الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الكلية الفنية العسكرية بمعاونة من طلابها الإسلاميين نبهاء البلهاء، والخروج من الكلية بأسلحتها ودباباتها وطلابها وضباطها لتنفيذ الانقلاب. هذا الخطل الخرائي وجد من يخططه ويتحمس له ويقتل في سبيله! طبعًا فشلت وسقط قتلى وقبض عليهم جميعًا وحوكموا وحكم عليهم بالإعدام، إلا أن الولد طلال اللعين نفد بجلده من عقوبة الإعدام! لقد أعدمت الدولة سرية والأناضولي، لكنها خففت الحكم على الأنصاري المتهم الثاني في القضية، ونشلته من الإعدام للمؤبد. كيف نفد من حبل المشنقة الذي التف حول عنقي صاحبيه؟ كيف ينجو القاتل بقتلته؟

منه لله نجيب محفوظ وعادل إمام.

قال أبوه شاعر وفنان قال، وكل زميل وصديق لوالده أخذ يبحث عن واسطة للرئيس كي يتدخل ويخفف عنه الحكم. أيفلح شعر أبيه عبد المنعم الأنصاري في إنقاذ رقبة ابنه من الدم الذي سفكه والجرائم التي ارتكبها؟ نعم أفلح، تخيل تكتب قصيدتين على مقهى فتنقذ ابنك القاتل. نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وثروت أباظة كتبوا مذكرة للرئيس رفقًا بالوالد ورأفة بالأب. وحتى عادل إمام، بهجت الأباصيري، تدخَّل وتوسَّط وألح من أجل الأستاذ الأنصاري. فالرئيس السادات بقلبه الطيب هو من وقع قرار العفو والتخفيف، والله لو كان أبوه أحمد شوقي أمير الشعراء ما كان ممكنًا أن أرحمه من الإعدام. لكن طلال نفسه في عز سجنه وبعدما أودى بزملائه الغفل في قضية الفنية العسكرية يتخلى عن جماعته، وينضم إلى شكري مصطفى، وينقل البيعة من مرشد الإخوان إلى شكري مصطفى. الغريب أن شكري يرى أن رفيقي الأنصاري وشريكيه في الجماعة المعدومين اثنان من الكفار غارا في داهية! هل يُكفر الأنصاري كما أميره الجديد أميره القديم؟ ما هذا القلب وذلك العقل الذي يكمن في جسد هذا الشاب الذي يخطو ناحية مكتبي، فيتلقاه الضباط مسلمين مبتسمين متعشمين في أن يقودنا إلى شيء ينقذ الذهبي من سيف زعيمه الجديد شكري مصطفى؟!

كان مجاهد قد اعتاد أن يجلس مع أولاد كلب يرونه كافرًا وطاغوتًا صغيرًا لطاغوت أكبر، فلم يشغل باله بنظرات طلال الأنصاري الجوفاء، ووجهه البارد، واستعلائه، باعتباره طبعًا المسلم الوحيد بروح والده الذي يجلس في الغرفة. لم يفهم مجاهد كيف لشاعر وشاعر يحبه نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وعادل إمام أن ينجب مريضًا بالتكفير والقتل يجلس أمامه الآن!
- طبعًا أنت عارف أن جماعتك خطفت الشيخ الذهبي.
حاول أن يندهش ويستنكر فلم تتحمل مرارة العقيد مجاهد:
- يا طلال، ستكذب وتلف وتدور، قم رح على زنزانتك واتفضل مع السلامة على سجنك! ولماذا سلامة؟ رح في ستين داهية!
أدرك أن صدره ضاق، وأن عصبيته زادت، وأنه يشعر بالجوع والفشل، وأن الوقت يمر، وأنه بدأ بداية في منتهى السوء، فنظر إلى الرائد عبد الهادي لعله يتدخل بسرعة ويلعب دور الضابط الطيب، لكنه أسرع فقاطع خاطره، وقرر أن يستمر في عصبيته، وليترك النبوي إسماعيل يداوي ويرطب ويربت، وبالمرة يكلمه عن إعجابه بشعر السيد الوالد. دعني أنا الآن أعرب عن إعجابي بإرهاب الابن:
- خطفوا الشيخ الذهبي وطلبوا إخراجك من السجن مقابل الإفراج عنه.
يبدو أن حظ هذا الأنصاري هو العمليات البلهاء الفاشلة، لا يمكن أن تكون نيته صافية رغم حل رقبته من حبل المشنقة، (كان ورقه قد أحيل إلى فضيلة المفتي، والمفتي أفتى، لكن المجحوم يقعي أمامي الآن).
سمع لغوًا من الأنصاري، ودخل معه إلى بيت جحا، حيث ممرات ملتفة ومتاهات تقود إلى متاهات. حاول الإسكندراني أن يذهب بي إلى البحر ويعيدني عطشان، فقررت أن أذهب به أنا إلى النبوي إسماعيل يستمتع بكذبه وادعائه الجهل عن العملية، بل وأنه يستنكرها ويستغربها ويستبعد أن تكون الجماعة وراءها (هكذا يريد أن يلبسنا طراطير بالمرة). قام من وراء المكتب يهم بمصاحبته، وكان قد طلب من الضباط أن يستمروا في مهامهم ويشوفوا أشغالهم، لكنه فجأة استدرك:
- طيب، قبل ما نروح للسيد نائب الوزير...
عاد بظهره، وأمسك من على سطح مكتبه ورقًا وقلمًا، وقدمهما إلى الأنصاري:
- اتفضَّل، اكتب لي كل الأسماء التي تعرفها من التكفير والهجرة، والعناوين التي تتذكرها لشققهم.
حاول الأنصاري أن يتملص بأنه لم يبايع الجماعة، وأنه لا يعلم عنها شيئًا، وأنه التقى فقط بأعضاء منها في السجن، وأنه لا يقتنع بفكرة الهجرة (طبعًا هو يعتقد بالتكفير فقط) فأمهله مجاهد حتى نفاد حيله:
- قدامك خمس دقائق تكتب ما تعرفه.
ثم نزع الورقة من يد الأنصاري مِنفعلًا ورماها على الأرض:
- أقول لك، بلا ورقة بلا نيلة، تعال معي لسيادة اللواء.
ترك العقيد مجاهد الضباط يرفعون طلال الأنصاري عن مقعده، ويقودونه بقامته الطويلة ونحافته الممصوصة وملامحه الجامدة حتى باب مكتب النائب، طالعين سلالم، وهابطين غيرها، وسائرين في ممرات، وداخلين خارجين من أبواب، تتابعهم العيون كلها، وكانت أخبار خطف

الذهبي قد أمطرت الطبعات الأولى للصحف، ودوت بها الإذاعات الأجنبية، وأدلت كل إدارة في وزارة الداخلية بدلوها ودلائها في البئر.

تمالك مجاهد أعصابه وهو يسمع مراوغات السجين المستدعى أمام نائب وزير الداخلية الذي بدأ جلسته، كما توقع مجاهد تمامًا، بأنه يعرف السيد الوالد، وأنه من المعجبين بشعره، وكان بين الوالد وزوجة السيد اللواء المطربة الشهيرة فايدة كامل مشروع لأغنية وطنية. ويتلقى طلال كلام الوزير كزجاج يرتمي عليه ماء فلا مسام تمتصه، مجرد تراب وغبار يتحولان طينًا على سطحه من جراء الماء النازل. يعرف مجاهد هذه الغلظة الممزوجة بالغرور في هؤلاء المنتمين إلى الجماعات الإسلامية جميعًا، الاستعلاء على الآخرين، فهم وحدهم المؤمنون وكلنا كفرة، ثم إنهم يعرفون من الدين لبه وجوهره، فليس لنا أن ننافسهم بمعارفنا الشحيحة التي تقتصر على أن الإسلام صلاة وصوم وشعائر، ثم إنهم مكلفون من قِبل الله عز وجل بإعادة الإسلام وإقامة الخلافة، بينما نحن الدنيويون، هم المتدينون ونحن المتدنيون. تلك الأنفة الصبيانية رآها في شكري مصطفى، وصبر عليه، وتابعها في جلسات محاكمة طلال الأنصاري وجماعة الكلية الفنية، وهم يجيبون على سؤال المحكمة فيما هو منسوب إليهم. فهذا متهم طالب بمدرسة مصطفى كامل الثانوية بالإسكندرية يصرخ في رئيس المحكمة: «أنا غير مذنب وأنت كافر». وآخر طالب في طب الإسكندرية يرد على قاضيه: «أنت كافر في شرع الله». وثالث أضاف: «أنا لا أعترف بهذه الجاهلية». تسعة عشر عامًا عمره ولا يعترف بسلامته بالجاهلية! وهذا وذلك وذاك وأولئك يردون: «إِنِ الْحُكْم إِلَّا لِلَّهِ»، ويرددون: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ». ثم يقف طالب في كلية طب الإسكندرية يضيف اجتهاده وإبداعه صارخًا في رئيس المحكمة: «أنا غير مذنب، بل أنتم المذنبون»، فيزايد عليه زميله المتهم طالب دبلوم التجارة: «أنا غير مذنب، وأنا سجين بتهمة الإسلام». يسأل مجاهد نفسه: كيف أقنع هذا الفتى النحيل ابن الشاعر طالب الهندسة كل هؤلاء العيال بأنهم أبطال الإسلام وفرسان الله، ودفعهم هو وصالح سرية ليلًا إلى اقتحام الكلية الفنية في جنون يتجاوز الحماقة ليسيطروا عليها، ويخرجوا منها صباحًا بأسلحتها وطلابها، فيقتحمون مبنى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، ثم يخطفون منها الرئيس السادات ويجبرونه على الاستقالة وبثها في الإذاعة والتلفزيون، بل وأعد خائب الرجا بيان الحكم الجديد (يا أيها الشعب الحبيب، يا أيتها الأمة المجاهدة الصابرة، لقد نجحنا والحمد لله صباح اليوم في السيطرة على الحكم، واعتقال جميع المسؤولين عن النظام السابق - لحق يبقى سابق! - وبدأ عهد جديد)! ابتسم عادل مجاهد هامسًا: ألن تتوقف مصر عن العهود الجديدة؟

ردد طلال الأنصاري مكرراته أنه لا يعرف أحدًا، ولم ينتم إلى التكفير والهجرة، وأنهم طلبوا الإفراج عنه ربما تعاطفًا وتضامنًا (ولماذا لم يتعاطفوا مع بَقية السبعين متهمًا يا أيها المتكاذب المتناصح؟)، وأنه لم يصله خبر عن عملية الخطف وهو في السجن، وأنه لا يتوقع أن يؤذوا الشيخ الذهبي. لكن مجاهد شم رائحة شماتة الولد، فالدولة تحتاج إليه وتتكسر عينها أمامه، ولهجة النصر التي تتقافز على لسانه تبصق في وجوههم.

- طيب يا طلال يا ابني، أحب أبلغك أننا لن نفرج عنك ولا عن غيرك مقابل إطلاق سراح الشيخ الذهبي، ويا ليتك تبلغ أصحابك أن الدولة لن تتنازل حتى لو خطفتم شيخ الأزهر وفضيلة المفتي بالمرة.

خرج عادل مجاهد من مكتب النبوي إسماعيل بطلال الأنصاري وخُفي حنين. أمر بإعادة الأنصاري إلى السجن، واكتفى بخُفي حنينٍ ليأخذهما معه إلى مكتبه. راجع آخر الإخباريات الواردة، فكانت أفرغ من فؤاد أُم موسى. قلَّب مسامعه بين موجات الإذاعات الأجنبية فتسمم بدنه، فأدار القرص لإذاعة أم كلثوم، ثم اكتشف أن إرسالها انتهى فقد جاوز الليل منتصفه، ترك برنامجًا على إذاعة البرنامج العام شغالًا دون أن يركز عليه أذنيه وبدأ في قراءة الصحف التي وصلت من المطبعة، يدقق في الأخبار والموضوعات المنشورة عن خطف الذهبي، فلما لم يجد فيها إلا هذا الاهتمام المفزوع، نحَّاها جانبًا وقام ليلقي جسده على السرير في الغرفة الصغيرة التي كانت شرفة وأغلقوها وجهزوها كغرفة للنوم في سهرات الشغل الثقيل، كانت حرًّا كبيسًا مع مروحة تشغيلها يجلب هواء وصداعًا، فلما يغلب الصداع الهواء يغلقها وهو يسبها ويسب هواءها معها. في الفجر صحا ولم يكن قد شبع من نوم ولا نال راحة، قام بما يقوم به الصاحون من النوم، ثم جلس على المكتب، ثم أخذ في استدعاء ضباطه الذين بدأوا يتوافدون من بيوتهم أو من الغرف المجاورة ليستعدوا لمجيء الأخ مندوب الأمير شكري مصطفى.
استغرب مجاهد أن خطوة واحدة لم تخطُ بها الأجهزة قدمًا للأمام. كل ما فعلناه على مدى أربع وعشرين ساعة هو الإفراج والتوسط والتودد لكلاب السكك دون فائدة. وها هي تلك الورقة الصغيرة المكتوبة على الآلة الكاتبة التي يرفع له فيها ضابط الإدارة تقريرًا تصفعه بأن كل أجهزة الشرطة لا تزال تتسول عقل هؤلاء العيال وتتوسل لقلوبهم، فالنيابة تستعد نهار اليوم للإفراج عن الأسماء المطلوب الإفراج عنها في بيان شكري مصطفى، هو نهار أسود من أوله، الدولة في حيرتها وتخبطها تتجاهل نصيحة وزارة الداخلية وتتنازل أمام هذه الجماعة! هذه طريقة لن تجلب نفعًا ولن تحقق نجاحًا، ولكنه يبدو مأمورًا بها أو مضطرًّا لها حتى حينه. لما أبلغوه مجيء مندوب شكري، الأخ جمال، أمر بصعوده إليه. وقف أمامه بنفس سحنة الأطفال التي ترفع هذه الأيام السلاح في وجوهنا، يشبهون بعضهم تمامًا، لحية صبي فرحان أن ذقنه طلعت، وعينان عدوانيتان ومتفاخرتان، ولهجة مستعلية مستكبرة، وعقل مسلوب، ودماغ منوم مغناطيسيًّا، وكلام أهبل، وتهديد مفخم الحروف، ويتحدث اللغة الفصحى كتلميذ يلقي كلمة الفصل في حفل المدرسة. تمنى أن يكون هناك حل في جيب قميص هذا الولد المتخشب في وقفته أمامه (لم يطلب منه أن يجلس ولم يشرع الولد في الجلوس):
- كل ما نسعى إليه يا أخ جمال هو أن نجد وسيلة ننقذ بها حياة الشيخ الذهبي، وكما قلت لهاشم وغالبًا قال لكم إن هذا لمصلحتكم كجماعة كما هو لصالح الدولة.
نطق جمال معوضًا تلك اللحظة التي لم تتح له حين سلم بيان الجماعة إلى مجلس الوزراء:
- نحن متمسكون بكل حرف في البيان، وبكل مطلب من مطالبنا، وأبو سعد يحملكم مسؤولية أنكم لم تنفذوا ما هو مطلوب منكم بالأمس في الثامنة مساء، وبالتبعة إن لم تنفذوا مطلب الثانية عشرة ظهر اليوم.
نظر عادل مجاهد في ساعته دون إرادته، ثم ضاق صدره بغضبه، وضاق فمه على كلماته، فأطلقهما معًا:
- بص يا ولد، الدولة لا تساوم، ولازم تفهموا هذا جيدًا، وأنا من يبلغ أبو سعد بتاعك أنكم ستتحملون مسؤولية حياة الشيخ الذهبي.
ثم شخط فيه:

ـ امشِ من قدامي، لا عندك ولا عندي حاجة نقولها!
أشاح له بيده، فلما أمسك أحد الضباط بذراع جمال اضطرب وظن أنهم سوف يرسلونه إلى السجن، فطمأنه عادل لما أحس جزعه:
ـ لا تخف، لن أقبض على حامل رسالة.
خفف الضابط من قبضة يده وسلمه لصول أخذه لعسكري وخرجا. عندما أغلق الباب صرخ فيهم مجاهد، ودق على سطح مكتبه:
ـ أقسم بالله، لو أفلت منكم هذه المرة في المراقبة لأحولكم تفتيش، وأنقلكم إلى مباحث الأحداث أو مكافحة النشل!
دخل عليه بعدها اللواء عليوة زاهر نائب رئيس الجهاز، سأله عن الجديد فأخبره عن القديم، فطلب منه زاهر تحضير كل الأوراق والتقارير للاجتماع مساءً مع اللواء حسن أبو باشا حيث يصل من ألمانيا على مطار القاهرة على لاظوغلي.
ومساءً كان قد جمع الأوراق بين غلافي ملف ورقي، آخرها إخبارية أن متابعة جمال انتهت إلى صعوده شقة في العباسية، وبالاستعلام تبين أنها شقة مؤجرة منذ شهرين، وأن بها الآن حوالي أربعة أفراد غير جمال، وأن أحدهم خرج في مشوار وعاد نفس الشخص للشقة مرة أخرى، وتبين أنه كان يشتري مخبوزات وأطعمة. فكر مجاهد: هل هذا مجرد طُعم من الجماعة للداخلية للتضليل، أم أنه تصرف منفلت ليس فيه حصافة؟ حيث يخرج الولد من الداخلية على وكر جماعة مباشرة، فضلًا عن أنه لم يحاول مراوغة المراقبة! ساعتها دخل عليه مساعده ملهوفًا يتبعه ضابط آخر، وقال:
ـ اتصال بوكالة أنباء رويترز من شخص أخبرهم أن الشيخ الذهبي موجود في هذا العنوان.
سلمه العنوان وهو يضيف:
ـ شقة في الزيتون.
بعدها بساعتين كان العقيد عادل مجاهد يتجول في أنحاء شقة الزيتون، ظل طويلًا خارج العمارة يترقب سماح خبراء المفرقعات له بالصعود ودخول الشقة. منذ اللحظة الأولى وكان الشك قد حشا قلبه، أحسها خدعة، وإن كان قد تمناها حقيقة. أيكون أحدهم قد تلصص على الشقة وارتاب أن الوجوه الغريبة الجديدة على العمارة وراء خطف الذهبي، خصوصًا مثلًا أنهم أصدروا ضوضاء فجر الأمس، خبطًا ورزعًا وصله من شقتهم، أو صراخًا وخناقًا، أو شبح رجل عجوز ظهر خلف الشيش ووراء الستائر أقلق راحة الجار؟ أي حبال دخان يتعلق بها أمل أو بصيص أمل، فقد كان يقينه أن صاحب الاتصال بوكالة رويترز هو واحد من أعضاء الجماعة، وقد تشارك معه زملاؤه في المباحث والقسم هذا اليقين المتوجس، فأسرعوا باستدعاء خبراء المفرقعات فجاءوا على عجل، وتقدموا حملة الاقتحام، جسوا وتحسسوا وأدخلوا أسلاكًا وتسللوا من شباك المطبخ وبلكونة الشقة المجاورة، ثم اكتشفوا الحقيقة، وكشفوا المتفجرات تملأ أسلاكها الشقة، ومربوطة على أقفال الباب وإطاره الخشبي ومدخل الشقة وشباك الشرفة، مع عدة أنابيب غاز وأكياس من المسامير، يمر الآن عادل مجاهد بين بقاياها وآثارها، يتسمع خطوات الخبراء والضباط على أرضية الشقة، وعمليات التفتيش، والحوارات المتبادلة، والكلمات المتناقلة، وخشخشات اللاسلكي، ونداءات من ضباط واقفين في البلكونة تستدعي غيرهم في

الشارع، وهمهمات الجيران الفضولية، واستجواب ضابط المباحث للشهود، وقد أحضروا صاحب العمارة وبوابها وصاحب الشقة وسمسار الزيتون.
لفت نظر عادل مجاهد جريدة مطوية متروكة على كرسي في ركن، اقترب منها، فكها بحذر، لقد كانوا هنا صباح اليوم، فهذه جريدة هذا الصباح بعناوينها الكبيرة: «استمرار البحث عن الشيخ الذهبي»، وتحته عنوان أصغر وعلى مساحة أضيق: «طلال الأنصاري يقول عن خطف الدكتور الذهبي إنه لا يخدم أحدًا». نادى مجاهد أحد خبراء البصمات ليتسلم منه الجريدة وهو يحدث نفسه: يعني لا مانع من خطف الذهبي لو كان يخدم أحدًا يا أنصاري!
كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بساعات. أنفَّذ شكري مصطفى تهديده وقتل الشيخ الذهبي فعلًا، أم تمهَّل وتغلَّب على تغابيه المغرور وأمهلنا ونفسه وقتًا فأبقى على الشيخ حيًّا؟ لكن الذي يفخخ شقة بمتفجرات تكفي نسف عشرين شرطيًّا وتطيير أجسامهم من البلكونة، لن يتردد في إطلاق رصاصة على رأس شيخ.
عندما عاد العقيد مجاهد إلى مكتبه آخر المساء، كانت ست عبوات ناسفة قد انفجرت فعلًا.

(10)
جاءت خطة شقة الزيتون ففقعت بالونة السيطرة التي كان يظنها النبوي إسماعيل. عاش ممسكًا خيط البالونة في يده منذ الساعات التي تتابعت بدقائقها وتفاصيلها عقب نعيق اللاسلكي في سيارته بخبر خطف الشيخ الذهبي، لا طارت البالونة من بين أصابعه ولا فرقعت، حتى دهسه ما وجدوه في شقة الزيتون من متفجرات معدة في فخ لقتل ضباط الشرطة. أوشكت الساعة الثامنة والأربعون أن تكمل الدائرة التي خنقت كل محاولاته لطمأنة نفسه، والدولة. أخذ ممدوح سالم رئيس الوزراء من يده، وذهب به إلى المؤتمر مساءً، لاستعراض تماسك الدولة، وطرد شائعات تأجيل المؤتمر خشية أن تترصد جماعة التكفير والهجرة رئيس الحكومة، لكنه بعد أقل من ربع ساعة، أشار على الحرس أن يصحبوا سالم من المنصة، بعد أن استأذن لاجتماع مع الرئيس لشأن مهم. لقد جاء مع رئيس حكومته لإثبات الوجود، ومشيا بسرعة خشية الوجود نفسه.
كان لقاؤه بطلال الأنصاري هادئًا وناجحًا كما ظن، طلب من الولد أن يدلي ببيان يدين فيه العملية ففعل. كان يحتاج إلى هذا البيان كي يتوزع على الصحف ويتم نشره، فلا يبدو ما فعله شكري مصطفى إلا عملًا فرديًّا وتصرفًا أحمق. فطلال قيادي مشهور بين شباب الجماعات ويبدو بطلًا بينهم، فها هو يسحب شرعية الخطف ويضرب في صواب الخاطف. خطط لأن يجعل التكفير والهجرة معزولة عن بقية الجماعات، فلا تكتسب الدولة عداء هذه الجماعات المتمخطرة في البلد حين تطارد التكفير والهجرة، وتقبض على أعضائها وتحاكمهم. لن يسمح لأحد أن يمرمغ سمعة الدولة وهيبتها بخطف وزير، لكنه أيضًا لا يريد أن يخسر الرئيس السادات. لقد جاء سؤاله موحيًا ولماحًا وألمعيًّا، سأله الرئيس في التلفون (انتفخت كل غدده طبعًا حين كلمه السادات مباشرة متجاوزًا رئيس الحكومة ووزير الداخلية الاسمي):
- إحنا لسه خالصين من أحداث ١٨ و١٩ يناير، جرى له إيه ممدوح سالم؟
انشكح النبوي لتهكم الرئيس على رئيس حكومته، وأحسها رسالة بعلم الوصول. أضاف الرئيس نافد الصبر طالع الروح:

ـ يا نبوي، هل الإخوان متورطون في هذه العملية، أم أن هؤلاء الأولاد المجانين شغالين لوحدهم؟

يسعى الرئيس إلى تبرئة الجماعات إذن مما جرى، فلا يجب أن تتعطل سياسته لمجرد نزق ثلة مراهقين طلع لهم ذقون، كما جرى في حادثة الفنية العسكرية. كان مطلوبًا أن يخرج الإخوان منها، وأن يلبسها أفراد جماعة صالح سرية كأنهم زرع شيطاني.

ابتسم النبوي لنفسه حين تذكر وجه طلال الأنصاري وهو يلمزه غامزًا في جنبيه بكلماته:

ـ شُفت يا طلال الإخوان كيف باعوك؟ تبرأوا منك ومن مجموعتك وعمليتك، وحتى زينب الغزالي تبخرت أمامكم، ولا الجماعة سألت عنكم في السجن ولا زاركم أحد منها ولا أوصى ولا توسط ولا دعم ولا سند، وبخلوا عليكم في السجن أو حتى مع عائلاتكم فلم ينفقوا عليكم مليمًا.

ثم نظر موجهًا كلامه إلى عادل مجاهد يتابع بنظراته الضجرة الحوار بين نائب الوزير والناجي من الإعدام:

ـ التلمساني حبيبي، مرشد عاقل وفاهم ومستوعب وواقف عند حدوده، لكن حسن الهضيبي الذي رُحت بايعته وأنت في المدرسة يا طلال كان بوجهين، ومعكم كان بثلاثة وأربعة، وأهو رمتكم الإخوان.

نزع النبوي الكلمات من فم طلال الأنصاري وهو واقف على باب غرفة المكتب، ونادى أحدًا من مساعديه يملي عليه التصريح، وهو يتابع عنق الأنصاري التي تومئ بالموافقة. كان مجاهد يراه رضًا مزيفًا وفضًّا للمجلس، وأن الولد سيصلي طول الليل في العنبر أن ينصر الله أميره شكري مصطفى، فقد هجر الأنصاري زملاء الفنية العسكرية المحبوسين معه وكفرهم وفارقهم وانضم بروحه ولسانه الصامت وعقله المنعزل إلى أعضاء التكفير والهجرة المحبوسين، انتقل من السوء إلى الأسوأ ومن النيلة إلى الأنيل.

حين جاءت للنبوي إخبارية شقة الزيتون التي كانت مجهزة للتفخيخ، تغير دمه، وأحس أن الشيخ الذهبي راح منه. كان الشيء الأهم بالنسبة إليه الآن أن تستعيد الداخلية هيبتها، تكبر القصة من كونها عملية خطف إلى كونها جريمة كبرى، ويتحول التنظيم من جماعة كانت تحت عين الدولة ورعايتها (كما كل الجماعات) إلى جماعة شاذة ونبت منفلت ومأجورة من الأعداء. آه، الأعداء فعلًا، عميلة بالتأكيد تلك الجماعة التي تأبى رعاية دولتها وتنقلب عليها، إذن هو القذافي.

استدعى العقيد مجاهد الذي كان يلاحق إخباريات العبوات الناسفة، وعدد المصابين، وحجم الخسائر، ونوعية العبوات الناسفة (هل تشبه ما عاينوه في شقة الزيتون؟)، وشهادات الشهود، ووجود مشتبه بهم، ثم يحاول أن يمنع عبوة أخرى تنسف أعصابه وهو يصيح ويشيح في الجميع، فلما جاءته مكالمة النبوي إسماعيل، أنصت مستعدًّا لمصيبة جديدة تنضم إلى زميلاتها:

ـ سيادة العقيد، من أين كان شكري يصرف على جماعته؟

باغت السؤال مجاهد، لكن هدوءًا تلبسه وهو يجيب:

ـ بنسبة كبيرة من دخل شهري يتم إرساله من أعضاء الجماعة في السعودية.

ـ طيب وليبيا؟

ـ مالها ليبيا؟

ـ مالها طبعًا، ألا توجد يد للقذافي في التمويل؟

جاء رد مجاهد مترددًا وتغمض عليه نية رئيسه:

ـ ما لدينا من معلومات ينفي هذا الاحتمال.
ـ لكن يظل احتمالًا.
ـ نجري وراءه.
ـ طيب، هل فيه خيط تمسكه فتجري وراءه؟
بعد لحظة صمت قطعها النبوي:
ـ ما تيجي مكتبي يا مجاهد.
وهو يمشي في الممرات متجهًا إلى مكتب النبوي إسماعيل كان عقله يتصفح سريعًا صفحات قاموس الشتائم، فوجئ بأن النبوي يقول له بحزم:
ـ أنا عرفت من الرائد عبد الهادي أن هناك ولدًا من الجماعة في ليبيا، وأن عضوًا آخر سافر هناك بعدها، وغالبًا حصل لقاء مع مسؤول ليبي.
كانت هذه سطور ملاحظة مكتوبة في ذيل محضر تحريات، ليس له أي ثلاثين لازمة، سجله ضابط خلال حوادث التفجير في عربات قطار السكة الحديد التي كان وراءها القذافي.
عاجله النبوي:
ـ خلينا ننشر هذا الكلام في الجرائد، ونوضح للناس أن فيه أيدي أجنبية تستهدف البلاد.
ـ يا أفندم البلاد مستهدفة فعلًا، والقذافي مجنون ابن كلب يعملها وعمل أوسخ منها، لكن ليس لدينا أي دليل على أنه وراء هذه الجماعة أو موَّلها أو له يد ولا حتى إصبع في هذه العملية.
رد النبوي بثقة:
ـ لغاية ما نتأكد سيظل الاحتمال واردًا والنشر مطلوب سياسيًّا.
ثم بكف تكفيه مواصلة النقاش:
ـ عمومًا هذه ليست شُغلتك، أنا سأتصرف.
جاءت تفاصيل أخبار العبوات الست التي انفجرت في توقيت واحد في العتبة والتحرير وسينما سفنكس ورمسيس والإسعاف ومعهد الموسيقى العربية، كأن شكري يعلن الحرب. لا ضحايا؛ عن عجز من الجماعة لا عن عمد، حروق من الدرجة الثانية، جروح وكسور بسيطة، تلفيات في المباني والأثاث وخسائر مادية مقدور عليها، حُفر محدودة جراء التفجيرات في التحرير والعتبة، يمكن ردمها بسرعة بعد معاينة النيابة، تحطم محدود في واجهات عدد من المحلات. أمر النبوي بعدم تضخيم أخبار التفجيرات في الصحف، وكذلك في التقارير المرفوعة للسيد وزير الداخلية. لحظتها تذكر النبوي أنه وعد رئيسه بتصفية هذا التنظيم.
في صباح اليوم التالي دخل النبوي مسرعًا ببذلته الصيفية البيضاء، وداس على تلك السجادة التي تكلحت خيوطها وبهتت ألوانها في غرفة الاجتماعات، حيث يجلس حسن أبو باشا ببذلته الصيفية الزرقاء على مائدة، يحيط به عدد من الضباط بعضهم بالزي الرسمي، ومجموعة من أجهزة التلفونات واللاسلكي موضوعة أمامهم، وأوراق وصور فوتوغرافية وخرائط للقاهرة والجيزة، وأكداس من ملفات ضخمة مرصوصة على جنب، وفناجين قهوة ممسوح قاعها بالبن الناشف، وتفل شاي متبقٍّ في أكواب زجاجية مرمي بها أعقاب سجائر، ومروحتان حائرتان كيف توزعان هواءهما على كل هذا الزحام، وشبابيك مفتوحة تطل على شبابيك مفتوحة في المبنى المواجه، تيقظت بعض حواس أحدهم الأمنية فراح يوارب دُرفها قليلًا. عرف النبوي من الوجوه

عادل مجاهد وفؤاد علام الذي بدأ كلامه بعد أن أذن له أبو باشا، وقد قدمه باعتباره رئيس مجموعة البحث:

ـ أظنك اجتمعت كثيرًا مع الأخ مجاهد، وطبعًا اللواء عليوة زاهر.

لم يكن النبوي مهتمًّا برأي عليوة، فقد كان نائب رئيس أمن الدولة أمامه طوال اليومين الماضيين، ولم يفكر في الاعتماد عليه، مكتفيًا بكلمتين في التلفون. ولم يكن زاهر متلهفًا على لقائه، ولا على أن يفعل شيئًا حتى يأتي رئيسه المباشر، فهو لا يحتمل أن يبادر بشيء والنبوي فوق رأسه، ثم إنه يعرف أن النبوي يحمله مسؤولية ما جرى في ١٨ و١٩ يناير، وشايف أن أمن الدولة تهلهل تحت مسؤولية عليوة. ورغم ذلك فإنه مطمئن تمامًا إلى أن أبو باشا لن يبقى في أمن الدولة شهرًا حين يصبح النبوي وزيرًا للداخلية، بل يوقن أنه سيتولى هو عليوة المغضوب عليه نبويًّا تلك الإدارة يومها. كانت الوجوه كلها تنتظر تقرير فؤاد علام أمام نائب الوزير، إلا أن اللاسلكي كان قد زن زنة وجاء الصوت متقطعًا محملًا بالشوشرة والوشيش:

ـ الهدف نزل من العمارة يا أفندم.

* * *

طرق طه الزيني باب الشقة ثلاث طرقات، ثم عاد وضغط على زر الجرس الذي تحول لونه الأبيض إلى ترابي ملوث بوساخة ناشفة. انتظر لحظة تلفت فيها بقامته القصيرة وعينيه الزائغتين في أركان الساحة أمام الشقة، وفي شراعة الباب المواجه، ومن بين فجوات سور السلم، ثم عاد وطرق الباب فانفتح فورًا. كان أبو عبيدة الذي أدخله بسرعة متسلمًا منه كيس القماش المحمل بقراطيس الطعمية والبطاطس والطرشي وأرغفة العيش. دخل طه وهو يجيب عن سؤال محمد إبراهيم:

ـ هل أبلغك أخوك شيئًا لنا؟

ـ لا، لم يقل لي شيئًا يا أبو عبيدة.

صحبه أبو عبيدة إلى الغرفة الداخلية، حيث كان ماهر بكري وهاشم يجلسان على الأريكة، مرحرحين في جلاليبهم. شد ماهر أبو عبد الله الجورنال من يد أبو عبيدة وقد أخرجه من الكيس، وتذمر من أن زيتًا فرش بقعه على صفحته الأولى. بينما تناول هاشم أبو حذيفة أكياس الأكل ونزل بها على الأرض ورصها على الحصير. وجاء صابر أبو هيثم من صلاة الضحى ولا يزال يقطر مرفقاه بماء الوضوء، فقرفص أمام فرشة الأكل وازدرد أول قرص طعمية صادفه. كان ماهر قد قرر أن ينفصلوا في عدة شقق مؤجرة ببطاقات شخصية مزورة، تكون وجوههم مألوفة عند بعض الجيران، حيث تردد عليها وسكنها بعضهم سابقًا، فلا يستغربون وجودهم ولا حركتهم في تلك الشقق. كان يعرف أن الداخلية سوف تستجوب السماسرة والبوابين وأصحاب الشقق المفروشة بحثًا عن وجوه جديدة جاءتهم، أو أجرت منهم، أو ظهرت في شققهم المؤجرة حديثًا، أو حركات غريبة وتحركات مشبوهة، وهل زاد زوار إحدى الشقق عن المعتاد؟ وهل سمعوا عن رجل مسن انتقل إلى إحدى تلك الشقق زاعمًا مؤجرها أنه قريبه من البلد أو والده المريض الذي جاء لزيارة القصر العيني أو للتبرك بمقامات الأولياء؟ لهذا وزع المجموعة على عدة أماكن متاحة، لكن طارق عبد العليم قرر أن يتحرك وحيدًا، فلما لم يجد بأسًا من مكافأته على ما فعل في شقة الهرم وتفجيرات معهد الموسيقى وسينما سفنكس، وشارك في عملية ميدان التحرير، فتركه على راحته. أما أنور مأمون فكان حريصًا على أن يظل في منطقة

الهرم انتظارًا لإتمام المهمة. بينما طلب ماهر من خاله أن يحتفظ بقراره لنفسه، ويذهب إلى حيث يبغي من شققه المتاحة، على أن يتراسل معه في هذا التوقيت عبر الصبي طه الزيني الذي غادر أخوه صفوت إلى قرية في الجيزة. بينما بقي أفراد الجماعة الذين لا صلة لهم بعملية الخطف في أماكنهم المعتادة. صحيح أنهم معرضون للقبض عليهم، لكنهم لا يعرفون شيئًا عن عملية الخطف، فلا خوف منهم، ثم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.
قلَّب ماهر صفحات الجورنال متابعًا العناوين فخورًا ومتباهيًا؛ الدنيا كلها تتحدث عنهم، والدعوة بلغت الكافة، والضربة أوجعت وأدمت، والصوت ارتفع ولعلع. لم ينشغل ماهر بما هو قادم، ولا ظن مهمًّا أن ينشغل بما هو قادم، حتى إنه لم يضع الخطة التالية للجماعة. ثم إن أحدًا في الاجتماعات الثلاثة التي جرت قبل العملية، والرابع الذي عُقد بعدها، لم يسأل عن اليوم التالي! هل هو نقص في الحسابات الدقيقة التي كتب ورقتها وشرح خطتها كثيرًا للأمير ورجاله؟ ألم تكن دقيقة إلى هذا الحد من الدقة؟ زاد غضبهم، وفار غليانهم، وقرروا التصعيد لعمليات التفجيرات. صحيح أنها جرحت ولم تقتل، ودوت ولم تهدم، وصدعت ولم تزلزل، لكنها رسالة تلقتها الدولة موجعة، وأفهمتها أننا لا نهزل، وأنها يجب أن تدرك قوة خيلنا، وما أعددنا لها من رباط الخيل. لم تستجيبوا يا حضرات اللواءات لشروطنا، حسنًا، خذوا هذه فوق أدمغتكم. لكن ماذا في جعبتنا بعدها؟ لا يزال لدينا وقت نفكر. هل كل أعضاء الجماعة من المسلمين فرسان حرب، أم أن كتيبة وحدها تكمل الجهاد؟ عمومًا سوف ينهد حيل الداخلية ثم تهمد، وتمر الأيام فنخرج من الكمون للهجوم ومن القعود للركوب.
نزل في حلقتهم الرباعية ليشاركهم الأكل وقد حثُّوه على العجلة. ودَّعهم طه ورحل. انغمسوا في تمتمات مع غموس الطعام، لكن الجرس رن بعد طرقات ثلاث، عرفوا فيها طه الزيني، واندهشوا لعودته السريعة، هل نسي شيئًا؟ هل سها عن شيء؟ هل سيطلب أمرًا؟ هل شك في شيء في الشارع؟ عند هذه الخاطرة قفز محمد إبراهيم مأمورًا من ماهر:
- قم افتح يا أبو عبيدة.
ذهب هاشم إلى الشباك ففك درفة وأزاحها قليلًا حتى صنعت له شريطًا من نور ونهار، يطل به على أسفل، حيث واجهة العمارة. بينما أسرع صابر وقبض في يده مطواة ثم أفرج عن طيتها فظهر سنكها الصغير الحاد. ماهر تسحب برجليه خلف باب الغرفة ينصت إلى خطوات أبو عبيدة تتجه نحو باب الشقة، وقد تباطأ فجأة؛ هناك أقدام تهبط على السلالم من الطابق الأعلى، ثم صوت نسائي يحيي ويلقي سلامًا:
- العواف يا أخويا.
خفت خبط قلقه في صدره مع ذلك الصوت النسائي الذي تجاهل عورته الآن، فقد مس قلبه بالطمأنينة، فزاد من حركته وفتح الباب، فإذا بالباب يخبط في وجهه، فترنح فانحدف بعيدًا فارتمى أرضًا، فقبضت عليه أيدٍ كتفت حركته مطروحًا على البلاط، بينما كانت أجساد رجال المباحث تندفع في أرجاء الشقة بالمسدسات والبنادق، وتقتحم الغرفة حتى أزحمتها بالعشرات، اختفى بين أكتافهم وأذرعهم وبنادقهم ومسدساتهم ماهر وهاشم وصابر الذي سقطت المطواة من يده، حين بدت أتفه من أن تقطع بطيخًا أمام هذا الحشد الأمني، مقبوضة أذرعهم، وملفوفة خلف ظهورهم، ومكلبشة أيديهم، ومحنية رؤوسهم، بأكف وقبضات رجال الشرطة، ومقرفصين في أركان الغرفة الآن. بينما تستكمل المباحث البحث والتدوير في الشقة، عاد الباحثون دون العثور على بني آدمين، لكن بعدد من المطاوي والسكاكين (منها سكاكين مطبخ عوجاء لا تشق

باذنجانًا). كانت عدة كراسات حمراء وزرقاء مما يستخدمها تلاميذ المدارس متراصة داخل درج دولاب إيديال، عدوها فوجدوها اثنتي عشرة كراسة، فروا صفحاتها، كانت مكتوبة بخط اليد النسخ بقلم أزرق، وعناوين بعض الفقرات باللون الأحمر، وأكثر وأوضح ما صادفته العيون المقلبة هي جملة «قال الله تعالى». اندهشوا من خلو المكان، ومن رخاوة مقاومة أعضاء الجماعة، فلا يشبه هؤلاء أولئك الذين فخخوا شقة بالأمس كي تفجر ضباط الشرطة وتودي بحتفهم حدفًا.

ظهر أخيرًا الرائد عبد الهادي من باب الشقة المتفسخ إلى الغرفة المزدحمة، ودنا من ماهر فأمسك بياقة جلبابه:

ـ كيف حالك يا أبو عبد الله؟

كانت كلمات الرائد عبد الهادي أقل تهكمًا من نظرات عينيه وحركات يديه. كان أكثر ما يلح عليه الآن وجه ماهر وهو يخرج من مكتب عليوة زاهر في أمن الدولة متطاوسًا متطاولًا، بعدما ترجاه عليوة التعاون، ووعده بتفرد جماعتهم مع الإخوان بالبلد.

ـ أين الشيخ الذهبي يا ماهر؟

كانت ملامح ماهر كلها تتفجر حمرة على صفرة محاولًا التماسك والتمالك، ورأى في السؤال شيئًا من قوة لم يفقدها بعد، فتعالى بنظراته إلى أعلى منطقة تصل إليها، تحت ضغط ودفع وغرس أصابع العساكر في شعر رأسه وفقرة عنقه وقفاه. تنفس متنهدًا كأنما يخرج بخار غليانه، لكنه لم ينطق.

* * *

كان اللاسلكي يخشخش في قاعة الاجتماعات، ثم جاء صوت مفتش المباحث:

ـ تمت العملية بنجاح يا سيادة اللواء.

تلهف النبوي على السؤال:

ـ هل فيه أي خبر عن الشيخ الذهبي؟

سمع الشوشرة والوشيش حتى ظن أنها الإجابة.

لا أثر على أمل في العثور على الشيخ الذهبي، لكن السهولة التي تمت بها عملية القبض على الرجل الثاني في التنظيم أقلقتهم بنفس قدر ارتياحهم، ثم هزم القلق الارتياح بعد أول سؤال:

ـ هل يمكن أن يكون شركًا؟

أعرب أبو باشا عن شيء بين التمني والتوقع:

ـ يبدو أن سذاجة كبيرة تحكم هذه المجموعة.

ثم بعد لحظة تأمل للملامح التي تطلعت إليه منتظرة هل سيضع علامة صح على خانة التمني أم التوقع، أضاف:

ـ أو أنهم نفذوا هذه العملية بتعجل وبشكل غير مدروس.

تدخَّل مجاهد:

ـ العمليات التي نفذوها من قبل لتصفية المنشقين أو للاعتداء عليهم كانت كأنها خناقة في المدبح، يقتحمون بيتًا ويضربون شخصًا ثم يخرجون ويروحون بيوتهم، وقد تعرف المجني عليه وأقاربه وجيرانه على ملامحهم وربما أسمائهم كاملة.

كأن مجاهد يطلب من رئيسه أن يفك الشفرة من كلامه، لكن حسن أبو باشا التفت قائلًا لضباطه، بينما النبوي إسماعيل يركز عينيه في الخرائط المرسومة:
- كل قسم تقع فيه شقق من التي يستخدمها التنظيم طبقًا لما لدينا في القوائم يعمل حملة تفتيش فورية على هذه الشقق.
ثم نظر أبو باشا إلى النبوي:
- محتاجين زملاء من الجهاز في السجون الآن لاستجواب كل مساجين التنظيم.
- حالًا.
رد النبوي، وأضاف:
- تعليماتي لمدير مصلحة السجون منذ الأمس، ينفذ كل الذي يطلبه أمن الدولة بدون ما يرجع لي.
كان النبوي يسأل:
- ماذا فعلتم مع الولد الذي أرسله شكري ليهددنا ويبلغنا أن وقتنا انتهى؟
كان مجاهد هو من أقسم على أن إفلاته من المراقبة سيكون مذبحة رفد وفصل ومحاكمة للضباط، فأحكموا عليه الحلقة، لكن جمال خرج من عندهم إلى بيته، فظل فيه مع أبيه وأمه وإخوته الثلاثة، حتى ضج مجاهد به، فأمر بالصعود ونزعه من حضن أمه. كانت العائلة كلها على ما يبدو شكريين أكثر من شكري، فصاحوا وهاجوا وصرخوا، وقاوموا بالصويت والاحتجاج، وتلاوة الآيات القرآنية، وترديد الأدعية النبوية، على دماغ الضباط والداخلية، والتم الجيران يشاهدون ظلم الداخلية لابنهم القاعد في بيته في حاله، لكن ضابطًا لما وجدهم سايقين فيها، ويتعاملون مع الشرطة كأنها قريش جاءت لتخطف عمار بن ياسر من ياسر نفسه، صرخ فيهم:
- إن لم تتلموا وتبطلوا زعابيب فسأقبض عليكم أنتم الآخرين!
ثم التفت إلى الجيران وحسم الموقف بالحقيقة:

ـ ابنهم هذا خطف الشيخ الذهبي.
صدَّق من صدَّق وكذَّب من كذَّب، لكنهم خافوا ورحلوا، وانهدت العائلة الكريمة التي نالت من التهديد ألعن مما سبق، فحلف الضابط:
ـ أنا والمصحف الشريف عارف إنكم تكفير وهجرة، ومستعد أقبض عليكم كلكم، لكن الأوامر عندي ابنكم هذه المرة، على الأقل الدفعة الأولى.
حكوا للنبوي إسماعيل أن جمال لم ينطق ولم يجب على أي سؤال، وأنكر معرفته بأي تفاصيل عن الشيخ الذهبي، فأومأ النبوي إلى فؤاد علام وهو يطلب بعينيه الموافقة من أبو باشا:
ـ إذا كانت العائلة كلها في التنظيم، فجائز أنهم يعرفون أو سمعوا أو حتى شاركوا.
أومأ أبو باشا بالموافقة، فأمسك فؤاد علام باللاسلكي يعطي أمرًا لقسم الشرطة بالتنفيذ:
ـ هاتوا العائلة كلها.
* * *
عاد النبوي إلى مكتبه، فهجمت عليه المكالمة التلفونية من ممدوح سالم يسأل عن أي جديد، فالرئيس يستفسر بعد عودته من السفر. يا سيدي عارف، ما الرئيس يستفسر مني أيضًا. كتم رده المنفعل، وقدم ردًّا تقريريًّا حول القبض على عناصر من التنظيم، ولن يمر اليوم بدون جديد. لم يكن يضمن أن يكون جديده هو العثور على الذهبي، لكن لا بد من حدوث جديد، المسألة تبدو أيسر مما يعتقد، فهذا التنظيم بينه وبين أن يحمل لقب تنظيم مسافة هائلة، يبدو أنه لن يقطعها أبدًا بعد هذا الحادث. أجرى أكثر من محادثة، وعمل مقابلة أو اثنتين، ورد على عشر مكالمات. ثم لما لم يتصل به عليوة زاهر، فهو الوحيد الآن الذي سيهتم بأن يكون أول من يبلغني بجديد، أدرك أنه لا جديد، فقرر أن يعود إلى غرفة اجتماعات فريق البحث. لا يملك دورًا كبيرًا إلا الضغط على أعصاب حسن أبو باشا ورجاله، فقرر أن يمارس دوره بضغط أكثر إخلاصًا، وأن يجلب معه مساعدي الوزير ومدير أمن القاهرة وكل من صادفه مهمًّا أمامه. لما وصل ووصلوا معه، استقبله الحوار الساخن يسمعه من طرف واحد، كان أبو باشا قد أرسل مجاهد باعتباره مسؤول النشاط الديني إلى ماهر بكري في القسم لاستنطاقه:
ـ يعني أصيب بالخرس؟
كان زعيق أبو باشا كأنه يخاطب أصم لا أخرس:
ـ والأولاد التانيين؟ طبعًا أصنام خرساء إذا كان خالد بن الوليد بتاعهم لا يتكلم.
كانت كل محاولات المحايلة والتهديد والمسايرة والترويع قد فشلت في أن ينطق واحد منهم، بدءًا من سائق السيارة المازدا المشارك في الخطف، وحتى المقبوض عليهم أخيرًا في الشقة، مرورًا بالسجناء في عنابرهم.
ـ لا فائدة، امسكوا العيِّل.
كان العيِّل هو طه الزيني، وكان طُعمهم في السنارة كي يصطادوا شقق التنظيم واحدة بعد الأخرى، لكن يأسهم من معلومات جديدة بعد منتصف النهار جعلهم يقررون أن يكتفوا بالطُّعم عن السمك.
* * *

جرى طه لاهثًا إلى مدخل العمارة. كان جسده الصغير القصير النحيل يرتجف فرقًا، فقد قبض مخبر هائل الجسم (أو يبدو هكذا بنظرة طفل) على ذراعه، ونتشه من على الرصيف إلى أقرب شباك دور أرضي في العمارة القريبة، وصاح فيه:
ـ ولد، أين محفظة الرجل؟
لم يستوعب طه كلام المخبر (كان مقتنعًا تمامًا أنه مخبر)، فتلجلج وتحيَّر، ثم استعاد قوة مسلم وسط بحر من الكفار فشخط:
ـ عايز مني إيه يا جدع أنت؟
اقترب منهما رجل كان يتابع المشهد، فأنزل طه من قبضة المخبر، وأخبره:
ـ ليس هو يا عم شحاتة.
أفلت شحاتة طه من يده، فجرى لاهثًا إلى الرصيف المقابل، بينما التفت المخبر والرجل إلى الضابط الجالس على المقهى يطلبان الرضا فرضي. كانوا يريدون لطه الذي ظل يلف بهم الشوارع وكأنه أحسهم يراقبونه، أن يجري ليلجأ بسرعة إلى الشقة التي يقصدها هنا، فمسرحوا تلك المسرحية من مشهد واحد، لعل رعب الولد ينهي المطاردة نهاية سعيدة. كان الأمر الذي وصلهم هو القبض على الصبي، لكن أمهلوه شقة واحدة يصعدها قد تكون الحوت الذي ينتظره الصياد. صعد طه إلى الطابق الثالث، ثم طرق الباب ودق الجرس، ثم انتظر قليلًا، فلما لم يرد أحد صعد إلى الطابق الذي يليه فكرر طقوسه، وهذه المرة انفتح الباب، وظهر أنور مأمون فشد طه إلى الداخل وأغلق الباب خلفه. انكشفت الشقة شبه المعتمة التي لجأ إليها أنور مأمون أمام عينَي طه الذي ألجمه السؤال:
ـ ماذا معك؟
ليس معه شيء، ولم يأتِ لسبب، كانت هذه إجابة عن سؤال ثانٍ:
ـ لماذا جئت هنا؟
اشتعلت عينا مأمون توجسًا، الشقة شبه الفارغة تعظم صوت أي حركة أو كلمة فتجعل لها صدى، فازداد توتره مع زحف قدمَي أخيه خالد الذي صحبه إلى هذه الشقة مختبئَين وهو يقبل على طه سائلًا:
ـ هل فيه أخبار جديدة من أبو سعد أو أبو عبد الله؟
كانت أقدام وأذرع وأكتاف ومرزبات تطربق الباب على البلاط، حيث وقف ضباط ومخبرون وأمناء شرطة سدوا فراغ الباب بعد أن حطموه بأجسادهم ومسدساتهم. الوحيد الذي حاول أن يفر قفزًا من بينهم هو طه الذي تشنج وتخشَّب وفلفص ورفس وشتم ولعن وسب وكفرَ الشرطة من وزيرها إلى أصغر مخبريها مستغلًّا معيلته، وهم يمسكونه بأيديهم ويشدونه ناحية الخروج معهم. بينما كان مأمون الذي لعب دور الضابط في عملية خطف الذهبي ملعوبًا معه نفس الدور الآن من أصحاب الدور الأصليين. الثلاثة المقبوض عليهم تنافسوا في الثبات والصلابة، ثم في البرود والسكوت. ولما وصلوا إلى سيارة الترحيلات فأركبوهم في صندوقها، عاد طه ليصرخ ويصيح، فصكه مأمون على وجهه بكف حمرت خده، وزجره:
ـ اخرس ياله!
خرس، ثم بعدها بدقيقتين سأل الصبي المصفوع صافعه:

- هل ينفع أقرأ قرآنًا؟
- ينفع.
بدأ في ترتيل القرآن الكريم، كان صوته جميلًا وشجيًّا ومنغمًا، كأنما شغلوا إذاعة القرآن الكريم.
قبل أن يصل موكب الشرطة إلى القسم كان يختم بآيات «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) »، وكررها كأنما آخر مرة سيقرأ فيها القرآن.
حين وصلوا إلى القسم كان أكثر ما أقلقهم هو أن يستنطق أمن الدولة طه، ويحصلوا منه على معلومات تؤدي إلى القبض على شكري مصطفى، فقد أعجب طه إعجابهم بصوته، ولمعت عيناه بطفولية كبحها وهو في التنظيم طويلًا، ثم إن الضابط قال له أحسنت، وأضاف:
- رغم أنك لم تجد إلا «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » لتقرأها، لكن أحسنت يا طه.
* * *
- هل نجحنا مع الولد؟
سأل النبوي وتقرير العملية الناجحة يسري بينهم ببشارة الفوز، فأجابه مجاهد:
- المقدم هاني معه الآن، لكن هناك ما هو أهم، فتشوا كل هؤلاء لحظة القبض عليهم، فلم يجدوا في جيوبهم شيئًا غير عدة جنيهات أو أرباع جنيهات وتذاكر أتوبيس!
أضاف مجاهد:
- الفلوس قليلة لدرجة أنها دليل على عدم الاستعداد، فالذي يهرب عليه أن يحتفظ بفلوس أكثر سيحتاج إليها حتى يظهر من مخبئه.
- أو أنهم معتمدون على تواصل مستمر بينهم، فالحصول على الفلوس لن يكون صعبًا إذا احتاجوا إليها.
- لكن ماهر نفسه، وهو نائب الأمير، كان معه أربعة جنيهات ونصف، والشقة لم يكن فيها مليم زيادة.
عاد فؤاد إلى التذاكر في يد مجاهد الذي قلبها في يده كثيرًا ولوح بها لهم كأنها مفتاح الحياة:
- هل ترى في التذاكر دليلًا مهمًّا؟
قبل أن يرد مجاهد، سارع فؤاد إلى الكشوفات المفرودة على المائدة يبحث عن بيانات صادفها كثيرًا. ابتسم مجاهد للنباهة المتبادلة بينهما:
- بالضبط، التذاكر كلها خط الهرم.
كان فؤاد قد سحب ورقة ورفعها أمام عينيه، ثم لف بها على عيونهم:
- هذه هي شققهم في الهرم.
خبط أبو باشا على ذراع الكرسي بقبضته:
- الشيخ الذهبي في الهرم.
ولكن حي أم ميت في الهرم يا سيادة اللواء؟ كان سؤال النبوي للواءين، نفسه وأبو باشا.
عند باب غرفة الاجتماعات وقف العقيد مجاهد بين اللواءين، نائب الوزير ورئيس الجهاز، وهو يهمس لهما:
- هناك أمل في أن الشيخ الذهبي لا يزال على قيد الحياة، لكن الأمل يضعف، أرجو أن تخففوا توقعاتكم.

رد النبوي:
- في كل الأحوال أنا عايز أشيل هذا التنظيم من على وجه الأرض.
علَّق أبو باشا:
- السهولة التي يتساقطون بها تخيف وتقلق ولا تبعث على الاطمئنان.
- لماذا؟
- لأنه إذا كانت ثلة هواة متعصبين مجانين استطاعوا أن يرتكبوا جريمة جريئة وكبيرة مثل خطف الذهبي، فأي تنظيم متماسك وقوي ويملك خبرة وليس هشًّا مثلهم يمكنه أن يفعل الأسوأ.
استبعد النبوي هذا الاستخلاص من أذنيه عندما لامسهما:
- هذا لو ظللنا نائمين عنهم كما فعلنا الفترة السابقة.
تجهَّم أبو باشا وهو يرد على تلقيح النبوي، وتغالظ في الكلام:
- أنا أخطرت النيابة العامة منذ توليت رئاسة الجهاز في ديسمبر الماضي، يعني من سبعة أشهر يا سيادة اللواء، ورفعت لها تقريرًا شاملًا عن حركة هذه الجماعة، ومستويات تشكيلها السري، وما تجهز من أفعال غير مشروعة، وأدليت بحوار لمجلة «أكتوبر» قلت فيه بالحرف الواحد إن الأجراس تنذر وتدق بشدة، وإن هذه الظاهرة سرطان يسري بسرعة، وفيه قصور شديد من جانب الأجهزة المعنية ووزارة الأوقاف والأزهر والإعلام.
لم يعجب النبوي أستذة أبو باشا عليه:
- جرى إيه يا حسن؟! إنت عايزني أروح للرئيس أطلب منه إن الأزهر يقبض على هؤلاء العيال، أو أترجاه إن وزارة الأوقاف تصفي لي التنظيم؟!
- لا يا أفندم، أنا عايز كل واحد يشيل شيلته، ولا نتحملها نحن فقط.
نفر النبوي من لهجة أبو باشا المتحدية، فخفف من نبرة الرئيس ونزل بها إلى نبرة الزميل:
- عندك حق يا حسن، لكن فيه أولوية الآن، ثم أنا سأتصرف.
ربت على كتف عادل مجاهد خشية أن يلسعه كتف أبو باشا لو لمسه:
- أوعدك أن الإخوان تلم هؤلاء العيال تحت جناحها، فنصنع لهذه الجماعات كبيرًا نعرف نتفاهم معه.
حاول مجاهد أن يتدخل بخبرته ومسؤوليته:
- هكذا سنعطي القط مفتاح الكرار يا سيادة الوزير.
راهن أن مناداته بالوزير سوف تبرد سخونة التعليق على رأس رئيسه، لكن النبوي شخط في الهواء بكفه:
- افهم يا عادل! أنت لا زلت شابًّا (عادل في الثامنة والثلاثين من عمره، ثم إن النبوي يكبره بأربع سنوات فقط)، أنا لما أجعل الأسد يأكل حيوانات الغابة، يبقى وفرت رصاصي في رصاصة واحدة أقتل بها الأسد.
ابتسم أبو باشا وعاد إلى صدارة مائدة غرفة الاجتماعات وهو يتمتم متهكمًا:
- هذا إن لم يكن الأسد قد أكلك قبلها.
* * *

حين حدق العقيد مجاهد في وجه ماهر بكري الذي جلبوه للاظوغلي وأجلسوه أمامه، جزم أن هؤلاء العيال لا يخشون الخسارة، أو يؤمنون بأنهم لن يخسروا. لم يتوقع من هذا الوجه المتخشب والعينين الحادتين شيئًا، لكنه جرب أن يفثأ الفقاعة التي يعيش فيها دماغ نائب الأمير:

ـ شُف يا ماهر، نحن نملك عناوين شققكم وبيوتكم، ونقبض عليكم واحدًا وراء الآخر، ونعمل مسحًا خلال كلامي معك لمنطقة الهرم، وعلى الصبح بالكثير سنكون قد أسقطنا كل أعضاء تنظيمك، وسيضعف واحد منهم على الأقل ويعترف أين تخبئون الشيخ الذهبي، وخالك خلال ساعات واحتمال وأنا أكلمك الآن سيكون مقبوضًا عليه، وستحاكمون، وطبعًا ستدخلون السجن لمُدد طويلة، وابقوا هاجروا بقى في السجن. طبعًا أنت تعلم أن زملاءك المحبوسين يهجرون أعضاء جماعة الفنية العسكرية في السجن فعلًا، ولا يصلُّون معهم، ولا يكلمونهم، بناء على أوامر الأخ شكري المهدي المنتظر. طبعًا أنا أجهل من بالضبط ينتظر هذا المهدي، لكن متأكد الآن أن مأمور السجن وضباط مزرعة طرة ونزلاء السجن من الحرامية والمسجلين خطر وقتالين القُتلة وحرامية الغسيل ونشالين الأتوبيسات هم من ينتظرون المهدي فعلًا.

كان ماهر موجوعًا بالسخرية، وكان وجعه هو هدف مجاهد الذي أكمل:

ـ عددكم كما هو مثبت عندي حوالي ألفين، واحتمال معلوماتنا ليست دقيقة جدًّا، فقد يرتفع عن هذا الرقم قليلًا أو يقل، فلا أنت ستعرف تحركهم، ولا ستقدر على أن تفعل معهم شيئًا.

عند اللحظة التي بدا فيها ماهر مهيأً للانفجار رق مجاهد:

ـ لكن، لو قلت لي مكان الشيخ الذهبي وعثرنا عليه، فسنحرص على أن تكون أحكامكم مخففة، وسأترك لك بقية رجالتكم خارج السجن، وسأحول السجن لكم متنزهًا ينافس القناطر الخيرية.

ظل ماهر على انفجاره المكتوم، بينما تجولت نظرات مجاهد في الغرفة، اثنان من العساكر على الباب من الداخل، وضابط يجلس في ركن على كرسي خشبي، وشباك مغلق، ومروحة تزن، وجهازا تلفون أسودان، ودولاب خشبي مرصوصة أدراجه بالملفات الكرتونية السوداء، ولوحة قرآنية معلَّقة فوق المكتب، نقل عينيه منها إلى ماهر:

ـ طيب، ألا تريد الرد عليَّ بآية من القرآن الكريم يتوعد فيها الله الكفار أو يعد المسلمين بنصر منه وفتح قريب؟ طيب، أقول لك أنا: بسم الله الرحمن الرحيم «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ».

رد ماهر:

ـ أسلمت يا سيادة العقيد؟!

ـ على يدك يا شيخنا.

ضحك ماهر، وتحدث من علٍ، تتلين كلماته وتتنغم بالثقة:

ـ اسمع، كي أقيم عليك الحجة فأنا أدعوك للدخول إلى الإسلام، تفر معنا بدينك من دار الكفر والإيذاء والفتنة إلى أرض الله الواسعة حيث لا فتنة ولا كفر ولا إيذاء، نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا. وبدلًا من أن تكون مستضعفًا في الأرض، ستصبح عزيزًا في دينك متمكنًا في الأرض. وبدلًا من أن تجبر على فعل ما حرم الله في أرض الجاهلية، ستتبع شرع الله ولا يضطرك أحد على مخالفة ما أنزل الله والوقوع فيما حرم الله. وبدلًا من أن ترى المنكر ولا تستطيع أن تغيره، ستأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وبدلًا من أن تخالط أهل الجاهلية وتقعد معهم وهم يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها، سيكون كل من حولك على دينك يعظمون شرع الله ولا يكفرون به،

وستتنفس نفسًا طبيعيًّا، ولا تشعر بالغربة والوحشة، لا فتنة ولا فاحشة ولا إيذاء ولا استهزاء. ما عليك إلا أن تعد عدتك وتجمع أسلحتك للانتصار على شيطانك، وتجهر ما أمكنك الجهر في تقوى الله والاستقامة على أمره.
تابع مجاهد دعوة ماهر بهدوء وسَكينة وإطراق رأس، فلما توقف رد:
- والله العظيم ثلاثًا أنا موافق، سأسلم معك حالًا، لست أنا فقط، بل والعيلان الواقفان هنا (أشار إلى العسكريين) وحضرة الضابط القاعد هناك شايفنا وسامعنا (التفت إلى الضابط: موافق يا حامد؟ رد حامد: موافق يا أفندم)، لكن بشرط واحد يا أبو عبد الله.
ضحك ماهر مستعليًا:
- طبعًا شرطك أن أخبرك بمكان الذهبي.
رد مجاهد عليه الضحكة، وباستعلاء يعلو على استعلائه:
- لا، خالص، شرطي أسهل بكثير.
أثار فضول ماهر فأوشك أن يسأله، لكنه تمهل حذرًا أن ينطق فسكت، فاستمر صمت مجاهد، وارتفع ترقب الغرفة كلها لمن يكسر الصمت. رن التلفون بجرس صاخب، فقام الضابط إلى المكتب ورفع السماعة ورد، وسمع الطرف الآخر، ثم عاد برأسه إلى رئيسه:
- تلفون يا سيادة العقيد.
أشار إليه مجاهد أن يغلق السماعة ففعل الضابط ورجع مرجعه، يشد صمت مجاهد وماهر المتبادل اهتمامه. ظل الصمت لحظات تنهَّد فيها ماهر وقد نفد صبر فضوله وسأل:
- ما الشرط إذن؟
خبط مجاهد سعيدًا بكفيه على فخذيه:
- تقول لي أمك اسمها إيه؟
انتفض ماهر غيظًا، وكاد يقفز بنظراته على صدر مجاهد، وقد تحركت قدماه وساقاه وأوشكت قبضتاه المتصلبتان أن تحطما أصابعه.
قام مجاهد إلى المكتب وهو يأمر الضابط:
- خذه على الحجز.
لما حمله العسكريان من مقعده إلى الوقوف والمشي يسبقهما الضابط، نظر العقيد مجاهد إلى ماهر الذي بدا وجهه يعاني إسفكسيا الغرق:
- أمك اسمها فوزية يا ماهر، ثم ذِكر اسم الأم ليس عيبًا، فسوف ينادوننا يوم القيامة بأسماء أمهاتنا، ثم النبي نفسه أمه اسمها آمنة، فهل أمك أعز من أم النبي؟!
رد ماهر يستعيد كبرياءه:
- نعم، أمي أحسن من أم النبي، فأم محمد كانت كافرة.
أبهت الرد مجاهد، فأحس ماهر بانتصاره. كان العقيد يخشى أن يرد عليه ماهر بسؤال يحرجه عن اسم أمك أنت يا حضرة الضابط، فإذا بالولد يرميه برد أثقل من الحجر في وجهه عن والدة النبي محمد الكافرة، لكن على الأقل فاز العقيد بإخفاء اسم أمه عن العساكر.
رفع مجاهد السماعة قبل أن يدير قرصًا:
- حولني يا ابني على الرقم الذي كلمني منذ دقائق.

كان المقدم هاني يخبره بأن ثلاث حملات بدأت التحرك في منطقة الهرم.
ـ ماذا فعلت مع ماهر؟
كان هذا سؤاله تاليًا، فأجاب مجاهد:
ـ أنا كنت عارف أنه لن ينطق، فقلت أتسلى على ما تجهز.
ثم تنهَّد مجاهد بائحًا:
ـ ويبدو أنه كان يتسلى هو الآخر.
ـ سيادتك نمت؟
ـ لأ، هي الساعة كام؟
ـ سبعة الصبح.
ـ هو بقينا الصبح؟
قام وفتح الشباك، فاستقبله الصبح شخصيًّا.
* * *

ثبت النبوي إسماعيل مقلتي عينيه في جهاز اللاسلكي في السيارة، وانسحبت أصوات الشوارع التي يعبرها من أذنيه لتنفرد شوشرة اللاسلكي ووشيشه وتكتكاته وصفافيره بالجهاز السمعي والبصري لنائب وزير الداخلية. كان الحرج من رئيس الحكومة ورئيس الجمهورية يدفعه إلى رُكن الحلبة، يتلقى لكمات محمد علي كلاي وحده. العيال يتساقطون تباعًا إيناعًا، لكن الذهبي مختفٍ خبرًا أو أثرًا. كل هؤلاء المقبوض عليهم ولم يفشِ أحد سرًّا، ولم يتداعَ أحدهم رعبًا. شاف بعضهم حتى إنه حلف أن يشوف بنفسه شكري مصطفى حين يقع، ويحدق في وجه هذا الرجل الذي جعل من أتباعه منومين مغناطيسيًّا كأنه يديرهم من مسرح القاهرة للعرائس بالعتبة. انطلقت القوات الآن في منطقة الهرم متوجهة إلى عدة عناوين، لعلها تعثر فيها على اللغز أو حله، تجد فيها خيطًا أو خبطة، لكن اللاسلكي لا يقول شيئًا، حوادث عادية يتم رميها في الإحصاء السنوي لمصلحة الأمن العام جنب إخوتها من جرائم القتل والسرقة والنشل والاعتداء المسلح والرشوة وغيرها من تلك التي لا يغيب عن عينيه الخبيرتين أن عددها زاد وتضخم، ليست تقصيرًا من الأمن، وإن كان واردًا من قِبله، لكن البلد نفسها تتغير. عندما تفك قبضتك على أعناق الناس فاشرب والبس بقى يا حضرة الضابط. ما صدق أن عمليات التفجير الست التي نفذتها جماعة شكري انتهت إلى نتائج خائبة، لا موتى ولا جرحى في حالة خطرة، رغم أن العبوة التي انفجرت في ميدان التحرير كانت كفيلة بإسقاط كوبري وعمارة انفجرت تحتهما، لكن ربنا سلم، وغباء الجماعة كان لطفًا من السماء، فيبدو أن ربط الأسلاك والموصلات كان عشوائيًّا ومتعجلًا، فتفكك كثير منها حتى إن الانفجار لم يأخذ قوته ولا وصل إلى واحد في المائة في مداه. ثم كانت عمليات القذافي السابقة فرصة لتوزيع التهمة عليه وعلى شكري مصطفى، ثم إن الصحافة سمعت الكلام ولم تتوسع في النشر، بل بعضها لم ينشر أصلًا. وصل إلى لاظوغلي وكانت الأقدام كلها تجري ناحية غرفة الاجتماعات. وصل الجلل.
* * *

وقفت سيارة الشرطة القديمة من الطراز الذي خلَّفته الخمسينيات في ورشة مديرية أمن الجيزة وأحياه أسطوات السبعينيات من الميكانيكية والكهربائية، ونزل كامل عبد المنعم ضابط مباحث قسم الهرم بلبسه المدني من المقعد الأمامي، بينما أشار إلى السائق أن يركن في الشارع الجانبي

الأضيق. كان قد سبقه قفزًا من البابين الخلفيين صولان من القسم نفسه، أحدهما بجلباب بلدي فوقه جاكت بدلة صيفي أزيت من بعضهما، والثاني ببدلة صيفي من منتجات غزل المحلة مع نظارة شمسية سوداء من الموسكي. دخل ثلاثتهم بسرعة إلى مدخل البيت ذي الطابقين، المدخل ضيق وقصير، وخطوتان وتجد نفسك على سلالمه، بلا غرفة للبوَّاب وبلا بوَّاب، الشارع نفسه هادئ رغم تفتح شبابيك الصبح، وخطوات الأقدام الذاهبة إلى العمل وبائع سريح ببطيخ (ابتسم الضابط: بطيخ إيه على الصبح؟! داهية في غباوته. كان مخبرًا وكانت عربة بطيخ مستعارة من مضبوطات إشغال الطريق). كان عنوان الشقة المفروشة واضحًا تمامًا في ذهنه، الإخبارية أن ثلاثة من الشبان الريفيين يسكنون فيها منذ أسبوع، وأن خروجهم قليل، وتعاملهم مع جيران الشارع أقل، لم يحرروا عقدًا مع صاحب الشقة المسافر إلى ليبيا، بل مع ابن عم له لا يظهر كثيرًا في المنطقة. أعرب الرائد كامل عن رأيه مخاطبًا غرفة عمليات البحث في لاظوغلي:

ـ ثلاثة ريفيين لماذا سيجلسون في شقتهم؟ لا توجد دراسة جامعية في الصيف ولا غير جامعية، ثم لا ينزلون للشغل ولا يُعرف لهم عمل، ثم لا يتصلون بالجيران! أنا لو ريفي وعايز أشتغل أول حاجة سأفعلها التواصل مع الجيران وأهل الشارع، وأقعد على القهوة أو أروح الجامع أو أرمي جثتي على صاحب دكان كي أعرض رغبتي في العمل وأكل العيش.

ـ طيب، لا مانع من التحري.

لكن الرائد كامل أرادها حملة هادئة، فالمعلومات تشي بأن شوارع الهرم الخلفية والفرعية ملغمة بالجماعات الإسلامية، ولا يريد للخبر أن يذاع وينتشر بين الأهالي بأن القسم يفتش في الشقق المفروشة، ثم من يدري قد يكون فخًّا كما حدث في شقة الزيتون. كانت هذه آخر تنبيهاته للصولين وهو يطرق باب الشقة:

ـ الهدوء وجئنا نسأل بشكل عادي.

ابتعد هو عن شراعة الباب، وتجنب جلبة الطرق، بينما وقف صول بظهره وكتفه عند باب الشقة المواجه (هي غير مسكونة لكن الاحتياط واجب وفرض). بعد لحظات من الصمت المطبق دار مفتاح في قفل وهو يسأل:

ـ من؟

انفتح الباب، فلمح الصول ذعر أحمد نصر الذي قفز من عينيه، فخبط الباب بكتفه ثم بصدره، ثم ساعده زميله لما رأى استئساد الولد في صد فتحة الباب. ما كان من الضابط إلا أن توسطهما وقد أخرج الطبنجة ووجَّهها إلى الجزء الظاهر من رأس الولد الذي صار رأسين، فقد سانده زميله، فلما رأى كلاهما فوهة المسدس تراخت عضلاتهما وتراجعت أكتافهما وسلما الباب للمقتحمين فانفتح، بينما تراجع أحمد نصر ومحمد قطب، وقد تلبسهما فجأة هدوء، حتى إنهما جلسا على مقعدين في الصالة. وقف أمامهما الرائد كامل متعجبًا من الاستسلام السلس المفاجئ، ومن تلك السَّكينة التي حطت عليهما، بينما الصولان بعد أن اندست أكفهم في جيوب جلبابيهما يقلبانها ويتحسسان وسطيهما لعلهما يربطان شيئًا يخفيانه، ووجدوهما بياضًا، أخذا يفتشان الغرفة الوحيدة ومنافعها، فلا يجدان إلا حبالًا وسِكينة مطبخ أقرب للساطور، وبقايا أكل بائت، وجريدتين من صحف الأمس، ومرتبة مفروشة على الأرض، وكنبة لا تحتمل إلا نائمًا نحيفًا، وباجور جاز بلا جاز. فهم كامل فورًا أنهما على وشك الرحيل أو في انتظار أمر الرحيل.

ـ أين ثالثكما؟

اندهشا من معرفته بوجود ثالث، فلم يجيبا، حتى إنهما لم يفعلا ما يفعله اللصوص العاديون حين يقاوحون ويناورون ويدَّعون البراءة ويتشكون من هجمة البوليس على الناس الغلبانة، والحلف بكل أيمانات المسلمين أنهم لم يرتكبوا شيئًا خطأ، ولازم فيه سوء تفاهم، ولَّا الناس أولاد الحرام يتبلون عليهم. لا شيء من هذه الأسطوانة البلاتينية سمعه الرائد، فلم يعد يملك ذرة شك أنهما عنصران في التكفير والهجرة:

ـ أسألكما عن مكان الشيخ الذهبي، أم أؤجل السؤال حتى يأتي زميلكما؟

الغريب الذي أذهلهما أن زميلهما فعلًا دق الباب، إنه رؤوف، وقد جاء حتمًا بالتعليمات الجديدة، وقد احتاروا من غياب أي أوامر منذ يومين، فذهب رؤوف للقاء طارق عبد العليم أبو يوسف، وها هو قد جاء. التفت الضابط بسرعة إلى الصولين اللذين تلقيا الأمر باللمحة، بينما كامل وجَّه مسدسه إلى نصر وقطب واضعًا سبابته على فمه عموديًّا محذرًا.

اندفع الصولان ففتحا الباب وهما يقفزان على الضيف القادم يجرانه من رقبته وكتفيه وخصره، حتى إنه من هول الهجمة وغدرها تعثر وترنح فسقط، فلحقا به وجراه إلى الداخل، ثم أقاما عوده المائل وأصلباه على قدميه، بينما الرائد يواجه رؤوف:

ـ نورت.

رؤوف الذي التقط أنفاسه، وشد جسمه، ورسم ثقة في نفسه، وتخاشنت أنفاسه، تبادل نظرات سريعة مع زميليه التقطها كامل فشخط فيه:

ـ ولد! من أين جئت؟

باغته رؤوف، وأخرج بأصابع مرتجفة في كف مقبوضة، وبحركة عصبية متشنجة، ورقة مطوية من جيب بنطلونه ودسها في لمحة في فمه يبلعها، هلع الرائد وصرخ في الصولين:

ـ هاتوا الورقة التي يبلعها!

قفز قطب لينشب أظافره في ذراع الصول، بينما حاول نصر أن يدفع الصول الآخر بعيدًا عن رؤوف حتى يتمكن من بلع الورقة، فرمى كامل نفسه على رؤوف وقد انشغل الصولان في التعارك مع العيلين. جثم الرائد بجسده على رؤوف فوق الكنبة، وأمسك بأصابعه وقبضتيه فكَّي رؤوف، فتحهما كما يفشخ الجزار فم الذبيحة، ثم دس فوهة الطبنجة في جوف رؤوف كما يفعل الطبيب البيطري بمسدسه الطبي في حنك الثور، فاتسع فكَّا رؤوف ونخر وخرخر، وكادت تتخلع أسنانه مع ضروسه حين نزع كامل الورقة المكرمشة والمبلولة والمنبعجة من فمه. وكان الصولان قد قضيا على محاولات زميليه حين كلبشاهما وارتاحا منهما تمامًا برميهما على الأرض مقرفصين. أحكم الصول القبض على ذراعي رؤوف المتوجع، لا يزال فمه مفتوحًا وريالة ولعاب يملأ دلوًا يندلق من شدقيه. أخذ الرائد كامل يقرأ الورقة وهو مأخوذ مبهوت وقد شحب وجهه تمامًا، عاد إلى رؤوف ولطمه على وجهه ثم ضربه بمقدمة حذائه ثم انهال عليه بقبضاه:

ـ مَن أبو توبة؟

صفعة أخرى:

ـ مَن هو؟

ركلة أقوى:

ـ أين المكان يا كلب؟

كانت الورقة تهتز بين أصابع الضابط، وعيناه تضطربان فوق سطورها، وأفكاره تضطرم فوق الجميع. الخط خطان، ليست نفس اليد من كتبت أعلى الصفحة وأسفلها، على الأقل الملحوظة المكتوبة في منتصف الصفحة وما بعدها بخط مختلف، الحروف دقيقة، والشطب يكشف عن سقطات تردد في الثقة المتكلفة التي تنطق بها عبارات الخطاب، نعم إنه خطاب على ورق كراسة موجَّه من طرف إلى طرف أقل، أوامر مكتوبة تبدأ بالبسملة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الحبيب أبو توبة، السلام عليك ورحمة الله وبركاته

وبعد،

بالنسبة لما كلفت به أمس، نرجو الإسراع بما يلي:

١- أبو نعمان يرتدي الملابس البلدية المناسبة لعمل بائع متجول، ويذهب وأبو هريرة وشقيقه لاستئجار أو شراء عربة مناسبة (كارو يد شوي بطاطا، إلخ)، على أن يتم ذلك قبل منتصف اليوم، مع شراء خيش.

٢- عليكم، وبالطريقة المناسبة، شراء الخضراوات اللازمة لوضعها فوق العربة تغطي البضاعة إذا لم توضع في الصندوق السفلي.

٣- تتكفل وأخوك أبو هريرة اليوم الساعة العاشرة والنصف إلى الساعة الثالثة ليلًا بلف البضاعة بالطريقة المناسبة.

٤- يحضر إليكم الساعة الرابعة والربع عند الفجر أبو نعمان، وتنقل البضاعة إلى العربة المموهة بسرعة، وتجر العربة إلى شارع الهرم الرئيسي، وتترك كما هي عند ترعة أو آخر ترعة الزمر أو أبو قتاتة أو أي مكان آخر مناسب.

جزاك الله خيرًا، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ملحوظة مهمة (تحتها خط وحبرها أثقل وما يليها كذلك والخط كله مختلف): يجب شراء زجاجة نشادر قبل الذهاب إلى الشقة، وبعد الوقوف في المكان المحدد ترش الزجاجة جيدًا على الشوال والعربة، هذا للأهمية، وكذلك يمكن استخدام زجاجة روح بدلًا من النشادر أو معها أيضًا.

دارت طاحونة من الشفرات في رأس كامل، ثم همدت فجأة كمن سحب منها الكهرباء أو الهواء. البضاعة هي الشيخ الذهبي؟ لكن النشادر تعني... يا نهار أسود! قتلوه، أم أنها تعليمات فيما بعد القتل وهم لم ينفذوه حتى الآن؟ لا تكن متفائلًا وتجبر عقلك على الرضوخ لقلبك يا كامل. ولو كان حيًّا فلِمَ يحتاجون نشادر تخفي رائحته؟ رائحته... أيعني هذا أنهم قتلوه ومنذ أيام إلى درجة خشية الرائحة؟ عادت الطاحونة للعمل فأوقفها هو هذه المرة، فقد لمعت الفكرة كالشهاب في رأسه فصعقت الطاحونة، أشار إلى الصول:

- رُح نادِ المخبرين من الشارع.

كان يتلفت إلى أركان الشقة وقد حدد هدفه، فلما عاد الصول بأربعة من المخبرين طلب منهم أن يقلبوا هذه الكنبة ويتأكدوا أنها بلا سحارة. نزعوا ما عليها، وقد انخلعت رؤوس نصر وقطب ورؤوف فزعًا، فوجدوا القفل الذي يغلق سحارة الكنبة، فحطموه سريعًا، وفتحوا قلب الكنبة فوجدوا مدفعًا رشاشًا وخزائن من الرصاص، لكن لم يكن هذا ما ينتظره الرائد كامل، حتى جاء ما ينتظره فعلًا؛ ظرف أصفر كبير ممتلئ بالورق، فتحه كامل وفرز محتوياته، كان رسمًا كروكيًّا لبيت الشيخ الذهبي، كما استوعب كامل بسرعة، لكن الأهم كان عنوان فيلًّا في الهرم

مكتوبًا في أول صفحة كراسة، عنوان الفيلّا في شارع فاطمة رشدي، مكتوب بخط مختلف عن عنوان ملون كبير آخر مكتوب على غلاف الكراسة، كان العنوان: «الخلافة».

* * *

استند الرائد كامل بكتفه على سور الحديقة، وخلفه عدة عساكر في صف ملتوٍ، بينما يشير بيديه إلى المقدم هاني؛ أسرع من جاءه من مباحث أمن الدولة مصطحبًا رجاله معه وقد كمنوا في الجهة المقابلة من الحديقة. كان المشهد أعجب مما عاشه الاثنان في سنوات عملهما في الشرطة، فالحملة كلها تحاصر هذه الفيلّا في عز النهار، بل إن الشمس تعاكس الرؤية وتجعل من خوذات العساكر أفرانًا للرؤوس، ومن البذلات الشرطية مضخات للعرق. لم يضيع كامل وقتًا في انتظار حشد أمني، ولا مواكب تترى، ولا سيارات مصفحة، فلا يزال أمله في العثور على الشيخ الذهبي حيًّا يحيا في قلبه، شاركه في ذلك المقدم هاني، فأول ما وصل إلى شارع فاطمة رشدي قررا أن يقتحما.

الفيلّا بطابقين، ومسوَّرة بسياج طوبي قصير، وأشجارها ليست فارعة ولا ضخمة، بل يبدو أنها تعاني قلة العناية وغياب الجنايني، فقيرة في نجيلها وزرعها وأشجارها، تعلن أنها فيلّا مهجورة، ربما لهذا اختارتها الجماعة، أو لسعر إيجارها الزهيد ومالكها الزاهد فيها. دخلوا من البوابة الحديدية التي لم تستغرق وقتًا لقطع جنزيرها الرخيص. لا حركة، ولا ملامح لحياة. المدخل واسع وممتد ودائري، يقود إلى ممر من البلاط، ينتهي عند البوابة الداخلية، شرفة واسعة فوقها، فيها بضعة كراسي ومنضدة، ولكن شبابيكها كما كل شبابيك الفيلّا مغلقة ومتربة وخشبها متقشر. الحديقة الخلفية أضيق مساحة وأشد قفرًا من الشجر والنجيل، وتؤدي إلى مدخل يفضي إلى ما يشبه البدروم أو المطبخ، ثم باب منفصل لسلم يصعد إلى شقة مستقلة يبدو أنها ملحقة على الفيلّا.

هذه إذن، اختيار ذكي لا يليق بكل الغباء الذي مارسته الجماعة منذ خطف الشيخ الذهبي؛ شقة متخفية في فيلّا، خلفية بعيدة عن الباب الأمامي، حولها مساحة تكفي لكشف أي دخيل فيها بشكل مبكر، قرِيبة من سور الحديقة وبعيدة عن آذان الشارع في نفس الوقت، الشبابيك فيها مغلقة كأنها لم تفتح قطّ، المدخل معتم، والسلالم قصيرة وضيقة، الباب بدرفتين وبلا شراعات من الزجاج.

كان العساكر قد توزعوا الآن بأوامر من كامل، فقد ترك هاني له مهمة إتمام عمليته، بينما لوَّح بيد محذرة ومهددة إلى تلك الوجوه التي ظهرت في شرفات الفيلّات المحيطة تطل وتتابع في فضول وريبة كل هؤلاء العساكر في حديقة جارهم. كانت أوامره لهم أن يبتعدوا ويدخلوا بيوتهم. شكر كامل لهاني حذره، لكنه لم يكن يتوقع مقاومة تفخيخ الشقة أو إطلاق رصاص منها على أفراد الشرطة، صحيح أن طلة واحدة من تلك العناصر من وراء خصاص الشيش كفيلة بأن يرى زرافات الشرطة في الشارع والحديقة، ثم إنهم بالتأكيد كانوا يحرسون الحديقة ويجوسونها من خلال أحدهم. هم ارتدوا إلى وكرهم كامنين، لن يهربوا ولن يواجهوا. رجال الشرطة مكشوفون لأي مراقب منذ دخلوا، وكان يمكن قصفهم مبكرًا وإجهاض دخولهم لتوفير وقت لهروب عدد من عناصر الجماعة، ولو كان لديهم مخزون من السلاح كان يمكن أن يستمروا وقتًا طويلًا في المواجهة، بل وإمطار الشرطة بقنابل يدوية مثلًا، أو نجد شراكًا خداعية من عبوات ناسفة في الحديقة تنفجر فيهم. المجموعة كلها غير مجهزة لمثل هذه المفاجآت، بل لا أحد في الشرطة يملك كل هذه الاحتياطات كي يجلبها لنا هنا. ثم ما فعله الثلاثة الذين هاجمهم منذ قرابة الساعة من استسلام مريب، فضلًا عما أخبره به هاني من أن كل عمليات القبض خلال الأيام الماضية خلت من طلقة رصاص واحدة، جعله أكثر اطمئنانًا وليس أقل حذرًا.

عند باب المدخل، وفوق السلم، وأمام باب الشقة، وقفوا متوزعين في انتظار علامة ما على أن هذا هو الوقت المناسب، فلما لم تظهر العلامة أشار هاني لهم وقد وقف عند عتبة السلم التحتية بالحركة، فنظر ضباط القسم وعساكره إلى كامل الذي كان أعلى السلم ساندًا بظهره على جداره ورافعًا مسدسه عند صدره، فأومأ بالموافقة، فصعد بقفزات رياضية صول ممسكًا بالمرزبة الطويلة العريضة الثقيلة كأنه ينافس على الميدالية الذهبية في مسابقة المطرقة في الأولمبياد، واندفع ناحية الباب، فإذا به ينفتح قبل أن تلمسه المرزبة مُصدرًا أزيزًا واهتزازًا، ويقف أحدهم يملأ فراغ الدرفة محدقًا فيهم بنظرات زائغة وعينين محمرتين وجفون مرتجفة ولحية مبللة، وقبضة تمسك بسكينة مطبخ بدت هزيلة للغاية في حجمها وخطرها أمام الحشد المترصد.
كانت المرزبة معلَّقة بين يدي الصول، والصمت أشل الحركة من اللفتة حتى الخطوة، المشهد المتجمد فك تجمده بسؤال قصير حاد مباشر سأله الرائد كامل:
ـ أنت أبو توبة؟
أطرق مصطفى غازي موافقًا وهو يفرج قبضة أصابعه عن السِّكينة، فتنسل من يده وتسقط على البلاط، ثم انزاح عن الدرفة كاشفًا الشقة من خلفه، وقد وقف اثنان وراءه متصلبَين، أحدهما يقبض على مطواة، والثاني على شومة طويلة ثقيلة. التفت إليهما مصطفى ونظر إلى كليهما فأسقطا المطواة والشومة معًا.
أكمل كامل وهو يأمر عساكره بالدخول إلى الشقة:
ـ أبو هريرة وأبو نعمان.
كانت الورقة في جيب كامل الذي أخرجها وقدَّمها إلى هاني الذي تابع تمتمة مصطفى وهو يقول:
ـ نعم.
كانت وجوههم للوهلة الأولى متوجسة قلقة متصلبة، ثم كأنها تحولت بلمسة ساحر إلى نظرات الصلابة والصلافة والتعالي، كأنما اقتحام الشرطة لوكرهم شرف نالوه، وانتقام فعلوه، وفوز حققوه!
الغرفة المغلقة كانت تنادي هاني وكامل صارخةً بالحقيقة: إنه هنا داخلها! الشيخ الذهبي! لا همهمة، ولا تمتمة، ولا قلقلة، ولا استغاثة مكتومة، ولا نداء مستجير. تبادلت العيون العشرة النظرات، بين الضابطين والعناصر الثلاثة. كانت العساكر قد أحكمت الكلابشات في معاصمهم، وقلبت الكنب والمراتب، وفتشت المطبخ ودورة المياه، وفتحت كل ما هو مغلق، ونزعت كل ما هو ملصق، وفكت كل ما هو مضموم. لكن الغرفة المغلقة ظلت بسرها الملغز، فهل هنا التفخيخ والكمين؟ أشار إلى العساكر أن يدفعوا هذه العيال ليفتحوا الباب بأنفسهم ويدخلوها قبلهم، فدفعوهم بقوة وغلظة، فبادرهم مصطفى واثقًا كأنما في موكب النصر يحمل أكاليل الغار في عمامته، ففتح قفل الباب ودخل مصحوبًا بأبو هريرة وأبو نعمان وخلفهم العساكر، ووقفوا في منتصف الغرفة. لحظتها أزاح هاني وكامل الجمع من أمامهما ودخلا مسرعين، كان سرير وحيد في الغرفة التي ازدحمت، فطردهم كامل منها عصبيًّا ومهزومًا وحزينًا ولاعنًا سنسفيل أبيهم جميعًا، بينما كان هاني يقترب من السرير.
كان الشيخ الذهبي مسجى على السرير، مبقعًا جلبابه بالدم الناشف الفارش، ورقعات العرق والمزق والبلل من صدره إلى فخذيه، والكشطات والسحجات في ساقيه، وملفوفًا بالجنازير،

ومشبوكًا بقضبان السرير. كان رأسه محطمًا من الناحية اليسرى، كأن وجهه انفصل نصفين تربطهما تكسرات عظام متشظية وجلود ممزقة. تجويف العين اليسرى منفجر متفتت محترق الحواف بسواد بارود ينضح برائحة شياط، مقلة العين سوائل من البياض والسواد المدموغ بالدم المتجلط، والمخ عجينة رمية متماسكة قليلًا لونها أحمر، نثرات من قطع متناهية الصغر من فتات البطاطس على غضون الوجه وجوف العين، رصاصة عالقة بأوردة متناسلة وبثور جلد ودم متكدس متكلس على حوافها تظهر في ثقب كبير محترق في الوسادة المستند عليها الرأس المنفجر.

التفت كامل إلى مثلث القتلة، أبو توبة وأبو هريرة وأبو نعمان، الواقفين، فانهالوا عليه بسياط من نظرات الفخر والتيه، وكان فرح الانتقام يجري تحت جلود وجوههم، أنفاسهم كانت تغني لِحن الشماتة، بينما كان أبو هريرة يتمتم: «قَتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ للَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ». سمعه كامل، فارتجت كل خلجة في بدنه، فقفز على رقبة أبو هريرة وقبض عليها خانقًا:

ـ مين اللي قوم مؤمنين يا ابن الكلب؟!

مرت دقائق دقت فيها أجهزة اللاسلكي وأقراص الهواتف، فوقفت سيارات الشرطة تسد الشارع من الجانبين، وتحيط الفيلَّا صفوف من العساكر بالبنادق والخوذات، وحشد من الضباط مختلفي الرُّتب يقفون في منتصف الطريق وعلى الأرصفة وتحت الأشجار، وأمام محلين مغلقين يجلس بعضهم على كراسي خشبية. تضرب سارينة عربة شرطة فيلتفت الجميع بالرؤوس والأعناق والأكتاف، وتنفتح فرجة بين السيارات لتمر السيارة الوافدة، تنزل منها رتبة أكبر ترد تحية الرتب الأصغر بتمتمة وهمهمة. كان الكل في انتظار مجيء اللواء النبوي إسماعيل نائب وزير الداخلية. وها هو قد وصل. كان حسن أبو باشا قد سبقه، ثم امتلأ الشارع بمصوري التلفزيون ومحرري وكالات الأنباء والصحف، والمحافظ وموظفيه، ومدير أمن الجيزة ومساعديه، ومدير أمن القاهرة ورجاله، والمارة والجيران ومصلين من جوامع قريبة. وامتلأت الشرفات بالمتفرجين المتحسرين المستغربين المستنكرين. وكانت الشقة قد تعبأت بخبراء البحث الجنائي والبصمات، ووصلت النيابة تعاين وتستجوب.

تنهَّد النبوي إسماعيل مبتئسًا ومضغوطًا، باحثًا عن أي صياغة تحوِّل من هذه اللحظة الكئيبة خبرًا يليق إبلاغه للرئيس السادات: «الحمد لله أننا نجحنا (نجحنا) في العثور على الشيخ الذهبي (وليس على جثته) قبل أن ينفذوا خطتهم التي أجهضناها. تخيل يا أفندم لو كانوا نجحوا في لفها في خيش وشوال وحطوها على عربة كارو ورموها بجوار ترعة الزمر! أي بهدلة وإهانة للفقيد الجليل ولهيبة الدولة كانت ستحدث؟ لكنني أعدك أن الأمر لن ينتهي هنا، فقد قبضنا على خمسة وسبعين في المائة من التنظيم، وكما أقسمت، فإنني سأصفي التنظيم ولن أترك منه حجرًا فوق حجر!».

اطمأن للصياغة، وقرر أن يستفتي حسن أبو باشا فيها، لكن كل ما يحلم به الآن معجزة قبل الجنازة لن تعيد الذهبي المخطوف حيًّا، ولكن تعيد كرامة الدولة المخطوفة، وكانت المعجزة للغرابة مع عبد الحفيظ.

* * *

جلس عبد الحفيظ واضعًا ساقًا على ساق من تحت الجلباب البلدي الفضفاض، يطري عليه من حر عزبة النخل السقيم، طالما ترجى مفتش المباحث أن يقب فوق وجه الدنيا بدلًا من الرمية التي لا يعلم بها إلا الله. عزبة النخل بشوارعها الترابية، وعمائرها العشوائية، بطوبها الأحمر، وأحبال غسيلها، وزراعاتها التي تبلع في الليل خباياها، والسكان القادمين من الصعيد والشرقية، أو ملفوظين من غلاء المطرية أو عين شمس، والأقارب الذين يصنعون من جيرتهم وأعمالهم المشتركة والمتقاربة قبائل وعائلات تتبادل الزيارات والمجاملات والنسب والسب والغيرة والخناقات والمحارم والسنج والمشاجرات. ما لها مناطق كالدقي والعجوزة، يأخذ عياله هناك للسكنى والعمل والعيشة النظيفة؟

يتساهر في قعدته اليومية أمام دكان خليل الترزي، حيث طراوة الشارع الوحيدة، وناصية تضمن له متابعة الرائح والقادم، فضلًا عن أن خليل هو وكالة رويترز المنطقة، فهو الأقدم والأكثر حشرية في شؤون خلق الله، ولا يكف عن سيرة الناس في تفاهات الأمور وصغائر الأحداث، ثم إن شايه شيخ شريب، وزبائنه يتعودون ملء كل جلسة وزيارة وبروفة جلابية بثرثرة وحواديت، ورغم أصوات القصقصة وتكتكات ماكينة الخياطة السينجر إلا أن هدوء الشارع كان يفرش تراب النهار.

حيا عبد الحفيظ خليلَ الترزي وصبَّح عليه، وجلس على كرسيه المفضل، وبدأت رشفات الشاي تعدل مزاجه، وثرثرة خليل مع قصقصاته تكسر السكون. كان عقله موزعًا بين حكايات خليل الفضائحية، وبين الأوامر التي تلح عليهم منذ أيام في القسم للانتباه جيدًا للشقق المفروشة والوشوش الغريبة، بحثًا عن عيال التكفير والهجرة الذين خطفوا الشيخ الذهبي وقتلوه. كان الجورنال صديق المخبر الوفي، وعصاه القصيرة ذات المقبض الجلدي، موضوعَين فوق بعض على المائدة الخشبية القصيرة الصغيرة أمامه، وصورة الشيخ الذهبي كبيرة تحتل الصفحة الأولى.

عاش عبد الحفيظ قضايا كثيرة، وشغال من أيام المرحوم عبد الناصر، وعمره ما شاف جريمة خطف وقتل مثل هذه، ثم إن المطرية وعزبة النخل بعيدتان عن أيدي الجماعة الإخوانجية منذ سنين، وإن كان العيال السُّنية كثروا هذه الأيام، وطلع لهم صوت، حتى إن البك الضابط نفسه أصبح يصلي الجمعة في مسجد جمعية أنصار السنة الذي جددوه مؤخرًا ووسعوه وبنوا له دورًا للسيدات، وعملوا فيه مستوصفًا، ومقرأة حفظ قرآن للأطفال، واشتروا له ساوند سيستم وثلاثة ميكروفونات.

كان خليل الترزي نازلًا على أذنيه بحكاياته حين خطف المنظر عينَي عبد الحفيظ، هل لأنه يفكر في الموضوع طوال الوقت أم لأن أوامر المأمور ترن في أذنيه أم لأن الجورنال مفرود قدامه؟ لكن قلقه وغوش وعقله لف، فقرر أن يقوم على وجه السرعة ويتجه ناحية هذا الرجل الذي يرتدي جلبابًا بياقة وزراير، فليس جلبابًا بلديًّا مما نلبسه، ثم لافف لاسة على شعره، وتظهر صلعة خفيفة في مقدمة رأسه، وتلم اللاسة جزءًا من وجهه تحتها، فتختفي ملامحه كأنه ملثم لا تبين منه إلا عينان تريان الطريق، وبجواره امرأة ترتدي جلبابًا أسود واسعًا غريبًا عما تلبسه السيدات من جلاليب سوداء قطيفة أو قطن أو أي نوع، لكن لا تكون بهذه البهوقة عليها. ثم ما هذا الذي ترتديه على وجهها وتغطي به ملامحها مثل اليشمك أو الذي اخترعوه هذه الأيام من نقاب السعودية؟ أسرع وشق المسافة ركضًا ثم وقف متصلبًا يقطع الطريق على الرجل وامرأته. لوهلة أحس ترددًا، فالرجل ثابت غير مرتبك بعدما شخط فيه عبد الحفيظ:

ـ عندك يا جدع!
الرجل بصوت واثق النبرة، وبعينين واسعتين آمنتين، وبكلمتين مطمئنتين ردَّ، ولم يؤخذ بوقفة المخبر ولا شخطته:
ـ أنتم مين؟
لم يفهم عبد الحفيظ لماذا خاطبه بصيغة الجمع «أنتم مين؟»، لكن أفاق بسرعة على خليل الترزي وقد وقف بجواره بعدما أثارته قفزته وجريته من الدكان، ثم كان قد نسي عصاه فحملها خليل له ودسها في قبضته وهو يرفع صوته لإثبات سلطته في مواجهة الرجل الملثم:
ـ عايزين بطاقتك.
كانت المرأة تهتز داخل جلبابها الأسود ووراء نقابها المبلل بأنفاسها. كرر الملثم فصاحة سؤاله:
ـ أنتم مين؟ وفين بطاقتكم؟
لم تعجب الدخلة عبد الحفيظ واعتبرها لكاعة تثير الغيظ مع الشك، فأجاب:
ـ إحنا مباحث، وورينا أنت بطاقتك.
فاجأه الملثم بثقة متغطرسة كأنما يتأفف من السؤال والطلب وصاحبهما:
ـ أنا لا أعترف بالبطاقات.
أدهش الرد المخبر عبد الحفيظ، وكاد معه خليل أن يشخر معجبًا ومتعجبًا معًا. اتضح عند عبد الحفيظ أن فيه إنَّ وكأنَّ ولعل وعسى وكل أخوات إنَّ خصوصًا، وقد باغته الملثم بما هو أدهش من عدم اعترافه بالبطاقات.
كانوا قد وقفوا عند بيت بطابقين بالطوب الأحمر، وتطل من شرفة الطابق الأول سيدة منتقبة ذات رداء أسود تكاد تظهر بوسطها من فوق سور الشرفة تتطلع نحوهم، وتلوح بيد ملفوفة بقفاز قماش أسود للرجل أن يبعد، لكن الملثم تمهل وترك اللاسة التي تصنع لثامًا على وجهه تنزاح، فبان وجهه بلحيته الطويلة وعينيه اللتين كأنهما ازدادتا اتساعًا:
ـ لو سمحتم، لا يجوز أن تكون هناك عورة بيننا.
بينما بحث عبد الحفيظ وخليل عن العورة المعنية، أكمل:
ـ الست تدخل وأنا أرجع لكم.
قطع عبد الحفيظ علاقته بأي حس أمني أو خبرة بوليسية، واستسلم لغيرة الذكر الذي يستأذنه في صون عورته، ووافق متحمسًا لأن يدخل مع عورته وينتظره عبد الحفيظ خارج باب البيت. حين اختفى بعورته لكز خليلُ المخبرَ عبد الحفيظ مغتاظًا ومبهوتًا:
ـ يا جدع، إيه المصيبة اللي عملتها دي؟! تسيبه يطلع وأنت لا عرفته ولا فتشته؟ ثم من قال لك إنه سينزل ويرجع لك أو قد تجده نازلًا لنا ببندقية تحشنا؟ وليه تحشنا نحن الاثنين؟ ما أنا أمشي أحسن وأتركك يا سبع البرمبة!
أحس عبد الحفيظ أنه دُهل فعلًا، لكن لغة الملثم الذي لم يعد ملثمًا، ونبرته الواثقة، وذكورته الناقحة عليه، جعلته يطمئن أنه رجل ولن ينكث بوعده، ثم شعر بالرضا عن نفسه وبالتشفي في خليل وبأنه فعلًا سبع البرمبة، ثم أحس أكثر باحترام للملثم حين عاد بالفعل من داخل البيت وحيدًا بدون عورته، ووقف أمامه، فأسرع المخبر عبد الحفيظ ليمارس سلطته، فدس يده وأخذ

يفتش في جيوب الرجل، فعثر على أربعة وعشرين جنيهًا (خليل الذي عدهم)، وكذا تذكرة قطار قادم من بنها (لعله ركبه من المرج). كأن بطاقة القطار في يد المخبر استفزت الرجل فاحتد:

ـ أنتم عايزين إيه؟ أنا معنديش بطاقة.

شخط عبد الحفيظ مستعدًّا للأخذ والرد:

ـ اسمك إيه يا جدع أنت؟

ـ اسمي زين.

تنمرت ملامح عبد الحفيظ وهو يشم رائحة الكذب المتلاعن تفوح من فم الرجل، فرماه بالتهمة في وجهه:

ـ أنت من جماعة التكفير والهجرة اللي قتلت الشيخ الذهبي؟

رد الملثم سابقًا وزين حاليًّا بلهجة نافرة:

ـ الجماعة ما قتلتش حد.

أدرك المخبر عبد الحفيظ فورًا أن السافل الماثل أمامه عضو في جماعة التكفير والهجرة. انتفضت ملامحه، وجحظت عيناه، واحمرت وجنتاه، ونفرت عروق رقبته، ونشف حلقه، وهو حائر كيف يتصرف مع عضو الجماعة! لكن الرجل كان قد تضرجت الحمرة في عينيه وغلت نظراته غليانًا، وكأن البخار يخرج من صدره زعق منفعلًا صائحًا:

ـ أنا شكري مصطفى، عايزين إيه؟

للأمانة لم يكن عبد الحفيظ ولا خليل يعرفان بالتأكيد ماذا يعوزان. مفاجأة الإمساك بعضو تكفير وهجرة تحولت إلى قنبلة القبض على المطلوب رقم واحد، الرأس الكبير، زعيم التكفير والهجرة شخصيًّا، والرجل كأن لسعانًا ضرب في أسلاك دماغه فظل يصيح مكررًا في وجه عبد الحفيظ:

ـ أنا شكري مصطفى، عايزين إيه؟

لعل عبد الحفيظ في المرة الثالثة قد أدرك أخيرًا شيئين: الأول أنه لا بد أن يعوز شيئًا، والثاني أنه لا يملك سلاحًا إلا إذا اعتبر عصا غزل البنات التي يمسكها سلاحًا، وليس معه جهاز لاسلكي (من هو أصلًا في وزارة الداخلية كي يتسلم جهاز لاسلكي في عزبة النخل؟!)، ثم الأنكت من هذا كله (ثالثًا) أن المنطقة برمَّتها وفي حزام كل الشوارع المحيطة ليس في بيت بينها ولا داخل دكان منها جهاز تلفون واحد! ماذا يفعل؟ كيف يتصرف؟ أيكون في يده وأمامه شكري مصطفى الذي تبحث عنه مصر كلها، وعاجز أن يفعل أي شيء؟ لحظتها أخرجه شكري مصطفى من عجزه، فترك عبد الحفيظ واقفًا ودلف إلى مدخل البيت عابرًا بابه وصاعدًا سلالمه حيث صعدت عورته منذ قليل. سمع عبد الحفيظ المذهول والمبلول صوت الباب في الطابق الأول ينفتح وينغلق، بل وجملة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ترن في شقة تبدو فارغة الأثاث. وقع عبد الحفيظ في دوامة الحيرة تأخذ عقله وتلف به، حتى أخرجه منها وجه خليل الشاحب المحدق ترتعش كل مساحة ظاهرة من جسمه:

ـ اسمع يا خليل، بسرعة خد أي عربية أو تاكسي، لأ مفيش تاكسي في أم الحتة دي، وقف أي عربية أو حتى ترمي نفسك قدامها، تاخدها وتطلع على القسم تبلغهم وأنا سأنتظر هنا أحرس البيت.

ـ تحرسه بإيه؟ بالعصا؟! ثم افرض شكري مصطفى نزل لك حالًا بمدفع رشاش هو والستتين اللي معاه، ومن الذي أدراك إنهم ستات أصلًا؟ ما يمكن رجالة، يقتلونك ويهربون يا عبد الحفيظ

يا أذكى مخبر في مصر.
رد عبد الحفيظ مدافعًا عن ذكائه من هجمة التهكم الشرسة:
ـ لأ، ما أنا سأنادي اتنين تلاتة من الشارع يقفون معي، رُح أنت بسرعة في عرضك.
رد خليل كأنه اقتنع بالعرض:
ـ طيب والدكان؟
ـ يحترق الدكان بمن فيه!
* * *
جلس شكري مصطفى على الحصيرة، ساندًا ظهره على الحائط، ممددًا ساقيه أمامه. تدارت زوجته مع شقيقتها في غرفة. كان قد توضأ وصلى، تلا ما تيسر من الذكر الحكيم، أكل لقمة على ما قسم، دخل وخرج في غرفات الشقة، لكنه عاد ومكث في صالة الشقة وحيدًا، عن يمينه الشرفة مفتوحة الدرفتين تهب منها نسمات حر وئيدة، وضوء نهار يسبق شعاع شمس يضع علامته البيضاء المصفرة على زاوية الحائط. يتأمل خشب باب الشقة المقشر، كأنما انفتحت درفتا الباب عن ماضيه كله، يتفرج عليه صورًا على الحائط تمر وتعبر من الباب: هو وأمه على ظهر عربة كارو بعزالهم يخرجان من القرية، جلسة أبيه في الدوار، قاعات وممرات الكلية، وجوه جامع الجمعية الشرعية، قطارات تجري، وسيارات تقف، وبيوت تبعد، والزنازين... ما أكثرها وأضيقها وأثقلها. سقته الذكريات راحة، كأنما أبهجته الرحلة، يستعيد تلك السحابة الحانية بلونها الأزرق السماوي المضبب بلمسات من الرمادي صاحبته في ساحة السجن، فكانت تزوره في الزنزانة كلما كمد قلبه واستبشع الأيام:
ولذلك قبل الطوفان
أحبابي قبل الميزان
سأشيد في قلبي المسجد
وسأرفع عمدان المعبد
وسأبني في جسمي المجهد
صرح الإيمان
فليسجد من شاء ويركع
وليجثُ الناس على أربع
أنا لن أسجد
أنا أعرف حقًّا من أعبد
لم ينم شكري منذ ترك دير الملاك، تخاطفه اللهاث من شقة إلى أخرى، كان يحس النصر في كل خطو، والفوز في كل خبر، ويطمئن إلى الدنيا كلها تمضي كما أراد لها أن تمضي، تسمع وتنصت وتتنبه وتتعظ وتخشى وترتدع، فجماعة آخر الزمان أعلنت عن نفسها، والمهدي المنتظر جاء لمن ينتظره، حتى لو قبضوا على هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزدناهم هدى، حتى لو زجوا بماهر في السجن، وصحبه أبو طلحة وأبو عبيدة وأبو هيثم وأبو سهل وأبو مصعب وأبو يوسف وأبو هريرة وأبو دنيا وأبو حذيفة، وغيرهم من مهاجرين وأنصار، ولو

جاءوا به هو شخصيًّا فأخذوه وسلبوه حريته، فإنهم لن يقدروا على أن يجرحوا في جماعة الله جرحًا، ولن ينالوا منا أبدًا، فإن الله لن يضيع أهله.
دق الباب بأيدٍ وأقدام وقبضات وأكواع وكعوب ومرافق ورُكب، نهض شكري من قرفصته بطيئًا هادئًا، أحكم اللاسة على رأسه وكتفيه، ومسح بكفيه لحيته، واقترب من الباب، فعادت ظلال الأجسام خارجه للخلف وتباعدت، فابتسم وفتح ترباس الباب بهدوء، فظهرت الوجوه المتكالبة والأجساد المتدافعة والطبنجات المشرعة، فأومأ:
- أنتم وصلتم.
* * *
كان النبوي إسماعيل يهبط مهرولًا من السيارة، خطفت الطريق إلى قسم شرطة المطرية كأنها في سباق سيارات، تجري عيناه على العابرين على الأرصفة، والراكبين في السيارات، والأبنية والكباري، والنافورات والتماثيل، ولوحات الإعلانات وملصقات الأفلام، ولافتات التأييد المعلّقة بين الأشجار وفي عرض الشوارع، وصور الرئيس السادات على الحيطان. ملأت الحماسة قلبه فأخذ يغني أغنية زوجته مدندنًا:
دع سمائي فسمائي محرقة
دع قناتي فمياهي مغرقة
يا سلام عليكِ يا فايدة! تتفجر وطنيتي وأنا أسمع أغنيتك. واصل الغناء منتشيًا:
واحذر الأرض فأرضي صاعقة
هذه أرضي أنا وأبي ضحى هنا
وأبي قال لنا مزقوا أعداءنا
أنا شعب وفدائي وثورة
طبعًا نحن نؤمن بثورة يوليو، وثورة التصحيح، فلولا ١٥ مايو لضاعت ٢٣ يوليو. هو يحب ١٥ مايو أكثر، وينتمي إلى السادات جدًّا، وفايدة كذلك، فمع احترامنا لـ«وطني حبيبي الوطن الأكبر، يوم ورا يوم أمجاده بتكبر، وانتصاراته مالية حياته» التي غنتها فايدة مع عبد الحليم، فالسادات هو من انتصر.
ظل النبوي طوال الطريق مستثارًا ومنفعلًا وحواسه كشفرات الحلاقة تشق جلده. كان مذهولًا بطريقة القبض على شكري مصطفى، وأكثر ذهولًا بأن مخبرًا وقف على باب بيته بلا سلاح ولا إمداد ولا عناصر تأمين وبلا أي حاجة، بينما شكري استسلم، لو كان نفخ في المخبر كان قد تمكن من الهرب، وكنا دخنا وراءه أيامًا وأسابيع أخرى! كيف كان شكري وحيدًا وبلا سلاح ولا معاونين وبلا أي رغبة في المقاومة والصد والرد، بل هو الذي صارح المخبر بأنه شكري مصطفى؟! طبعًا سنقول للصحف وقبلها للرئيس ولممدوح سالم غير الحقيقة، فالحقيقة هزلية ومخجلة وتجعلنا أبطال صدفة، لكن هذا الولد صندوق ألغاز أو مستشفى مجانين متنقل!
وصل إلى قسم المطرية، وسط التحايا الفرحة الفخورة نزل، مع التسليمات والتعظيمات مر بين الضباط، في موكب من الفخامة والمهابة تقدم، أدخلوه الغرفة التي يجلس فيها شكري مصطفى. انفتح الباب العالي العريض، ودلف منه النبوي، فبدا قصير القامة حاد القسمات وتكتسي ملامحه الأهمية. صوب نظراته على شكري الجالس بجلبابه الأزرق على كرسي خشبي، فأمعن فيه شكري النظر ملاحظًا أن دخوله بعث في الموجودين بالغرفة إحساسًا بالأهمية. كان حسن أبو

باشا جالسًا على مقعده في الركن، وبجواره عادل مجاهد واقفًا، بينما جلس أحمد رشدي مدير أمن القاهرة على مقعد المأمور، وتوزع ضباط متنوعو الرُّتب والبذلات في الغرفة التي تزاحمت بالمهمين. لما قام الجميع تحية للنبوي، تذكر شكري وجه الرجل وصفته فصاح فيهم:
- اسمع يا نبوي، سنقتلك وسنقتلكم جميعًا، وبعدها سنجلس على مقاعدكم، وأنت (نظر إلى عادل مجاهد) لا تعتقد أنك ستفلت منا، سنقتلك كما قتلنا الذهبي برصاصة في عينك اليسرى التي يسكن فيها الشيطان، وسنرث الأرض ومن عليها.
ابتسم عادل مجاهد مستخفًّا:
- يعني متأكد أنك سترث سجن القلعة.
تجاهل شكري رده، وصوب سبابته عليهم تدور كأنها فوهة مدفع يحصدهم جميعًا برصاصه:
- أنت يا فؤاد وزبانية الشيطان، لن تفلتوا منا، الصف الثاني سوف ينتقم لما حدث، ونحن أربعة آلاف، يعني أربعة آلاف ثأر شخصي بيننا وبينكم، وسوف نقضي عليكم بإذن الله.
رد ضابط قاطعًا ما رآه هذيانًا:
- لقد كنا نقدر على قتلك ونخلص الدنيا من شرورك برصاصة واحدة، لكننا نلتزم بسيادة القانون وحماية حياة المتهم، وسنترك أمرك للقضاء.
تطاوس شكري مصطفى وحلَّق برأسه وكلماته إلى أعلى:
- أنا لن أموت.
كان هادئًا جدًّا، ومتعاليًا تمامًا، وصادقًا حتى النخاع فيما يقول، إلى درجة أنهم ارتجوا جميعًا. كان يحب أن يصموه بالجنون، ويروجوا عنه هذيانه، لكنهم صدقوا لحظتها أنه يصدق ما يردده، لا يقصد به تهديدًا وترويعًا أو إنكارًا واستكبارًا، بل هو فعلًا يصدق أنه سيرث الأرض ومن عليها، لكنه عاد فانكمشت كلماته من الوعيد إلى العطف عليهم، وقال بصوت خفيض شفيق:
- كل ما كنت أريده منكم قطعة أرض أقعد فيها مع المسلمين نتعبد، إلى أن تفنوا أيها الكفار مع العالم كله، ونبدأ نحن عملنا.
لم يركز النبوي إسماعيل في اللغو الذي يصل إلى مسامعه، كانت حواسه كلها تغني «دع سمائي». نظر إلى حسن أبو باشا الذي أومأ، والتفت إلى أحمد رشدي بنظراته، ففهم رشدي فاستدار إلى المأمور وأمره:
- إذن على سجن القلعة.
كان النبوي قد جلس على المكتب وأدار القرص ليتصل بالرئيس

(11)

تابعت عايدة شداد المشي وراء حزنها الذي عشش في قلبها على غير ما توقعت منذ بلغها خطف الشيخ الذهبي، لم تكن قد تعرفت على وزير الأوقاف السابق شخصيًّا، رغم أنها الصحفية في الجورنال الأشهر في مصر. كان منطفئ البريق كشيخ، لكن أزمة الاختلاسات والسرقات في مديرية الأوقاف التي فجَّرها كانت ضمن مهامها الصحفية عدة أسابيع، ثم سرعان ما خفتت القضية، وتوارت خلف الأحداث وتحت ركام الأيام، إلى أن وصلها خبر الاختطاف. صدمتها الجريمة رغم أن البلد تمتلئ بما يهز وما يهز بعنف، بل البلد نفسها مهزوزة، كما أن شغلها في

الصحافة عرَّفها عن بلدها ما كانت تجهل أنها ممكن أن تعرفه. لكن أن تقتحم مجموعة تقول عن نفسها إسلامية بيت شيخ عجوز، وتنزعه من فراشه، وتجره أمام عياله، وتختفي به، وتقايض عليه، فهذا ما يشرخ جدارًا من الطمأنينة كانت تستند عليه.
إنها إذن هذه الوجوه نفسها بلحاها الطويلة الشعثاء الغريبة، ونظراتها القاسية الباردة، ورغبتها السادية في الإيذاء التي انهالت عليها بالضرب والركل والصفع وهي تقف على خشبة مسرح الكلية تمثل مع زملائها مسرحية «العشرة الطيبة»، كانت موسيقى سيد درويش تصدح من آلات زملائها في أوركسترا الطلبة في عزف حي، وأفراد الفرقة موزعون في الاستعراض الغنائي على الخشبة وسط تصفيق وتهليلات انبهار وإكبار من مئات الطلبة في صفوف المسرح، يتقدم صفها الأول أساتذة الجامعة ولجنة تحكيم من مخرجي مصر الكبار، ثم فجأة اندفع من صفوف الطلبة ومن ممرات المسرح ومن غرف الكواليس للخشبة صعودًا وقفزًا وتسللًا عشرات الطلبة الملتحين (كثافة اللحى تعبر عن أقدمية الإيمان أو تراتبية الإخلاص أو نوعية جينات نمو الشعر) يرفعون العصي ويطوحون الجنازير وأعواد الحديد وهم يهتفون الله أكبر، ويحطمون كل شيء أمامهم: الأضلع كما آلات العزف، الأذرع كما أعمدة الديكور، الرؤوس كما الميكروفونات والسماعات، يمزقون الستائر مع فساتين الطالبات الممثلات وأزياء الممثلين، يتدافعون كالثيران الهائجة، ويهتفون بحناجر من غزوة اليرموك، إسلامية إسلامية، ويرمون بأجساد الطلبة الممثلين من فوق خشبة المسرح على الصفوف الأمامية التي فر أصحابها وهربوا، ودبت فوضى جامحة في الصفوف، وهياج وصريخ وعويل واستغاثات. الغريب أن أحدًا لم يقاومهم، ثم لم يقدر عليهم، مقاومة كليلة قليلة، ولم يظهر رجال أمن الجامعة، ولم يتدخل مسؤولوها، رغم الدم المنتثر في الأرض وفي الوجوه، والجروح المفتوحة في الرؤوس المبطوحة، والعظام التي تكسرت، والضلوع التي انخلعت، وسيد درويش الذي لقي منهم ما لم يلقه من الاحتلال الإنجليزي. بعدها لا تحقيقات في إدارة الكلية، ولا تدخل من حرس الجامعة، بل منشورات واتهامات في جامع الكلية أن العرض المسرحي فضلًا عن أنه حرام، لكونه فنًّا، فإنه كذلك خليع متهتك رقيع. وصرنا جناة لا مجنيًّا عليهم، ونشكر الله على نعمة الضرب لا الرجم. الكدمة الحقيقية التي تلقتها عايدة يومها كانت الكمد الذي أصابها لما رأت زميلها في الكلية عبد المنعم أبو عوف الذي كان حتى شهر سبق خجولًا، رأسه في الأرض، ونظراته منكسرة، وصوته واهنًا، ومنظره المرتعد إن رأى بنتًا، أو المرتج إن حادثته زميلة، هو الطائح فيهم بجنزير يلفه على قبضة يده، ويفرده لسعًا وضربًا وجرحًا وتكسيرًا في زملائه وزميلاته، حتى أصابتها منه ضربة طرقعت لها عظمة ذراعها وأزرقتها أيامًا. تمس الآن ندبتها وهي مقبوضة القلب، ربما عبد المنعم أو أمثاله من هؤلاء الطلبة هم الذين خطفوا الشيخ الذهبي. كانت الجامعة تتغير حولها، بينما يسخر زملاؤها من زملائهم أعضاء الجماعات الإسلامية، ومن تصرفاتهم وحماقاتهم، ويخفف البعض من وجودهم ومن تأثيرهم، وينغمس البعض في إحساسه بأن هذه الجماعات مجرد هاموش هامشي؛ تعبيرًا عن عجز أبناء الثقافة الريفية والصعيدية والفقيرة المهمشة والرثة اجتماعيًّا واقتصاديًّا عن التصالح مع الحداثة والتعامل مع العصر. كانت تكره هذه التنظيرات وتزدريها وهي تخرج من زملائها ميكانيكية التردد وآلية التكرار بيقينية التطور الحتمي للتاريخ. كانوا يكرهون السادات، ويستضئلون الجماعات الإسلامية، ويستخفون بالإخوان الذين ظهروا وانتشروا، ويحتقرون الكتب التي انهالت دفاعًا عن الإخوان وهجومًا على عبد الناصر. كانت هيام الوحيدة التي تتشفى في السابق واللاحق وتضحك شامتة: «خليهم

يخلصوا على بعض»؛ صديقة ورفيقة الجامعة والجورنال ظلت تراكم كل يوم طبقة من شرنقة تلفها حول نفسها تحتمي بها من خارجها.
لا تزال تتذكر يوم العرض الخاص لفيلم «عودة الابن الضال» في سينما «رمسيس» مع أصحاب الجورنال وبقية شلة الجامعة (كان الناقد السينمائي فاروق فرج هو من دعاهم للعرض، ووعدهم بمصافحات مع سهير المرشدي بعد العرض)، وكانت المطربة اللبنانية الصغيرة ماجدة الرومي تغني «الشارع لنا»، وهم يرددونها وراء الرومي، بينما عايدة تشعر وخزًا في قلبها وشكًّا في جلدها؛ فالشارع لم يعد لنا (ومن قال إنه كان معنا أصلًا)، بل يبعد عنا، لكن أحدًا لا يعيرها اهتمامًا، فلا يزال هؤلاء الطلبة الذين هاجموها واعتدوا عليها خلال عرض المسرحية، الذين تخافهم وتراهم من يومها في كل مكان، هم عند أصحابها الآمنين على أنفسهم وبلدهم مجرد نسخ من محيي إسماعيل الممثل الذي كان يردد بأداء متشنج مثير للشفقة والضحك كلمة «جمعاء» في فيلم «خلي بالك من زوزو» (من أجمل ما حدث لها في الصحافة يوم التقت سعاد حسني، ومن أتعس أيامها كذلك، فزوزو لم تنطق لها بكلمتين على بعض ردًّا على سؤالها).
الوحيد الذي أشفق على روعها من مصر التي تتغير هو الأستاذ رياض سليم، وفدي قديم ونجل أب وفدي أقدم، يطمر انتماءه تحت جلده، وقرر أن يشتغل ترزيًّا في الصحافة، أفضل من أن يعمل صحفيًّا في محل ترزي، يربط الحمار مطرح ما عايزه صاحبه، لكن وهو يربطه بإحكام وبإخلاص يشرح لصاحب الحمار أن ثلاثتهم لا يختلفون عن بعض، أنت وأنا والحمار حمير، لكن لا بأس ما دام هناك مرتب آخر الشهر، لا أنا حمل سجن ولا طرد من وظيفة. كانت نظرته إليها وحنوه عليها وإعجابه بآرائها التي يستحثها على البوح بها، وينصت لها، ويشجعها أن يظل رأيها من دماغها، ولا تجري وراء مسايرة لأحد، ولا ترهبها موجة عالية، ولا يبتزها إجماع، ولا تغيرها أغلبية، ولا تنفرها أقلية، كان يبحث فيها عن شبابه الذي شاخ، وعن تمرده الذي باخ. قال لها وهو يناديها بيده من قاعة التحرير التي تحتشد فيها المكاتب الصغيرة المتصلة ببعضها:
- يا عايدة، أنا اخترتك من الفريق المكلف بتغطية خطف الشيخ الذهبي تحت إشرافي المباشر.
كان في الفريق نفسه محررو الحوادث والقضاء ومندوبو الجورنال في مجلس الوزراء والأوقاف، ورجب مهنا كان النجم الأهم والأتعس في الفريق، فالأستاذ رياض يدير الاجتماع بتعليماته وتوجيهاته التي تنتقل من الزعيق والشخط فيهم إلى الرقة والتودد مع رجب، الذي ظل في ساعات الاجتماعات يشتبك مع قلمه الحبر يخرم الورقة بسنه ويفرش الصفحة بحبره.
* * *
كان رنين التلفون الذي خرق ساعات الليل الأخيرة في بيت رجب مهنا لا يزال يرن في أذنيه من ساعتها، اتصلت به أسماء ابنة الشيخ الذهبي ملهوفة مرعوبة، ينهش القلق صوتها، تخبره أن مجموعة من الرجال منهم ضابط بزيه الرسمي خطفوا والدها منذ دقائق من بيتهم. مروعًا ومصدومًا أدرك أنه لا بد أن يتصرف فورًا وهو بالبيجامة على سريره. هو مشرف صفحة الفكر الديني في الجورنال، يخلو دفتر تلفوناته من أسماء وأرقام ضباط، أسرع وحصل على رقم مكتب مدير أمن القاهرة من سويتش الجورنال، أيقظ العامل بزن الرن على أذنيه، وطلب منه بالمرَّة أن يوصله بمدير التحرير المناوب في طبعة الفجر. بعدما أبلغ مديرية الأمن بما وصله من خبر ابنة الشيخ الذهبي المفجع، عرَّف عن نفسه ووظيفته كصحفي وعن مصدره، وأملى معلومات الخطف المقتضبة المفرطة في رعبها للضابط المناوب في مكتب مدير الأمن، وكان قد

رد ببرود منوم ثم سخنت الصدمة رده وأطارت المفاجأة نومته. بعدها أبلغ رجب مدير التحرير الليلي، وهو يرتدي ملابسه متعجلًا وينزل مهرولًا بسيارته النصر المائة وأربعة وعشرين إلى بيت الشيخ الذهبي، وكان قد زاره عدة مرات، خصوصًا عقب خروجه من الوزارة. استنظفه الشيخ الذهبي من بين زملائه الذين يغطون أخبار الأوقاف لصحفهم، فقربه إليه، واستأمنه على نطف أفكاره حول تغيير شامل ينتويه في سياسة وزارة الأوقاف. ثم لما ترقى رجب سريعًا، وصار مشرفًا على صفحة الفكر الديني، تيقن الذهبي أنه تخير لنطفه. فلما أطيح به من الوزارة، وأبقى رجب على السؤال والتواصل وزيارات البيت والاطمئنان والسلامات، تبناه ابنًا مخلصًا، خصوصًا أن رجب كان ابنًا لأب أزهري، فما جمع إلا ما وفق.
أسماء لم تكن تعرف لوالدها صديقًا يملك صلات وعلاقات إلا هذا الصحفي الذي عرفها عليه أبوها ذات مرة، فكلمته وخصته بالمصيبة التي لقيت نفسها وعائلتها فيها. لما وصل رجب إلى بيت الشيخ الذهبي لم يخرج منه إلا في الفجر التالي. كان في استقبال مدير المباحث، ثم مدير الأمن، ثم ضباط أمن الدولة، وأخيرًا اللواء النبوي إسماعيل نائب وزير الداخلية. وكلما تعرف عليه أحدهم وبلغهم أنه أول من أبلغهم ازدادوا أسئلة له واستفسارًا منه وتوسطًا بينه وبين أفراد العائلة الملتاعين. ثم تعاملت معه العائلة باعتباره مندوبها لدى الحكومة، فيما تريد أن تقوله، وما تبغي أن تسأله، وفي الإعراب عن جزعها، وفي الإعلان عن فزعها. ثم لما وصل مندوبو الصحف كلهم كان مصدرهم الرئيسي زميلهم رجب مهنا، حتى إن مندوب جورناله اتصل بمدير التحرير الصباحي يشكو له أن الأستاذ رجب مشرف صفحة الفكر الديني في جورنالهم يعمم معلوماته للصحف المنافسة ويبخل عليه بأي سبق. عندما عاد رجب إلى الجورنال عاتبه مدير التحرير نقلًا عن رئيس التحرير، ثم إن رئيس التحرير نفسه قابله مواسيًا ومدعمًا ومذكرًا له بأنه صحفي، وليس صديق الشيخ المخطوف فقط، وطلب منه أن ينضم إلى فريق التحقيقات المعني بمتابعة قضية خطف الشيخ الذهبي. على قدر ما أوجعه استبعاده من رئاسة هذا الفريق على قدر ما أطاع رئيس التحرير، رغم أن رجب اعتقد نفسه مفكرًا دينيًّا منذ أشرف على صفحة الفكر الديني، وليس صحفيًّا فقط.
كانت أول مرة تخصِّص الجريدة صفحة للدين في غير شهر رمضان، وقد اختاروه لتخصصه في وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر، رغم أن رياض سليم مدير التحرير اعترض على الأمرين:
ـ تخصيص صفحة دين لأننا لا يمكن أن نجعلها صفحة للدين الإسلامي فقط، فلماذا إذن لا نخصص للدين المسيحي صفحة؟
فلما تحاجج معه رئيس التحرير أن الإسلام دين الدولة، أجاب:

ـ ولكنه ليس دين كل القراء، فلدينا قراء مسيحيون أيضًا.
ثم نجح في تحويلها من صفحة دينية إلى صفحة فكر ديني، واعتبر هذا انتصارًا، حيث ولو نظريًّا ولو لإقناع نفسه فقط يمكن هكذا للصفحة مناقشة الكونفوشيوسية والبهائية أيضًا.
الأمر الثاني هو رفضه لإشراف رجب على الصفحة:
ـ إن رجب رجل طيِّب فعلًا ومحترم، لكنه محرر أخبار رسمية، ولم يحدث أن خرج في يوم من الأيام عن بيانات وتصريحات فضيلة الإمام أو سيادة الوزير أو مفتي الديار، متدين ويصلي الجمعة ويصوم رمضان ضمن قلة من الجورنال، لكن هذا لا يؤهله للفكر الديني.
لكن رئيس التحرير صمَّم على اختيار رجب:
ـ ماذا جرى لك يا رياض؟! هل تريد أن أعين لك صحفيًّا شيوعيًّا مشرفًا على صفحة الفكر الديني؟!
ـ هي فكرة صحفية ممتازة، فهذا يخلق جدلًا وتفكيرًا علميًّا خلاقًا للأديان، لكن لا، لا أريد، فالمجتمع أجهل من أن يفهم المغزى، لكن رغم ذلك رجب لا ينفع.
ـ تحب أعين لك هيام؟
ـ هيام من؟
ـ هيام غالب.
ـ يا نهار أسود ومطين!

* * *

كانت هيام غالب صديقة عايدة شداد في الجورنال، حتى إن الأستاذ رياض أطلق عليهما مداعبًا «ريا وسكينة»، فالاثنتان قاتلتان للملل والكسل فعلًا، دماغ ناشفة وروح عنيدة ونفس متمردة، وكلتاهما فاكرة نفسها هدى شعراوي، وأكثرهما تواضعًا تظن في نفسها لطيفة الزيات، لكن هيام نقيض عايدة في الحياة العادية: خريجتان من كلية الآداب. هيام من ساكنات العجوزة لأب وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية، وأمها موظفة في الشهر العقاري، وشقيقها مهندس في السعودية. بينما عايدة من العباسية، والدها مدرس لغة عربية في الخديوية، وأمها مدرسة تدبير منزلي (زارهما رياض مرتين بدعوة من الأب، فقد سمع كثيرًا عن الأستاذ رياض من عايدة وهو من قرائه المتابعين والمعجبين، واكتشفا قرابة وفدية بعيدة بينهما، لكن رياض فهم من الزيارة الأولى أن الأب يحاول الاطمئنان على أن رياض الأرمل الحزين والأب المفتقد لأبنائه المهاجرين أوعى من أن يستغل حب عايدة الوله لأستاذها، فطمأنه على قد ما قدر، وإن كان الأب متأكدًا أن كاتبه المفضل مولع بابنته، ولكن احترامه لسنه ومنصبه ولضعفه البين يحول دون أن تصبح المشاعر مشاعًا وتتحول العاطفة إلى عاصفة). عايدة وحيدة أبويها، فقررت أن تكون لهما الذكر والأنثى، النظارة الطبية ذات الإطار الأسود، والشعر الملموم في ذيل حصان، والقميص بالكمين القصيرين، والبنطلون الواسع رجل الفيل بالحزام العريض بالتوكة البيضاء، والوجه الخالي من مساحيق التجميل إلا أحمر الشفاه الخفيف. بينما هيام لا تتخلى عن الميني جيب، وباروكة ماجدة الصباحي الصفراء العالية الهائشة، واستبدلتها بباروكة ميرفت أمين في أحدث أفلامها، والنظارة الحمراء المستطيلة ذات الإطار الفضي، وفساتين مشتراة من شارع الشواربي حيث أزياء الصناعة الأجنبية المستوردة والمهربة أو محمولة من بيروت مباشرة. مثلت هيام النزقة في عدة أفلام سينمائية أدوارًا صغيرة من نوعية زميلة البطلة في حمَّام السباحة أو تلك العزول التي

تتصل بالبطل لتخبره أن حبيبته تخونه مع صديقه، كانت طموحة للانتقال إلى عالم هوليوود الذهبي مرورًا من استديو نحاس، ثم خبت رغبتها بعد دورها وهي تجري مع عدة بنات في القناطر تغني وراء سعاد حسني «الدنيا ربيع» في فيلم «أميرة حبي أنا»، تملك أسلوبًا متميزًا في الكتابة، وتقرأ فلسفة حتى التباهي بأن زكي نجيب محمود أقل من مستوى قراءاتها. بينما عايدة تكتب بأسلوب رشيق، تتهيب الكتابة، وتتمهل في كل سطر، وموسوسة في كل معلومة، وتراجع التحقيق الذي تكتبه عشرين مرة، فتتأخر عن موعد التسليم حتى يشد رئيسها شعره منها. بينما هيام عجولة منجزة. عايدة تخجل بمجرد ما يبدو كلام زملائها متوجهًا إلى الصراحة الوقحة. بينما هيام تجلجل ضحكتها في صالة التحرير، وتصد أي زميل فاكر نفسه يستظرف عليها. عايدة تكتم معرفتها بعاطفة الأستاذ رياض نحوها، حتى إنها لم تسمح لنفسها قَطُّ أن تأخذ وتعطي مع هيام في هذه المسألة. لكن هيام تحب كل ثلاثة أشهر شخصًا مختلفًا، من محمود ياسين حين رأته في المسرح القومي، إلى أحمد فؤاد نجم لما زارته في حوش قدم، إلى مصور تحت التدريب في الجورنال.

غابت هيام ثلاثة أيام عن عايدة التي تحيرت في البحث عنها، كلمتها في البيت فترد أنها مشغولة في تحقيق، لم تظهر في اجتماعات الجورنال، ثم فجأة ظهرت، فأصابت عايدة باكتئاب ثقيل؛ دخلت هيام عليهم الجورنال مرتدية فستانًا أسود واسعًا فضفاضًا أقرب للعباءة، ومخمرة بخمار رمادي طويل يصل حتى وسطها، وترتدي قفازين أسودين قماشيين في كفيها، يمتدان إلى داخل كُمي الفستان، وتضع خاتمها فوق إصبع القفاز، ووجهها ممسوح تمامًا بلا أي بودرة ولا لون ولا أحمر شفاه، بل قشف فوق شفتيها لم تبذل مجهودًا في إخفائه، ثم أعلنت أنها التزمت وتحجبت. انقلب الجورنال بحكاية هيام، وقد اعتبروا شكلها الجديد جنانًا مؤقتًا، خصوصًا أن لغتها تبدلت، فتتحدث بالفصحى، وتخفض من صوتها، ولا تصافح زملاءها، وتفتح المصحف لتقرأ آياته في جلستها في المكتب (يعلو صوتها فقط عند آيات العذاب)، وفي كل مناقشة لفكرة تحقيق صحفي تتحدث عن ضرورة أخذ رأي الدين، ثم تقاربت مع زملائهم من الإخوان المسلمين الذي أعلنوا عن أنفسهم لأول مرة في الجورنال، وتحاشت عايدة وتجاهلتها، ولم تشرح لها تحوُّلها، ولم تحاول حتى تجنيدها إلى عالمها الجديد. قررت عايدة أن تحترم اختيار صديقتها، لكنها لم تحتمل حين وقفت هيام لتدافع عن شكري مصطفى وجماعة التكفير والهجرة، واتهمت الجورنال بأنه يلوث سمعة هؤلاء المسلمين الأتقياء، وأننا لا بد أن نحترم فيهم جهادهم من أجل رفع راية الإسلام، وحتى لو تأولوا وأخطأوا في خطف الشيخ الذهبي، فهذا لا يعني أن الشيخ الذهبي وأمثاله لا يستحقون الخطف. كانت عايدة تسمع هيام شريكتها في مسرحية سيد درويش التي تلقت معها صفعات وركلات أعضاء الجماعة الإسلامية، وهم يعتدون عليهما ويمزقون ملابسهما ويصرخون عليهما بالسباب يا ساقطة يا فاجرة يا سافرة، وقد صارت واحدة منهم تمسك بعصيهم على دماغ عايدة.

عندما ذكرتها بأن هؤلاء من ضربونا يا هيام، أجابت:

- كنا نستحق، كنا سافرات ساقطات فعلًا.

لم تملك عايدة نفسها لحظتها، فانفجرت في بكاء محموم جمع زملاءها نحوها جريًا، بينما انسلت هيام راحلة من الاجتماع تشيعها نظرات رياض المحبطة. لا يملك مواساة عايدة خشية انكشاف لواعجه، ولا يستطيع تقريع هيام لأن الإخوان والإسلاميين في المؤسسة صاروا عصبة، تملك أن تصير عصابة في لحظة واحدة. فيطلع عليه عمال المطبعة لينضموا إلى المصححين

ويستدعون الصحفيين وينزل موظفو الحسابات والشؤون القانونية فيتهمونه أنه شيوعي أو كافر أو عميل للقذافي وكاره للإسلام ولسيادة الرئيس المؤمن، فيطاح به في وهلة.
كان خبر العثور على جثة الشيخ الذهبي في شقة الهرم رمحًا انغرز في صدر رياض، وخرج منه لينغرز في قلب عايدة. تعجبت هيام من دموع عايدة التي لمحتها خلف مكتبها في صالة التحرير، وتمتمت:
ـ كأنه من بقية أهلها.
كانتا تتحاشيان مواجهة بعضهما لأيام، ثم بدأتا تتبادلان كلامًا مقتضبًا باردًا، ثم بدا أن البرود بينهما أقوى من محاولة تسخينه.
* * *
طلب رياض من عايدة الذهاب إلى عائلة الشيخ الذهبي في حلوان، ومتابعة تحركهم قبل الذهاب إلى الجنازة، ثم مرافقتهم في الجنازة، وكتابة تحقيق على هامش هذا الحدث الضخم عن عائلة الفقيد الجليل وسط أحزان الأمة. عاد وتراجع عن كلمة «الأمة»، فقد انتبذتها الصحف تلك الأيام، فأحالها إلى «الشعب» (همس يؤوسًا في أذن عايدة، كان النحاس زعيمًا للأمة، وعبد الناصر زعيمًا للأمة، فما نفعا الأمة! حتى إنها تقلصت فصارت شعبًا).
استسخفت عايدة الفكرة، واستثقلت التكليف، فما الذي يتوقعه القارئ من عائلة مكلومة في عائلها الكبير؟ راحت البيت الذي بدا وكأن بوابته انكسرت من كثرة الداخلين والمحتشدين، كسروا كل قواعد خصوصية العائلة المستباحة، وانتهكوا كل شبر في الفيلَّا. كان أبناء الشيخ السبعة في حالة كرب مهذب، فلا قرعوا أحدًا على تطفله، ولا عاتبوا أحدًا على الأسئلة المكررة السمجة، وظلوا على حزنهم النبيل مأخوذين ومبهوتين، يسمعون كلامًا متضاربًا ومتناقضًا يتصادم بين أفواه المعزين فيسكتون عن الرد، ويتمتمون بالصمت. كانت أسماء هي إيزيس التي فشلت في إنقاذ جثة أوزوريسها، بوجهها المنحوت، وملامحها المتشربة للحزن، ونظرتها الثكلى، تجذب عاطفة عايدة وتشدها إلى قلبها. أرهق الصحفيون والمعزون أسماء باللغو والرغي، بينما لم توجه عايدة لها كلمة ولم تنطق بسؤال طوال الساعة ونصف الساعة التي مكثتها في بيت الشيخ الذهبي. يتأهبون بالسواد المكلل للجميع، وبالبدلات الرسمية المتأنقة بالحداد، حيث يشارك في الجنازة حسني مبارك نائب الرئيس، والوزراء والكبراء وعمائم الأزهر، سيارات معدة، وعربات دولة وأخرى عائلية، طقم حراسات متأخر جدًّا على أن يحرس، ينتظر أفراد العائلة، سيارات المؤسسات الصحفية التي تحمل محرريها ومصوريها. كانت بروفة الجنازة المصغرة تنضم الآن إلى الجنازة الكبيرة، وقرقعات الفلاشات والعدسات والخطوات الوئيدة المشيعة تتحسر وتتصور. كانت السيدات في مؤخرة الجنازة، كأنما الحزن يخص الرجال، وكأن يزيد أولى من زينب بوداع الحسين.
عادت عايدة إلى الجورنال، ورمت دفترها على المكتب أمام الأستاذ رياض، وكانت تملك صلاحية بناء على وجودها في فريق تحقيقات مقتل الذهبي ألا تستأذن السكرتيرة في الدخول.
كان مبنى الجورنال ضخمًا، لكن مكاتبه ضيقة، إلا مكاتب كبار الكُتاب، ثم إن المحررين موضوعون في قاعات مخصصة لكل قسم، بينما قاعة التحرير الوسيعة تضيق بالحقيقة كما بالصراحة معًا، الممرات ممنوع الوقوف فيها وإلا ألهبت العيون جسدك، والكافتيريا على أناقتها وزي جرسوناتها الموحد مسرح للنميمة والغيبة، بينما المطعم الكبير الواسع المتفاخر بأنه ينافس

مطاعم جريدة التايمز الإنجليزية (حيث لا شيء يقدر على منافسة التايمز لدينا إلا المطعم) كان مطعمًا لأكل لحوم الزملاء، رغم ذلك تمنت أن يدعوها الأستاذ رياض سليم للغداء في المطعم ذات يوم، إذ كان طموحها معدومًا في أن يدعوها خارج مطعم لحوم الزملاء، لكنه تلقاها في مكتبه وهي تلقي دفترها على سطح المكتب، تبدو أكثر غضبًا مما تسمح لنفسها أن تبديه أمامه.

ـ مالك يا عايدة؟

ردت بدمعة تطفر من عينيها، فشخط فيها:

ـ إياكِ والدموع! هذه مهنة تتربص بالمرأة، ووظيفة ذكورية حتى النخاع، وبمجرد ما تظهر دمعة لصحفية فهي متهمة بالضعف أو استغلال دموعها لغواية أو لشكاية أو لمسامحة أو لعلاوة.

تجمدت الدمعة مع نفرة رياض الشاخطة، وبهت وجهها، فلانَ بسرعة ورق أسرع، وانفثأ الغضب شجنًا وهو يضيف:

ـ المكان الوحيد المسموح فيه بأن تبكي هو هنا، والشخص الوحيد المسموح لكِ بأن تبكي أمامه هو أنا.

ابتسمت، وخرج قلبها من غرفة الإنعاش بأعجل وأعفى مما دخل، فقرر رياض أن يحول الدفة قبل الغرق العاطفي المحتوم:

ـ هل كتبتِ شيئًا عن عائلة الشيخ الذهبي في الجنازة؟

ـ ولا حرفًا.

ـ خلاص، قومي اكتبي، فلا وقت لدينا.

قبل أن تهم بالوقوف للخروج همس لها:

ـ اقعدي لحظة.

قعدت.

ـ عايز أوضح لك معالجة الجورنال التي هي طبعًا تعليمات من رئيس التحرير، التي هي طبعًا أوامر من الذين يُشغلون رئيس التحرير في الجهات العليا والأعلى من العليا. المطلوب مع الهجوم على جماعة التكفير والهجرة والتأكيد على انحرافاتها الدينية، بل وعمالتها لليبيا، التركيز على أن الإسلام بريء منها، وأنها لا تمثل الجماعات الإسلامية الأخرى. هذه نقطة سيشتغل عليها زملاؤكِ الإخوان وصاحبتك رابعة العدوية (كان يقصد هيام). ثم التأكيد على أن الجماعة بضع مئات يتم استئصالها من المجتمع، فيعود الفهم المعتدل للإسلام السمح الموجود طبعًا لدى كل الجماعات الإسلامية الأخرى، مع التركيز على إدانة الإخوان والجماعات الإسلامية للجريمة وتبرُّئهم منها واستنكارهم لها، فضلًا عن تقديم المنتمين إلى الجماعة باعتبارهم ضحايا المجتمع والغياب عن الدين الذي عشناه في العهد الناصري، ويا سلام لو قلنا إنهم صناعة سجون عبد الناصر!

ـ لكن شكري مصطفى فقط هو الذي كان سجينًا أيام عبد الناصر، والباقي كله كان تقريبًا تلاميذ في المدارس أيام عبد الناصر!

ـ هذا بقى ضد سياسة الجورنال، فعبد الناصر سيلبس سيلبس، وباعتباري وفديًّا مخلصًا لمصطفى النحاس الذي اضطهده وحاربه عبد الناصر، فلا مانع لديَّ من أن يلبس التهمة.

قالها ضاحكًا مخففًا:

ـ شُفتِ صاحبتك رابعة العدوية، جلبت لي تصريحات متولي الشعراوي وزير الأوقاف وشؤون الأزهر في احتفال ذكرى الإسراء والمعراج.
مد يده فجذب بروفة صفحة من أمامه، وقدمها إلى عايدة لتقرأ اسم صاحبتها هيام غالب في مقدمة تغطية مؤتمر للشعراوي، ثم تبرز العناوين تصريحه وصورته رافعًا يده ملوحًا بها تملأ ربع الصفحة. أمعنت في متن الموضوع، فطلب منها رياض أن تقرأه بصوت عالٍ:
ـ غني لي شوي شوي.
ـ طيب، قبل ما أغني تواشيح وزير الأوقاف الشعراوية، أحب أنبه حضرتك إن هيام كانت شابة عادية وطبيعية وطيبة جدًّا قبل ما تلبس الخمار وتتحجب وتتغير بهذه الطريقة، فلا وجه شبه بينها وبين رابعة العدوية التي تشبِّهها بها طوال الوقت معي!
قهقه رياض، وقال مع سعال أفرزه دخان سيجارة أشعلها:
ـ طبعًا رابعة العدوية أحسن مليون مرة، إنتِ فاكرة رابعة العدوية هي نبيلة عبيد في الفيلم؟! حتى لو كانت رابعة جارية في عصر الخلافة، فلم ترتكب أي خطأ بأن تغني وترقص لأسيادها ومالكيها، ورغم ذلك فهذا كلام فارغ، فالحقيقة أن رابعة العدوية كانت شابة عذراء عاشت حياتها بتولًا، يعني لم يكن في حياتها لا عماد حمدي ولا فريد شوقي، زاهدة صوفية عظيمة، كل أفكارها تجعلها كافرة عند صاحبتكِ هيام والجماعات الإسلامية التي تتعاطف معها وتنتمي إليها!
صمت مع نهاية دخان سيجارته، ثم رفع كفه إلى أعلى طالبًا أن تقرأ تصريحات الشعراوي، فقرأت:
وصف فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، وزير الأوقاف وشؤون الأزهر، جماعة التكفير والهجرة بأنهم أعطوا أعداء الإسلام فرصة ليشدوا التيار الجارف الذي نادى به الشعب ممثلًا في مجلس شعبه، ونادت به كل الطوائف، في أن نعود بحركة الحياة إلى حكم الإسلام.
علَّق رياض متهكمًا وهو يشعل سيجارة أخرى:
ـ الشعب كله طبعًا عايز حكم الإسلام يا عايدة!
واصلت عايدة القراءة:
وأضاف فضيلة الشيخ الشعراوي، أنهم حاولوا أن يشوهوا حركة الإسلام، وفاتهم أن الشعب والقائمين على أمر الشعب أذكى من أن يؤخذوا من هذه الجهة، ويعلمون جيدًا أن هذه مسألة مدبرة لتشويه العودة إلى حكم الإسلام.
صفق رياض في انفعال من سمع طربًا:
ـ شفتِ، نحن نعود إلى حكم الإسلام بقيادة حكيمة من السيد الرئيس المؤمن.
خطف منها رياض الصفحة، وأطبقها عند فقرة في تصريحات الشعراوي:
ـ هذه الفقرة هي الزبد عندي، اسمعي...
وواجب المسلمين تصفية كل حركة عدوانية أو جماعة منحرفة ترتكب باسم الإسلام ما ينهى عنه الإسلام، وواجبهم جميعًا أن ينتبهوا إلى أنه لولا غيبة الإسلام عن تنظيم الحياة لما ظهرت هذه الفئة.
طوى الورقة، ثم كرمشها، ثم رماها حانقًا:

ـ بذمتك، ما الفرق بين ما يقوله شكري مصطفى وما يقول متولي الشعراوي؟ الإسلام غائب، يبقى الإسلام لازم يرجع، وطبعًا لازم يحكم، لكن من يحكمنا باسمه؟ شكري ولا متولي؟ إسلام السادات أم إسلام التلمساني؟ إسلام الإخوان أم إسلام التكفير والهجرة؟

ارتجفت أصابعه وهو يفتش عن عدة أوراق مدبسة ومختومة تبدو أنها قادمة من جهة رسمية، حين عثر عليها تهلل قائلًا:

ـ أهي القضية أحيلت للمدعي العام، تعالي أقرأ لكِ جواب المدعي العام شخصيًّا عن سؤال موجَّه إليه، وبالمناسبة هذه إجابات معتمدة ومراجعة من الجهات الرسمية، ومختومة بالختم الحكومي. سألوه عن الخلاف بين هذه الجماعة والجماعات الدينية الأخرى. فبمَ أجاب السيد المدعي العام؟ قال يا آنستي العزيزة الآتي نصًّا...

هناك اختلاف جوهري بين هذه الجماعة وجماعة الإخوان المسلمين بالذات، حيث تبين أن شكري مصطفى زعيم الجماعة يعارض اتجاه جماعة الإخوان في الدعوة إلى الإسلام بالحسنى والموعظة الحسنة.

صرخ رياض فاقدًا قدرته على ضبط أعصابه، أو ربما انتهز فرصة أن القلب الأبيض الوحيد، الذي تأكد من أشعة إكس راي أنه أبيض، يجلس أمامه:

ـ الإخوان يدعون بالحسنى والموعظة الحسنة، موعظة حسن البنا وسيد قطب الحسنة جدًّا.

عاد فطوى الأوراق، ثم كرمشها في قبضته، ثم أطاح بها على طول ذراعه:

ـ يا عايدة، نحن نمشي بخطى واثقة نحو الجحيم!

كسا الحزن ملامح وجهه، بل أطفأ بريق عينيه المعجبتين بعايدة، وأحسته كأنه يدخل في غيبوبة سكر، فقلقت عليه، فاندفعت وأمسكت يده المضمومة على قلمه، فسرت فيه رعدة عشق ضخت ألف كيس دم في شرايينه، فانتفض، وفي اللحظة التي كاد فيها أن تستسلم حصونه وتهوي أمام عينيها، تماسك وتمالك أعصابه وهمس بجدية:

ـ سألوا رابعة العدوية: هل تكرهين الشيطان؟ فقالت: إن حبي لله قد منعني من الاشتغال بكراهية الشيطان.

لم تفهم عايدة مغزى حكايته فابتسم. رن جهاز التلفون، فأجاب بهمهمة وتمتمة، ثم التفت إليها قائلًا:

ـ في شبابي كانت الكتابة علاج الكآبة، أما الآن فكلاهما مرض يحتاج إلى علاج.

* * *

مدد طارق عبد العليم ساقيه، ثم عاد وضرب بكعبيه قوائم الكرسي الخشبي الذي يجلس عليه في مكتب المدعي العام عاري الحوائط إلا من صورة السادات ولوحة تحمل لفظ الجلالة مخطوطًا، وخشب المكتب البُني المزين بنقوش من ورد مذهب، واللوحة النحاسية مكتوب عليها اسم المدعي العام بخط ثلث مشكل بعلامات الإعراب، وملفات بكعوب عريضة سوداء تتكدس وراء زجاج الدولاب، بينما مكتبة صغيرة تضم مجلدات قانونية وموسوعات أحكام قضائية، تكمل مع الصالون المنجد بالقطن والمكسو بقماش بُني اللون هيبة مكتب انتزاع الحقائق من جحور حناجر المتهمين. لكن الغرفة كانت مزدحمة بالوجوه المتطلعة، محررين من مندوبي الصحف جرى استدعاؤهم لمؤتمر صحفي مكثف وسريع عن القبض على الضابط المفصول الذي ظل هاربًا لمدة ثمانية وثلاثين يومًا، رغم القبض على مائة وثمانية وتسعين متهمًا من أعضاء التكفير

والهجرة، على رأسهم بل وفي بواكير أيام الضبط والقبض نجحت قوات الأمن بيقظتها الشديدة وتحرياتها الجادة المتواصلة من تحديد مكان زعيم الجماعة شكري مصطفى، ووضع الكمائن له، وحصار المنطقة التي فر إليها، ومفاجأته بقوات الشرطة تقتحم عليه الشقة التي اتخذها وكرًا.
كل هذه السطور كانت كذبًا منشورًا صاغه مندوب الداخلية، مما يثير ضحك الأستاذ رياض سليم وعايدة، لكنهما يتوقفان تمامًا عن الضحك المجلجل حين يدخل عليهما زميل أو يرن في المكتب جرس تلفون.
جاءت عايدة لإجراء حوار مع الضابط الهارب، رغم احتجاج رئيس قسم الحوادث، لكن رياض أقنعه (ستلتقي الضابط، ولن تسأله إلا عن أسرته فقط، وكل ما له علاقة بخطف وقتل الذهبي فهو تخصصك أنت). لم تكن تعنيها إلا عيناه، كلمات الضابط الجالس المشدود المشدوه أمامهم متحفظة ومحفوظة ومتحسبة ومحسوبة، لم يكن خطيبًا ولا جهيرًا، بل كان المدعي العام ومسؤولو الداخلية يجيبون عن عدد من الأسئلة نيابة عنه ومنعًا له وضبطًا للإجابة. ثبتت نظراتها عليه، يتأرجح طارق الضابط المضبوط بين الشحوب لحظة والجمود فجأة، تتداعى نظراته وملامحه وقسماته من الهشاشة ثم تنقلب فجأة إلى صلافة متعجرفة، تغطس روحه في القنوط ثم يرفع رأسه بعدها مستثارًا متهيجًا، يظهر ثابتًا واثقًا ثم بغتة يرتجف جلده وترتعش مقلتا عينيه، مغرورًا عابثًا غير مكترث ومهزوزًا مشوشًا مرتعبًا، ينكمش ويتمدد، يكش وينفرد.
قال المدعي إننا سألنا الرائد المفصول أحمد طارق عبد العليم أين كنت تختفي طوال هذه المدة؟ فأجاب (لم يتكلم طارق، بل تابع الإجابة على لسان المدعي):
ـ في الطرقات، في العراء.
ـ وأين كنت تقضي الليل؟
ـ تحت الأشجار وفي المساجد.
ـ وما كان شعورك؟
ـ كنت أعيش في حالة رعب دائم من نشاط رجال المباحث ومباحث أمن الدولة، وكنت أتوقع القبض عليَّ بين لحظة وأخرى.
كانت عايدة قد لمت ورق دفترها، وضغطت على زر قلمها فانسحب سنه إلى أنبوبته.
حين خرج من جنينة الحيوانات كان يشعر بإعياء يطبق على رئتيه، لم يعد في جعبته مال ولا مليمات، جف حلقه، وتقلصت أمعاؤه، والتهبت قصبته الهوائية. رغم أنه غسل قميصه وفانلته الداخلية في بحيرة التمساح (الذي اكتشف أنه سيد قشطة)، ونشفهما طوال الفجر، إلا أنه نزع لباسه ومزقه ورماه، فقد كان صعبًا عليه غسله، ومستحيل عليه الاستمرار في تحمل خيوطه على فخذيه. اتجه مشيًا إلى ترعة الزمر، وبحث عن أول مركب ترسو على ضفتها، فاقترب من رئيس المركب راجيًا أن يقبله عاملًا على المركب. كان منظره دعوة مفتوحة للرثاء. أشفق الرجل عليه وشغله مقابل أكله، ينقل الطوب الأحمر من عربات الكارو إلى حمولة المركب المنقولة للصعيد. ثم لم يعد هناك شغل، فالحمولة الجديدة لم تأتِ والمركب الأولى لم ترجع. قضى ليلتين راقدًا وسط المزارع يأكل مما يتفضل به عليه صاحب المركب الذي بدأ الشك ينتابه في هذا الملتحي الذي بدا من شغله أنه لم يشتغلها من قبل، وظهر من صمته خوفه، ومن خشونته أنه ابن ناس عايز يعمل فيها ابن كلب.

أحس طارق أنه مكشوف أكثر مما يحتمل، رغم أن صورته في الجرائد بعيدة عن هيئته، وصعب أن يتعرف عليه أحد، صعب حتى أن يتعرف هو على نفسه، لكن من يضمن له أن ضابطًا ممن عمل معهم لن يصادفه هنا أو هناك؟ كان سقوط أبو سعد وأبو عبد الله وأبو مصعب، وكل من شارك في العملية، يتتالى، وهو الوحيد الناجي، نجاحه في الهروب من البوليس سوف يستثيرهم أكثر، الآن خططهم كلها تحيط به وتحوم حوله. رغم هذه الصور والأخبار والعناوين الكبيرة المفرودة في الصحف محتفلة ومحتفية بالقبض على شكري مصطفى، ورغم أنهم يكتبون أن قاتل الشيخ الذهبي هو مصطفى غازي، إلا أنها تبدو خدعة من الشرطة كي يطمئن، أو ربما رغبة منهم في خداع الناس بأنهم أمسكوا بالقاتل، أو لعله تقصير يجمع من خبرائهم الجنائيين حتى محققيهم الخائبين. لكنه حين سرق الجورنال المسائي المطوي تحت فخذ المراكبي وركض نحو الزراعات لقراءته قبل حلول الليل على عيدان الذرة، فاجأه اسمه متهمًا سادسًا في قرار الإحالة للمحاكمة. عرفوا مشاركته في الخطف، فهل توصلوا إلى تنفيذه للقتل؟ قبضت يده على عود الذرة النائم تحته ينزعه من جذره، فقاوحه العود وقاوم يده الناشفة المتشنجة، فارتعشت وأدمت وضغطت وتصلبت ثم نجحت في اقتلاع العود، فأمسكه يشعر انتشاء نصر أرعشه للحظة، ثم انفجر الكمد في قلبه فصرخ لاطمًا وجهه بعود الذرة.
كانت مشاعره تنتقل من الثورة إلى الخمود، ومن الرعب إلى السَّكينة في اللحظة ذاتها ألف مرة. تجتاح عينيه في اليقظة والمنام نثرات قطع البطاطس المفتتة بقشرها، المتطايرة بثمرتها، الممزقة الملتصقة في عين الذهبي ملونة بالأحمر، ملوثة بالدم، مخلوطة بالعروق المنثالة، والشعيرات الدموية المتفجرة، وشظايا العظم المسنونة، ومزقات الجلد، وعجين مقلة العين المهروسة، وتلك الحفرة الدموية في جمجمة الذهبي يرى فيها ظل الشيطان.
ارتعد جسده وهو يصحو من نومته، كأنما يستعيد غزوته ويجري براية سوداء مرفوعة فوق رمح يقبض عليه فوق فرس، يلوح بها مرفرفة مكتوبًا عليها نسيجًا بحروف من نور كلمات الشهادة، لا إله إلا الله. كان وجهه قد تحول إلى لون أخضر من رقدته طوال الليل في حضن الزرع والعشب وأعواد وأكواز الذرة. في الصبح قرر أن يذهب إلى ساقية مكي، لم يعد قادرًا على أن يستمر وحيدًا، ولم يعد سعيدًا بهروبه وحده. لا بد من أن يجمع من تبقى من مسلمين وأموال، ويرسم خطة، وينفذ عمليات أخرى تهز وتصد وتزلزل وتهد، ويقايض الدولة على خروج الأمير والإفراج عن أسرى المسلمين. لا يزال في الجماعة جنود سابقون ومدربون، ورجال ممولون في الخارج، ونساء الجماعة سلاح احتياطي يمكن أن ينطلق ويطلق نارًا فوق رؤوس الكفار. كان الشارع ترابيًّا صغيرًا ضيقًا، والليل كثيفًا والصمت ثقيلًا. تخيَّر الوقت الذي يفتح فيه خادم الزاوية بابها استعدادًا لصلاة الفجر، فدلف إليها ملقيًا السلام. تعرف عليه أبو عمر فعانقه وأدخله إلى الميضة، فقضى حاجته واغتسل وجفف ونشف. لم يكن أبو عمر من الجماعة، لكنه محب، ومن هؤلاء الذين تعرَّف عليهم في جماعة طه السماوي ولا يزال أبو عمر فيها. طلب منه أن يبلغ زميليه في ساقية مكي بأنه سيحضر إليهما في الزاوية عند صلاة المغرب، يجهزان له مالًا وسلاحًا وعناوين لم تنكشف للداخلية. أخبره أبو عمر أن كل عناصر الجماعة تحت المراقبة والمطاردة، لكن طارق رد أنه يعرف طبعًا، لكن هذين الزميلين من جُدد الجماعة ومن المقربين إليه، ويثق أنهما بعيدان عن عيون الشرطة.
لم يصلِّ الفجر، بل عاود الطريق إلى التسكع في الشوارع وعلى الأرصفة النهار كله حتى قبيل أذان المغرب. وصل إلى الزاوية وخلع نعليه الباليين ودخل إلى الميضة، فمكث فيها وقتًا

للوضوء، وتكشَّف المكان، والتحقق من خلوه من وجوه تثير قلقه وتوقظ حسه الأمني. اطمأن حين دخل زميله الزاوية الآن وبدأ في صلاة تحية المسجد، فخرج طارق من الميضة، ولم يكن قد جفف ماءه الذي يقطر من كوعيه ومعصميه ووجهه، جلس في نهاية الزاوية الصغيرة، ليس بها مع اقتراب أذان المغرب إلا قرابة العشرة من المصلين، استند إلى الحائط متأملًا في الوجوه وحركة المصلين، بدأت أنفاسه اللاهثة تهدأ، ودقات قلبه تنتظم، وزميله ينهي صلاة تحية المسجد بالسلام عليكم ورحمة الله يمينًا، وحين التفت بالتحية نفسها إلى اليسار إذا بنظراته تخرق عيني طارق الذي اقتلعه الهلع من فوق حصير الزاوية، فقد كان المصلون العشرة يندفعون جهته ويحاصرونه، ويرمي بعضهم أنفسهم عليه، ويتدفق من خارج الزاوية عشرات المخبرين يملأون الزاوية ويتوزعون في أركانها ويحاصرونه داخلها، بينما يكتفونه ويقيدونه ويكلبشونه وهو ذاهل ذابل. أنزل العقيد عادل مجاهد الميكروفون من يده وقد انتهى مبتسمًا من رفع أذان المغرب الذي كان إشارة الهجوم، انفرجت الحلقات الخانقة حول طارق حتى تسمح للعقيد عادل بأن يمسكه من ذراعه ويقوده إلى خارج الزاوية. كانت المشكلة الوحيدة هي البحث المتلهف المتعثر المرتبك عن أحذية الضباط والعساكر والمخبرين على عتبة الزاوية وارتدائها في عجلة وحجلة.

* * *

دخلت على صوت الأستاذ رياض يرتفع حانقًا وهو يصيح في رجب المتنمر:

ـ ما هذا الخطل الذي تقوله؟

ـ نعم، أنت رجل علماني، ولهذا ترفض الإسلام.

ـ على اعتبار أنك الإسلام يا رجب!

لم يخفف كلاهما من نبرات الصوت، ولا انفعال الوجه، ولا إشاحات اليد، رغم دخول عايدة شداد، بل قرر الاثنان أن يجعلا منها شاهدة، لكن الشهود كثروا مع فتح الباب، وتسلل عدد من المحررين إلى الغرفة منتهزين وجود زميلتهم. ألح رجب كأنما أحال كرسيه منبرًا:

ـ طبعًا أنا صوت يدافع عن الإسلام.

ـ وأنا صوت يهاجمه؟ إذا لم تعقل وتحترم نفسك يا صوت الإسلام الآن، فلن أكتفي بطردك من المكتب!

نخ رجب قليلًا، فلأول مرة يلحظ أن لرياض الأليف الساكن داخل الحائط، وليس السائر بجواره فقط، أنيابًا تنمو فجأة وتظهر فوق شفته السفلى، ورقق كلماته وخاطبه بالأستاذية:

ـ أنا آسف لانفعالي يا أستاذ رياض، أنت أستاذنا الذي علمتنا حرية الرأي (لم يعلمه رياض شيئًا، فقد عاش رجب في الجورنال بلا رأي أصلًا كي يتعلم حريته) ومع ذلك لم تنشر المقال.

قبِل رياض الهدنة:

ـ يا رجب، أنا لم أمنع نشره.

ـ ولكنه لم ينشر!

ـ ما أنا قلت لك لم أمنعه، ولو كان عليَّ كنت منعته طبعًا، لكن رئيس التحرير هو الذي أشَّر برفض نشره.

أشعل رياض سيجارة ونفخ دخانها وهو متعكر، فقرر رجب توددًا وتخفيفًا من حدة المواجهة أن يسحب سيجارة من علبة رياض ويضعها في فمه ثم يطلب منه ولاعته فيعطيها له رياض

متراخيًا:
ـ يا أستاذ رياض، هذا مقال للدفاع عن الشيخ الذهبي رحمه الله، وفضح فكر جماعة التكفير والهجرة المنحرف.
ـ وما الذي تفضحه يا رجب؟ تتهم شكري مصطفى في أنه توسَّع في تكفير المسلمين، وأنه يكفر مرتكب المعصية والذنوب الصغيرة، بينما حضرتك ترى أن الكافر هو مرتكب الكبيرة في بعض المذاهب وفي بعضها الآخر مجرد فاسق؟
ـ لست أنا من يرى، بل العلماء.
ـ يعني المفروض نقبل بتكفير الناس، وهكذا نوافق الأخ شكري، لكن الاختلاف فقط في أنه يوسِّع التكفير، وأنت ـ أو العلماء ـ تضيقون التكفير؟
ـ وما الخطأ في ذلك يا عايدة؟
انخضت عايدة من توجيه رجب سؤاله إليها، وردت النظارة إلى أعلى أنفها ثم ردت عليه:
ـ المفروض نحارب فكر التكفير نفسه يا أستاذ رجب، ولا نقبله سواء بتوسيعه أو تضييقه.
برقت عينا رياض بالوله دون أن يؤاخذ نفسه باللوم، فوجوه الزملاء مزدحمة ومصوبة عليه نظراتهم. قبل أن يحول رجب معركته إلى ميدان عايدة تدخَّل رياض:
ـ عمومًا رئيس التحرير لم يرفض المقال لهذا السبب، فيبدو أنه متفق معك في التكفير القطاعي وليس الجملة، لكن رفضه لأنك أخذت رأي طه السماوي، وهو متطرف أوسخ من شكري، وأدخلت في المقال آراء زملاء لشكري اختلفوا معه في تكفير مرتكب المعصية، وحاشر في المقال رأي للقرضاوي الإخواني يقول إن أكبر خطأ وقعت فيه الصحافة هو هجومها على الإسلام والجماعات الإسلامية، وأننا نجد أن الصحافة ما زالت تعيش بعقلية عصر الطغيان الذي كان هدفه الأساسي التنكيل بالإسلام.
ـ لكن الداخلية هي التي أمدتني بهذه الآراء وطلبت مني نشرها!
قالها رجب فخورًا ومفحمًا رياض الذي أُفحم فعلًا، فجذب سيجارة أخرى وسلَّمه واحدة وقال له:
ـ طيب، رُح اشرح لرئيس التحرير هذه الحقيقة المدهشة، وغالبًا سينشر المقال فورًا.
تهلل رجب، وقام من مقعده منتصرًا، وخرج بصحبة زملاء، ثم التفت موجهًا كلامه لرياض:
ـ أود أن أحضِّر لحضرتك كتابات الشيخ الذهبي لتقرأها.
ـ الله يرحمه.
لم تنسَ عايدة بكاء رجب الحار في بيت الدكتور الذهبي قبيل الجنازة، ثم نشاطه المتقد خلال تشييع الجنازة في مصافحة المسؤولين، والتعريف بنفسه، والانحشار في الصور مع مشايخ الأزهر وكأنه أفرغ حزنه قبل الجنازة.
لما فرغت الغرفة إلا من عايدة سألها رياض محاولًا طرد نصف الساعة الأخير من حياتيهما:
ـ هل كتبتِ موضوعكِ عن الضابط القاتل؟
ـ عندي موعد مع عائلته الساعة السادسة مساء، أخلصه وأكتب الموضوع كاملًا.
ـ لا تذهبي للموعد.
ـ لماذا؟
قدَّم إليها أوراقًا عرفت فيها خط هيام فورًا:

- هيام قابلتهم بناء على تكليف من رئيس التحرير.
تصفحت عايدة العناوين أمام عينيها:
الأم: ابني لم يكن متدينًا ويحب المال والنساء.
الأب المصاب بجلطة في المخ بسبب انحرافات الابن يقول: أنا بريء منه إلى يوم القيامة.
أعادت له الأوراق وهو يضيف:
- لا أعرف، هل ما ذكرته صحيح؟ لأنه مكرر ومنقول طبق الأصل من موضوعات منشورة مع عائلات الإرهابيين منذ اغتيال الخازندار لغاية محاولة اغتيال عبد الناصر. ما انطباعكِ عن طارق؟
ضحكت متهكمة:
- يا ليته ظل يحب المال والنساء!
شاركها الضحك وهو مبهور الأنفاس من ألق الأسنان وبحة الصوت، مستزيدًا من خفة الظل وثقل العقل:
- الضابط الذي يتخلى عن وظيفته ونفوذه، ويتحول إلى متطرف وقاتل في سبيل فكرة، لازم نتعامل معه على أنه صاحب عقيدة وليس صاحب عقدة.
صفق لها بعينيه وقلبه، فأضافت:
- أما عائلته فالله معهم، مؤكد أنهم يشعرون بالصدمة مع الإحساس بالذنب، ويدافعون عن أنفسهم حين يهاجمون ابنهم.
- لكن أنا شُفت عائلات كلها إخوانية، ودخول ابنهم السجن أو ارتكابه لجريمة نسف وقتل من أجل الجماعة يسعدهم، وتتهلل قلوبهم به، ويعتبرونه شهيدًا يفخرون به.
- هل هذا موجود فعلًا؟
- في قضايا كثيرة عشتها في ٤٨ و٤٩ و٥٤ و٦٥.
سحبت من حقيبتها دفترها متحمسة:
- بمناسبة هذه القضايا...
قلبت صفحات الدفتر حتى وقعت على ما تبحث عنه:
- هذه تصريحات قالها المدعي العام لنا في النيابة.
قدمت الدفتر إليه، فرد عليها بنظرة معجبة وجملة هائمة:
- اقرئيها أنتِ.
تجاهلت تأثرها برومانسية عماد حمدي في الأطلال، وقرأت:
الغريب أنه صدر قرار من وزير الأوقاف منذ أسبوعين بمنع مكبرات الصوت في مساجد الزمالك وجاردن سيتي، في الوقت الذي يُسمح فيه لمحل مثل «سولت آند بيير» بتركيب مكبر صوت للموسيقى والمجون، يعمل حتى الصباح بتصريح من وزارة السياحة في الوقت الذي تعمل فيه المساجد سرًّا.
ضرب رياض كفًّا بكف:
- هل قال هذا الكلام فعلًا؟
- قدامنا كلنا، وللنشر.

ضحك رياض مستسلمًا:
ـ يعني جماعة التكفير والهجرة قتلت الشيخ الذهبي بسبب ميكروفون «سولت آند بيير»؟! يا ربي! وما الذي تركه المدعي العام لمحامي شكري مصطفى إذن؟
* * *

غرفة المحامين تشغي بالبدلات السوداء المتأنقة، والأرواب اللامع حريرها وقطيفها، وقماشها الثقيل أو قماشها العادي المتاح، والأوشحة الخضراء المزينة والمذهبة، وهذه النظارات، وتلك الشوارب المقصوصة والمرسومة. كانت بحيرة يتنافس فيها ذكران البط، وتنفش فيها طواويس ريشها يجرح ويخربش ويعمي عيون محيطيهم. ها هو شوكت التوني الذي تبرأ في بيان من جريمة الخطف يأتي ليدافع عنها أو عن مرتكبيها، يجلس على المقعد الوثير القطيفي. ومحامون حافون من حول العرش يتوددون ويتقربون، محامون إخوان احتشدوا، يكفي قاموس كلماتهم بيانًا عن انتمائهم. وها هم نجوم المحاماة ممن يقفزون بالزانة بين الحكومة والإخوان يترفعون عن المزاحمة، وينشغلون عن إلحاح المدائح من الأفواه التي تتنازع على آذانهم. بينما شباب محامون من خريجي الجماعات الإسلامية يخدمون على كبرائهم، ويتطوعون في نقل التعليمات والتنبيهات والطلبات والمستنسخات ونوع البُن الغامق والفاتح والقهوة في فناجين أو أكواب زجاجية.
لم تشهد عايدة شداد هذه الوجوه في محاكمات المتهمين في مظاهرات ١٨و١٩ يناير منذ شهور. كانت عايدة وهيام تحضران محاكمات يناير، لا لتغطية وقائعها للجورنال، بل لأن خمسة من أصدقائهما في الجامعة كانوا متهمين في القضية. المحامون المنشغلون بالحرية السياسية والديمقراطية واليسار، هم من كانوا في تلك القاعة يومها، ينطلقون للدفاع عن متهمين بالتظاهر، بينما هؤلاء المتأهبون هنا الآن يدافعون عن قتلة. طبعًا الدفاع عن المتهم حق أصيل، لكن المتهم الذي يرى قاضيه كافرًا لماذا لا يجد مشكلة في كفر محاميه؟
انسدت نفس عايدة وهي تلمح وجوهًا تعرفها من الجامعة، ممن اعتدوا على معارض كتبهم ولوحات مجلاتهم الحائطية ومسرحياتهم، وكانوا يمنعون الأساتذة من استكمال المحاضرة لأن وقت الصلاة قد وجب، يرتدون أرواب المحاماة، ويتقافزون حماسًا بين أقرانهم وكبارهم. كان الحشد ينتفخ بحضور الصحافيين وهمساتهم وأسئلتهم، وانحناءات الصدور والرؤوس على وجوه المحامين الكبار الجالسين على مقاعدهم لتوضيح الأسئلة لهم وسط الضجيج، والحماس من المحامين لمندوبي وكالات الأنباء الأجنبية، وميكروفونات ممدودة بأسلاك على أجهزة التسجيل.
التقت عينا هيام بعايدة في صدفة الزحام في القاعة، فتبسمت لها ثم تخففت من جمودها تجاهها، وجمعتهما ذكريات محاكمات يناير في ضحكة نسائية مقموعة وسط الغابة الذكورية، فشعرتا بماء يمطر على صحراء صداقتهما. اندفعت هيام تستغل خمارها وسط لحاهم، وتحصلت على معلوماتها، بينما تابعت عايدة هذه الحوارات المتداخلة بين المحامين. رنت صاخبة جملة شوكت التوني للصحفي الأجنبي:
ـ نعم، هذه حقيقة ناصعة، فالجماعة أرسلت إلى السيد الرئيس أنور السادات خطابًا تشكو إليه وتحتكم إليه.
كان الصحفي يسأل عن أصل الرسالة، ونصها، ومتى أُرسلت، وهل تلقوا ردًّا من الرئيس عنها، وكان التوني يذكره بأن هناك محاكمة سيقال فيها كل هذا، لكن عايدة سمحت لصوتها الأنثوي

أن يطغى على طنين ذكور النحل:
ـ لكن جماعة التكفير والهجرة ترى الرئيس طاغوتًا وتعتبره كافرًا لأنه لا يحكم بما أنزل الله، فكيف تحتكم إلى الطاغوت من الطاغوت نفسه؟
شخط فيها صوت صار أصواتًا:
ـ هو حضرتك يا آنسة وكيل نيابة؟
عاد طنين ذكور النحل يسيطر على الخلية، فقد كرهوا سؤالها، لكنها واصلت ولا أحد ينصت إليها:
ـ الجماعة لم تتلقَّ ردًّا على رسالتها للسادات، فقررت أن ترسل إليه رسالة جديدة في جثة الشيخ الذهبي. هل هذا كلام معقول؟!
كان معقولًا جدًّا حين سخرت منها هيام، وكأنها تستعيد ثقة صاحبتها الساذجة:
ـ يا هبلة، هذه إستراتيجية المحامين؛ أخرج الرئيس خارج المعادلة. ما تفعله الجماعة وما تقوله إنما المقصود به الحكومة، أو مؤسسات الدولة، أو الداخلية التي اضطهدتهم، أو الأزهر الذي لم ينصحهم، أو الأوقاف التي لم تقم بدورها، لكن الرئيس موضع تقدير ومحبة وولاء هؤلاء الشباب، فهم أبناؤه وهو رب العائلة.
ـ وهل سيصدق أحد هذا الهراء؟
ـ كلهم سيصدقون، حتى الرئيس نفسه.
أسرعت هيام إلى قاعة المحكمة كي تلحق لها مقعدًا متقدمًا، فركضت عايدة وراءها وهي تحدثها لاهثة، وتجلس بجوارها تلتقط أنفاسها، وتتفحص عيناها القاعة التي باتت تمتلئ بسرعة، كأنما بلغهم خبر أن الجلسة أوشكت:
ـ المتهمون معترفون بأنهم خطفوا وقتلوا، وكله ثابت في تحقيقات النيابة!
حاولت هيام أن تتعالم على عايدة وهي تحاول أن تضع أسسًا جديدة لعلاقتهما:
ـ أنا نفسي ربنا يهديكِ وينور بصيرتك ويعز الإسلام بكِ وتلتزمين.
استغربت عايدة، لكن هيام خفضت صوتها حتى الهمس، حيث بدأت الأكتاف تضرب بهما للفوز بمساحة أكبر في دكة المحكمة. نهرت هيام الكتف المتطفلة بنظرة حادة، وعادت إلى أذن عايدة:
ـ المحامون هنا دفاعًا عن التيار الإسلامي، وليس دفاعًا عن جماعة المسلمين التي تسمونها التكفير والهجرة. هيئة الدفاع هذه كلها على بعضها تترافع دفاعًا عن موكلها حسن البنا وسيد قطب، بل وأنور السادات، وليس عن شكري مصطفى.
تأملت عايدة جانب وجه هيام، وهي تتابع دخول المتهمين إلى قفص المحكمة بانبهار يخفق له قلبها، تكاد تسمعه عايدة. أشارت هيام إلى القفص القريب:
ـ هذا هو شكري مصطفى، تشعرين أنه زعيم، وعلى فكرة وسيم وملامحه رجولية، فيها قوة ومهابة، ولحيته تجنن، ولا أنتِ تحبين فقط لحية جيفارا؟
استمرت هيام تقدم لها أسماء أعضاء الجماعة، وتشير على وجوههم، وتشرح موقعهم في التنظيم وفي لائحة الاتهام وقرار الإحالة.
كانت عايدة تعرف أن المتهمين أربعة وخمسون، وقد أفرجت النيابة عن بقية المائة وثمانية وتسعين الذين كانوا قد قبضوا عليهم بتهمة الانتماء إلى جماعة التكفير والهجرة. ابتسمت وهي

تتذكر قرارًا بحل جماعة التكفير والهجرة، كأنها كانت قد تأسست بقرار حكومي كي تنحل بقرار حكومي. كان حماس هيام هائمًا في فضاء القاعة، حتى إنها بدأت تتلو سورة «يس» وتسبِّح على أناملها. تذكرت عايدة الليلة التي شغَّلت فيها هيام في غرفتها في شقة والدها شريط كاسيت الشيخ عبد الحميد كشك، وكانتا قد قررتا أن تسمعا هذا الشيخ الذي تتحدث عنه مصر كلها، ويحتشد المصلون في الجامع الذي يخطب فيه حتى تمتلئ الأرصفة المحيطة وتفرش الجرائد على الأرض للناس التي وفدت فلم تجد لها مكانًا. رفعتا صوت الكاسيت، ولعلع كشك في خطبته بصوت جهوري، بينما كان صدى صوت أضفاه عليه مهندس شريط خطبته كنوع من الإبداع الحماسي أو الإعجاب المضاعف. صمتت عايدة وهيام تمامًا، وأنصتتا دون أي رد فعل. فلما أفرغ كشك جعبته من سب أم كلثوم والسخرية منها ومن سنها وفنها وغنائها، ولعن إحسان عبد القدوس ورواياته، وعبر على مجموعة من المطربات والأغنيات، ثم وضع بينهم أحاديث نبوية، ثم علَّق على مباراة الأهلي والزمالك، وخص النساء بتهجم وتنمر ونكات بإيحاءات وإسقاطات جنسية تطلق ضحكات المصلين التي تصاحبه في الخطبة، كأنها مسرحية الفنانين المتحدين الجديدة، قالت هيام:

- عارفة يا عايدة بمَ يصف الأستاذ رياض سليم الشيخ كشك؟

- لا.

قالتها وهي تشعر بغيرة أن الأستاذ رياض خص هيام بما لم يخصها به.

- يقول إن الشيخ كشك هذا هو شيخ البذاءة المقدسة.

* * *

وجد المحامي مساحة ومسافة لصوته فاحتلها بسرعة، ورفع نبرته، وأحدَّ لهجته، وهو يطالب بإحالة موكله طارق عبد العليم إلى مستشفى الأمراض العقلية. مرت ثوانٍ بلع فيها كل من في القفص والقاعة وفي المنصة ألسنتهم في حلوقهم، ثم انفجرت المحكمة بالصخب. اهتاج ماهر بكري وهو يمسك حديد القفص ويطل من فوقه برأسه فيشب ويتنطط صائحًا صارخًا. بينما شكري على يساره يبتسم ثم تتسع ابتسامته لضحكة تهكمية استعلائية، كانت هي موسيقاه النحاسية الخاصة كلما أزعجه كلام يقال أو تهم تتردد. أما طارق عبد العليم الذي كان واقفًا بنصف جسمه وسط زحام القفص خلف شكري، ومحصورًا بمأمون ومحمد أبو دنيا، فقد احمر واصفر واخضر، ثم اختفت كل الألوان من وجهه وزعق يدافع عن نفسه ضد محاميه:

- هذا كذب! كذب!

كان صوت ماهر الأعلى والأكثر صخبًا، فمسح كل الهمهمات والهمسات في القفص، وهو يصرخ بيديه ووجهه ولسانه وقفز فوق سور القفص الواطئ:

- هذه مؤامرة كي تجعلوا منا جماعة من مجانين.

كان شكري هو الذي التفت إلى طارق الذي ثاب إلى جماعته، ووثب فوق الأكتاف، وعاد فضاعف زعيقه في محاميه:

- اسحب هذا الطلب فورًا، أنا معترض على هذا الطلب يا سيادة الرئيس.

لكزه ماهر بقبضته:

- وأسحب وكالتي لهذا المحامي.

كان محاميه حائرًا، فيبدو أنه قد اتفق مع طارق أو اتفق مع أهله أمام طارق ووافقوا أو وافق ولو بالصمت، ولكن طارق عاد عن موافقته لما تحول الطلب عارًا، تعرت فيه رجولته مع إيمانه مع ولائه في القفص بين زملائه. كان شكري قد فطن إلى أن طارق قد طاله الشك. كان الضابط العازم الحازم الذي وضع الخطط ونفذها، وتصدى لتعليم العناصر التي تخيَّرها فنون العبوات الناسفة وتركيب القنابل، وشارك المتقاعدين من الجيش الذين انضموا إلى الجماعة في تجميع وتدريب وتأهيل الأعضاء المؤهلين ليكونوا الكتيبة الخضراء. طارق أول من أدخل السلاح للجماعة، وتخلى له شكري عن إلزام مسلميه بالسيف والسكين (والرمح إن وجد) أسلحة، وطارق هو الذي أطلق الرصاصة على الذهبي متباهيًا، وهو من زرع العبوات الناسفة بينما كان أعضاء الجماعة يتساقطون في أيدي البوليس كثمرات عطبت على فروع الشجر، لكن القبض عليه كان قاصمًا لظهره. كان طارق مؤمنًا بأنه انضم إلى جماعة آخر الزمان، وأنهم محصنون من كل سوء، وفائزون في كل معركة، فلما أهانته أيدي الضباط من زملائه السابقين، ولما تهاوت كرامته مهدرة ومرمية بين عساكر وصولات ومخبرين، انكسر عموده العصبي، الرجولة التي كان يبرزها ضد نفسه الأمارة باللواط، البطولة التي يحياها فارسًا ضد الضلال، الاستعلاء بالإيمان والإسلام والزعامة ضد ضباط عاصروه وزاملوه فأهملوه وتجاهلوه، العائلة التي هجرها تمردًا. سمع كسرة قلب أمه وهي تجلس معه في غرفة النيابة تهيل الكآبة على وجهها تراب الخيبة والخذلان. وزملاؤه في الجماعة من شعروا بضعفه بعد قوة، وذبوله بعد فتوة، وحيرته بعد ثباته، وتشتته بعد صلابته، وصفرة الجلد، والعينين الزائغتين، والشفة المرتجفة، والرأس المطرق، واللسان الناشف، والأنف المنحني. سمحت الجماعة لبعض أعضائها أن يتقول عليه بأنه مدسوس عليهم، ولبعض آخر ممن خرجوا مفرجًا عنهم أن يذيع عنه سره المتلطي، بل ولم يعارض ماهر بكري أن يتحامل عليه المحامون ويقدموه كبشًا للإعدام شرط ألا يقدموا شكري وماهر مطية غافلة لطارق المتذاكي. لفظوه حتى في القفص، تجنبوه وتخاشنوا معه وأغلظوا له، لكنهم حافظوا على وقفته بينهم. وها هو الآن يحاول أن يعود إليهم، وأن يتقوى بهم، وأن يتحصل على غفران ضعفه من أميره وخليفة المسلمين المهدي. يتشبث بوجه شكري الذي يتفحصه مبتسمًا، ويومئ له راضيًا، بينما يصارع طارق لحظة سقوطه المدوية حين قدَّم المحامي طلبه، ولولا خشيته أن يدمغ نفسه بالجنون فعلًا لكان قد قفز من القفص على المحامي فضربه أو طعنه أو قتله، لكن إيماءة شكري للمحامين الآخرين جعلتهم يتحركون بسرعة، فيأمرون صاحبهم بسحب الطلب والتراجع عنه فورًا، بل والاعتذار للمحكمة، وللمتهم طارق عبد العليم الذي قبل الاعتذار دامعًا.

تابعت عايدة مجريات الجلسة التي فتحت ستائرها عن إثارة مشوقة. كانت قد حافظت على مكان ضيق بين عائلات المتهمين، كل عائلة تظنها فردًا من الأخرى، كان زيها مناسبًا تمامًا لمعظم العائلات التي انتمى أولادها إلى الجماعة. عائلات متوسطة الحال، مستورة ماليًّا، ومستقرة اقتصاديًّا: فهذه والدة رزق مدرس الثانوي الصناعي، وتلك أخته. وهذه زوجة أحمد المغازي مفتش التموين. وهذان والد وأخو محمد محمود طالب بكالوريوس التعدين. وهاتان أم وحماة عبد الرحمن يوسف موظف مصلحة الضرائب. وواضح من هؤلاء الأمهات ذوات التاييرات المهندمة والشعور الملمومة والجيبات التي تصل إلى سمانات السيقان، أنهن أمهات طلبة الهندسة والطب والآداب الذين يتجاهلون صيحات أمهاتهم، ويعنفون آباءهم لحضورهم المحاكمة بأولئك الزوجات السافرات، فضلًا عن أنهم آباء كفار أصلًا. كل ما في جلسات المحاكمة يقطع نياط

قلوب هذه العائلات التي تسمع وصف أبنائهم لهم ولمجتمعهم وبلدهم بالكفر والفسق والانحراف والانحلال.
سح الدموع كان صوتًا مألوفًا لمسامع عايدة، وقد استرقته وتوثقت منه ومن مصدره في الجلسات الأولى، ثم عادت واعتادته وصارت خبيرة به، رغم هذا الصخب الذي لم يكف عن الطنين في كل لحظات المحاكمة، بزحام المحامين تشرئب أعناقهم عند منصة القضاة، وتتداخل أصواتهم مع أذرعهم للوثوب والمثول أمام المنصة، وتلك التحركات الصغيرة للأوراق والحقائب، وخبطات رؤوس أعواد الثقاب في شريحة الكبريت، فإشعال اللهب الصغير يحرق تبغ السجائر، خطوات الأحذية العسكرية للجنود والحرس في نهايات القاعة وتحت نوافذها، وحفيف أوراق الصحف الملفوفة كمروحة لتحريك هواء يبدد خنقة النفس رغم أن الشتاء دفيء. لكن القاعة أصغر من كل هذا الحشد، والحر فيها تصنعه الأجساد والمشاعر والاتهامات والكآبات، وليس من فعال الطبيعة.
شكري مصطفى حافظ على وقفته المترفعة داخل القفص الذي لم يكن يسع لقرابة الخمسين من المتهمين، فبات كصندوق عربة نقل تحمل عمَّال تراحيل لحصاد حقل حنظل وصبَّار، معتدًّا ومتعاليًا في الوقفة والكلمة التي يختار دائمًا عنفها وعلوها وصخبها وفخامة قرعها، ويتعمد ألا يبالي برد عليه، ولا مناقشة لما قاله من أحد، ولم يكن يعلِّق إلا بأنه في غنى عن التعليق، وحين يدلي برأي فيصد أحدًا عن محاججته فيه:
- لا أنتظر منك أن تجد حجة، حيث لا حجة أصلًا، ولا تملك أنت ولا غيرك أن ترد، فقولنا حق لا يماريه شك.
حتى إن محاميًا تحامى عنه حين شكك في فهم المحكمة لشيء في فكر الجماعة، وبرَّأ الجماعة من هذا الخطأ، فصرخ فيه شكري مصطفى كمن يؤدب متطاولًا:
- اسكت يا رجل! فنحن لا نراوغ، ولا نكذب أو نتبرأ من أفكارنا لأجل هذا القاضي أو غيره، نعم نحن قلنا هذا ونؤمن به، ومن يقل بغير ذلك كافر كفرًا بواحًا.
حاول رئيس المحكمة أن يناوش ثقة شكري في نفسه، ويكسر حدته في التحدي:
- حتى لو قال هذا الكلام محاميك؟
- يبقى كافر مثله كغيره.
ضحك القاضي مع القاعة مع المحامي نفسه.
* * *
بحثت عايدة عن هيام، كانت علاقتهما قد استردت ظاهرها، أما باطنها فقد سقطت الذبابة في العصير. كانت هيام تتحرك في كل جلسة إلى مكان مختلف ومبتعد، لكنها استقرت إلى جوار رجب مهنا الذي كان يحضر المحاكمات بانتظام مثالي كأول من يظهر وآخر من يختفي، فلازمته حضورًا وانصرافًا، ونجحت في أن تشده بعيدًا عن عائلة الشيخ الذهبي، فيبعد عنهم في كل جلسة أكثر من سابقتها. كانت أسماء هي وجهة عايدة الدائمة حين تبدأ يومها بها تسليمًا وتحيةً واستفسارًا عن الصحة والحال، فتجيب أسماء مقتضبة، فالتزاحم حولها ذميم، والأسئلة لها مكررة وكريهة، والوجوه كثيرة حتى إنها لا تحفظ منها وجهًا، ثم إن قتلة أبيها في القفص يتحدون ويتباهون ويستعرضون ويتفاخرون، فكأنما يحشون كل مرة جرحها ملحًا. أدلى أخوها الدكتور مصطفى بشهادته قبلها، وحاول محامو التكفير والهجرة أن يرهقوه بالأسئلة المشككة

والاستفهامات المستفزة والملاحظات الاستنزافية، وكادوا أن يجعلوا منه مشتبهًا فيه أو شاهدًا ملقَّن الشهادة. أذهلها المحامون فعلًا، ولم تمنع نفسها من صب كرهها زيتًا مغليًّا فوق أروابهم.
هناك فرق بين دفاعك عن متهم، وبين دفاعك عن التهمة، فهذا محامٍ صلصل صوته وهو يقول:
ـ إن قضية الدكتور الذهبي جاءت استكمالًا لمخطط قديم يستهدف مطاردة الشباب المسلم، مما يهدد الإيمان، ويشجع الإلحاد والتحلل على أن يسود بين الشباب، والشباب المثقف على وجه الخصوص، وهذا خطر داهم يا سيادة الرئيس.
لم تفهم عايدة شداد ما الذي يريد المحامي قوله، فتركت مكانها تتجاوز أكتافًا ورُكبًا، ووصلت إلى هيام فانحشرت بجانبها، فانزاح رجب قليلًا ليترك لهما فسحة من سنتيمترات وهو يبتسم لعايدة جافًّا.
ـ مخطط قديم يستهدف الشباب المسلم! لا أفهم يا هيام!
ـ ليس مهمًّا، ولا أنا فاهمة، لكن هو عايز يقول إن المتهمين ضحية.
ـ ضحية من؟ ضحية المجني عليه؟!
وكزتها في جنبها، وطلبت منها أن تنتبه لبقية كلام المحامي الذي جلجل:
ـ إن صلب دفاعي يستند على أن أحكام الإسلام هي الباعث وراء الأفعال المنسوبة إلى المتهمين، أصابوا أم أخطأوا.
قرصتها هيام:
ـ اتكتمي، أهو قال لكِ الخلاصة.
كان المحامون يسألون ابن الشيخ الذهبي عن رأي أبيه خلال الجلسات العائلية في جماعة المسلمين، فقال إن المعلومات التي كانت عند أبيه أنهم ناس بيكفَّروا المجتمع ويحرِّموا الجهاد ويعطِّلوا العلم لأن الأساتذة كفرة. لحظتها هجم شكري مصطفى بسؤاله على نجل الدكتور الذهبي:
ـ بالنسبة إلى الشيخ الذهبي، هل ذكر لك أننا عملاء؟

أُخذ الشاهد، وصمتت القاعة، كأنما أصاب هواءها الخرس. ازدرد مصطفى الذهبي ريقه، ورد وهو يأخذ الإذن من رئيس المحكمة أن يجيب على قاتل أبيه:
ـ لم يتهم أحدًا، هو قال إن فيه ناس من هذه الجماعة نفسهم في الإسلام، ولكن لا بد من أن هناك من يستغلهم من فوق.
وجدت عايدة نفسها تنظر إلى فوق، أي فوق يا ترى؟ فوق في الجماعة؟ فوق في الدولة؟ فوق في السماء؟ لم يستفسر لا القاضي ولا المحامون ولا شكري مصطفى، بل عاجل بسؤال عاجل:
ـ يعني نفى أننا عملاء لأشخاص، وما ذكرش عبارة إنها جماعة تدعو الشباب إلى الفسق والفساد؟
ـ لا.
لاحظت عايدة أن كل الأطراف مصممة على قصة الزوجات في الجماعة، المدعون يدعون، والقضاة يعنون ويسألون عن حقيقة الزواج في الجماعة، وأعضاء الجماعة يدافعون فيهيجون ويلعنون وينفون تهمة الزواج المفتوح، بينما يتشرفون بتهمة القتل المباح، والصحافة شغالة عناوين وتحقيقات عن تبادل زوجات بين أفراد الجماعة، وتطليق زوجات جبرًا وتزويجهن قهرًا

وبلا شهور عدة، والمحامون يهاجمون الصحافة التي تشهر بالمتهمين والجماعة، والمدعي يعود فيدعي أن زواجهم منحرف، والمحكمة ترجع فتستفسر وتستجوب عن الزواج والزوجات، والمحامون يحامون عن العرض، والجماعة محموممون يدرأون عن الشرف، من شكري حتى أصغر متهم صاحب العشر سنوات، يتحدثون عن زيجات شرعية وطلاقات في المحاكم ووثائق زواج رسمية، كأن المطلوب تحويل قضية التكفير والعمل السري والخطف والقتل إلى قضية آداب!

لما سألت عايدة الأستاذ رياض عقب عودتها ذات مرة من جلسة طويلة عن هوس المرأة بين الجميع، أجابها وقد نحل في الأيام الأخيرة، وشحب وجهه، وبدا مريضًا يكتم إعياءه، لكنه تماسك فأمسك نظراته عن فضح حبه للشابة التي تتألق في حيرتها ويصهل جمالها في سباق الحياة:

ـ يبدو أننا سنقيم سرادق عزاء قريب لقاسم أمين.

تشامخت معاندة وقد فهمت رده:

ـ مستحيل! لا الذين يمسكون الدين سيفًا، ولا الذين يعملون من الأخلاق رمحًا، يقدرون على إعادتنا إلى عصر الحريم واليشمك.

ضحك رياض ضعيفًا:

ـ بأمارة يشمك هيام غالب.

وخزها الرد، فأحس قسوته، فقال لها:

ـ أرجوكِ لا تغضبي مني يا عايدة.

رقت وجلست بعدما خاضت حوارها منتصبة القامة في مواجهة مكتبه:

ـ أنا حاسة إنك تعبان يا أستاذ رياض. خير؟ سلامتك.

تعافى صوته بسرعة:

ـ أبدًا، أنا مثل الفل، قليل من الإرهاق وبعض الضغوط.

ـ أنا فاهمة إن فيه تغييرات صحفية قادمة، هل أنت قلق؟

ـ فيه تغييرات قادمة، لكن ليست صحفية.

ـ سياسية.

ـ وجودية.

لم تستوعب عايدة، ولم يشرح رياض، وقد حرَّك أوراقًا أمامه وأشَّر على صفحات، ورد على رنين هاتف بكلمة وأنهى المكالمة، وقام وفتح الشباك، فطلت تحته مباني عمارات قصيرة فقيرة ذات أسطح، تتوزع فيها غرف خشبية وأسمنتية ضيقة ومنخفضة الأسقف، يخرج منها أطفال أنصاف عراة يجرون لاهين، وستات يشعلن بواجير الجاز يغلين ماء أو يطبخن طعامًا، وحبال غسيل منشور عليها ملابس متنوعة بين الفقر والأكثر فقرًا، وقفت عايدة بجانبه تتأمل المشهد المنثور تحت الشباك، أخذتها أشكال السطوح وحالها، وتحدثت بنفس دهشة سندريلًا من معاملة زوجة أبيها:

ـ ماذا لو كانت تلك السطوح مزروعة بحدائق الورد وأشجار الفل والياسمين؟

التفت إليها رياض فبدا عجوزًا يهزمه عجزه:

ـ هل تعرفين لماذا سمَّاكِ والدكِ عايدة؟
أدهشها السؤال، طبيعته ووقته ومصدره، فأجابت:
ـ لا.
فأومأ مبتسمًا بفيض من الحنان المهزوم:
ـ اسأليه.
ـ حاضر، لكن لماذا؟
ـ عايدة شداد، قصة حب كمال عبد الجواد المستحيلة، عارفة كمال عبد الجواد؟ إنه نجيب محفوظ بطل الثلاثية ومؤلفها.

* * *

كانت قاعة المحكمة تغلي بالحركة الغريبة، رأت عايدة غيمة زوجات المتهمين السوداء تتسع رقعتها في ركن القاعة، وقد انفصلن عن أي مخالطة للرجال، منتقبات ومتشحات بالعباءات السوداء، وحاملات أطفالًا رضعًا (المتهمون في عشرينيات العمر أو أزيد قليلًا، فأعمار أولادهم لا يمكن أن تزيد كثيرًا عن الرضاع أو الفطام). انحشرت بينهن هيام وقد تغيرت ملابسها الفضفاضة وخمارها الذي سمح لنفسه أن يكون بلون عباءتها المتغير بين الأزرق والرمادي والأخضر، لكنها في المحكمة التزمت السواد نفسه في ذات الغيمة. بينما تكاتف المحامون وتحلقوا في دائرة تضيق في مركزها وتتسع في قطرها بالرؤوس المحشورة والمتماسة تتهامس وتتشاور وتتوعد، والصغار منهم يحفزون الكبار، والكبار منهم يعدون الناشئة بالتعلم ويتوعدون التاريخ بأن يسجل. بينما زاد عدد الجنود من حراس القاعة عند المداخل والمخارج والنوافذ والأبواب الداخلية المفضية إلى غرفة هيئة المحكمة والأخرى المؤدية إلى أمين السر، وتوزع ضباط بملابس رسمية عند المنصة للحراسة والمتابعة، بينما حشود القاعة بلغت تخمتها. أما الصحفيون والمصورون فقد تسللوا حتى أسفل المنصة، فقرفصوا وربعوا وتكدسوا وأفردوا الدفاتر وهيأوا تشغيل أجهزة التسجيل الجديدة ذات الحجم المتوسط التي تشبه راديوهات الإذاعة، والتقط المصورون بفلاشاتهم ذات البرق الضوئي لقطات تمهيدية، وتبادل المحامون المداعبات مع الصحفيين والتوصيات والابتسامات في صفقة المصالح المشتركة التي تعد هذه التحيات بمثابة التمهيد في العقد.
حين أدخلوا المتهمين يتقدمهم شكري مصطفى إلى القفص بدت قافلة من الذئاب جاءت اليوم لالتهام فرائس القاعة. عينا شكري المحدقتان الثابتتان الواثقتان المحلقتان المتجولتان بين سقف السماء وفي قاعة الأرض في جولة تأمل كوبرنيكوسية. بينما طارق عبد العليم لا يزال على تيهه، الضابط الذي لم يكن يظن أنه سيُرمى في أرضية الحجز متهمًا، ويُدفع من أيدي العساكر، ويهان بالنظرات والكلمات واللكمات، ويحقِّر من الزملاء والأصحاب، المخذول من الجماعة التي ظن أنها خالدة، ومن المهدي الذي ظن أنه منتظر منتصر. بينما محمد أبو دنيا يلتصق بشكري مصطفى كأنما يتحامى به اتباعًا مسكونًا بالخوف والتوجس، ثم يعود ويتحرك متململًا ليقف أمامه كأنما يحرسه أو يفديه، فيثير غضبة ماهر الذي اختار مكانه دائمًا عند خاله شكري يتقدمه أو يجاوره، واليوم يوم الملحمة. أنور مأمون وصفوت الزيني ومجدي ومصطفى يطمئنون الخمسين المحيطين بهم في القفص المحشور، ويشيرون عليهم بالصمت حين تكلم شكري مصطفى:

ـ لن يتمكنوا منا، وستنتهي كل هذه التحقيقات والمحاكمات إلى لا شيء، فلا غالب إلا الله.
همهموا وهللوا وكبروا، فقد نادى الحاجب الآن على الفريسة.
فهمت عايدة لماذا شمت روائح الحريق المعد للشواء منذ الصباح حين دخل العقيد عادل مجاهد قاعة المحكمة ببذلته القطنية ذات الأكمام القصيرة والجيوب الأربعة، ويظهر طوق فانلته البيضاء الداخلية فوق الزرار الأول للجاكت، شاربه الرفيع المنسق، وشعره ليس قصيرًا على الطريقة العسكرية، بل ناعم مصفف ولكن بلا سوالف طويلة كموضة هذه الأيام. إذن هو السبب في هذا الاشتعال الذاتي في عيون كل المحامين والمتهمين، يراهنون على الأسئلة التي سيمطرونها على مسؤول النشاط الديني في مباحث أمن الدولة. قرروا أن يجعلوا من شهادته محاكمة للجهاز وللداخلية، وتحويل الجماعة ضحية المطاردة والملاحقة، ثم الهدف الأسمى وغاية المراد من قانون العباد، وهو اتهام الدولة بأنها من قتلت الذهبي.
كادت عايدة تجن من أن المتهمين معترفون ومتلبسون بقتل الذهبي، بينما المحامون الإسلاميون والمتأسلمون كلهم يسعون إلى اتهام الدولة بتدبير قتل الذهبي. ثم كانت هذه اللحظة الخاطفة التي جذب فيها شوكت التوني ورقة من ملفه، وهو يقف مستندًا على منصة الدفاع، تخبط يده الميكروفون الموضوع عليها فيعيده إلى موضعه مثبتًا، حتى تظهر كلماته جلية في مواجهة العقيد عادل مجاهد الذي طلبت له المحكمة كرسيًّا للجلوس عليه تحت المنصة ووسط حلقات المحامين والصحفيين المحمومة، فقد طالت أسئلة المدعي والمحامين حتى آثرت هيئة المحكمة أن تستضيف شاهدها على مقعد. وقف شوكت ينظر أولًا إلى عادل مجاهد، فلم يرَ فيه إلا وجه الشرطة التي اعتقلته وظلمته وأظلمت دنياه وصادرت أمواله وعاقبته، لأنه يدفع الأذى عن المظلومين ويجير الموكلين الذين يستجيرون به ويجيب المضطر إذا دعاه. لم يرَ شوكت التوني ساعتها عادل مجاهد الذي كان يجالسه يتحابان ويتجاملان ويتوددان في حضور النبوي إسماعيل في مكتبه، بل رأى من دفعه إلى كتابة بيانه المهترئ الذي تبرأ فيه من خطف الذهبي ولم يكونوا قد قتلوه بعد. كما أن عادل مجاهد لم يرَ في وقفة التوني في المحكمة إلا استعراضًا وتباهيًا بتاريخه المدافع عن الإخوان وإرهابييهم، وادعاء بأنه نصير الحرية، وكأن الحرية التي يدافع عنها التوني هي حرية القتلة أو المأجورين فقط. لكن عمومًا رجل يشوف شغله ويحلل أكل عيشه كما كل المحامين الذين يراهم أمامه الآن في القاعة، وكلهم إخوان مسلمون وجماعات إسلامية، يعلمهم واحدًا واحدًا بالاسم والعنوان والانتماء والحركة والدور وسنوات الجامعة، وكم مرة تحقق معهم، وكم مرة دخلوا حجزًا أو قسمًا، بل يعرف جيدًا المرشد للمباحث منهم، والذي يشغله عادل مجاهد شخصيًّا لحساب أمن الدولة، أو من يجهزه لهذا الدور. صحيح هناك محامون محترمون ضمن فريق الدفاع، لكنهم يسعون للشهرة أو لمناكفة الدولة أو لتقديم أنفسهم للتيار الإسلامي، الذي رغم هذه القضية فالكل يعرف أنه ركب ويركب وراكب قطار السادات السريع منذ جاء الرئيس وزاد ركوبه وزاد من سرعته منذ مظاهرات يناير، فتعالوا اتفضلوا اسألوا وكملوا أسئلتكم وأروني شطارتكم، نعم يا أخ توني ماذا تريد أن تقول؟ قل يا رجل. كان شوكت التوني الآن يقرأ رسالة جماعة التكفير والهجرة إلى الرئيس أنور السادات:
ـ وكان من مطالبهم للسيد الرئيس أن يتم التحقيق الفوري والجاد مع مباحث أمن الدولة. هل بلغك هذا المطلب الذي رفعته الجماعة للسيد الرئيس يا سيد عادل بصفتك مسؤولًا في مباحث أمن الدولة؟
رد عادل مستخفًّا:

ـ طبعًا بلغني، كما بلغني أنه في نفس الرسالة، وهي بالمناسبة نسخة بالكربون لما قيل إنهم أرسلوها فعلًا بينما لم يتأكد لدينا من ديوان رئاسة الجمهورية أن الرسالة قد وصلت، أو أنه قد اطلع عليها السيد الرئيس، لكن عمومًا الرسالة تطالب فعلًا بالتحقيق الفوري مع مباحث أمن الدولة، وأيضًا مع نيابة أمن الدولة، وكذلك مع الصحفيين، وإذا أردت أن تكمل قراءة الرسالة فهي تطالب بإعفاء أعضاء الجماعة من الخدمة العسكرية والسماح لهم باستيطان بقعة نائية في الصحراء.

قزح أنور مأمون وراء زملائه وصاح:

ـ نحن رفعنا دعوى على رجال المباحث بسبب القضايا التي لفقوها لنا!

تدخَّل رئيس المحكمة:

ـ باسم مَن؟

تصدَّى شكري:

ـ باسمي أنا شكري مصطفى وأيضًا ماهر وأنور.

نخز عادل مجاهد المحامي شوكت التوني بشوكة:

ـ ما هو التوني بك محاميهم في هذه الدعوى.

رد غضوبًا:

ـ نعم.

ـ أما ما لفقناه لهم يا سيادة الرئيس حسب زعمهم، فهي قضايا الاعتداء والشروع في قتل زملائهم الذين انشقوا عن الجماعة.

تشامخ شكري وجلجل، كأنما يملي من قفصه خطبته على جبل عرفة:

ـ إن كل فرد دخل الجماعة إنما دخل على شرط مسبق، وهو أنه إذا ارتد عن فكر الجماعة يكون في حكم الكافر المرتد، ولهذا نحاسب كل فرد في هذه الجماعة على هذا الشرط الذي اشترطه على نفسه، فالمرتد عن الجماعة مرتد عن الإسلام، ومن الناحية العملية أنا لا أنكر أنني مستضعف في ظل القانون، ومن الناحية التصورية أعلن أنني على فكر مخالف تمامًا لفكر الأرض كلها، ولا أفعل شيئًا يدينني قانونًا.

قبل أن يعلن أحد اندهاشه قفز فجأة محامٍ آخر أمام التوني مما استنفره واستفزه وسأل العقيد عادل مجاهد:

ـ ما علاقتك بالنشاط الديني؟

استغرب عادل مجاهد السؤال، لكنه أحب بلاهة صاحب السؤال:

ـ نحن لا نراقب النشاط الديني، نحن نراقب التطرف الديني.

عاود المحامي سؤاله وقد سن سِكينه تحت روبه طويلًا:

ـ سؤال شخصي: ما ثقافتك الدينية؟

كاد العقيد أن يضحك، بينما اعترضت النيابة على السؤال، لكنها كانت فرصة لغمغمة المحامين وكأنهم أمسكوا بذيل الثعلب، فرد رئيس المحكمة حادًّا:

ـ ضابط أمن دولة، ودارس مثلكم قانون وشريعة، هل المفروض يبقى شيخًا في الأزهر؟

أعجب الرد العقيد مجاهد وإن كان كتم سؤاله لهم عن ثقافتهم الدينية وأغلبهم طلبة وزعيمهم مهندس زراعي، وإذا كان على الكتب والمجلدات فعندي ما عندكم.
مرت الأسئلة كرصاص لا يصيب ولا يدوش، ويتفلت العقيد من مخالب تحاول أن تنشب فتنغرس في العشب، أو أسهم تصوب فتسقط في الأرض. وتبارى المحامون الكبار في المكابرة، فلما تكررت الأسئلة وتناسلت فشلًا، زأر محامٍ ملتحٍ من فوق ظهور زملائه، وكاد ينط على كرسي الشاهد:
ـ إنك تحارب الإسلام، وتتخذ أنت ورؤساؤك من حوادث صغيرة مطية للطعن في الإسلام ومحاربة شرع الله!
وجدها ماهر فرصة ليمارس هوايته في الجعر المقدس:
ـ وأنت يا رئيس المحكمة، لا تمكننا من الدفاع عن أنفسنا، وتسمح بالنيل منا، فأنت متحامل علينا وتتربص بنا!
هاجت القاعة وفاض صخبها على سمعها، فأنهت طرقات رئيس المحكمة الضجيج، ثم عادت قافلة المحامين تعذر وتعتذر عن كلام المتهم، وتلتمس وتتوسل العفو عن انفعال المتهم، وتتودد وتتشد حكمة المحكمة، فلما هدأ الحال عاد السؤال إلى عادل مجاهد، فأجاب:
ـ لو كنا نريد استغلال الظروف الحالية لمحاربة كل التنظيمات الدينية كما تقول بعض الأبواق المغرضة، لكانت هذه هي الفرصة الملائمة لذلك، لكننا لا نفكر في ذلك أبدًا، وكل الجماعات الدينية تمارس نشاطها المشروع، ونحن لا نتعقب إلا التطرف وحده.
سأله التوني:
ـ وما معيار الانحراف الديني لديكم؟
ـ أنا قلت تطرفًا، ولم أقل انحرافًا.
ـ طيب، وما معيار التطرف الديني؟

كان العقيد مجاهد حاسمًا، وبصوت أعلى من إيقاعه المعتمد طوال ساعات الشهادة:
ـ لما يتأكد أن الجماعة تحتك بالسلطة يعتبر ذلك تطرفًا.
صرخ ماهر من وراء القفص منفجرًا:
ـ وهل اللجوء إلى الجبل جريمة؟
فهم مجاهد أن السؤال موجه إليه، فأجاب:
ـ نحن لم نعثر على جثة الشيخ الذهبي الذي قتلتموه في الجبل، بل في الهرم، في شقة في الهرم!
هاج ماهر مزهوًّا ومتباهيًا:
ـ أنا سعيد حقًّا بقتل الشيخ الذهبي.
علا شكري بصوت جهوري كأنما يقول قوله هذا ويستغفر الله له ولنا:
ـ الذهبي هو المجرم حقًّا.

(12)

حاول شكري مصطفى أن يملأ القفص الفارغ من أعضاء جماعته، من مسلميه، تمتد القضبان القصيرة حتى حدود صدره وحيدًا، يتحرك ببذلة الحبس الاحتياطي البيضاء مفتوحة الصدر، ويتحسس بأصابعه لحيته التي غمرها السواد، تتعجرف نظراته على ثلة من العساكر الواقفين موزعين داخل القفص وخارجه يحرسونه، يفتقد هسيس رجاله وهمساتهم، ودبيب الأقدام إن تحفزت وإن غضبت وإن ضجت، وتململات الأذرع وتلويحاتها الضجرة. غمض عليه القرار، ورآه مؤامرة تتحاقر كما كل المؤامرات على الإسلام، عليه. لماذا تستدعيه المحكمة وحده، وتأمر بمثوله في جلسة وحده، قد تمتد لجلسات، تستجوبه وتحقق معه وتستمع إلى أقواله وحده؟ هو لها ولغيرها.. لكن لماذا؟ حركاته وخطواته ولفتاته وإيماءاته وضحكاته وتمتماته وهمهماته في القفص الفارغ تملأه، وتلقي فيهم الهيبة والرهبة. أيخالون لو نزعوا منه رجاله ومسلميه سيبدو ضئيلًا موحولًا وحيدًا؟ أأزعجهم أنه حين يشير إلى أحد منهم فكأنما يأمره، يومئ فيسكت المتكلم، ويرفع إصبعه فيتكلم الساكت، يلتفت فيصرخ الصامتون، ويسعل فيهدأ الطائحون؟ أيتخيل هؤلاء الحكام والقضاة بغير حكم الله وبغير شرع الله أنهم قادرون على ظل الله، أنهم سيتمكنون من شق عصا الجماعة ومن تجنيد متهم أو انشقاق أحدهم؟ عبثًا يظنون، فهؤلاء فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وامتحنتهم المحنة فلم ولن يرسب أحد، فهم يؤمنون أننا جماعة آخر الزمان، وليس في الأمر خبل ولا خطل ولا زيغ ولا هوس كما يحاولون جميعًا من ساداتهم إلى عبيدهم أن يصمونا.

كان منظر طارق عبد العليم مقبوض الذراعين ومكلبش القبضتين، مدفوعًا من عساكر كانوا حتى وقت قريب خدمه، وهم يجرونه داخل مكتب المدعي، حيث أُجلس في المقعد المواجه للمدعي المتباهي بسلطته، كان منظره شاحبًا، مسحوب الدم من تحت الجلد، ومكبوس الدم فوق الجفن. بدا طارق ضعيفًا حين دخل، بينما هو الذي غلب الدولة وحيَّرها ونكد عليها في هروبه الطويل، حتى صفوت الزيني لم يكمل أيامًا، حتى المتذاكي أبو الخير أمسكوه في لحظة، لكن أبو يوسف ظل فارسًا يضرب ضرباته ويختبئ ليلدغ. فلما قبضوا عليه بعد لأي، لم يرف لي رمش، فوجودنا في السجن كما خارجه، مؤقت وطارئ، وما هي إلا سويعاتٍ زمن لن يتمكن فيها طاغوت مهما تفرعن من أن يمسنا بسوء، ورثة آخر الزمان لا يهزهم زمن ولا يهزمهم آخره.

كانوا يظنون ظن السوء أن طارق حين يراني أو أني حين أراه، يروح كل منا لاتهام الآخر بالمسؤولية، أو قطع حبل الله بيننا، أو استخلاص اعترافات منه في مواجهتي تدمغ الجماعة بالعمالة التي يموتون على لصقها بنا، أو بتهمة قلب نظام الحكم التي يلهثون ليضعوها في لائحة الاتهام. حكمكم مقلوب ومنقلب أصلًا، وأنا أريد أن أعدله. حكمكم كافر كفور، فلا انقلاب عليه ولا رغبة لي فيه، فأنا سأحكم العالم لا دولتكم المسكينة وحدها، ثم نحن عملاء الله، فابحثوا أنتم عمن تشتغلون عنده عملاء وساووه بالله. طارق الذي ادعوا عليه بالاهتزاز والارتجاف، والانهيار في التحقيق، والإسهال في دورة المياه، تقيصر أمامهم حين شاهد جلستي الرائقة الواثقة أمام المدعي، لم يكن حاطب بن أبي بلتعة ولا عمار بن ياسر حين ضعفا لحظةً رغم صلابة الإيمان وصحبة النبي، بل كان أشد منهما قوة وأعمق إيمانًا، فكانت المواجهة المزمعة هدأة روح وروضة تحت ظلال شجرة في الجنة. سجلت دفاترهم ومحاضرهم جلد طارق، واعترافه فخورًا بأنه من أطلق الرصاصة القاتلة في عين الذهبي، وهو من كتب معي تعليمات التخلص من جثته. نعم، لا تراجع ولا تردَّد ولا تلجلج ولا تلعثم ولا تخوَّف ولا ندم. أحمقى هؤلاء حتى يظنوا بنا هذا الظن؟ حتى عندما وقف المحامي يطلب إحالة طارق إلى مستشفى الأمراض العقلية، كانت شراكة في شرك يضعه أمن الدولة لنا، فنظن في أخينا الخور، ويظن الناس بنا الجنون، ويظن المتربصون أن طارق كان عميلًا مدسوسًا خدعنا فانخدعنا، وسحبنا للفخ فسُحبنا وتفخخنا، وسيخرج هو من مستشفى الأمراض العقلية بعد شهر أو يزيد فائزًا بدوره وغانمًا بحياته. لكنه هصور جسور، يأبى وهو المتهم بالقتل، ورغم حرب نفسه عليه يقطع دابر الكافرين، لماذا؟ لأنه نظر ففكر، ثم نظر فدبر، وألهمه شموخي وراء أسوار الحديد أننا سنخرج منها خروج إبراهيم من نار النمرود. ولكن أعوان الطاغوت اليوم يأتون بي أنا وحدي للمحاكمة، والقاعة الفارغة تمتلئ الآن، والمنصة تمسحها أيدي العساكر من تراب وغبار، وتنتشر كابات الضباط في أركان القاعة، ثم يدلف المحامون بأروابهم السوداء، لكنهم محامو شكري مصطفى فقط، ثمة أمر يعدونه ولا نخشاه، بل نتحداه.

* * *

جاءت عايدة إلى الجلسة متأخرة على غير ما اعتادت، مهمومة، تُضيق بأصابعها ياقة بلوزتها الصوفية اللبنية ترتديها فوق جيبتها البنية، تهتز رُكبتاها، وتهرول بساقيها تضرب بلاط القاعة بحذائها البني يكشف عن صغر مقاسها. كان والدها حين يشتري لها حذاء العيد يداعبها بالزغزغة في بطنَي قدميها وهو يخبرها أنها تملك قدم سندريلَّا، ولن يحتار الأمير في أن يعثر عليها حين تترك حفلة قصره في منتصف الليل. هدَّأت الذكرى توترها، بل أدفأت برد هذه القاعة الناخر في قلبها. فكرت ألا تحضر، لكن الأستاذ رياض صمَّم. كان أوهن من كل مرة زارته فيها في مستشفى الدكتور الكاتب، منذ أسابيع وقد بدأت صحته تتداعى بعد أن قاوم كثيرًا إظهار ألمه أمامها تحديدًا ومع زملاء الجريدة من رؤساء ومرؤوسين، لكن الشريان الأورطي ينسد فتنسد معه دنياه، إجازة مرضية من الشغل، وتكليف غيره بعمله، ثم انتقال للمستشفى أيامًا، ويخرج منه إلى عوامته في الزمالك، فتتفاقم أزمته فيعود إلى المستشفى. كانت المرة الأولى التي يرتفع فيها الستار أمامها عن حياة رياض الخاصة، كان كتومًا يغلق كل مفاتيح الكلام المتجه نحو عائلته، وكانت ثرثرة الزملاء المتناثرة عنه تمس أطراف حكايات لكنها لا تصل إلى لبها. وجدت نفسها لا تبرح مقعدًا بجواره في العوامة أو المستشفى، في العوامة تحرص على أن تكون في صحبة زميلة أو زميل، وفي المستشفى تزوره وحدها دون وجل. وصحبت والدها معها

مرتين حتى تُشرعن القرب من التربص والترصد. كان رياض يذوي فيشع حبًّا لها. الرجل الأرمل المسن الجبان الذي لم يعبِّر عن رأيه قطُّ في معضلة أو مشكلة، وآثر أمان الجبن على نيشان الشجاعة منذ إغلاق جريدة «الجمهور المصري» التي كان يعمل بها صحفيًّا بدرجة عاشق، وقد سجنوا صاحبها ورئيس تحريرها أبو الخير نجيب، ها هو يمارس أخيرًا حرية الرأي والتعبير وهو على مشارف الموت. كانت تتجول في مكتبته الهائلة في العوامة التي انتقل إليها بعد وفاة زوجته المليحة ملاحة هوانم زمن الخمسينيات (بدأ يفض مغاليق ماضيه لها، فمنحها ألبومات صور عائلته، حتى إنها استعارتها لتأملات ليلية في غرفتها، تتصفحها مع كوب شاي، وتستمع إلى شريط كاسيت سجلت عليه أغنية عبد الحليم حافظ الأخيرة «قارئة الفنجان» في آخر حفلة غناها فيها قبل أن يموت). مكتبته في العوامة تضم آلاف الكتب والمجلدات، ويعاملها معاملة العشيقات، تقرأ له في ساعات وهنه كتابًا تختاره، ويقرأ لها في لحظات صحوته كتابًا يتخيره. لم يجد والدها في علاقتها مع رياض شيئًا غريبًا ليستغربه. أما والدتها فرأت فيها شيئًا عجيبًا تستهجنه. لكن عايدة كسبت القضية بحاميها ومحاميها الأستاذ شداد، حتى بات يصحبها إلى أستاذها أكثر، ويتركهما في العوامة أو المستشفى لمشوار يقضيه ثم يعود فيأخذها إلى البيت.

أخذتها هيام من أفكارها إلى وقائع المحكمة حين دعتها للجلوس معها هي ورجب مهنا. لم يعد رجب زميلًا أكبر وأقدم بالنسبة إلى هيام، فقد صار خطيبها، وأوشكا على تحديد موعد للزواج. وقد ظهرت مقالاته في مجلة «الدعوة» التي يصدرها الإخوان المسلمون، فلحقته هيام بتحقيقاتها في ذات المجلة. طلبت هيام منها رأيها في تحقيقها الأخير عن الأخطاء الفاحشة للصحافة في الهجوم على جماعة شكري مصطفى. قرأت عايدة العنوان التفصيلي: «الشعب يسأل: لماذا التفرقة بين معاملة الشيوعيين ومعاملة شكري مصطفى وجماعته؟». قهقهت عايدة ضاحكة وهي تسألها:

ـ هل خطف الشيوعيون الشيخ الذهبي وقتلوه؟

نفرت هيام من ردها، وأفحمتها بكل هذه الأسماء من أساتذة الصحافة وأعلامها الذين شاركوا مجلة الإخوان المسلمين رأيها في فحش الصحافة. تعجبت عايدة، فالأسماء فعلًا لأساتذة الصحافة، وتذكرت ما قاله لها رياض في نوبات صراحته المتأخرة حين باح برأيه في تلك الأسماء اللامعة:

ـ هؤلاء أساتذة صحافة، لكنهم ليسوا أساتذة حرية صحافة، وكلهم من بقايا أو نفايات عصر عبد الناصر، إما يحاولون التنصل من نفاقهم له والتودد لخليفته، وإما يطلبون رضا الإخوان والإسلاميين فهو من رضا الرب ورضا النفط.

دخل المحامون، وكانوا محامي شكري مصطفى فقط، فاستغربت عايدة الأمر كله، ومالت برأسها على صدر هيام فوصلت إلى أذن رجب وهي تخبره:

ـ أمين السر قال لي إنها جلسة خاصة بشكري مصطفى، فسألت محاميًا عن قانونيتها، فأخبرني أن للمحكمة أن تنظم إجراءاتها كما تشاء وفق القانون.

تدخَّلت هيام:

ـ لم أفهم الإجابة.

عزمت عايدة على الشرح، لكن دخول هيئة المحكمة ببدلاتها المقصبة وكتافاتها القشيبة منع كلامها، والجميع يقف إجلالًا للعدالة. القاعة أهدأ، فلا أهالي المتهمين حضروا، ولا جملة المحامين فضلًا عن مجموعة مختارة من الصحفيين من مندوبي الصحف الكبرى ووكالات الأنباء، الدكك الخشبية تبدو أوسع، والمراوح في الأسقف لا تعمل في نوفمبر لكنها تصر صريرًا غريبًا مع فتحات الشبابيك الجانبية، ومنصة الدفاع بلا ميكروفون فكأنها فقدت تاجها الذي يتكالب عليه محامو هذه القضية، بضعة جلاليب سوداء منتقبة في ركن القاعة. اجتهدت عايدة كثيرًا كي تتعرف على فوزية شقيقة شكري الأثيرة ووالدة ماهر نائب الأمير المتهم الثاني والمتهم الخمسين هاشم الابن الأصغر، خنساء الجماعة لم يكن متاحًا كشف نقاب وجودها، وتمترست العائلة والجماعة منعًا للوصول إليها ومنها بخبر أو نبأ.

كان شكري الآن يقف في منتصف القفص منتصبًا، بمجرد ما افتتحت الجلسة صاح خطيبًا:

ـ أنا أعترض على وجودي في جلسة لا يشترك فيها سائر إخواني في الجماعة!

تبسم رئيس المحكمة وتجاهل اعتراضه وخاطبه:

ـ أنت في هذه الجلسة كي توضح فكرك وفكر جماعتك بشأن اعتزال المجتمع.

كان شكري مصطفى يرد على قريش حين صاح بلهجة رسولية:

ـ أريد أن أقر أنه لن تستطيع هيئة ما أن ترد على فكرنا، ذلك أننا قد اشترطنا على أنفسنا أن أدلتنا في موضوعنا كله أدلة قطعية الدلالة، ليس فيها احتمال لترجيح مطلقًا، وقد سبق في الفطرة البشرية أن الدليل القطعي لا يمكن أن يبطل، وحيث إن اليقين لا يزول إلا بيقين، فإننا على سبيل الافتراض الجدلي نطلب منهم مقابل عشرات الأدلة التي سنسوقها قطعية الدلالة، دليلًا واحدًا متصل السند إلى الله سبحانه وتعالى قطعي الدلالة، وما هو بممكن. وأقرر الآن أنه: ليس في طوقهم أن يأتوا بدليل واحد قطعي الدلالة متصل السند بالله سبحانه وتعالى يرد على ما نقول، وهذا التحدي قائم إلى قيام الساعة.

كانت عينا هيام تنطقان بالهيام المسحور بطلاقة شكري وشكيمة رأيه وعلو تحديه وصلابة يقينه، وكانت عينا عايدة تنطقان بالتساؤل: من أين جاء إيمان هذا الرجل العميق بكفرنا؟

أضاف شكري بعد تعليق تحديه في رقبة الجميع:

ـ ثم إن فكر الجماعة قد سبق أن كتبته في حوالي أربعة آلاف صفحة، وهي كلها الآن في حوزة مباحث أمن الدولة والنيابة العسكرية. وبالمناسبة، فإني أرى أنه من حقي أن تعاد لي هذه المكتوبات.

وجدت عايدة نفسها تهمس لهيام:

ـ لما أقول للأستاذ رياض على كتب شكري مصطفى وجماعته، وهذه الأربعة آلاف صفحة، سيجن بها وسيحاول بكل الطرق الحصول عليها وضمها إلى المكتبة عنده. هو دائمًا يقول لي هذه المكتبة كنز للأفكار العظيمة والأفكار الوضيعة.

قالتها مبتسمة، فقطعت هيام القولة والبسمة:

ـ ومتى يمكنه أن يقرأها وحالته بهذا الشكل؟

دمعت عينا عايدة، فجرى الندم في أصابع قفاز هيام التي ربتت مطبطبة على حجر عايدة متأسفة.

كان شكري قد بدأ مرافعته لما سألته المحكمة أن يتكلم، حاولت عايدة أن تضع كل حواسها في طبلتي أذنيها وسن قلمها على دفترها، بينما شرائط مدورة كبيرة تسجل للمحكمة تفاصيل ما فيها في جهاز كاسيت كبير على مكتب خشبي خلفي عند أمين السر، تتغير شرائطه ويقلب وجهه الصول المختص كلما قفز الشريط منطورًا من علبته، فيديره على وجهه الآخر ويدخله مسرعًا قبل فوات كلمة، بل وأكثر من مرة في جلسات سابقة توقفت لدقائق لعطب في الكاسيت أو ارتباك في قلب الشريط أو سف للشريط نفسه. اختار شكري أن يحول القفص إلى مئذنة فاعتلاها:

ـ إن هذه المؤامرة التي حيكت من قديم على الإسلام وعلى شرعة الإسلام قد آن الأوان الآن لأن يظهر الله «جماعة المسلمين» التي تعلن أنه لا دين عندها إلا دين الكتاب والسُّنة، وأن عليها أن تعيد الناس إلى ربهم، وأول ذلك هو إعادة الناس إلى كتاب الله وسُنة رسوله، وتحطيم الأصنام المعبودة من دون الله، وأولها بغير مواربة هو صنم الأئمة المتبعين بغير سلطان من الله.

حتى هنا كانت عايدة تستوعب وتكتب مختزلة الحروف، ولسبب ما كانت هيام تزفر وتشهق كأنما تلهث في مضمار ركض، بينما الصمت يأسر القاعة تنبهًا، افتتح وسأل وأجاب وصال وجال وخطب وتلا ورتل وفصَّل وأجمل وأعلى وأخفض، والمحكمة تستفسر حين تستوقف، فيمتعض من مقاطعته، لكنه يفتخر بعلمه فيتعالم ويرد ويفند:

ـ نؤكد وجوب النظر والتفكير والاجتهاد وتحريم التقليد بغير معرفة دليل. قال تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ □ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ□ وَفُرَادَىٰ□ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا »، فأوجب التفكير على كل واحد من خلقه. وقال: «بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ »، ولفظة «بل» في اللغة تدل على مخالفة ما بعدها عما قبلها. وكذا قول الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ»، «أفلا تعقلون ». وفي مجال تعطيل الحواس والفهم يقول الله تبارك وتعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ □ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا □ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ □ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ». في تحريم الاتباع بغير دليل نجتزئ بقوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا □ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ »، «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً □ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »، وفي هاتين الآيتين يبدو الكافرون كمن يردد شيئًا لا يسمعه وحجتهم: «بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا □». إن منهاج الإسلام يعتمد على المطالبة بالدليل والحجة، وليس على إغلاق باب النقاش باللغو والسخرية والادعاءات، فيقول تبارك وتعالى: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »، ويقول: «هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا □ ». هذا وقد قرر الإسلام أن ليس للإنسان إلا ما سعى، وقرر أن من جاهد فإنما يجاهد لنفسه، وهي أدلة قاطعة على تحريم أخذ رأي بدون بذل مجهود. ومما لا شك فيه أن المقلد بغير سؤال عن دليل لم يجتهد أي اجتهاد ولم يسعَ أي سعي.

لم تجد عايدة فيما قال القاتل الماثل أمامها شيئًا يقلقها أو يفزعها، بل رأت فيما سمعت دعوة للعقل ودعاية للاجتهاد، لكن هل هذا فعلًا ما يريده شكري مصطفى؟ هل هو يبغي فعلًا الاجتهاد في الدين ونبذ التقليد والاتباع، أم أنه يسعى لحق الاجتهاد في القتل والتكفير؟ يبدو أن هيئة المحكمة تنصت وتتأمل. الوجوه وقورة صموتة، تمنحها الأردية العسكرية هيبتها، وتضفي عليها المنصة رهبتها، لكنهم ليسوا شيوخًا ليناظروا ولا أساتذة دين ليوافقوا ويرفضوا، إنهم قضاة يتحققون إذن من الأفكار التي أذهبت يدًا إلى مسدس، ودفعت إصبعًا لتضغط على زناد، وأطلقت

رصاصة في رأس. كان شكري مصطفى وهو يتلفت بين المنصة والادعاء والمحامين متعاليًا، لم يحاول للحظة أن يصطنع التواضع:
ـ في القرن الرابع الهجري حرَّمت الدولة المسماة إسلامية في ذلك الوقت على من لم يتمذهب بأحد المذاهب الأربعة، تولِّي المناصب في الدولة كالقضاء والولايات، بل ورفضت شهادته، وحرمت التمذهب بأي مذهب خامس، واعتبرت أن من ينوي الاجتهاد خارج عن الشريعة الإسلامية. ونحب قبل أن نترك هذه النقطة أن نذكر الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في البخاري ومسلم وغيرهما، الذي يؤرخ لتحول وفساد هذه الأمة بقوله: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يخلف من بعد ذلك خلوف يشهدون قبل أن يستشهدوا ويحلفون قبل أن يستحلفوا تظهر فيهم السمانة». ونحب أن ننبه أنه منذ أن تُرك التلقي من القرآن والسُّنة، واقتصر على التقليد للرجال وآراء الرجال الذين يسمونهم الأئمة، فإنه قد سقط الإسلام. وأريد أن أقول إنه منذ أن وضع المصحف في متحف، واتُّبع الرجال بغير دليل، فقد تودع من الإسلام في الواقع. ونحن وبمنتهى الصراحة ندين ونسقط كل فقه، ونحذف كل ما نسب إلى الإسلام وليس منه، ونعتبر نسبته إلى الفقه الإسلامي تسمية غير صحيحة.
ونسأل: هل هؤلاء الأئمة الذين قلدتموهم واتبعتموهم بغير دليل معصومون من الخطأ سواء في النية أو العلم؟ ونبادر بالإجابة بأنهم ليسوا معصومين.
السؤال الثاني: هل أحاطوا بما كان وبما سيكون بحثًا بحيث لا يحتاج إلى مزيد؟
وثالثًا نسألهم: هل الذي كتبه هؤلاء الأئمة يعتبر من الذكر المحفوظ الذي وعد الله بحفظه؟ ويكفي أن نذكرهم في هذه النقطة بأن المغول قد قلبوا ما كتبه هؤلاء الأئمة في نهر دجلة حتى اسود ماء النهر منه.
ورابعًا نسألهم فنقول: هل كلامهم يُتم شيئًا ناقصًا من كلام الله وسنة رسوله؟
وخامسًا نسألهم: هل كلامهم أوضح وأبين من كلام الله؟
ثم نسألهم أخيرًا فنقول: هل كلام الأئمة هؤلاء باللغة العربية؟ هل يحتاج إلى شارح لنا؟
وهناك سؤال آخر سأله رجل أظنه الزركشي، فقال لهم: هل إجازة التقليد الذي تريدون أن تقنعونا به بدليل أم بغير دليل؟ فإن قلتم إجازته بغير دليل فقد كفيتمونا مؤونة الرد عليكم، وإن قلتم بدليل فقد قلتم إذن بوجوب إيراد الأدلة وتحريم التقليد. «إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ».
لم تخفِ عايدة مشاركتها هيام في الإعجاب بهذا الشكري الذي يتدفق في بيانه، ولا يعجم لسانه، ويتلو حفظًا، وينتقل بكلامه وعينيه متجولًا بين الوجوه والقاعة والجدران والسقف، هو مذاكر ودارس ومركز ولديه ما يقوله، وهي ليست متخصصة، ولا تفهم نصف ما يقوله، ولا تعرف ثلاثة أرباع الأسماء التي يستشهد بها، ولا تحفظ ثلاث آيات من الآيات التي ينهال بها أمثلة، إلا أنها أدركت أن كل هذه الطاقة مخصصة للقتل، للتكفير وسفك الدماء، إخلاص مذهل للدم، تحري وتقصي وتحقيق وتنقيب عن أسانيد للتكفير والقتل، إنه أشبه بقاتل محترف ماهر يبذل جهدًا ضخمًا كي يُحكم خطة جريمته، فهل يعفيه هذا الإتقان والإخلاص من كونه مجرمًا؟
عادت له عايدة حتى لا تخفق في التقاط كلماته لكتابتها في دفترها، وإن كانت لم تعد تعرف هل لهذه السطور مصير في النشر، لكن على الأقل سوف تعطيها للأستاذ رياض، فهو الوحيد الذي

سيكون مهتمًّا. كان شكري قد وقف على كعبَي قدميه، وشب برأسه مشبوبًا بالحماس:
ـ أعني أنهم أرادوا مصادر للهدى غير كتاب الله وسُنة رسوله، سموها مرة بالإجماع، ومرة بقول الجمهور، ومرة بقول الصحابي، ومرة بقول الفقيه، ومرة بعمل أهل المدينة، واستشهدوا لنصر هذا الباطل ـ أعني إحلال هذه المصادر محل القرآن والسُّنة ـ بأحاديث موضوعة وضعيفة كحديث: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، وكحديث رواه ابن ماجه وضعَّفه: «لا تجتمع أمتي على ضلالة. وعليكم بالسواد الأعظم»، وقالوا: «إن القرآن ثابت بالتواتر، والسُّنة أكثرها بالآحاد، فيقوم ما هو أثبت على ما هو ثابت». ونرد على ذلك ونبطله من وجوه: أولها استحالة أن يحددوا لنا حدًّا للتواتر، وقد صرح بذلك كل الأصوليين في علم الحديث، نذكر منهم على سبيل المثال: ابن الأثير في مقدمة كتاب «جامع الأصول»، وابن تيمية حيث صرح أنه لا حد للتواتر، وأيضًا فإن القرآن فيه آيات صرح فيها زيد بن ثابت رضي الله عنه بأنها ليست متواترة على الحد الذي ذكروه، فحدد آية في سورة الأحزاب وآيتين في آخر سورة التوبة، حيث قال: لم أجدهما إلا عند أبي خزيمة الأنصاري الذي جعل الرسول شهادته شهادتين برجلين.
تلهفت المحكمة على السؤال كأنما خرج من أفواه القضاة الثلاثة معًا:
ـ هل تقول بأن السُّنة تنسخ القرآن؟
رد شكري محمومًا، كأنما يهبط عليه وحيه في ذات اللحظة:
ـ نعم، وكلٌّ من عند الله، حيث إن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من عند الله تبارك وتعالى، بقول الله: « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ »، وقال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ »، والنصوص في ذلك فوق الحصر، وكلها تثبت قطعًا أن رسول الله لا ينطق إلا بوحي من ربه. وكذا، فإنه لو أخطأ لوجب أن يواليه الوحي بالتصحيح، وهذا ثابت بما لا يحتاج إلى أمثلة. وبالتالي، فأنا أقرر أن السُّنة تشرح القرآن وتبينه وتضيف إليه وتخصص عامه وتقيد مطلقه وتنسخ على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن ينسخه، وبعد هذه البدهية الثابتة المقررة لا أحتاج إلى ضرب أمثلة، فقد ثبتت القاعدة.
جالدت عايدة في أن تفهم ما يقوله شكري مصطفى وهي خريجة الآداب والقارئة التي تدعي لنفسها ثقافة ما، بالتأكيد أدركت أن والدها الأزهري سيفهم ما يردده شكري ويريده أكثر وأعمق مما فهمت، وأن الأستاذ رياض ستكون له وجهة نظر فيما يُنظر به خليفة المسلمين في قفصه، وسيشير لها على مجلد في رف المكتبة الأعلى لتحضره حتى الكنبة التي جعلها سريرًا، فيطلب منها أن تفتح فصلًا لتقرأه، أو تصل إلى رف على شمال المكتبة، فتخرج من وسط الكتب كتابًا قديم الطباعة أصفر الصفحات، اقتبس منه شكري كلامه أو عارض ما فيه. ولكن كيف لهؤلاء الشبان خريجي الهندسة والطب والتجارة أن يفهموا ما يقوله شكري ويسيروا خلفه، إلا إذا كانوا يؤمنون بالنهايات التي يصل إليها لا بالمقدمات التي ينطلق منها، فإنهم الفرقة الناجية وجماعة آخر الزمان، وسط كفر العالم وبين جاهلية المجتمع، وهم خلفاء الله في الأرض وجماعته المختارة!
سأل عضو اليمين من هيئة المحكمة وهو يشير إلى شكري بقلمه:
ـ هل تعلم حديثًا نبويًّا شريفًا درجة ثبوته أكبر من القرآن؟
حاول شكري مصطفى لأول مرة أن يتواضع وترفق بالسامعين:

ـ لا أعلم باستثناء ما جاء وصح عن زيد بن ثابت رضي الله عنه في البخاري وغيره، من أن آية في سورة الأحزاب وآخر آيتين في سورة التوبة لم يجدها إلا عند صحابي، بينما أعرف أحاديث رواها خمسون صحابيًّا كحديث «ولا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»، وها هي آيات ثلاث في القرآن الكريم رواها صحابي واحد.

صمت حل بالمحكمة. أكان صمت المندهش، أم المستنكر، أم المتشوش؟ لكن عايدة قررت أن تسأل والدها لتعرف ولتفهم، فقد تبلبلت في هذه المحكمة أكثر من اللازم. انتجع شكري خلال هذا الصمت واضطجع على سور القفص وظن أنه تمكن من مستمعيه:

ـ كنا نتكلم عما أثاروه من شبهات في وجوب الاقتصار على القرآن والسُّنة، وما أضافوه من حجيات كالإجماع وخلافه، وقلنا إنهم استشهدوا في ذلك بأحاديث ضعيفة وموضوعة، واستشهدوا بقوله تعالى: «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »، على وجوب التقليد، واستشهدوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم الصحيح: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي». ونحن إن شئتم فصَّلنا الرد بما تسودُّ به وجوه الكذابين على الله ورسوله، وإذا شئتم أن ترجئوا الرد حتى يأتينا المدافعون عن مثل هذه التأويلات فنرد عليهم، فنعم، بل ونقول: لو أمكن فموعدكم يوم الزينة وأن يُحشر الناس ضحى.

مضى اليوم بساعاته الطوال ولم يمل شكري ولم يخبُ حماسه ولا توقَّف تدفقه، وهو يأتي بالآيات يتلوها، والأحاديث يرددها، وأسماء الأئمة تترى، وعناوين الكتب تتهادى بين لسانه وفي بيانه. إذن هذا ما يجعل شبابه متيمًا مريدًا، فالرجل يبهر هيام فعلًا بجوارها، بل لعل رجب غار من شبقية نظرات خطيبته للمهندس الزراعي الذي قال إنه أكمل بعد خروجه من السجن دراسته في السنة الجامعية الأخيرة، لا لشيء سوى لأنها السنة الأخيرة. لو أبكرت هيام قليلًا في تحولها من الميكروجيب إلى الخمار، لربما أغرمت بالرجل ووهبت له نفسها.

انتهوا من جلسة المحكمة، ورجب يبعد عن هيام كلما اقتربت منه، فلما زجرته قال لها إنه لا يطيق إعجابها بقاتل صديقه، فأجابت مخففة عنه حمولة الغيرة إن هذا لا يمنع أنها متعاطفة جدًّا مع صديقه. عادت عايدة إلى الجريدة تفتقد رياض وتشعر غم غيابه عن مكتبه، تدخل غرفته حيث مدير التحرير الجديد، فيعصر الحزن قلبها، وتشعر أن الحياة تتبدل بها وتبدلها.

في صباح اليوم التالي كانت أثقل في خطواتها وأسرع في دقات قلبها، وهي تجلس في مكانها على دكة في قاعة المحكمة ظنت أنها أقرب نقطة من القفص لتسمع وتكتب، وقد قررت أن تذهب بما كتبت عن شكري إلى رياض أولًا، لكن بمجرد ما اصطبحت المحكمة وصبح الملك لله، إذا بشكري مصطفى وقد ضاق بالفراغ الذي يسوره مع السور في قفصه، ويبدو أنه كان يعاني ليلًا طويلًا، فأطال قامته واستطال على أظافر قدميه وصرخ محتجًّا مهتاجًا بمجرد ما لمست ظهور القضاة مقاعدهم:

ـ إن النيابة تطالب بإعدامنا، وأريد أن أقول إن المحكمة لا تستطيع ولا غيرها أن تحكم بغير ما أنزل الله، فالله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا، وأنا لا يهمني نفسي على الإطلاق، فالله أوجد جماعة المسلمين لتبقى، وأنا أعلم يقينًا أنها ستظل موجودة رضيتم أم أبيتم، وأنا لا أسمح أن تتلاعب المباحث بأوراقنا وأقلامنا، وأريد أن أبين أننا لسنا لعبة في يد أحد. لقد قالت النيابة في حقنا كلمات ولم تتخذ المحكمة معها أي إجراء، وأنا أقول ومن حقنا طلب أوراق بغض النظر عن حاجتنا إليها، فإن من حق مَن يُطالب بإعدامه الحصول على القلم والورق، وتمكينه من الحصول عليها، وعلى هذا الأساس أنا أرفض المحكمة، وأرفض التلاعب بي باسم جماعة

المسلمين، بل وأول ما أرفضه في هذه القاعة هو القاضي نفسه، حيث أشك ولا مواربة في عدالة المحكمة.

قالها منتفضًا كملاكم يجول على حبال الحلبة، فلما قاطعته أصوات المحامين وصيحاتهم تهدئه وتعتذر للمحكمة، زاد من حنقه وزاط في صوته:

ـ لن أدافع عن نفسي، ولن أكمل جلساتكم التي حرمتم إخوتي من حضورها، وقد أهدرتم حقوقي، وأنا أسحب ثقتي في هذا القاضي.

كان يلوح بسبابته، ويصوبها نحو القاضي، ويحركها منذرة مهددة، فماجت القاعة، ونط المحامون حتى حافة المنصة، وركض آخرون حتى حافة القفص، وتداخلت الأصوات تتضارب بمطالب انتهت برفع الجلسة مؤقتًا.

خرجت عايدة من القاعة، بحثت عن فنجان قهوة وسط زحام البوفيه الخانق، فجاءتها القهوة متأخرة وباردة وسادة، فتجرعتها مرغمة، فهي تحبها ساخنة وزيادة، لكن ترف المفاضلة غباء في مثل هذه الأوقات وتلك الأماكن. شعرت أن شكري فعلًا يهتم بالورق والقلم، ويتعلق بهما متشبثًا كأنهما الياقوت والمرجان. هل لأنه السجن، أم لأنه العلم؟ سبحان الله، منعوا الوضوء والصلاة عن الذهبي، ويتشكون من منع الورق عنهم! علمت من ثرثرات الضباط والمحامين أنه كان قد كتب ليلًا نقاطًا ليضيفها اليوم في الجلسة، فظنت مباحث السجن أنها تعليمات مشفرة أو رسائل سرية لعناصر التنظيم، فصادرتها. ولما لم يفهم الضابط المسؤول كثيرًا مما هو مكتوب فعلًا، آثر مصادرتها من شكري، فجن غضبًا، وجاء للمحكمة مشحونًا، وألقى شحنته في المحكمة وفينا.

بعد ساعة نودي للمحكمة مرة أخرى، وكان الهدوء قد عاد وتمكَّن، وسجَّل محامي شكري تقديره للمحكمة. أما شكري نفسه فسجَّل تقديره بالصمت عن الكلام والكتم للغضب. ووعدت المحكمة المتهم بتمكينه من الأوراق والأقلام، فأعرب شكري عن رضاه بأن أجاب عندما طلبت منه المحكمة أن يكمل ما بدأه أمس، فأسرعت عايدة للدفتر تفتحه وتكتب، ولحقت بسرعة جملته الثانية، فقد تكلم كأنما لم يسكت منذ الأمس:

ـ فإغلاقًا لباب الاجتهاد اصطلحوا على أسماء غير شرعية، ككلمة «فاسق» مثلًا، وملأوا بهذه المصطلحات كتبهم الفقهية، حيث تحمل كلمة «فاسق» في هذه المصطلحات غير مدلولها الشرعي المتعارف عليه في كتاب الله، فكلمة «فاسق» في القرآن ونظائرها دلت على الكفر، كقوله تعالى: «أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ»، وكقوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ»، ونظائرها عشرات في كتاب الله، ونتحدى أن توجد آية واحدة قطعية الدلالة على إثبات أن الله قد سمى المسلم «فاسقًا» ولو لمرة واحدة، والأمثلة كثيرة. وقد وضعوا تيجان التقديس بل وهالات الربوبية على رؤوس الأئمة، ليصبح مجرد تخطئتهم أو واحد منهم خروجًا على الشريعة واعتداء على الدين، وهكذا فقد استمرت هذه الأمة كما تقرر جماعة المسلمين ولعشرات الأجيال ـ منذ أن فرض التقليد بغير دليل ـ في نبذها لكتاب الله وسنة رسوله، وتكررت في هذه الأمة سنة: «وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ »، وقضية: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ »، فلما قال أحدهم: يا رسول الله، لم نكن نصلي لهم ولا نصوم لهم، قال الرسول: «ألم يكونوا يحلون لكم الحرام ويحرمون عليكم الحلال فاتبعتموهم فتلك عبادتكم إياهم». وفي هذا الحديث وشرحه للآية كلام طويل نرجئه أيضًا لحينه لو تجرأ أحد على نقاشنا، كما صح في البخاري وغيره عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حذو القُذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن». صحيح، ومن يكون غيرهم؟ ولكن هل الذين أغلقوا باب الاجتهاد أرادوا إغلاقه حقًّا؟ كلَّا، لقد أغلقوه على سائر أفراد الأمة وعلى الرعية، ولكن فتحوه على مصراعيه طوال هذه الأجيال لعلماء السلطة الحاكمة في أي زمان ليفتوا بمذهب الحاكم أيًّا كان الحكم وأيًّا كان مذهبه، ولتشاع الآثام، ويحلل الحرام باسم الإسلام. ولو شئنا لضربنا أمثلة في الماضي والحاضر لا يستطيع أحد أن يخالفنا فيها، لأنها من ماديات واقعة من تحليل الربا والزنى، وتحليل الحكم بغير شريعة الله، والفاحشة بل والخمر باسم الإسلام.

استنكرت المحكمة ما سمعت، فردت مستجوبة:

ـ كيف أُحل الزنى والربا والخمر باسم الإسلام؟

رد شكري دون ذرة من تلجلج:

ـ الفائدة التي في البنوك، أفتى الشيخ شلتوت في كتابه «الفتاوى» بحِلها، ولا شك أن الشيخ شلتوت وهو شيخ الأزهر وقتذاك يفتي فتوى يعلم الناس أنها إسلامية. أيضًا ما قاله متولي الشعراوي في جامع الأزهر في هذه النقطة بالذات، وهي تحليل الربا باسم الإسلام، قال إن الفوائد التي تتعامل بها الدولة جائزة. أما ما يتصل بالخمر، فقد طالعنا الشيخ سعاد جلال بإباحة البيرة. أما عن الزنى، فضلًا عن أن القانون الوضعي قد أحله، فقد انطلق كثير من المتكلمين ومن المنادين باسم الإسلام بالاختلاط، وأعتبر هذه مقدمة صحيحة وحتمية من مقدمات الزنى، حيث قال الله تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا »، وقد أثبت الرسول صلى الله عليه وسلم أن العين تزني واليد تزني والأذن تزني، ولا زلنا نرى أئمة المساجد ينادون باسم الإسلام بما حرَّمه الإسلام، بمساواة المرأة بالرجل، والكتابي بالمسلم، وبتحديد النسل وبغيره مما هو ثابت بطلانه في الشريعة الإسلامية باسم الإسلام.

خيَّم الصمت لحظات لم تقطعه إلا خشخشة الأوراق بين أيدي هيئة المحكمة، وسعال رجل، وهسيس محامين، وخطو عساكر.

أومأ رئيس المحكمة لعضو اليمين الذي أراد أن يسأل، فسأل:

ـ كيف ترى قول الله تبارك وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ »؟

كأنما كان السؤال مكررًا عليه مائة مرة، فأجاب من فوره:

ـ قالوا إن الشرك هنا هو السجود للأصنام والاستقسام بالأزلام، وإن ما دون الشرك من وجهة نظرهم هو السرقة والزنى وشرب الخمر وسائر الكبائر، وكذبوا، حيث لا دليل على ما قالوه عقليًّا، ولا نص في تفسير الشرك وما دون الشرك، وقد جاءت النصوص القاطعة الكثيرة التي تبين أن المعاصي شرك بلفظ الشرك وكفر بلفظ الكفر، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، وكقوله صلى الله عليه وسلم: «بين الرجل والكفر والشرك ترك الصلاة» صحيح مسلم، وهكذا.

ـ هل ذكرت أن الكفر ذنب؟ وضح العلاقة بين هذين الحدين، وهل هي علاقة استغراق واحد منهما للآخر، أم ماذا؟

ـ إن الكفر ذنب من الذنوب، ولم أقل إن كل ذنب كفر، حيث إن الذنب أعم من المعصية، ولكني أقول كل معصية كفر.

دار رأس عايدة، ولعلها رأت الرؤوس كلها تدور دائخة. متى تسأل المحكمة عن قتل الشيخ الذهبي؟ لم تعد تحتمل فانصرفت لأول مرة قبل رفع الجلسة، قررت هي أن ترفعها بنفسها، ودَّعت هيام بمصافحة على الهواء، ومشت على أطراف قدميها دون أن تصدر صوتًا، ساعدها أنها جاءت إلى المحكمة بحذاء بلا كعب. ذهبت إلى العوامة، حيث وجدت الأستاذ رياض في نوبة من الإرهاق، فطلب منها أن تقرأ له من ديوان صلاح عبد الصبور الجديد، لكن بعد القصيدة الثانية قفز شكري مصطفى من القفص إلى الديوان، فباحت بدوختها لرياض، وصارحته بأنها لم تفهم كثيرًا بل حتى قليلًا مما قاله شكري مصطفى في جلسة اليوم، حتى إنها لم تذهب لتسلم ما كتبته للجريدة معتمدة على أن هيام أكثر حماسًا وستسارع بتقديم ما لديها. حكت للأستاذ رياض ما حصل على قدر ما تحصلت، كانت تطوي ديوان صلاح عبد الصبور وتضعه على حجرها، فيحسد رياض المُشارف على الموت حياة صلاح عبد الصبور في حضن عايدة شداد المستحيل.

ـ هل هذه الأفكار التي يرددها متفاخرًا متخايلًا شكري مصطفى تفسر قتله للذهبي؟ تبرر قتله للذهبي؟ وما علاقة هذا بالقانون الجنائي أو العسكري؟ وما دخل المعصية والذنب والكفر بجمهورية مصر العربية؟ دينها الرسمي الإسلام، نعم صحيح، لكن هل هي مشاجرة بالفتاوى بين إسلام الأزهر وإسلام جماعة التكفير والهجرة (جماعة المسلمين كي لا يغضب مني المهدي المنتظر)، بين إسلام شكري مصطفى وإسلام عمر التلمساني، بين إسلام القرن الأول الهجري أو الثاني أو الثالث عشر؟

أجاب رياض:

ـ نعم، الفكر يؤدي إلى القتل، والفقه يمنح القتل قداسة، والدين يجعل من القاتل بطلًا ومن المعدوم شهيدًا. وإذا لم نملك ردًّا على هذه الأفكار القاتلة، فهذه العوامة سوف تسبح يومًا في نهر دم!

قامت إلى شرفة العوامة، رنت إلى النيل وقد يستقبل مساءه على صفحات مائه الملون بأنوار ناحلة تكون ظلالًا تتشكل على هيئة شكري مصطفى برأسه فوق حافة القفص، يتحرك يمينًا ويسارًا، ويصعد ويهبط وهو يرفع اليد مع الصوت كأنه موسى متفرعنًا أو فرعون تموسنًا، يتحدى علماء وأئمة وشيوخًا وأن يحشر الناس لسيادته يوم الزينة ضحى، يثق في ثعبانه أم في عصاه هذا الرجل؟ سمعت الأستاذ رياض يناديها كأنما يرد على سؤال سألته له أو لنفسها:

ـ أظنهم يختلفون فقط على من يملك سلطة وطريقة قتلنا، ولكنهم لا يختلفون على قتلنا!

أنعشها صوته، وقد شدت حبال حنجرته حيلها.

التفتت إليه وجرت، فشدت دفترها، وفرت أوراقه، ووقفت عند صفحة فثنتها، وصاحت فيه تقرأ نص سؤال دونته في جلسة اليوم:

ـ سألتك المحكمة من قبل عن اشتراط اقتران التوبة بالعمل الصالح، فأجبت بأن أداء الفرائض في الحد الأدنى يكفي لقبول التوبة، فهل ذلك لا يكفي أيضًا لمحو السيئات، أم يلزم مع التوبة أعمال صالحات يذهبن السيئات، تكون فوق الفرائض ويتقبلها الله سبحانه وتعالى برحمته؟ ونريد توضيحًا قاطعًا في هذه المسألة منعًا لأي التباس.

تنهدت حائرة:

ـ بذمتك يا أستاذ رياض، هل تعرف أو تفهم سبب وسر أن هيئة المحكمة تسأل هذا السؤال لزعيم التكفير والهجرة؟

رد على تنهيدتها بتنهيدة أحسن منها، وأجاب عن سؤالها ودموعه تسكن عينيه:

ـ الحقيقة لا عارف ولا فاهم.

(13)

ضجت الزنازين بالتكبيرات، كانت الأبواب مفتوحة على الممر الواسع المبلط بالبازلت المقسم إلى صفين من الزنازين، يتسع بعضها لبضعة أفراد، وأخرى في نهاية الممر على الجانبين ضيقة للانفرادي فقط، في منتصفه يظهر سلم حديدي يصعد للطابق الثاني الذي يتطابق مع الأول إلا بتلك النافذة المستديرة في نهاية الممر مغلقة بالزجاج والقضبان وشبك الحديد، لكنها تقدم الشمس مع البرد وجبة الشتاء والصيف. كان الانضباط في تلك الساعة متسيبًا تمامًا، حتى كأن المبنى قد خلا من الحراس، وقد خرج المحبوسون جميعًا من زنازينهم واقفين على أبوابها الحديدية الثقيلة الضيقة يصافحون شكري مصطفى العائد، كأنما موكب هارون الرشيد في بغداد (لا يحبون هارون الرشيد، ولا يرون أبعد من عمر بن الخطاب خليفة، لكن لا بأس من التجاوز للتفخيم والتعظيم). بلغتهم صلصلة سيفه في المحكمة من الحرس ومخبري السجن، وهذه الجلجلة التي أفحمت وقزمت فأجبرت المحكمة على الانصياع. قبل أن يرجع إليهم شكري من عربة الترحيلات كانت الأوراق البيضاء المسطَّرة في رزم مغلفة بجلاد أصفر، وكراسات صغيرة مما توزع على طلبة المدارس، وأقلام رصاص بممحاة، وأقلام حبر بأكثر من دواة حبر، يتم تسليمها إلى أبو عبد الله يختص بمسؤولية منحها لمن يطلب، وأشهدوا أعضاء الجماعة على تسلم ماهر الأوراق والأقلام، ففهموا أن ما تسمَّعوه صحيح، فالأمير وحده في القفص صنع للضباط أقفاصًا تليق بهم يسيرون متخبطين فيها، فسلموا لجماعة المسلمين بحقها المنتزع. لم يكن أحد منهم يكتب شيئًا فعلًا، إلا أبو سعد، فهو الذي يخط عناوين ما يرد به على دعاوى الطاغوت، وهو ليس في حاجة إلى كتب يراجعها ولا مجلدات يستدعيها ولا إلى صفحات يستنطقها، بل حين سأله القاضي أن محاميك طلب دعوة الإمام الأكبر شيخ الأزهر لتسأله المحكمة حول بعض المسائل الشرعية التي تتصل بمصلحة الدفاع، فهل ترى فضيلته يصلح خبيرًا لإبداء الآراء الشرعية الصحيحة في نظرك، بحيث يصح رأيه في مجال الدفاع عنك شرعًا أو لا يصح ذلك، فيكون استغناء منك عن طلب سماعه في الجلسة؟ أجاب أبو سعد بجلال المهدي المنتظر:

ـ أنا غير موافق أصلًا على لفظة «خبير» فيما يتصل بكل منتسب إلى هيئة غير جماعة المسلمين في موضوع الإسلام، والأسئلة المطروحة أيًّا كان نوعها، وأيًّا كانت الإجابة عليها لنا أو علينا، فأنا لا أقبلها مبدئيًّا ولا أطلبها، وإنما أطلب هذه الهيئات المتصدية للإسلام لأدعوهم إليه وأحاججهم عليه.

زهوهم رغم الحبس لم يمس، لم تنتف الزنازين ريشة واحدة من على رؤوسهم، سكون الليل في السجن تمزقه تكبيراتهم المفاجئة، تحياتهم الصائحة من وراء القضبان للخليفة المهدي، يخطب في هزيع الليل أبو طلحة، ويستزيد أبو مصعب بخطبة عصماء أخرى، فيرتج حديد الزنازين بترديد الدعاء من حناجر كأنما الحجيج في سجن القلعة، تمتمات وتسبيحات وهمهمات كدوي نحل بين الجدران المطبقة على صدورهم، يطغى صخبهم على هسيس الحرس في الطابق الأول وعسس الحراس في أعلى الزنازين، تلاوة للقرآن الكريم من أبو دنيا، وشرح من أبو سعد،

فسؤال من أبو هريرة، فجواب من أبو سعد، ترتفع بين هزيع الليل وهجيعه تكبيرة من حنجرة مخمورة بالإيمان لتعلن أنهم جماعة آخر الزمان، صرير عربات التعيين تحمل الفول والعدس وصنابير المياه المعطوبة وحدها هي المسموح بأن يستسلموا لأصواتها تعلو على جماعتهم.

كان وصول الأمير شكري وشيكًا، فوقفوا صفين وقد نظفوا الزنازين، وأحسنوا المنظر، وفرشوا الملاءات وعلقوها كالستائر، وأمسكوا بالورق في أيديهم كأنما رايات النصر، وكتب بعضهم على أوراق جعلوها ألواحًا ولافتات عبارات: «الله أكبر»، «جماعة المسلمين»، «نبايعك على الشهادة يا أمير المؤمنين»، «فداك أبي وأمي يا أبو سعد». دخل شكري مصطفى العنبر مشيعًا بضباط وحرس متأدبين ومتبسمين، ومضوا إلى حال سبيلهم. لم يخالج أحدًا من الجماعة شك قطٌّ في أن هذه مجرد أيام تعبر ولن تنتهي إلا إلى فوز بائن وفتح قريب.

أول ما فعله أبو نعمان حين تسلم ورقًا، فطلب ثلاثًا، كتب رسالة إلى أخيه:

أكتب إليك بعد أن تمكنت من الحصول على قلم وثلاث ورقات، حيث أمرت المحكمة بتسليمنا أقلامًا وأوراقًا بناء على تهديد أبو سعد لهم فروَّعهم.

لعلك سمعت وعرفت بخطف الذهبي وقتله، فإن الخبر قد طار وشاع في العالم كله والحمد لله رب العالمين، ولا أدري هل تدرك قيمة هذا الذي تم أم لا.

لتعلم يا أخي الكريم أن ما حدث لم يحدث من قبل في التاريخ، والنصر الذي تحقق لم يكن على البال، والمستقبل مزهر ومثمر للغاية إن شاء الله.

وأريد أن أقول لك شيئًا، هو أن ما حدث كان هو المطلوب، يعني لا تظن أنه فشل، بل إن الفشل كان سيحدث لو استجيب لطلبنا. ومعذرة، فلعلك تلحظ عدم الإيضاح، ولعلك تعلم الأسباب.

ماهر بكري كان من يراجع رسائل زملائه قبل أن يسلمها إلى إدارة السجن كي تبعث بها إلى المرسل إليهم، ولم يجد في الرسالة ما يجعله يمنعها أو يردها لصاحبها، بل كان منتشيًا أن أعضاء جماعة المسلمين قد انكشفت لهم الرؤية، فرأوا ما وراء الغمة من حقيقة النصر الذي جرى ويجري. لكن حين وصلت الرسالة من ضابط أمن الدولة في إدارة السجن إلى العقيد عادل مجاهد ابتسم متعجبًا وتحيَّر متجهمًا، فهذا الذي يرسل خطابًا إلى أخيه يظن ما فعلوه نصرًا، وأن الدولة حين لم تخضع لابتزازهم فقتلوا الشيخ الذهبي كان هو المطلوب والمخطط له منهم، وأن ما فعلوه لم يحدث من قبل في التاريخ، بل وأن المستقبل مزهر، لا، ليس مزهرًا فقط، بل بإذن الله المزهر سوف ينمو على شجره ويثمر، وطبعًا مسلمو جماعة المسلمين هم من سيلتقطون الحَب ويحصدون الثمار! يا ترى هل هو العمى وقد تحول إيمانًا، أم أنه الإيمان وقد صار عمى؟

* * *

كان العقيد مجاهد لحظتها قد أغلق ضبة حواره مع اللواء النبوي إسماعيل وهو يصرخ مستحثًّا له أن يفعل هو والحكومة شيئًا:

- طيب بلغ الرئيس السادات يا أفندم.

- لا ينفع هذا الكلام يا عادل.

- كلامي أنا الذي لا ينفع؟ وماذا عن بيان شيخ الأزهر عبد الحليم محمود؟ ألم تقرأه؟ لقد أرسلته إلى سيادتك.

- طبعًا قرأته، وأمرت بعدم نشره في الصحف إلا مقتضبًا أو قِلته أحسن.

صاح عادل:

ـ أنت معي إذن يا أفندم.
ـ لا، لست معك، بل مع حسن أبو باشا رئيسك، ونحن لا نريد أن نفتح علينا جبهة من الأزهر، أو يتهمون الداخلية بالوقيعة بين المحكمة والأزهر.
ـ هو إحنا نطقنا وقلنا ثلث الثلاثة كام؟! النيابة هي التي طلبت، والمحكمة هي التي أبدت رأيها، فإذا بالأزهر يرد هذا الرد.
أمسك مجاهد بورقة البيان المختوم والموقَّع والمزين برسم شعار الأزهر وأخذ يقرأه:
وقد كان يجب على المحكمة أن تضم إليها قضاة شرعيين يقفون موقفها ويشاركونها المسؤولية، ويتمكنون ـ مثلها ـ من الاطلاع، كقضاة، على جميع ظروف القضية ونواحيها، فيتمكنون من إصدار الحكم الصحيح.
صرخ العقيد عادل مجاهد معلِّقًا على ما قرأه:
ـ ما علاقة هذا بالقانون؟ قضاة شرعيون! هل لم يبلِّغ أحد الأزهر بأن عبد الناصر ألغى القضاء الشرعي منذ عشرين سنة وأكثر؟ ثم، هل كانت المحكمة امتحانًا لإلزامية الأزهر أو لجنة ترقية لأستاذ في كلية أصول الدين؟ ثم اسمع هذه يا سيادة الوزير.
يكمل مجاهد متوتر النبرات قارئًا من البيان:
ويشير شيخ الأزهر إلى أنه إذا كان المطلوب إبداء الحكم الإسلامي في آراء غير معروضة عليهم عرضًا محددًا دقيقًا كاملًا، فإنه يكفي في ذلك الرجوع إلى مؤلفات علماء المسلمين الجديدة التي تملأ الأسواق، وإلى مصنفات العلماء السابقين عليهم التي يزخر بها التراث. أما إذا كان المطلوب من علماء الأزهر إبداء الحكم الإسلامي في آراء جماعة التكفير والهجرة بالذات، فقد كان الأمر يقتضي باسم العلم وباسم العدالة وباسم الإسلام أن تعرض عليهم آراء هذه الجماعة من مصادرها الأصلية، وأن يمكَّنوا من الاستماع إلى شرح أصحابها لهم، وتوضيح غامضها، وتفصيل مجملها.
بلع ريقه وأكمل، بينما كانت أنفاس النبوي إسماعيل تعلو بزفيرها وتهبط بشهيقها لتملأ أذنَي العقيد مجاهد:
ـ لأ، ولم يكتفِ البيان بأنه عايز يحقق بنفسه مع المتهمين ونسميها ساعتها نيابة الأزهر، بل يضيف بالنص...
وهذا للأسف الشديد، هو الأمر الذي لم تشأ المحكمة أن تمكِّن منه علماء الأزهر (الأزهر مقموص من المحكمة يا أفندم)، واكتفت بأن تعرض على علماء الأزهر المحضر الذي سجَّلته النيابة من أقوال ومناقشات المسؤولين في هذه الجماعة. ومع شدة الاحترام والتقدير لجهد النيابة في تسجيل هذا المحضر، فإنه لا يخفى على أحد أنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يرقى إلى أن يكون مصدرًا كافيًا يقوم عليه بحث العلماء، أو أساسًا متكاملًا تصدر عليه أحكامهم.
لاحظ طنين التلفون فنادى:
ـ سيادة اللواء، سيادة اللواء.
أدرك أن سيادة اللواء ضجر من سيادة العقيد وأغلق التلفون.
* * *
حين صحا الصبح، وتقدَّم الحراسُ شكري يقودونه إلى سيارة الترحيلات وحيدًا للمرة الرابعة بلا صحبته التي تصعد قبله لتستقبله في العربة تهليلًا وتكبيرًا، وتحيطه تعظيمًا وتوقيرًا، وترتل معه

القرآن ترتيلًا، ويصدحون بالهتافات من نوافذ عربة الترحيلات وهي تمخر الشوارع: «إسلامية إسلامية»، كان شكري أكثر حبورًا وأصفى عقلًا وأصلد عندًا، فهو لم يدع للمحكمة في جلساتها التي انفردوا به فيها منفذًا إلا سده وسؤالًا إلا دهسه. شعر أنه في الملأ الأعلى، وانساب هذا الشعور داخله وهو يدخل الآن إلى القاعة المجهزة له بصحفييها ومحاميها وشرطتها وحراسها وأهلها وجمهورها، غمره تمامًا، وجاءه صوت يحيط بألبابه وأسماعه: أنت في أعلى عليين، ترنو إلى هؤلاء في أسفل سافلين، هؤلاء ليسوا حتى تلامذة ليتعلموا، أو طلابًا للمعرفة ليعرفوا، ليسوا طلاب حق، ولا سعاة لدين، بل إنهم يظنون ظن السوء والخيبة أنهم يحفرون لشكري مصطفى حفرة. ضحك وصعدت الضحكة من وجيب قلبه حتى بؤبؤي عينيه فالتمعا. بل أنتم أصحاب الأخدود، فماذا لديك هذا النهار يا طويغوت منك له؟

سألوه:

ـ تقول إن كل كافر يجوز قتله شرعًا؟

عاجلهم بالإجابة قبل أن يرتد طرف أحدهم:

ـ الكافر أصل الحكم فيه أنه حلال الدم والمال، ولكن لا تنفذ القاعدة هذه إلا بشروطها، ومن شروطها البلاغ، وشروط أخرى.

أفهمت يا عزيزي؟ نعم نقتله، كافر إذن نقتله، ولكن بشروط، أولها البلاغ، يعني لا أستطيع الآن أن أقتلك إلا حين أبلغك أنك كافر وعليك أن تدخل الإسلام، فإن أبيت قتلتك، لكن لندع قتلك لوقت آخر، ونسمع سؤالك التالي، فأنت متعطش له فارتوِ سريعًا، هاتِ سؤالك يهيئ لك شيطانك أنك تفحمني به.

ـ وما فهمك للآية الكريمة في القرآن العظيم: «وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ»، فدلت على أن بدء الكافرين بقتال المسلمين شرط لقتال المسلمين لهم؟

أهذا ما عندك؟ أهذا ما قرأته ليلًا عند السيد سابق، أو سمعته في برنامج «حديث الروح»، أو خطبة للشعراوي أمام السادات؟ إذن خذها مني. أطلق شكري عنان صوته تجري وراءه أفكاره:

ـ هذه الآية مرحلية، وقد عُلم أن القتال في الإسلام كان على مراحل، فقد أُمر المسلمون أول الأمر بكف اليد مطلقًا، وبالصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره، قال تعالى: «كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»، وقال تعالى: «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ». وقد أذن لهم في قتال عبدة الأوثان أول الأمر، ولم يؤذن لهم في قتال اليهود والنصارى، في قوله: «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا»، إلى أن قال: «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ». ثم أُذن للمسلمين في قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ثم أمر الله المسلمين بقتال الناس كافة حتى يدخلوا في دين الإسلام، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ»، وهي مطلقة، وقال تعالى: «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة»، وقال في موضع آخر: «وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ»، وهذا تقرير للواقع والآية عامة. قال تعالى: «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ»، وقد يظن أنه لا يقبل منه في الآخرة، كلَّا، بل في الدنيا، لأنَ الله ختم الآية بقوله: «وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ»، فدل على أن الجزء الأول خاص بالدنيا. وقال تعالى: «وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ»، والدين هو دين الإسلام. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا

الله وأني رسول الله...». وهذه كلها نصوص قاطعة على وجوب إرجاع الناس إلى دين الله، وهو الإسلام.

رتَّب القاضي أوراقًا أمامه، وقلَّب في دفتر صغير، ثم عاد ورفع يده وأشار إلى عضو اليمين بسؤاله وقد رفع أمام عينيه ورقة صغيرة وقرأ منها:

ـ وكيف إذن إعمال قوله تعالى: «لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ»، وإعمال التمييز الذي ورد في قوله تعالى: «وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ»؟

أمذاكر إذن، هذا سؤال عضو اليمين، إذن خذها بيميني. رفع شكري صوته متباهيًا بدور المدرس الذي قرر أن يلعبه حين بَسط يديه وتباسط في كلامه وبسَّط شرحه:

ـ يعني بعد إقامة الحجة على الناس، وبعد أن تكون قد أديت مهمتك في البلاغ، إذن جملة «ي ي ي» لا تتعارض مع صدر الحديث الشريف أنه أمر أن يقاتلهم على الإسلام، ثم إن أصل كلمة «مسيطر» اللغوي مشتق من السطر وهو التدوين، وخلاصته: إنك يا محمد لست مسيطرًا، يعني لا كاتبًا ولا حاسبًا ولا مدونًا عليهم ذنوبهم الحقيقية التي نعلمها ولا تعلمها.

حدث شكري نفسه متفاخرًا بالسيطرة: ها، هل أعجزتك حجتي يا سيدي الرئيس فتنتقل إلى السؤال التالي؟ ها هو التالي فعلًا:

ـ حدِّد وجه أو أوجه مخالفة الدستور الدائم للشريعة الإسلامية؟

بعجلة واستعلاء وتخلٍّ عن دور المدرس إلى دور المترفع أجاب:

ـ لا تهمني التفصيلات فيما هو داخل هذا الدستور على الإطلاق، وبغض النظر عن مدى موافقتها أو مخالفتها لتفاصيل الشريعة الإسلامية، وإنما يكفيني في المقام الأول المصدر الذي ارتكز عليه الدستور في استنباط مواده، وأنا أعلم أنه لم يستنبط ما فيه من منطلق الشريعة الإسلامية.

جاء سؤال المحكمة كأنما يرجو شكري أن يتعطف بالإجابة:

ـ هل من الممكن أن نعرف ما إذا كنت قد وجدت أي نص في الدستور يخالف الشريعة؟

بنفاد صبر رد:

ـ سبق أن قلت: لا يهمني على الإطلاق النظر فيما هو داخل هذا الدستور، والذي يكفيني وفي المقام الأول هو مصادر استشراع هذا الدستور.

ـ وهل قرأته؟

ـ لا، وأرجو ألا أقرأه.

ـ وكيف إذن تحكم عليه بمخالفته للشريعة وأنت لم تقرأه؟!

ـ ليست القراءة هي المصدر الوحيد للتعرف على الأشياء، والذي لم أقرأه ولا تهمني قراءته ولم يدخل في استدلالي هو ما يحتويه هذا الدستور، وما أعلمه بخصوص هذا الدستور، والذي بنيت عليه تحريمي له وعدم شرعيته، أنه قائم ومستنبط من غير الشريعة الإسلامية، ويعلن ذلك صراحة في كافة وسائل الإعلام، وفي مقدمة هذا الدستور نفسه، حيث عبَّر في مادته السادسة أن الشعب هو مصدر السلطات.

ـ وهل تتعارض هذه المقولة مع الشريعة الإسلامية؟ وضح.

ـ نعم ولا ريب، حيث إن الأمر كله لله، وإن له الخلق والأمر، وإنه هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وإنه لا سلطان لأحد ـ مخلوق أو أمة أو شعب ـ من حيث المبدأ، ولا ينتهي إليه

أمر التشريع، ولا يكون مصدر التلقي والهداية والحكم، إلا الله العلي الكبير.
رد القاضي مترافعًا عن إسلامية الأمة مصدر السلطات متحمسًا:
ـ لكن هذه العبارة: «إن الشعب مصدر السلطات»، إنما لها مفهوم ومعنى محدد ومصطلح عليه في فقه القانون الدستوري، وهو غل يد الحاكم عن الاستبداد بالشعب وظلمه وحمله على ما يكره، وتأكيد لمبدأ الشورى وعدم الانفراد بالقرار ومنع التسلط والظلم، هذا هو المعنى المستقر لهذه العبارة الاصطلاحية، ولا يختلف عليه أحد في علم القانون، فهل ذلك يخالف الشريعة الإسلامية؟
أهبط شكري حماس القاضي الذي أحس أنه أصاب طلقته، فرد مشيحًا مستخفًّا:
ـ لا أعتقد أن ما ذكرته المحكمة هو التفسير الصحيح لمدلول هذه العبارة.
تمهل شكري بعدما وضع ابتسامة خطًّا تحت عبارته، ثم أكمل حيث كانت النظرات ترقبه منتظرة:
ـ إن الحاكم في الأمة الإسلامية هو الذي يختار موضوع الشورى، ويختار من يستشير، والشورى بعد ذلك معلمة له وليست ملزمة له، وله أن ينفرد برأيه بعد الشورى، وإن اجتمعت الأمة كلها على خلاف رأيه، والنص القرآني يقول للرسول: « وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ»، فكلفه هو أن يبدأ بالمشاورة على الصورة التي يراها صالحة، ولم يكلفهم بفرض الشورى عليه، وقال: «فِى ٱلْأَمْرِ »، وإضافة الألف واللام إليها تعني: فيما جلَّ من الأمر، وليس أي أمر، وباختياره وحسب وجهة نظره، ثم قال: «فَإِذَا عَزَمْتَ»، وجعل العزيمة له خالصة من دون الناس، «فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ »، فأين سلطة الشعب؟
ها، هل زهقتم؟ هل تعلمتم؟ هل اهتديتم؟ لا، بل أسئلتكم لا تزال تأتيني عند الحاجز الحديدي الفاصل بيننا. حسنًا، أتعتقدون أنكم تمتحنون شكري مصطفى وهو ممتحنكم دنيا وآخرة، أم تظنون أنكم تحاكمونني وأنتم محكومون بالطاغوت؟ أكان إبراهيم معترفًا بالنمرود كي يخشى عذابه؟ لا أنتظر منكم براءة، بل أنا أبرأ منكم ومن جاهليتكم ومن طاغوتكم. اتفضلوا، اسألوا.
ـ أتقول إن مثلك ومثل جماعتك كمثل نشأة الإسلام في مبتدأ الأمر؟
ـ نعم، وبذلك أوقن. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح في مسلم وغيره: «تكون النبوة، ثم خلافة على منهاج النبوة، ثم ملك عضوض، ثم ملك جبري، ثم خلافة على منهاج النبوة»، ثم سكت. صححه الألباني في كتاب الأحاديث الصحيحة وله شواهد في الصحيحين.
ـ تريد المحكمة أن تعرف كيف جُعلت على رأس جماعتك؟
ـ ملخص ذلك أن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فهداني برحمة منه إلى ما أعتقد أنه دين الله، ثم هدى بي من شاء من عباده، فاتبعوني ائتمارًا بأمر الله واعتصامًا بحبله، واستمر الأمر على ما ترون.
انتقلت المحكمة، وقد بدا أنها تفرغ من أسئلتها للمتهم الأول في اليوم الرابع:
ـ أنت تطلب إعفاء جماعتك من الخدمة في القوات المسلحة، فما مبررات ذلك؟
ـ أولًا: أنا أعتقد أن هذا الجيش لا يقاتل في سبيل الله، وهذه وحدها تكفي. ثانيًا: الجماعة محتاجة إلى هؤلاء الأفراد في مجالات خاصة بالجماعة مثل الدعوة والإدارة وغيرها. هذا وإنني أرى أن وجود أفراد منا داخل الجيش لا فائدة منه لنا وللدولة، حيث إنه في حالة وجودهم فيه قد

أكلفهم بالدعوة إلى أفكارنا فيه، وقد حدث هذا بالفعل في البحرية بالإسكندرية مما ترتب عليه مشاكل كثيرة في البحرية. وأقول: أنا لا أرى في خروجهم كبير عبء على الدولة الآن، حيث إن الدولة تدعو الآن إلى السلام وتقف على أبوابه، مما يصحبه في العادة بعد ذلك تخفيض طبيعي للقوات المسلحة.

كان القاضي قد سمح لصوته بأن ينفعل لأول مرة، بل وأن يعرب عن غضب مخلوط بالسأم:

ـ إنما أسألك عن الحجة الشرعية! والمحكمة تحدد السؤال الآتي: ألا ترى أن قتال اليهود اليوم ـ وقد فعلوا بالمسلمين ما تعلم واحتلوا من أرضهم ما تعرف ـ فريضة إسلامية على كل مسلم، عليك أنت بالذات، نسألك كمسلم؟

لم تلن كلمات شكري، بل أغلظ حروف ألفاظه:

ـ أنا أعتقد أن الأرض التي احتلها اليهود ليست إلا جزءًا من أرض الإسلام التي يحتلها سائر الكافرين في الأرض قبل احتلال اليهود، حيث إني أعتقد أن أرض الإسلام هي الأرض جميعًا، كل الأرض، والخطة الإسلامية في إعادة هذه الأرض كلها لله تحت السلطان المباشر للجماعة المسلمة ليست بالضرورة أن تبدأ بقتال اليهود، ولم تكن كذلك أيام محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو قد أمر بقتال غيرهم قبلهم، هذا إضافة إلى أن قتال العرب الآن اليهود لا يمكن بحال أن يُسمى قتالًا إسلاميًّا، حيث إن القتال الإسلامي كما نعرفه هو القتال في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، يعني لغرض الحكم بما أنزل الله، وليس من الممكن أن يقاتل قوم لا يحكمون أنفسهم بكتاب الله، يقاتلون ليحكموا غيرهم بكتاب الله، وإنما ذلك قتال كسائر القتال الدائر الآن في الأرض بين البشر جميعًا لدوافع أرضية بشرية بعيدة عن عبادة الله وإعلاء كلمته.

نال عضو اليسار حظه من الغضب، فسأل مؤنبًا لائمًا:

ـ أنت الآن تعيش في مصر وجماعتك، فهل تقبل أن تترك اليهود يدخلون إليك في بيتك، أم أنك تحمي الجيش الذي يصدهم ويمنعهم، أم ماذا؟

كانت قهقهات شكري تقعقع في صدره وترمي شظاياها في كل جنبات روحه. أيعتقدون أنني سأنافقهم وأقول عن جيشهم جيشًا مسلمًا، وعن حربهم لليهود حربًا؟! أنتم ألعن من بعض عندي، لا، بل أنتم ألعن من اليهود، تريدون أن تنشروا في صُحفكم عني اعترافاتي بأنني ضد قتال اليهود ولن أحاربهم معكم، ليكن، بمَن تخوفونني؟ برعاعكم وجاهليكم؟ طيب اسمع مني، وسأزيدك وأنت تعتقد أنك تحاججني فتفحمني فتكشفني فتعريني، إذن عُري بعُري وتعرٍّ بتعرٍّ، اسمع مني لا عني يا طويغوت أنت وهو. صاح شكري في المحكمة كأنما يدلي ببيان إلى الأمة:

ـ أولًا أنا لا أقبل أن يدخل اليهود في بيتي، كما لا أقبل أن تدخل مباحث أمن الدولة في بيتي، غير أني إذا بلغني من الناحية العملية إمكانية دخول اليهود بيوت الجماعة أو حتى بيوت من يحسنون جوار جماعة المسلمين ويعينونهم، فإنه مما لا شك فيه سأدفع ذلك بكل ما أملك. ومن الناحية الواقعية الآن فإنه ليس لليهودي أي أثر سلبي على الجماعة أو ضدها، وفي ذات الوقت فإن الجماعة قد لقيت من مباحث أمن الدولة ما يجعلها في نظر الجماعة العدو الأول الذي تجب مواجهته وليس اليهود أبدًا.

يبدو أن القضاة اللواءات قد فزعوا، فها هم يصممون على السؤال كأن هذا أعز عندهم من أنني أكفِّرهم جميعًا:

ـ تريد المحكمة إجابة واضحة بشأن حِل أو تحريم بقاء أفراد جماعتك بالقوات المسلحة لقتال اليهود؟

ضج شكري من التكرار، فأكد المكرر:

ـ من حيث قتال اليهود من الناحية الشرعية فهو فرض على الجماعة الإسلامية، وهو ما سنفعله إن شاء الله حين التمكين، قال رسول الله: «يقاتل المسلمون اليهود فيقتلونهم حتى يقول الشجر والحجر يا مسلم يا عبد الله، ورائي يهودي فتعال فاقتله»، كما ورد في صحيح مسلم. أما بخصوص بقاء بعض أفرادنا في الجيش الآن أحلال هو أم حرام، فهو عندنا حرام من الناحية الشرعية.

تابعهم بعينيه محدقًا فيهم، فإذا بهم لا يزالون لا يصدقون ما يسمعون، فيسألون ملحين:

ـ ألا تدعو للجيش المصري بالنصر إذا نشب القتال بينه وبين اليهود الآن؟

يجهل حرص هؤلاء القضاة ذوي القبعات الكاكية على نيل الجيش بركته، ولهفة هؤلاء على أن أدعو للجيش المصري بالنصر، هل تظنون أني صادق الدعوة إذن؟ هل تحتاجون دعائي الطاهر الطهور لله فيستجيب لكم بالنصر؟ يعني لو كنت مجرمًا قاتلًا كما تحاكمونني الآن، فما شأنكم أن أدعو للجيش أم أدعو عليه؟ حيَّرتني المحكمة معها، لكن لا بأس، فليبلغوا عني ولو آية يا سادة، خذوا إذن إجابتي واحفظوها عني:

ـ هذا يتوقف على نوعية معاملة الجيش المصري لنا، ومعاملة الحكومة لنا، فإن كانت لصالح الجماعة المسلمة رجونا لها النصر على حسب ما ذكرنا من قبل، على فرض وجود قتال حقًّا.

ـ وإذا أساءت الحكومة معاملتها، أتحب لجيشها الهزيمة، ولو أدت إلى دخول اليهود إلى حيث يوجد بيتك؟

ـ يقدَّر ذلك حسب الضرر الواقع على الجماعة المسلمة من كلا الطرفين.

طاردوه بالأسئلة كأنما يتمنون عليه التراجع والمراجعة:

ـ فإذا اتضح أن اليهود يرفضون السلام، وأصبح لا مناص من قتالهم، وهو وارد في الاحتمال ـ نقول افتراضًا ـ فما تفعلون؟ هل تفرون؟

ـ الأصل أن الحركة الإسلامية تُبنى في أول أمرها على قضية الفرار.

حدث شكري نفسه: نعم الفرار، فهل انتهينا بقى من هذه الأسئلة؟ أنا ضقت بكل هذا الشرح! الحمد لله، أحدهم يسأل سؤالًا جديدًا:

ـ وهل ترى أن المجتمع كله من حولك كافر؟ كل المجتمع؟

يا الله! ليس جديدًا بل مكرر، لكن أحسن من الجبهة التي كنا فيها، أجيب عليكم:

ـ من حيث الأسس التي يقوم عليها المجتمع كشيء معنوي وكحكم عام فإنني أجزم بكفره، أما من حيث كل فرد بعينه فإن الشريعة الإسلامية ونحن من ورائها لم تبح لنا أن نحكم على شيء لا بكفر ولا بإسلام حتى يُبلغ الإسلام الحق.

ـ وما الذي تقصده بقولك الإسلام الحق؟ هل هو ما تدعو إليه، أم أنه مفتوح ومتروك للاجتهاد وكل امرئ بحسب ما يهديه الله تعالى؟

ـ الإسلام الحق من وجهة نظري هو ما أدعو إليه بالذات.

حلوة هذه الأسئلة، ليست سيئة، سريعة ومختصرة وتنتهي إلى خلاصة.

خرج من همسه إلى صخبه حين سمع سؤالهم التالي:
ـ فإن دعوت إنسانًا بعينه إلى فكرك ومذهبك ولم يدخل فيما دخلت فيه، فهل تعطيه الحق في أن يستقل برأيه ليحاسبه الله على نيته واجتهاده، أم تحكم عليه بالكفر لهذا السبب وحده؟
أجاب رافعًا الصوت مع الرأس:
ـ بل أحكم عليه بالكفر لهذا السبب وحده، بل لا يوجد عندنا سبب للكفر غيره، وهو تكذيبه بآيات الله وسنة رسوله القاطعة، والتي سقناها له آية تلو آية ودليلًا بعد دليل.
ـ وما رأيك في المرحوم الشيخ الذهبي؟ أمسلم هو أم كافر؟
أخيرًا سألوك عن الذهبي! كانت عايدة شداد قد ظلت مشدوهة طوال الجلسة، تشعر بتعاسة تأكل قلبها، تترنح مشاعرها بين الغضب والحزن، تتأرجح بين النقمة والأسى. كانت عيناها محبوستين في سواد ثياب السيدات المنتقبات، تتفاجأ بأن صدمتها تزداد ضخامة وتشتد قوة، وأنها ضبطت نفسها لأول مرة مخنوقة باليأس. عاد سؤال المحكمة التي لم تصدق في حياتها أنها ستسمعه أبدًا ليصم أذنيها:
ـ وما رأيك في المرحوم الشيخ الذهبي؟ أمسلم هو أم كافر؟
صمت مطبق، وسكوت تام، وتنبه متوقد، ولهفة متقدة من وجوم وجوه القاعة. تبسم شكري: ماذا كان السؤال؟ آه، ما رأيك في الذهبي مسلم أم كافر؟ سأجيبك دون أن تبذل عناء أن تندهش أرجوك:
ـ هو عندي كافر.
ـ وما دليلك؟
ـ دليلي أنه يعمل في هيئة الأوقاف وكان وزيرًا لها ومديرًا للإشراف على مساجد الضرار، وقد أقسم اليمين على الحكم بغير ما أنزل الله في قسم الوزراء، وهذا لا يمكن أن يعتبر جهلًا منه بوجوب الحكم بما أنزل الله، ولبعد الدولة والمجتمع عن الإسلام.
ـ وهل هو مستحق للقتل بسبب ذلك؟
بمنتهى الثقة المترفعة أجاب:
ـ من الناحية النظرية نعم، ومن الناحية العملية الآن لا.
ـ وإن قتله واحد من جماعتك، فهل يستحق القودة (أي قتل النفس بالنفس) أم ماذا؟
بثقة أكثر ترفعًا وتأففًا أجاب، والخيلاء تتمخطر بين حروفه:
ـ لا يستحق القودة. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «ولا يقتل مؤمن بكافر».
كانت عايدة شداد قد خرجت من القاعة تعدو، وحين وجدت أخيرًا ذلك العمود فرعوني العمارة اختبأت خلفه وبكت. رجفة يدها، مع انسلال قوتها من ذراعيها، مع غشاوة الدموع على عينيها، مع هشاشة مقاومة رُكبتيها لتهاوي مطارق الحزن فوق رأسها، مع تقلصات تعصر معدتها. أسقطت حقيبتها الجلدية وهوت مفتوحة على الأرض، فتناثرت منها الأوراق تتطاير في الهواء، وتتساقط على الأرض، وتدوسها أقدام مسرعة، وتلتصق بالبلاط العاري، وتتبلل ببقع الماء الراكد، وتتلوث بوسخ الأرضيات. ركضت عايدة تحاول جمعها من بين الأحذية التي تدوس، والأجسام التي تصطدم. لمت حاجاتها وأوراقها ودفترها من الأرض، وأخرجت منديلها الأبيض الحريري المنقوش على حوافه ورد، ومسحت عدستي نظارتها من أثر سحب وبلل الدموع، وارتدتها وانتصبت تمشي.

(14)

الممر الطويل بسقفه العالي يستقبل ضوء النهار الذي يرمي نوره على بلاط الممر وجداريه، يأتي النور مبعثرًا ومتعثرًا من بين أغصان الشجرة العتيقة بجذوعها العريضة وأوراقها الخضراء الزاهية وزهورها الصغيرة الحمراء التي تملأ الشباك. في كل مرة تنفتح درفتا الشباك تتكسر ذوائب فروع الشجرة، وتتفتت زهورها، ويتخربش زجاج الشباك، فتصل أشعة الشمس على وجه عايدة منقوشة بظلال ورق الشجرة.

أصبح هذا الممر في الأسابيع الأخيرة عنوانًا لحياتها، تجلس عايدة شداد على كرسي معدني أبيض، موضوع قبالة باب الغرفة التي يرقد فيها الأستاذ رياض سليم في غيبوبة، تحاول أن توقظها الأسلاك المربوطة بيديه تقيس نبض القلب الضعفان، والقناع البلاستيكي الملصوق بخيطين من المطاط فوق ذقنه يضخ الأكسجين من أنفه إلى رئتيه تأبى عروقه أن تفسح له الطريق.

أخيرًا، وأخيرًا فعلًا، في البلاطة الأخيرة من الطريق إلى النهاية، عرفت حقيقة مشاعرها تجاه رياض سليم. أحبته طبعًا، أحبت شرفه وحنانه، وكرهت جبنه وضعفه. الغريبة أنها أحست نفسها نسخته النسائية الشابة. لم يلوث قلمه قَطُّ بأي نفاق أو كذب، لكنه لم يقل «لا» قَطُّ حين كان لا بد لـ«لا» أن تُكتب وتُخط وتُنشر. خاف على نفسه وبيته وزوجته وابنتيه. فلما تزوجت البنتان وهاجرتا من مصر، ولما ماتت زوجته، لم يستطع أن يعود من خوفه! في الأيام الأخيرة كانت قد توقفت ذاكرته عند عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين، ذكرياته عن جريدة «الجمهور المصري»، عن الغرفة رقم ثمانية التي كانت مخصصة في الجريدة لإعداد وتجنيد وتدريب وتسفير الشباب للمقاومة الشعبية ضد معسكرات الإنجليز في قناة السويس، مهمتها تدعيم الفدائيين بمواد التموين والأغطية والمال والسلاح. حكايات يعيدها ويكررها، كأنه يرويها لأول مرة، كأنه يعيش لحظتها، كأنه لم يعش غيرها.

تتأمل وجهه الشاحب، وعينيه المغمضتين، وتجاعيد الجلد وثنياته أكثر مما يتجعده جلد رجل في أواخر الخمسينيات من عمره. لو كانت شابة أيامها في جريدة «الجمهور المصري» لأحبته وتزوجته، ثم كانت بالتأكيد ستتطلق منه بعدها بعام أو عامين. ظل إنسانًا جميلًا ومثقفًا هائلًا، كنزه الوحيد رقته، ومكتبته المذهلة التي ظلت كنزه الوحيد الأخير (بعد أن أفقده المرض رقته فصار خشنًا صريحًا كمن أفلتت خمر لسان سكيرها). كان يحمل مصر على كتفيه، لا أنزلها فخفف عن نفسه، ولا أبقاها فخفف عنها. قال لعايدة في نوبة خفوت نبض منحته جرأة كلمات الوداع إنه قرر منذ دخلت عليه الجورنال أول مرة أن يهديها مكتبته حين يموت، يمنحها هذا الكنز، فلن تهتم بنتاه بالمكتبة، بل لن تعودا إلى مصر، ولم يكن يأتي على سيرتهما مؤخرًا إلا ويعلن لعنه أنهما لم تختارا للزواج إلا رجال العدوان الثلاثي على مصر، فقد تزوجت الابنة الكبيرة فرنسيًّا يهوديًّا، والأخرى تزوجت إنجليزيًّا، ويصف زواج ابنتيه بأنه العدوان الخماسي.

هل كان يحاول أن يعيد بحبه ورعايته لها ابنتيه له؟ تزوره كل يوم في المستشفى لتطمئن على حالته، وتقرأ له شيئًا من الشعر، لكنها لم تعد تفهم حقيقة عاطفته: هل حب الأب المتعطش للأبوة، أم حب الرجل العجوز المتشبث بالحياة، أم جوع الرجل المحبط للأمل، أم اشتهاء الجبان للشجاعة؟

أحيانًا يحضر معها والدها فيكفيها مشقة المتنبي ويتولى هو قراءته، فتكتشف أن هذا الشاعر هو أثير أستاذها ووالدها. ناكفت والدها في ليلة سابقة حول أن المتنبي أفاق ومنافق وأجَّر موهبته لمن يدفع أكثر، فثار والدها وكاد يفك أسلاك وأنابيب رياض عنه كي يشاركه في الدفاع عن المتنبي أمام سفالة الجيل الجديد الجاهل، ثم سرعان ما خلصا إلى نتيجة مريحة أنه كان أعظم شاعر وأردأ شخص، وضحكا حتى استغربت الممرضات صخبهما العابث. كانت إحداهن قد سألتها الأسبوع الماضي عن أن كل من يجالس مريض غيبوبة يقرأ له القرآن الكريم، بينما أنتِ تقرئين حاجات غريبة؟ فضحكت مبتئسة، وردت أنها تقرأ قرآنًا كثيرًا فعلًا للأستاذ رياض، لكنها تقرأ له أيضًا كتبًا يحبها، وربنا نفسه يحبها.

كانت منهكة ليلتها حتى غفت قليلًا على الكرسي أمام السرير. كانت قد انتهت محاكمة جماعة التكفير والهجرة، وحكموا على شكري مصطفى بالإعدام. لا تنساه، ولن تنساه أبدًا، وهو يجيب عن سؤال المحكمة في الجلسة الأخيرة:

ـ هل تحب أن تضيف شيئًا آخر إلى ما أبديته من رأي وفكر؟

تحرك في القفص كمن أحس جمرًا على بلاطه، ورفع عقيرته ولوَّح بيده:

ـ إنني لم أتكلم عن فكري كله!

ثم صعد بلهجته إلى التعالي والتعالم:

ـ ثم إن كلامي عن فكري ليس إلا مجرد كلام عن الفكر، وليس من باب الدفاع عن نفسي، حيث إنني ما زلت عند قولي بأني لم أمكَّن من الدفاع عن نفسي من قبل أو الآن.

أكد على حروفه متعجرف النبرة، ومتغالظ اللهجة، ومهدد اللكنة، ثم وقف ثابتًا، بينما داعبت أصابعه لحيته، وافترت شفتاه عن بسمة الواثق المتعفف:

ـ إنه لا يهمني أن يرد أحدٌ على ما قلت، حيث إني أجزم أنه لا رد، ولكن في حالة وجود رد أشترط على الذي يرد أن يكون الرد على عين ما قلت، وليس على غيره، وأطلب منه أدلة قاطعة، كما أطلب ـ وهو حقي ـ أن تتاح لي فرص التعقيب على ما قاله الآخرون.

ربما لاحظ أنه تواضع من حيث يقصد الغرور، فصاح خطيبًا:

ـ ولكنني أثبت اعتراضي على عدم تمكيني من بلاغ الإسلام في قاعة المحكمة!

شيء ما من الخضة رج القاعة. كان شكري مخلصًا تمامًا، صادقًا، صافيًا، مؤمنًا خالصًا، وهو يعلو بصوته كأنما في صحراء مكة ينادي كفار قريش ممن يلبسون بذلات عسكرية وزيًّا شرطيًّا وقمصانًا وبنطلونات ونظارات وكابات وكرافتات، كأنما كان قادمًا من زمن آخر فاجأ الجميع، لكن بعضهم ابتسم وأوشك على الضحك كأنه يشاهد مسلسلًا تلفزيونيًّا بدائي الإخراج والتمثيل عن تاريخ صدر الإسلام.

كان شكري يخاطبهم جميعًا، ولعل عايدة لمحت دمعة فيِ عينيه، فرأتها إيمانًا لا جنانًا:

ـ أنذركم جميعًا من اللهِ إنِ لمِ تعودوا إلى دين الله. « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ 30 مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ □ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ 31»، «فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ □ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى □للَّهِ □ إِنَّ □للَّهَ بَصِيرٌۢ بِ□لْعِبَادِ».

حين خرجت ساعتها فاحتمت بعمود من أعمدة ردهات المحكمة، وبللت نظارتها بالدموع، كانت خائفة مما قد يفعله هذا الإيمان الممرض، كانت نبضات قلبها تقلع شرايينه وهي ترجع للجورنال مفتقدة رياض، ثم إلى البيت باكية بين ذراعي والدها، وقد حكت له، فأخذ يروي لها عن

الخوارج، وعن أنهم كانوا الأكثر إيمانًا وإخلاصًا في التدين، والأشد عنفًا وتطرفًا، فأنهت بكاءها بعنادها:
- أنا خايفة يا بابا من الدواخل وليس من الخوارج! هيام لم تعد الزميلة الوحيدة التي تحجبت وتخمرت، ورجب انضم إلى الإخوان أو لعله كان إخوانيًّا أصلًا، وخمسة من زملاء الجامعة الذين كانوا أعضاء في الجماعة الإسلامية رأيتهم محامين في تلك المحاكمة، وآخرون صاروا زملائي في الجورنال، وأحدهم مذيع الآن في التلفزيون... ثم إن طارق عبد العليم الضابط الذي قتل الشيخ الذهبي كان من الدواخل وليس من الخوارج!
بعدها صدر الحكم في القضية، واستقبلته فاترة، فالإعدام لشكري مصطفى، وماهر بكري، وطارق عبد العليم، وأنور مأمون، ومصطفى غازي، والسجن لواحد وثلاثين متهمًا، والبراءة لثلاثة عشر، لكن أحكام الإعدام والسجن ليست حكمًا على الأفكار ولا نهاية لها.
كان الرئيس السادات قد زار إسرائيل، واهتاجت الصحافة والعالم كله بالزيارة والمبادرة، ونسيت الصحافة شكري مصطفى، ونسيت عايدة أيضًا، فقد جرى ما جرى للأستاذ رياض ودخل إلى غيبوبته.
* * *
فجأة رأتها قادمة! لم تعتد أن ترى هيام في المستشفى، بل وها هو رجب خلفها بلحيته التي طالت يتجهان نحوها في الممر. قامت فحضنت هيام المقبلة، ولم يصافحها رجب، فهو لم يعد يصافح النساء. جذب رجب مقعدًا لهيام وآخر له، وجلس بجوارهما، وقال:
- أنا قلت أول ما أخلص كتابة الخبر للجورنال أحضر مع هيام لكِ في المستشفى، حيث عرفنا من والدكِ أنكِ هنا.
استغربت عايدة كلامه، لكنها لم تستفسر، فقد تطوَّع بمسارعة التفسير:
- الصبح نفذوا حكم الإعدام على شكري مصطفى.
ثم بعد صمت تركه ليتيح لتوابع زلزال الخبر أن تشوف شغلها، أضاف:
- شنقوه.
ثم لما لم يجد عايدة، وهو الذي لاحظ انغماسها في المحاكمات حتى قمة رأسها غارقة أو عائمة، ترد وتنفعل، أكمل:
- وأعدموا طارق وماهر وأنور ومصطفى.
فلما وجد الجليد على وجهها التفت إلى هيام التي حفزته:
- قل لها إنك شُفت الإعدام بنفسك.
التفتت إلى عايدة:
- رجب كان معه تصريح، وحضر تنفيذ أحكام الإعدام. قل لها يا رجب، شكل شكري مصطفى ساعة ما كانوا يقودونه إلى المشنقة، وماذا فعل، وماذا قال.
لم ترد عايدة، فزادت هيام من ثرثرتها:
- يا بنتي! أين الصحفية التي قرفتينا بها؟ أين فضولكِ؟ لعلمك غدًا يقولون إن شكري انهار، وناس تصدق، أو إنه زعق فيهم وطاح في الضباط، وناس تصدق، أو إنه بال على روحه، وناس ستصدق، وآخرون سيؤمنون أنه تراجع عن فكره وأوصى أعضاء الجماعة أن يراجعوا

أنفسهم، وناس ستقول إن شكري صدمه حبل المشنقة، فقد كان يؤمن فعلًا أنه سيعيش ويرث الأرض ومن عليها وأن الله لن يخذله أبدًا.
ألصقت وجهها برجب:
ـ بجد يا رجب، ألن يتردد كل هذا الكلام في السنين المقبلة؟
لكن عايدة ردت:
ـ وافرضي إن كله صح أو كله خطأ، أو أن ما يريد أن يرويه لي رجب الآن هو ما رآه فعلًا، فهل رأى كل شيء؟ ربما ما يحكيه من وجهة نظره وليس من نظره، إحساسه بما حدث وليس ما حدث.
ضربت هيام كفها على فخذها:
ـ طيب والله العظيم لأنت حاكي لها يا رجب كل حاجة.
بينما أطاع رجب وحكى، كانت عايدة تبتسم وهي تتأمل هيام المتحمسة للسفر مع رجب بعد أسبوع إلى السعودية، حيث تعاقد رجب على رئاسة تحرير «المؤمنون»؛ جريدة إسلامية جديدة ستصدر من الرياض. كان رجب قد شن حملة في مجلة الإخوان ضد الصحف التي تجاهلت بيان شيخ الأزهر القاسي الذي يرد فيه على اتهام المحكمة لمؤسسة الأزهر بالتقصير في مواجهة الفكر المتطرف. وأدان رياض مؤامرة الشيوعيين وأذناب عبد الناصر الذين يحاولون هدم صرح الأزهر الذي يحارب الشيوعية وأعداء الإسلام (المحكمة هي التي هاجمت الأزهر وليس الشيوعيين)، ويكفي إمامه الأكبر أنه أصدر كتابه «فتاوى عن الشيوعية» فزلزل قلاع الكفر في العالم. وأيد رجب ملتهب العبارات اتهامات شيخ الأزهر لوسائل الإعلام التي تحتوي على صور عارية وإعلانات مثيرة عن دور اللهو وأفلام ومسرحيات مستهترة بالفضيلة ومقالات لا تلتزم بالجو الإسلامي. ووافق ما ذهب إليه شيخ الأزهر أن من وسائل الإعلام ما يدعو علنًا إلى مذاهب منحرفة في الفكر وفي السلوك. ولا تنسى عايدة عنوان رجب الساخن على غلاف مجلة الإخوان: «شيخ الأزهر يتهم الدولة بعدم التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية». بعدها لام المسؤولون في المؤسسة رجب مهنا، وضيقوا عليه قليلًا، ثم جاءه الإغراء السريع الحاسم من السعودية، فوافق متلهفًا بعد حماس هيام، وقد أتما زواجهما الذي لم يشهد عزفًا للموسيقى ولا راقصة تزفهما، رغم بكاء جدة هيام وهي تترجاها أن تفعل لتفرح بها قبل أن تموت.
كان رجب قد أنهى حكايته عن ساعة إعدام شكري، ثم تنهَّد ونظر إلى الممرضة التي خرجت من غرفة رياض، وسألها:
ـ لكن كيف تدهورت حالة الأستاذ رياض هكذا؟
* * *
كان ينتظر الموت فجاءه الغرق، صحا رياض من نعاسه المختطف على ارتطام زلزل العوامة، شعر حطامًا، وأحس غثيانًا، ثم إذا بكل شيء يتمايل ويترنح، ثم هو نفسه يزحف فوق سريره، العوامة تنحرف وتتساقط محتوياتها، تنزلق وتتبلل وتتزحلق، إنه الماء، موج النيل الهادئ يتوحش صاعدًا إلى سلالم العوامة، ساحبًا الأرائك والموائد في جوفه، يكسر النوافذ الزجاجية، يحطم الفونوغراف الذي يتفكك ثم يغطس، السجاجيد ترتفع فوق الماء كأنها تطير، والستائر تتبلل مغمورة ثم تنشد حبالها ثم تهوي ثم تبلعها المياه، تجنح العوامة، تتخبط، يسمع انفكاك الجنازير

كأنما أكلها الصدأ بغتة، ذبول الحبال وتفتتها وتمزقها، انفلاق الخشب، وانفصال الجسر المؤدي من رصيف الكورنيش إلى مدخل العوامة، طربقة وطقطقة خشب الشرفة وانقلاب حديد سورها في النيل، العوامة تغيب جوانبها تحت الماء، ثم تغطس في النيل الذي يسحبها بعيدًا عن الشاطئ.
عام صيادون، وجرى حراس العوامات المجاورة وغطسوا. صراخ يحث على المشاركة في إنقاذ الأستاذ رياض المريض المتخبط الآن بين موج يسحبه، ونيل يبلعه، ومرتبة يتشبث بها، وسرير يتعلق بعموده، وقطع الأثاث الغارقة تصدمه وتطفو فوقه وتضرب ذراعيه وتهد مقاومته. امتدت الأذرع في الماء، واندفعت الصدور تسبح تشق الموج الرتيب البارد، ومدوا الأيدي، وتكاتفت الأكتاف، ونشلوا الأستاذ رياض، نزعوه من مرتبته المبتلة الملتصقة به تجره للج النيل. رفعوه وسحبوه، وأوصلوه للبر ناجيًا بأنفاس متقطعة، ووجه مزرق، وسعال متواصل، وجسد متيبس، وأطراف مرتعشة. حين فتح عينيه الكليلتين المبتلتين المحمرتين على مكتبته انهار في غيبوبته. كانت المكتبة أول ما غرق، تكسرت الأرفف، وانهارت أعمدتها، وتفكك خشبها، وسقطت كتبها، آلاف الكتب تعوم الآن على وجه ماء النيل، مبعثرة ممزقة مقطعة، منزوعة الأغلفة، متناثرة الصفحات، عائمة غارقة غاطسة، تفرش النيل بأحبارها وألوانها وأحجامها المختلفة ومجلداتها وملفاتها، وألبومات الصور تنثال وتتفرق، وصفحات المجلات تتخلع، وأسطوانات الفونوغراف تتكسر متناثرة قطعًا، وشرائط الأفلام الثمانية مللي تتفكك البكرات وتتبلل اللفائف، كتب تصغر حين تبعد، وتختفي حين تغرق، وتتمحي حين تطفو، وسطور تذوي حين تتبلل، وصفحات تتمزق حين يضربها الماء، كأنما أسماك نافقة فوق أوراق ورد نيل طافية!
كان هذا آخر ما رأته عايدة حين وصلت إلى العوامة الغارقة. سبتمبر ٢٠٢١
ما بعد الرواية
• أعدمت الحكومة السعودية في ٩ يناير عام ١٩٨٠، ثلاثة وستين من الذين اقتحموا الكعبة واحتلوا الحرم المكي لمدة أسبوعين ضمن جماعة جهيمان العتيبي. كان من بين المعدومين عشرة شبان مصريين من أعضاء جماعة شكري مصطفى الذي كان قد أُعدم في مصر قبلها بأقل من عامين.
• الذين حصلوا على البراءة، والذين خرجوا بعد تنفيذ العقوبة في قضية مقتل الشيخ الذهبي، انضموا إلى حركات وجماعات الإخوان والجهاد والدعوة السلفية في أنحاء مصر.
• صفوت الزيني سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ويعمل فيها الآن إمامًا لأحد المساجد.
• إبراهيم، ابن شكري مصطفى، يعيش بعيدًا عن أي نشاط ديني في أسيوط.
• طلال الأنصاري خرج من السجن بعد عشرين عامًا، وتُوفِّي في عام ٢٠١٢.
• عمر التلمساني ظل مرشد الإخوان حتى وفاته في عام ١٩٨٦، وشارك في جنازته رئيس الوزراء علي لطفي، ورئيس مجلس الشعب رفعت المحجوب، وشيخ الأزهر جاد الحق علي جاد الحق، والشيخ الشعراوي، وعدد من الوزراء والمسؤولين في الدولة!
• غادر ممدوح سالم رئاسة الحكومة في عام ١٩٧٨، وابتعد عن أي نشاط رسمي بعدها، حتى تُوفِّي في لندن في عام ١٩٨٨.
• تولى النبوي إسماعيل وزارة الداخلية عقب مظاهرات يناير ١٩٧٧، وقد شهدت وزارته اغتيال الرئيس السادات وحوادث أسيوط الدامية صبيحة عيد الأضحى عام ١٩٨١. تولى وزارة

الحكم المحلي عقب إقالته من وزارة الداخلية، ثم غادر مقاعد الحكومة في عام ١٩٨٢. ظل مصممًا حتى وفاته في عام ٢٠٠٩ على أنه أدى واجبه في محاولة إنقاذ حياة الشيخ الذهبي.

• تولى حسن أبو باشا وزارة الداخلية عقب النبوي إسماعيل، وعقد ندوات وحوارات في السجون بين أعضاء الجماعات الإسلامية وشيوخ ودعاة من الأزهر. غادر وزارة الداخلية إلى وزارة الحكم المحلي، ثم إلى الخروج من الحكومة في عام ١٩٨٤. وتعرَّض بعدها بثلاث سنوات لمحاولة اغتيال من جماعة إرهابية، نجا منها بعد إصابته بجروح خطيرة. تُوفِّي في عام ٢٠٠٥.

• ظل العقيد عادل مجاهد مسؤولًا عن النشاط الديني في جهاز أمن الدولة، حتى تعرَّض لاعتداء من سجين إرهابي في عام ١٩٧٩ خلال زيارته لسجن بالإسكندرية، طعنه السجين عادل فارس بقلم جاف في عينه، فقد على إثرها العقيد عادل إحدى عينيه وتقاعد عن العمل، بينما سافر الإرهابي فارس إلى أفغانستان بعد الإفراج عنه، وكان أول قتيل مصري في عمليات الجهاد المزعومة ضد الحكومة الأفغانية.

• محمد عثمان إسماعيل ظل محافظًا لأسيوط حتى عام ١٩٨٢، وظل فخورًا حتى يومه الأخير بأنه من أسس الجماعات الإسلامية في الجامعات المصرية بناءً على تعليمات الرئيس السادات.

• عايدة شداد ظلت تعمل في الصحافة حتى أُحيلت إلى المعاش. كانت قد تزوجت من مصور صحفي زميل لها، وترعى الآن حفيدها الوحيد.